رواية

وجدان

فتحية القلا

للتواصل مع بلاتينيوم بوك

@platinumbook

(+965) 555 83 551

platinum book

platinumbook

info@platinum-book.com

www.platinum-book.com

platinum book fans page

platinum-book

www.platinum-book.com

PLATINUM book
Advertising, Publishing & Distribution
www.platinum-book.com

إشراف عام:

أحمد الحيدر

تصميم الغلاف:

بتول يعقوب

إخراج وتنفيذ:

علي حسن

التدقيق اللغوي:

وائل صلاح الدين

تأليف:

فتحية القلا

خدمة التوصيل ـ بلاتينيوم بوك

٥٥٥٨٣٥٥١ (٩٦٥+)

جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون أخذ موافقة خطية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي بلاتينيوم بوك للنشر والتوزيع.

اسم جميل. حمله قلبي مرة تاه بالحياة. كيف لي أن أحمله وأمشي به في دنيا بلا وجدان. هذا ليس عذراً لكنه حقيقة. طفولة مؤلمة. وأم وأب وبيت وأرض سلبوا مني تحت سمع العالم وبصره. فهمت سيدتي لماذا عذبني اسمك. لماذا أهرب منه. لماذا لا أشبهك. ولماذا لن أشبهك.

الشيخ يحيى الكبير

الشاب يحيى

ذلك اليوم، الدنيا مبتسمة بعد عبوس، كريمة بعد شح. وجمهور من الطلبة والأساتذة وبعض الصحافة يصفقون فرحة وإعجاباً لمسرحيتي التي هي مشروعي لنيل درجة الماجستير. كنت مثل الحضور فرحاً وأصفق لكن لشيء آخر. وفيت الشروط التي وضعتها دنيا لتخبرني بسر احتفظت به سنوات عمري. ليست أمي لكنها كل أهلي. للأسف ماتت في ذلك اليوم بالذات.

تركت الحفل قبل تلقي التهاني وانطلقت إلى البيت، هناك ينتظرني خبر أهم. وصلت لحارتنا وناسها الذين يعيشون البساطة والفرح كل يوم ومنذ وعيت بينهم. سواد غريب، وحزن كبير. يكبر مع كل خطوة أخطوها ومع كل نظرة تساؤل تفر من عيني.

اندفع الرجال والنساء يحتضنونني ويواسونني. موجوعين من مصاب لم أدرِ بعد ما هو. همسات مبهمة، ماتت دنيا يا يحيى، ماتت، لا تخف كلنا معَك. استوعبت، سكنني الحزن واليأس والخوف.

قضيت أيام المأتم ولياليه في بيت المختار. كما وعدوا بقوا بالجوار لكنني أصررت على العودة لبيتي. أريد أن أتفهم ما جرى وما يترتب عليّ فعله. كان ينتظرني غارقاً في الحزن، ورائحتها. وذكرى انتظارها عودتي واستقبالها. طعام طهته بحب وهي تموت.

وقفت بزاوية غرفتنا. أول مرة أراها كم هي صغيرة. أغمض عيني وأسرح وراء طيفها تتنقل بفراغ أسود فاغر فاه سيبتلع بقاياي وأضيع.

لم أتذكر كيف كانت تبدأ ليلتنا وكيف تنتهي. غالباً أكون مشغولاً بالدراسة أو بمشاكستها. تحركت ببطء وجلست بحرص وكلي رجاء أن أسمع همسها وأحس بلمساتها الحنونة على شعري وأرى ابتسامتها الشغوفة لوجودي.

عبارات قيلت لمواساتي، تدور في أذني، لم تهون الأمر بقدر ما زادت من وجعي. يحيى، الحياة لن تتوقف. تجلد الحيّ أبقى من الميت. لكنه حدث جلل ويتعاظم. انتظر المزيد، انطفاء شعلة حياتي.

لست مريضاً لكنني ألازم فراشي. هامداً لست الرجل الذي كنته. غير مبالٍ بشيء أو منتظر شيئاً. قل عدد الأصحاب يوماً بعد يوم. صديقي ناصرً ظل يزورني. يتابعني برسائل المحمول والفيسبوك. كان يلحِ للخروج من البيت ثم صار يسألني وكأنه يغريني. متى نحدد موعداً للقاء الدكتور مؤنس. أهزّ رأسي بحزن– لكنها دنيا يا ناصر.

تتداول الأيام يوماً بعد يوم. والحزن حزن. أنام وأصحو. أبكي وكأنني لن أتوقف عن البكاء. أهمد كأنني فقدت الحس. صديقي المقرب ناصر، يفتعل الغضب ويؤكد مهما حزنت واعتكفت لا بد أن أعود للحياة ولما يشغلني. في زيارته الأخيرة فتح مدونتنا التي أنشأناها منذ فترة وجيزة. أشار للردود الكثيرة التي وردت إلينا.. قال:

قد لا تصدق يا يحيى أن كثيرين أيدوا حماستنا بدعوة العالم لنبذ الصراعات والخلافات. والتوجه بكل إمكاناتنا ووعينا لنشر سلام حقيقي يعم العالم.

ألقيت نظرة حيث أشار فقرأ–

يا لسخرية القدر. أحدهم كتب– أيدعو للسماحة من ملأ العالم إرهاباً وتقتيلاً وذبحاً. لم يتحرك فيّ نبض حمية للرد والشرح؟ هيا اقبل التحدي وافضح من وراء كل هذا. هيا يحيى أرجوك.

تطلعت إليه بغرابة وكأنه يتكلم لغة لا أفهمها. ما قاله كاف لإشعال حريق غابة بكاملها. لكن لماذا يقوله لي؟!.. غصت بفراشي وقد ازددت حزناً وانطواءً وعزلة. سمعت صفق الباب بعنف فهربت للنوم.

تجرني أحلامي الحزينة إلى عوالم لا أعرفها.. أناس جدد.. بيت أغرب من الخيال، واسع وجديد. بيتي، لكنه ليس ببيتي. نوافذ كثيرة وكبيرة بعرض الحائط أحياناً. باب زجاجي يفضي إلى حدائق وشرفات مزدانة بخضرة نضرة.

أصحو فأجدني في بيتي القديم ذي الغرفة الواحدة والباب الواحد والنافذة الوحيدة. أتنفس بعمق، الحمد لله. إنه حلم. فأنا في بيتنا وطيف دنيا وهمسها كل عام وأنت بخير حبيبي اليوم عيد مولدك. أرد بحزن برحيلك صار مجرد يوم. لم يعد كما كان، سباقاً مع الأيام، لأقترب من السر. غبت، فغاب كل شيء. لا أهمية لشيء. وأغرق بالنوم. والأيام تتشابه والليالي تتكرر وكذلك أحلامي.

استيقظت من نوم عميق، لم أحظ بمثله منذ موت دنيا فزعاً على طرق شديد على الباب. قفزت من الفراش وأنا أتساءل إن كان هذا حلماً، أم علماً؟.. استمر الطرق، بل ازداد عنفاً ونفاد صبر، مع محاولة لفتح الباب عنوة. حال وصولي كان الباب قد انخلع من مكانه، وأطاح بي أرضاً. رأيت يداً ممدودة للمساعدة، مرفقة بابتسامة آسرة، تفيض رقة وعذوبة، ووجهاً جميلاً وغريباً لفتاة شابة في مثل عمري. محاطة بثلاثة رجال أشداء متأهبين ينتظرون أوامرها. تفحصتها منقمة رأسها حتى قدميها. وسمعت دنيا تقول ستصادف في حياتك الكثير من ناس يعيشون الحياة للحياة. قالت:

عليك الذهاب معي فجدّك على فراش المرض يريد أن يراك.

- جدّي أنا؟

نعم جدّك أنت. ليس له سواك.

تلفت وكلي حيرة. قلت:

لا أعرف إن كان عليّ البكاء أم الضحك من هذه الأحجية؟ اخترتني أنا من بين من حولك لأكون الأقرب لهذا الرجل الذي يموت، وتأمرينني بأن أذهب معك لأراه. هذا على فرض أن هناك من يموت، وهناك جدّ وهناك حفيد. بالمناسبة لم أعرف لي أماً أو أباً ليخبراني بقصة هذا الجدّ. يحتاجني وهو يموت. أتمزحين؟!

طافت عيناها بالمكان بقرف. التقت عيناها الدهشة بعيني.. كيف لم أزل في مكاني واقفاً بدل الركض فرحاً بتلك الهبة. قالت بهدوء-

قم وجهّز نفسك للذهاب فلا وقت لتضيّعه وعليك أن..

قاطعتها بجفاء-

كفّي عن هذا الهراء الذي لا فائدة منه. سأذهب إلى عملي. ليقم أحد هؤلاء الرجال بإصلاح الباب قبل ذهابك، فأنا لا أملك المال ولا الوقت لإصلاحه.

استدرت وخطوت بضع خطوات متناسياً وجودها. ووقفت أمام المغسلة القابعة في أحد أركان الغرفة الوحيدة التي أسميّها بيتاً. نظرت لوجهي في المرآة القديمة كان ثمة جروح طفيفة في جبيني وأنفي نزفت دماً خفيفاً من اصطدام الباب بوجهي. صاحت-

أسرع.. لا وقت للعبث. إنه جدّك لأبيك كما هو جدّي لأمي.

لا أعلم أن لي جداً. أنا وحيد عشت طفولتي مع..

قاطعتني بسرعة-

مع مربيتك المرحومة دنيا. هي من أخبرت جدك بوجودك.

- هذا الرجل الذي يموت لا أعرفه. ظهر بعد سنوات من حياتي.

أربعة وعشرون عاماً. اليوم هو يوم مولدك.

التفتت نحو الرجال، وهزت رأسها، انقضّوا عليّ، وحملوني بعد أن كمّموا فمي، وخرجوا بي من بيتي وألقوني في السيارة الفخمة الواسعة الواقفة أمام الباب. بعض جيراني واقفون بصمت حزين لم يتدخل أحد

ليسأل لماذا أحمل بهذه الطريقة، وإلى أين يأخذونني؟

انطلقت بنا السيارة تهدهدنا بفخامتها كأننا في رحلة، هدأت نفسي بينما تحرّك فضولي. التفتّ إليها كانت هادئةً. تلاشت فجأة لهفتها التي كانت عليها، تناست طريقة اختطافي ووعدها بالردّ على أسئلتي.

فجأة وقفت السيارة بنهاية شارع واسع ورئيسي أمام بيت كبير. بيت كنا، ونحن أطفال، نلهو بلعب الكرة بساحته الأمامية. كنا مأخوذين بضخامة الأشجارِ وكثافتها. والتفاف أغصانها بعضها حول بعض، تشكل سوراً منيعاً أمام من تخول له نفسه التلصص وإشباع الفضول عن سكان القصر.

حيرتي تزداد كلما مرّ الوقت. أسئلة تجتاحني كسيل جارف. لماذا لم يحاول التعرف إليّ، أو الاطمئنان عليّ أو رعايتي ولو من بعيد؟ هل كان يراقبني؟ هل يعرفني؟ هل كنت أعيش تحت رعايته؟ هل هذا هو السر الذي رفضت دنيا طوال حياتها البوح بِه إلا حين أتخرج؟ ربما آن الأوان لأعرف الأجوبة. لكن المكان ليس غريباً فقد رأيته من قبل. تذكرت الحلم. رفعت يدي إلى وجهي، عركت عيني مرة وأخرى.

أنا فعلاً أقف في بهو البيت الواسع دهشاً منبهراً. سقف مرتفع وجدران زجاجية شفافة ولامعة. أرضه رخامية بيضاء باردة، أشعرتني بقشعريرة برد القبور التي أحسستها يوم دفن دنيا. نظرت من النافذة. لم أرَ من خلالها سوى طرق فرعية كثيرة موزّعة حول السور. أولها السور وآخرها السور. ما هذا؟ بيت، قصر، أم معتقل؟

غرف عديدة تحيط بالقاعة التي أقف فيها. طوابق ثلاثةٌ تلتف بشكل دائري. إنها أكبر بكثير مما قد يخطر على خيال. لم ألحظ السجاجيد الفخمة المفروشة على الأرض، إلا عندما حاولت أن أخطو نحو النافذة فتعثرت. وجدران تتزين بثروة فنية. لوحات متقنة وقيّمة. وحده الفنان يرى تناسق ألوانها وجودتها الفاخرة.

جاءت خادمة بملابسها الزاهية بمنتهى النظافة والترتيب. تحمل صينية من الفضة تلمع كصفحة ماء نقي تحت شمس ساطعة. وقدمت

لي فنجان قهوة كبير، أزرق اللون من الخزف الصيني، يزينّه خط ذهبي رفيع.

بين رشفة وأخرى أغمض عينيّ وأفتحهما على اتساعهما لأتأكد أن ما أراه حقيقي. نظرت إلى ساعتي بتأفف. التاسعة صباحاً، مازال الوقت مبكراً لأكلم ناصر وأتفق معه على لقاء. إذا لم يظهر أحد بعد احتسائي قهوتي فسوف أغادر.. هدر صوت-

تعال يا ولد..

اهتزّ بدني، خيّل إليّ أن الكنبة تحتي اهتزتّ أيضاً. بل جدران المنزل الزجاجية استدارت لصدى الصوت المخيف. سمعت رنين فنجان القهوة وهو يسقط من يديّ المرتجفتين على الأرض النظيفة، ويتحطّم إلى شظايا. انتشر السائل البني برسوم غريبة على الأرض. حدقت بها مندهشاً. بدت طرقاً ملتوية وأفاعي ملتفّة على نفسها، ووجوه حيوانات على أجساد بشرية، ووجوهاً مشوّهة تلتصق على صخرة مدببة. همست لنفسي- خيراً إن شاء الله.

أطلت امرأة عجوز من عل، أشارت إليّ بالصعود. قادتني عبر دهليز طويل حتى أدخلتني إلى غرفة نصف معتمة في وسطها سرير عظيم، يستلقي عليه شيخ كبير.

الشيخ يحيى القادر

استغرق فكري في الصوت الذي سمعته قبل قليل- كيف خرج من هذا الكائن الضعيف؟!.. جاءني الصوت ذاته آمراً بالتقدم أكثر. قال:

ها نحن وجهاً لوجه.

همست لنفسي مستغرباً-

نحن.. من نحن؟

اقتربت أكثر، فأكثر. هو مستمر في الإشارة إليّ بالتقدم. صرت أقف فوق رأسه الملقاة فوق وسائد عدة. نظر إليّ طويلاً بصمت، دون إرادة مني خفضت بصري ناظراً لحذائي. قال:

ارفع رأسك، وانظر إليّ..

رفعت عينيّ بتؤدة فالتقتا بنظرات عينيه الصارمة. رأيت عينين غائصتين في تناقضات عجيبة. بقدر ما تشعان جبروتاً وقسوة، كان فيهما حب مغلول. وتعالٍ ممقوت، ولمحة خضوع أليم ربما للموت الحائم حوله.

شعره رمادي كالفضة الصافية، كثيف ومرتب بعناية تزيده مهابة. عاقداً حاجبيه الأشعثين اختلط بياضهما بسوادهما، ويوحيان بقسوة غريبة. أنف كبير نوعاً ما معقوف كمنقار صقر. وذقن حليق بلا شوارب. عيناه في عيني لا تستقران كأنه يبحث عمّا أضاع منه. ودائرتان رفيعتان زرقاوان حول بؤبؤ العينين، فتغرق العين في أسى وألم لم يقدر رغد العيش أن ينتشله منها.

– هل تعرف لماذا استدعيتك؟

عدت من وراء الأكمة التي وصلت إليها هززت رأسي بالنفي.

– أريد أن أعرفك على الحياة التي يجب أن يعيشها يحيى القادر. أريدك أن تتعلم كيف تكون على مستوى المسؤولية التي ستلقى على عاتقك، الحرص على العائلة. لم شملها حيث فشلت أنا. الأموال، وكيفية تنميتها. ملايين تدر ملايين، وكذلك الأملاك والعقارات و....

– لا أعرف، ولا أريد أن أعرف. من فضلك قل ما عندك فموعدي....

لم يهتم بما قلت.. تابع:

– هذا واجبك. قيل لي إنك حصلت على شهادات عالية عرّفه لي.

دون تردد، دون تفكير كثير:

– كل واجب يقابله حق. التزام كل فرد بأن يعطي كما يأخذ تجاه أطراف تربطهم مودة أو قرابة أو عمل. يقومون بدورهم بالالتزام ذاته.

– يجب أن تعدني بتحمّل الالتزامات ولو لم يلتزم بها كل الأطراف من بعدي.. أريدك ربّ أسرة كبيرة، نخبة من الناس، تملك الكثير، امبراطورية بناها رجل بشقاء عمره. يحسب لها ألف حساب في سوق

الأعمال والاقتصاد. هو جدك أنت.. هل تعدني؟

– أعدك؟! أنا لا أعرفك. تخبرني بأشياء لا تعنيني. من أنت؟!

– أنا جدك لأبيك.. أنت تحمل اسمي.. يحيى يوسف يحيى القادر.

– لا.. اسمي يحيى يوسف فقط. شيء غريب ما أسمعه منك. تركتني أعيش سنوات عمري وحيداً وبعيداً وبيني وبينك هذه المسافة القريبة، وأسكن بيتاً جزء من أملاكك. أمعقول هذا؟! لماذا الآن؟!

– لقد عصاني أبوك، فطردته.

– وما ذنبي!

– لم أكن أعرف بوجودك. الجاحد لم يخبرني بأنه أنجب.

– وكيف تعرف بأنني لن أعصيك أنا الآخر؟!

– لست مجبراً على شيء. فقط أردت أن أمنحك بركتي، والمستوى الاجتماعي الذي يليق باسمك.

– تعني باسمك أنت.. فأنا لست بحاجة إلى ذلك. عشت حياتي دون كل هذا، ومع ذلك فلي مكانتي الاجتماعية.

– ليس صحيحاً ما تقول.. كل من يتعاملون معك، يعرفون من أنت، ومن هو جدك، وما مكانته الاجتماعية.

– أليس غريباً أن يعرفني الناس وأنا لا أعرف نفسي، وأنت أقربهم ولا تعرفني؟ لا أريد شيئاً.. أريد العودة إلى عملي وبيتي.

– لك ما تريد.. لكن ليس قبل موتي ودفني بطريقة تليق بي، وبأن تأخذ العزاء كحفيدي الوحيد. أتعرف؟ ما كنت لأقربك مني، وأغفر لأبيك لو لم يطلق عليك اسمي.

– يبدو أنني عشت عمري أدفع ثمن أخطاء غيري. والآن تريد مني تسديد حساباته أيضاً. أهذا عدل؟!

– حين نقدر على الغفران ونتواصل ونتحابّ نكون وصلنا إلى قمة العدل. لقد عفوت عن أبيك حين علمت بوجودك. وبدورك ستغفر.

داهمته نوبة سعال كادت تقتلعه من السرير، وتنتزع روحه من جسده. شعرت بصدره يتمزّق. قاوم وتجلد بعنفوان غريب. صارع، وأبى المساعدة. فتح الباب بعنف واندفع نحوه فريق من طبيب وممرضين، كأنهم يقيمون بالقرب من غرفته. نظر الطبيب نحوي بغضب، وأمرني بالإنكليزية بالمغادرة فإن وجودي خطر عليه.

يا الله، ما أجمل من أن أعتق من مهمة قلبت كياني، وجعلتني أغرق في حيرة لا مزيد عليها. انصعّت للأمر دون أي مناقشة. فتح العجوزعينيه وقال بغلظة وسط سعاله المتقطع:

– ارجعِ يا يحيى. كيف تنّصاع بهذه السرعة لأمر صدر من رجل، لا يعني شيئاً. غير عابئ بوجودي؟ لم ننته بعد.

تحول بوجهه ناحية الطبيب وقال بلهجة إنكليزية ركيكة بتعالٍ:

– وأنت.. كيف تجرؤ وتخاطب حفيدي بهذه اللهجة الآمرة؟ هذا أنا. اعتذر له فوراً، بل وارجه أن يبقى.. هيّا نفذ ما أمرتك به. ثم اتركنا.

– لكن، يا سيدي صحتك لا تحتمل الانفعال.

تبسم الشيخ لأول مرة مذ رأيته وقال:

– ماذا؟ هل تريد أن تبعد الموت عني بضع ساعات أو حتى بضعة أيام؟ اقترب يا يحيى. فما أريد أن أقوله لك أهم بكثير من تلك الساعات أو الأيام.

حين هدأت الأمور وانفرد بي قال بحب كبير:

– اقترب واجلس هنا على حافة سريري. نظر نحوي وسأل ما هذا الحزن على وجهك ولحيتك مهملة. أيستحق موت مربية غريبة هذا؟

أجبت بغضب:

– ليست غريبة ولا هي مربية. هي بعض مني. اسمها دنيا إذا كنت لا تعرف. كانت دنيتي ومحارتي وبيتي وأمي ومعلمتي.

– لكنها لم تحدثك عني.

– بل فعلت.. كانت تعدني بحل كل ألغاز حياتي بعد تخرجي.

– استكنت وانتظرت. ألم يتحرك عندك فضول لتعرف من أنت؟

– أخبرتني أن مشيئة أبي ألا تخبرني إلا بعد انتهاء دراستي الجامعية. فاحترمت مشيئته.

– الم أقل لك أن أباك كان جاحداً؟

– لعلك أدرى الناس بسبب هذا الجحود. أتصدق لو قلت لك إن دنيا التي تراها لا تستحق حزني تختلف عن كل النساء. من خيرة النساء. لم أعرف أماً غيرها لكنها لم تسمح لي بمناداتها أمي. حكت لي عن عائلتي وعن مأساة اغتصاب أراضينا وتهديم بيوتنا.

– كان عليها أن تأتي بك إلى هنا بدل أن تعيش معها بفقر.

– حقيقة أنا لا أعرف لماذا لم تأتِ بي إليك، إذا كانت تعرف أنك جدي. أكيد لها أسبابها.

– إلى هذا الحد تعني لك؟ وأنا ألا أعني لك شيئاً؟

– أنا لا أعرفك. وإلى الآن لا أعرف ماذا تريد مني؟

– أريدك حفيدي.

– حفيدك هكذا بين عشية وضحاها. بلا خيار؟ أقبل أو أرفض.

– أكيد لك كل خيار لكن ليس قبل أن تسمع قصة رويتها لأبيك.

تململت في مكاني وقلت:

– آسف أنا مرتبط بمواعيد كثيرة اليوم.

– لن تذهب إلى أي مكان قبل أن آذن لك. أستمع إلى القصة:

قيل إن ذئباً جاء ليشرب من النهر، لفت نظره حمل صغير يشرب من النهر نفسه، فراودته نفسه على افتراسه. زعق فيه قائلاً: توقف عن الشرب يا هذا فإنك تعكّر عليّ الماء. رد الحمل الصغير ببراءة لكنني يا سيدي أشرب من الماء الوارد من عندك فكيف أعكره؟ قال الذئب: لكنك في السنة الفائتة لعنتني بأقذع السباب. أجاب الحمل بالبراءة ذاتها، لكنني في السنة الفائتة لم أكن قد ولدت بعد. قال: إذاً أخوك، قال لا أخ لي، قال إذاً أهلك وكلابهم وجيرانهم وأنا صبرت وتحملت. كان في أثناء

الحديث يقترب منه رويداً رويدا والحمل البريء واجم ومندهش، خائف ويرتعش، حتى انقضّ عليه وساقه إلى الغابة ثم افترسه. هذه القصة تلخص الحياة. في أي مكان من هذين المكانين الذي لا ثالث لهما تريد أن تكون؟

– أكره أن أكون وحشاً مفترساً، وأكره أكثر أن أكون ضحية.

– أؤكد لك أن لا مكان في هذه الدنيا إلاّ آكل أو مأكول. الفرق بين الجريمة والعدالة ليس بأكبر من ذلك. الإنسان يصيد حيواناً ويذبحه ويأكله وهذا مشروع. أما إذا انقضّ حيوان وأكل إنسان فهو متوحش.

– الأمر مختلف بين إنسان وإنسان، وبين إنسان وحيوان، هناك طرق عدة لتكون في الجانب الأفضل.

– قصدك في الجانب الأسلم!

– ولمَ لا؟

– هل ما يحصل في العالم في هذه الأيام بعيد عن هذه المعادلة؟ في فترة شبابي، وبعدما عشته من مآس. اعتقدت أن التحدي الرد الأجّمل من التنازل. لم أهتم أبداً بالسياسة، لكّنني أعرف تماماً كيف تفكّر الذئاب وكيف تفكر الحملان. إمبراطورية ذئاب تموت، وأخرى تنبت بشكل شيطاني وتحتل الآفاق. والرعايا الحملان، تخنع تتواضع، تتفتت، وتمتثل.

– هذا اختزال لحركة الحياة كما أفهمها. تنفعل لمن يعمل.. يجتهد فيحصد. لا أنكر أن البعض يتسلق على أكتاف الغير. لكن الأكثرية تعمل ولا تنال حقها. أنت تفكر فيهم بقسوة أما أنا فأشفق عليهم، ربما لم تتح لهم توعية أو تعلم بشكل أو بآخر. مشغولون بصراع لقمة العيش. ليس لهم علاقة بهذا الصراع المجنون. بل لعلهم لا يدركون أنه موجود. ربما يجهلون الطرق الأسهل للحصول على الأكثر.

– غير صحيح. الضعيف خاوٍ، لا يملك إلا الخضوع.

– ماذا سيكون مصير البشريّة إن سادت شريعة الغاب؟

– أعلمك ما لم تعلمه يا فتى، لقد سادت وانتهى الأمر.

هز رأسه آسفاً، ثم أغمض عينيه وهو يقول: هذا الحمل من ذاك الخروف وتلك النعجة. فترة طويلة مرّت على صمتنا.. هو بملكوته.. أنا قلق أفكر بمعادلة أخرى تخصني. هل من المعقول أنه يحلم بإعادة صياغتي لأصير على شاكلته، أتولى معركة الصراع بعده. سأخبره أنني غير مبال أو غير كفء لما يريده مني وننتهي. لم أدعه يسخر أو يتلاعب بي! فأنا من يعتبر نفسه، رغم وحدته، رجلاً كاملاً مفكّراً، عارفاً ومثقفاً. وهو شخص غريب عني، قريب لي، ببضع ساعات وكلمات ينسف عمري وأحلامي وآمالي وغدي.

صحيح، أن حياتي ممتلئة بالحرمان بالنسبة لهذه الحياة التي تعرض علي. لكنها بالمقابل ليست على قدر من الأهمية كالعمل الذي أحبه وأمارسه في حياتي. أهو ابتلاء كما قالت لي دنيا، أم حق أعيد إلى نصابه.

هو يريدني أن أكون بديلاً عنه. ماذا في ذلك؟ أليست هذه مهنتي؟ لماذا أحكم عليه بأنه إنسان رديء قبل أن أسمعه؟ يجب أن أسمعه. هل هناك وقت لأسمعه؟ قد يموت قبل أن أعرفه، قد يغيب عن دنياي فجأة ونهائياً، كما فعلت دنيا. لن أعيش في حيرتي بقية حياتي.. سأعرف.. يجب أن أبقى لأعرف.

ما أدراني ما الذي سيحصل بعد معرفتي أجوبة لأسئلتي التي لم ترد عليهم دنيا. هل سأبقى كما أنا أم سأتغير كلياً لأكونه. أنا لا أنتمي لمدرسة هذا الإنسان القريب الغريب بأساليبها المدروسة. الأشخاص عنده قوالب مصنفة. أجساد تتحرك، وحواس يقظة أبداً. ينفّذون أوامره بآلية مطلقة. يتلامسون، ويتهامسون، تغرق عيونهم بعضهم بعيون بعض بلا اهتمام بلا ود أو كراهية. مبدأ هذا السيد مطرقة وسندان. فإذا كنت مطرقة فاضرب وإذا كنت سنداناً فتحمل.

هذا الشيخ طريقة حياته خاصة به. بالأرقام ومع الأرقام. يعتقد بأنه بما يملك قادرٌ على الإمساك بزمام أمور الدنيا بأسرها بقبضته.

الحياة بالنسبة له خطوط هندسية، أرقام وتواريخ. قد أجد فرصة لإخباره بأن حياته سقيمة، مملوءة بالقلق وبالمخاوف؟ ربما هذا سبب هروب أبي.

لن أتجاهل فرحته بوجودي وإن ظننت أن سببها اعتباري بديلاً له ليرمم حياته في أيامه الحرجة. لتعود له القدرة التي بات يفتقدها مع هبوب رياح الموت حوله، ربما يتقبل الموت لأنني سأكمل مشواره؟

صوت واهن جاءني من بعيد:

– والدك اختار أن يكون فناناً. ابني أنا اختار الترفيه عن الناس.

– أي نوع من الفن اختار؟

– وهل هناك فرق. الفن ملهاة، للأذكياء وللمتعبين من الركض الدؤوب وراء أحلامهم الكبيرة. يجدّون، ويتعبون، يبحثون، ويخترعون، فيحصلون على مكانة علمية ومادية واجتماعية مرموقة. تسير بهم حياتهم دائماً للأفضل. يتعبون من جراء السعي وراء تحقيق غاياتهم ومطالبهم وأهوائهم، حينها يذهبون حيث هناك أمثال أبيك وفرقته، ليريحوا أدمغتهم المتعبة، ليستعدّوا لغد جديد ولنجاح جديد.

– جدي. ما هذا؟! هل يضير الفن إن قدم متعة لأرواح متعبة؟!

قاطعني بلهفة:

– أقلت جدي؟ أهي جميلة هكذا؟ قلّها مرة أخرى، يحيى، قلّها.

تزحزح ساحباً جسده للأعلى، فقمت من فوري ودون تفكير أسنده وأسوّي له الوسائد ليرتاح في جلسته. عاودته نوبة السعال، تمسّك بيدي. عاد للمحاولة الخارقة المذهلة ليوقف هذا السعال. فتح الباب وأطل وجه لم أرَه، كنت أحتضنه وظهري إلى الباب، ترك يده المتشبثة بيدي، وأشار إلى الداخل يتركنا.

حين ذهبت نوبة السعال، قال لي:

– أكمل يا يحيى. ماذا كنت تقول؟ لا تدافع عن أبيك. لقد أخطأ، حين أختار أن يكون حملاً وديعاً يسلّي الذئاب؟

– لن أدافع عن شخص لا أعرفه. لكنني سأدافع عن الفن الذي تراه من أسوأ زواياه مع أنه روح الشعوب. رقيّ الأمم وحضارتها. طريقة عيشها، تفكيرها، إبداعاتها.

– الفن يفعل كل هذا؟

– بل وأكثر. الفن ليس شيئاً يباع ويشترى، الفن نعمة يمن الله بها على نخبة من البشر، بلغت ذروة الوعي والرقي. الفن ينظم الحياة، يعطي إحساساً رائعاً بمعنى الوجود. دون فن يصبح الإنسان آلة تقوم بمهامها بروتين بارد حتى تصدأ.

– أقبله للترفيه عن نفسي، لكن أن يكون مهنتي فلا وألف لا.

– لنتكلم بالمنطق بعد إذنك. الأيام تصبح أزماناً تتعاقب عليها أمم شتى. لكل أهواء وسمات ومواقف، رفيعة الشأن أو منحطّة. لا بد للإنسان أن يتّأثر بها سلباً أو إيجاباً، كلٌ حسب قدراته. لعلنا نستفيد من فطرتنا أبيض وأسود. خيراً وشراً. ظلماً وعدلاً. ثم عند الاختيار...

– لنفرض.. إلى أين تريد أن تصل؟

– أريد الوصول إلى معنى الفن الحقيقي، الإبداع الحقيقي. يحييّ مشاعرنا. يبهج قلوبنا. يهذب نفوسنا. نتعشق الحياة بكل تناقضاتها فنقوى على الاستمرار.

– كل هذا يفعله الفن؟ يا للغرابة! عزف على آلة موسيقية تشفينا من كل مآسينا وتحل جميع مشاكلنا؟ لا أصدق.

– هذا ليس بالشيء الذي يستهان به. أصدقك بأن المال والمكانة المرموقة أمنيتا كل فرد. لكن ماذا عن القيم النبيلة والأخلاق الحميدة؟ الإيمان، الخير، الحق، العلم، التطور الذي يأتي كل يوم بجديد؟ الفن يحملنا لعوالم بعيدة صعبة المنال.

– هل تعني أن النجاح المادي والمهني يتعارض مع قيم الحياة؟

– أبداً لكن حين ابعدت ابنك عن حياتك لأنه امتهن الفن أخافني بل وأفزعني، ليس على نفسي، بل عليك، جعلت الحياة نفسها وظيفة.

نفسك غارقة بمهمات أجبرتها عليها. ومن ثم فرضها على الجميع كخط مستقيم مملة مليئة بالحرمان.

– وهل في الحياة العجولة متّسع للتسكّع؟

– الفنون أعمال رائعة خلق إبداع، ليس تسكّعا. الرواية، الشعر، الرسم، النحت، الرقص، كلها ليس تسكّعاً. تمتّعنا، نرى الحق والخير والجمال رؤى العين. فيتألّق ضميرنا ووجداننا بنقاء آسر.

– عظيم كل ما قلته إلا إذا كنت تلّوح بأنني إنسان لم يتلقّ من العلم ما يكفي ليميز وترقى خياراته.

– معاذ الله أن أفكر بشيء كهذا. قد لا أعرفك حق المعرفة، لكنني أقدرك وأحترمك كإنسان له أسلوبه وتفكيره، وعزيمته القوية.

– إذاً، أخبرني، بالله عليك– متى سيفكر محترفو الفن، بعصب الحياة، ببناء مجده الشخصي وتعشّقها واعتناقها، كأسلوب حياة، متى سيجد الوقت والحماسة للتطلع إلى مستقبل واعد؟

– وبالمقابل، إذا عاش إنسان، وهمه الوحيد المال والمكانة الاجتماعية، دون التفكير بأمور أخرى، تصبح حياته موحشة خالية من النبض، بشعة تقتل الضمير. فيستبيح كل شيء. يركب كل موجة، يستغلّ كل إنسان، يستخفّ بالقوانين.. بالأعراف. يهدر قيمة الحياة، حياته وحياة الآخرين، وقيمة كل معنى جميل فيها.

– ها أنت مرة أخرى تتجاوز الخط الأحمر.

– لن أجرؤ على ذلك. الحقيقة التي أريد أن أوصلها أن شيئاً من الفن، من الجمال، من التأمل بملكوت الله الجميل الذي يحب الجمال. يمكّننا الوصول إلى ماهيّة الفن فتتوازن حياتنا. نعتز بكرامتنا وبكرامة الآخرين، وكرامة الحياة الإنسانية ذاتها. بطريقة تفكيرك الخاص والمتفرد وصلت وتفوقت، ليس بمقدور الجميع الوصول بالطرق ذاتها.

– سأتجاوز بعض ما قلت. من حسن حظك أنني بعد غياب يوسف صرت أقدر على الصبر والحوار. أنا لست معك في هذا الرأي الذي لا أراه

متواضعاً فقط، بل سلبيّاً سخيّفاً. للأسف، بمثل هذه الأفكار لن تصل إلى القمة التي أريدها لك، ستبقى مع العوام، مع الرعاع، تحت.. تحت.. تحت.

– لا أعرف ما تعني بالعوام ولا بهذه التحت. الأيام بيننا سترى. ماذا كنت تعمل في بداية حياتك؟

– كل شيء، وأي شيء يخطر على بالك.

– مثلاً...

– لقد أجهدت الآن، أريد أن أستريح.. هيا قم الآن لتتناول غداءك، ثم استرح واستجمع شتات نفسك. إذا كان فيك شيء مني ستعرف الخيار الأنسب لي ولك وللأسرة. خارج الغرفة تنتظرك العجوز التي أدخلتك إليّ. لنا لقاء في الليل إن كان في العمر بقية.

– لن أبقى، سأعود إلى بيتي وحياتي وعملي.. سأعود لأراك.

– ستبقى هنا، هذا أمر، لعلي أحتاجك في الليل.. من يدري؟ ثم إن ذلك البيت، الذي هو ليس ببيت، كان بيتك قبل أن تصبح الوريث الشرعي لمساحات شاسعة بكل ما فيها.

– إنك تحاول رشوتي أيها الشيخ الذكي. سأعود في المساء لأراك، الميراث لا يغريني.

هزّ رأسه بأسف وقال: مغرور كأبيك. لا تذهب استعمل التليفون لتسوية أمورك. إلى لقاء في المساء. لا أريد أن تخبرني عن عملك، على الأقل، بعد أن نتعرف على بعضنا بشكل حقيقي.

خرجت من الغرفة وأنا أفكر بعقلية ذلك الشيخ. نسيت أن أخبره عن إحصائية تقول إن معظم ثروات العالم، والمجد، والشهرة، يحصدها الفنانون والرياضيون، فجأة اصطدمت بنساء ثلاث ينتظرن نهاية اللقاء. كن يرتدين السواد. المرأة التي أدخلتني على الشيخ كانت تلفح رأسها بوشاح أبيض، بينما الأخرى التي تقاربها في العمر تلتف بوشاح أسود. الثالثة تلك الصبية التي أتت بي الى هنا تضع الوشاح الوردي

حول رقبتها.

مشت المرشدة أمامي بينما تأخرت الاثنتان خطوات عدة فصارتا ورائي. نمشي سوياً في رواق رخامي طويل دائري خافت الإضاءة. تحيط به أبواب عديدة لعلها تفضي إلى الغرف أو إلى الشرفات. سمعت إيقاع كتيبة عسكرية بقيادة الجد الشيخ الكبير. خيّل إليّ بأننا نسير في أزقة سجن يديره رجل راقد في الفراش بكلمة واحدة، لا بل بإشارة من إصبعه الصغير.

توقفنا أمام أحد الأبواب، انحنت القيّمة على السجن، أقصد القصر وهي تخاطبني– تفضل سيدي. خلتها تحدّث غيري. لكنها نظرت نحوي بود، وقالت تفضّل يا بنيّ. قلت:

– هذه الغرفة بعيدة جداً عن غرفة الشيخ. أفضل البقاء قريباً منه.

قالت المرأة الأخرى:

– هذه ليست غرفتك، إنها غرفة طعام الضيوف.

سمعت كلمة الضيوف بشكل مميز، بما أنني من أولئك الناس المولعين بقراءة أعماق الآخرين تلقيتها كأنها تقول لي: أنت ضيف مؤقت. قلت لها:

– عفواً لم نتعارف بعد. هل لي أن أعرف من أنت؟

ردت باقتضاب:

– أنا ابنة الشيخ وصاحبة البيت.

– يعني عمتي، شقيقة أبي.

قالت بلا اكتراث وهي تتحرك نحو الباب الذي دخلنا منه:

– ربما.. هيا.. أمينة، أحضري الغداء للشاب، ثم أوصليه إلى غرفته، أره الحمّام ليستحم. سوسن.. تعالي.

انسحبت المرأة التي لا تريد، على ما يبدو، الانجراف مثل سيد البيت، بالاعتراف بي. أره الحمام ليستحم إذاً. غمرني شعور غضب غريب لا يمت لي بصلة. ألقيت بجسدي على الكرسي سائلاً المرشدة عن الغرفة

التي سأستريح فيها. لم أكن راغباً في طعام أو شراب، بل أريد أن أخلو بنفسي لأعيد ترتيب أموري فإن ما حدث لا يصدّق.

نفسي كنفس كل فنان تطفح شعوراً قد لا يفهمه غيرهم. حزن عتيق لا خلاص منه بسهولة. غصصت، ابتلعت ريقي أحسسته كرة زجاجية عاصية على الابتلاع. شاغلت نفسي بتوجيه فكري لشيء إيجابي، فمثلاً. أنا على الأقل لست وحيداً كما اعتقدت. ارتميت فوق السرير العريض الوثير. لم أرتح كما أنا على فراشي. الغصة تلازمني. لم أقتنع بعد. لا شيء يساوي فقدان النفس، والتنازل عن الحلم والفن، خياراتي أريدها طوع أمري.

سأهرب قبل أن أجد نفسي متورّطاً في حب الشيخ. خرجت من غرفتي، ثم من البيت ومن الحديقة، ولم أصادف أحداً. درت حول أشجار الحديقة الواسعة وورودها الساحرة ونسائم هواء تحمله لأغصان المحملة. لم يغرني شيء. تابعت سيري لمسافات طويلة لكن لم تهدأ ثورة نفسي. تملّكتني رغبة شديدة في البكاء. من أبكي؟ نفسي، أمي.. أبي، دنيا، أم جدي المتعب، أم هذه العمة المتوترة؟

أستعصرني، لم تسعفني دموعي، وكل هذا الطفح في صدري المختنق. ازدياد الماء عن سعة الوعاء تطفح للخارج. حين تتلبد السماء بغيومها تبكيها أمطاراً. حزني القديم الجديد ينبثق من مكمنه. ويعيدني إلى ليلة موت دنيا. وشعوري القاتل بعد فقدها بالوحدة والضياع. هنا سأجد أجوبة لأسئلتي. أليس هذا مغرياً يا يحيى؟

كانت حياتي قاسية وتجاربي مريرة. تعلّمت، بل وأيقنت أن تحدّي الحياة ومصاعبها ليس بالأمر السهل. الآن وأنا بأمس الحاجة لشجاعتي لاتخاذ قراري. وبعد ذلك الجدران ستنهار واحداً إثر آخر.

قبل هذا البركان، هذا المدّ الذي يجتاحني مثل نهر جارف مندفع، كنت قادراً على المواجهة. لعل ذلك لعدم رفاهية الخيارات. هذا صحيح. لكنني بالمقابل لم أشعر بحرمان وأحزان وفقد. الآن خيارات تحيرني. هل يريح المرء أنه لا يملك خيارات عديدة؟ عجباً!

وصلت الزقاق الضيق، توقفت منتظراً ردّة فعل الجيران. هل كانوا يعرفون ما جهلته؟ هل يحترمونني لأنني حفيد الشيخ لا لنبوغي؟ رأيتهم وقوفاً بعيداً عني. نفرت روحي الساكنة تحت عينيّ المسبلتين على وجعي. فتحتهما، رأيت المختار يقترب محافظاً على وقار مركزه، سمعته يخاطبني:

– سيدي البيك، هل تسمح لي بأن..

– ماذا تقول يا رجل؟ هذا أنا، يحيى، وسأبقى يحيى.

قلب شفتيه بألم وقال:

– لا أظن.. لم تذق بعد طعم أن يكون الإنسان في مكانة الحل والربط، المال والجاه ليس بالشيء القليل. نحن نعرف ماذا تعني السلطة حين تكون في قبضة أي منا. كما يقال نصف الإنسان شر...

– لكن نصفه الآخر خير. أنا يحيى..

– هل رفض الشيخ الاعتراف بك؟

– كأنه كان ينتظرني عمره كله. أريد أن أفكر جيداً. إن كنت مستعداً للتنازل عن حياة أحبها، صنعتها لنفسي، مقابل حياة إنسان عرفته للتو؟

– لكنه جدّك.. وذاك بيتك. عد إلى هناك. على الأقل حتى تتحسّن صحة الشيخ. جدّك ليس هو المخطئ الوحيد يا بني، والدك أخطأ أيضاً. لا تصلح الخطأ بخطأ أفدح منه.

– لماذا لم يخبرني أي منكم كل هذه السنوات؟!

– إنها وصية والدك لدنيا بعدما أودع يدك الصغيرة في يدها.

احتضنتني الخالة أنيسة وقالت:

– في لحظاتها الأخيرة. قالت لك كل شيء. طلبت منك أن تسامحها، وتبدأ من حيث يجب أن تكون، وأنت حفيد رجل يمتلك كل هذه الأماكن وكل ما لا يخطر على بالك من قوة وسلطة. لن تكون دخيلاً ولا عالة على أحد، فأنت الرجل، الرجل الكامل، الذي يحتاجه الآخرون. هيا عدّ وابدأ

من جديد.

– هل ماتت وهي تظن أنني بجانبها؟

– حاولت إخبارها أنك غير موجود معنا لكنها لم تستمع فظلت تخاطبك وترفع كفيها لتلامس وجهك.

عدت إلى جدي كالمنّوم أنفّذ قدراً محتوماً. ربما هذا هو الحدث الكبير الذي حدثتني عنه دنيا. ومن هذا المكان سأنطلق. دخلت غرفتي التي خصصت لي، لأخذ قسطاً من الراحة بعد تلك العاصفة التي قلبت حياتي، ولأستعد للقائي الثاني مع الشيخ. ارتميت على السرير الفخم، وأرخيت جسدي. سمعت نقراً على الباب. جلست على السرير، وأذنت للطارق بأن يدخل. كانت سوسن. بدت لي بثيابها المنزلية أكثر رقة ولطفاً وبساطة.. قالت:

– هل نتحدث قليلاً.

– على الرحب والسعة. تفضّلي بالجلوس هنا.

– لقد أمرت أمينة أن تحضر لنا القهوة إلى هنا، ما رأيك؟

– هل أنتم معتادون على فرض رغباتكم على الآخرين، ثم تسألونهم رأيهم من باب العلم بالشيء؟

تحركت بسرعة من مكانها بعصبية ظاهرة نحو الباب، وهي تتمم بكلمات اعتذار. في اللحظة ذاتها فتح الباب ودخلت أمينة وهي تحمل صينية القهوة، وضعتها على الطاولة أمامنا ثم أخذت في سكبها، تركت فنجاني غير ممتلئ تماماً كما أفضله، تماماً كما كانت دنيا تفعل. ناولتني إياه وهي تمنحني ابتسامة كابتسامة دنيا. ثم زادت الطين بلّة بأن رفعت كفّها، ومسحت على رأسي وجبيني كما كانت تفعل دنيا. لم أعلّق، وورود خيال دنيا في نفسي وحولي جعلني أكثر هدوءاً واستكانة. شكرتها كثيراً فإذا بها تقول: لم الشكر فأنا من سيقوم على خدمتك منذ الآن وحتى أموت.

قمت واحتضنتها كما كنت أفعل مع دنيا وأنا أقول:

– لقد ذكرتني بإنسانة عزيزة عليّ جداً. كانت لي أماً.

– إنها دنيا.. كم كانت تحبك! كانت تقول أعرف أن الموت قدر، لكنني كلما تذكرت يحيى تمسكت بالدنيا، ورجوت الله أن يطيل في عمري حتى يصير رجلاً، ويعتمد على نفسه.

– هل تعرفينها؟

– إنها أختي.. لقد نشأنا سوياً في بيت سيدنا الشيخ يحيى جدّك، أتيناه صغيرتين مهجرتين فربانا واعتبرنا من الأسرة.

تركتني مبتسمة بعد أعادت المسح على وجهي وشعري بكفيّها الاثنين. جلست مبهوراً. ما الذي يحصل لي بعد كل هذا العمر؟ سألت سوسن التي كانت واقفة عند الباب متسمّرة:

– ألن تنتهي المفاجآت اليوم؟ هل هناك المزيد؟

تحركت وقد غمر وجهها شيء من المؤانسة. قالت وهي تجلس على الأريكة ذاتها التي كانت تجلس عليها.

– هل تسمح لي بالجلوس؟

انفجرت في ضحك أكبر بكثير من الموقف كله، لكن، لا شك، أن شيئاً من الحبور قد طغى على نفسي ونفسها. قالت وسط زوبعة الضحك التي لا تزال تجتاحنا:

– آسفة مرة أخرى. أعدت الغلطة ذاتها. سأعترف لك بشيء.. لم أكن أعرف أننا نتمتع بتلك الرذيلة قبل الآن. إنك شديد التهذيب.

– سأعترف لك بشيء أيضاً.. لم أكن أعرف بأن القدر مخبئ لي أناساً يمشون على الأرض بتيه عجيب. أنا آسف لما قلته في البداية، الحقيقة لم أقصد إحراجك، كنت سأكمل الحديث عن الطريقة التي أحضرتني بها إلى هنا. لقد قمت بمهمّة خطف مدروسة.

– إنها الحقيقة. لقد كلّفني جدي بإحضارك بأي شكل من الأشكال. درست الموقع وخطّطت، عرفت عنك الكثير. هل تصدق؟ أياماً طويلة بعد

وفاة دنيا وأنا أحاول ترتيب الأمور بحيث أنال إعجاب جديّ في النهاية. كما رأيته شديد المراس من الصعب أن تفشل أمامه.

– يا ساتر.. إنك تخيفينني.

قاطعتني بتوّدد:

– أنت تخاف! لا أصدق. قبل أن تسألني لماذا سأجيبك. لأنك تشبهه. اكتشفت ذلك عندما أتت دنيا لعندنا قبل موتها بقليل، حين أدخلتها على الشيخ عرفها، طلب مني البقاء. اندفعت المسكينة تحكي فيتدفق الكلام بسرعة من يخشى فوات الأوان. كأنها تخشى ألّا يصدق ما تقوله لأنها تعرف أهميته. قالت بلا مقدمات، وكأنها تبثّ خبراً من إحدى الإذاعات العربية.

– سيدي أتيت لأخبرك عن أمر بالغ الأهمية. يوسف ابنك أوكلني بالحفاظ على أمانة كبيرة، استحلفني بالله أن أصونها، ولا أخبرك بها إلا إذا حانت منيتي. وأنا الآن، والعلم عند الله، أحس بقرب الرحيل.

– تكلمي يا دنيا، ماذا عندك؟ أي أمانة لنا عندك؟

– يحيى الصغير، حفيدك، يا بيك، هو الأمانة.

صرخ صرخة اخترقت آذان كل من في البيت:

– ماذا تقولين أعيدي ما قلته.. متى؟ أين يوسف؟ ما اسم حفيدي؟ كم عمره. احكي من البداية. هيا لا تنسي شيئاً. أهو في الخارج هنا؟

وأخبرته بأنك شاب جامعي مهذب جميل وفيك الكثير منه. قال: كلميني عنه أكثر، ناولته ملفاً ممتلئاً بالأوراق، ثم أمضت معه ساعات طويلة في الغرفة المغلقة تحكي عنك وعن أبيك وأمك. بين حين وآخرٍ يسألني جدي أن أقرع جرس طبيبه الخاص. يأتي الطبيب، يمكث وقتاً قصيراً ينظر إلى جدي نظرات فيها الكثير من الأسف، إذ إن ضيفتنا كانت فعلاً تعيش آخر أيامها. ولعلها صارت تستعجل الأمر، فلم تتوقف عن الكلام عنك كأنها تخشى نسيان شيء أو أنها ستموت فجأة.

كلما رافقت الطبيب للباب أجد أمي تتجسّس، وتحاول أن تعرف ماذا

تقول دنيا لأبيها، لكنه لم يشفِ غليلها تنتظر عودته مرة أخرى فترسل في أثره أمينة لتعود لها بنشرةٍ مفصّلة عن تعبير وجه جديّ. كلما خرج الطبيب ورأى نظرات أمي اللهفى يقول باقتضاب: اطمئني سيدتي ليس السيد هو المتعب، بل ضيفته. هذا ما أستطيع قوله.

بحلو المساء غادرت دنيا القصر فقرع الجرس طالباً أمي. لأول مرة، ومنذ سنوات طويلة يسمح لها بدخول غرفته بعد طول جفاء. تركها تعيش في المنزل من أجلي. المهم، لم تجرؤ على الدخول بمفردها فسحبتني إلى الداخل.

كان وجهاً لوجه بعد طول خصام. قال دون مقدمات:

– هل تعرفين أن يوسف أنجب ولداً أسماه يحيى عاش مع دنيا.

– من دنيا؟

– يا لك من مسكينة غشيمة. أتكلم عن المرأة التي خرجت الآن. لا بدّ أنك كنت تتجسّسين علينا. دنيا التي أخبرتني ذات يوم أنها هربت من البيت بعد أن سرقت بعض مصاغ أمك. ثم عرفت بأنها طردت من البيت لأنها كانت تقف في وجهك وتدافع عني.

تدخلت لألطّف الجو:

– أتريدها، يا جدي، أن تجيبك على كل ذلك دفعة واحدة؟

– إنها أقدر مما تتخيلين على فعل أي شيء. اتركيها تتكلّم.

قالت أمي بصوت فيه الكثير من التحدي:

– إنها كاذبة. ليس لأخي ولد. عاش مع زوجته بضعة أشهر.

– بضعة أشهر أو بضعة أيام أهذا ينفي أن يكون لهما ولد.

– لا أعرف لكنني لن أصدق، هذه الأكذوبة.

– هل تعتقدين أنني لا أعرف أن أفرّق بين الكذب والحقيقة؟ أليس لك تجربة معي تؤكّد لك بأنني قادر على معرفة كل شيء، ولو كانت الأحداث تجري في آخر الدنيا؟

– أعرف.. ومع ذلك لا أصدق، وأنت حر أن تصدق أم لا.

– طبعاً أنا حر. اتركينا أنا وسوسن سوف نتدبّر الأمر.

كان يعاني وعكة صحية عادية، لكن بعد زيارة دنيا، وتقليب الملفّ الذي تركته أمامه تأثر جداً، حزن، وغضب، أصيب بذبحة صدرية، مرض فعلاً. ومنذ ذلك اليوم وأمي في شغل دائم تبحث عن أدلّة تثبت لأبيها بأنك إنسان دخيل، ولا يحق لك قرش واحد من ثروته. حتى أنها وافقت على ملاقاة أبي بعد كل تلك السنوات لتبحث معه أمر تلك الثروة التي كانت مقدّرة لي بتمامها وكمالها.

ضجت بضحكة صافية، ثم سكتت فجأة، نظرت طويلاً وعميقاً في عينيّ، أخذت نفساً عميقاً، ثم قالت:

– أعتقد أنني خلطت الحابل بالنابل. لقد نسيت أن أقول لك ما جئت خصيصاً من أجله.

– ترفقي بي، لم أعد أحتمل المزيد اليوم، اتركيه للغد.

– لا إنه شيء لا ينبغي تأخيره. هل تسمح لي بقوله؟

– أحسنت.. صرت تستأذنين.. يبدو أنني محظوظ.

– من جهة محظوظ فأنت محظوظ بلا أدنى شك. أتعتقد أنه من السهل أن ينام إنسان ويصبح، فيجد نفسه حفيد يحيى القادر. قبل أن أنسى مرة أخرى، جئتك لأعتذر لك عن تصرّفات أمي وكلامها. هي في الحقيقة ليست على وفاق مع أبيها. لقد تعذّبت كثيراً في حياتها، ولم يخفّ لنجدتها جدي أو خالي. تركاها في الغربة لسنوات طويلة. ثم عوقبت لأنها لم تحسن اختيار الطريقة التي كان جدي يعتقد بأن عليها سلوكها. تعتقد أنه سبب مأساتها.

– جميل أنك أخبرتني بهذا، فقد شككت بأن تصرّفها له علاقة بأموال الشيخ. أؤكد لك بأنها فعلاً لا تعنيني.

– أو تعنيك. لا بأس، وهي كثيرة بالمناسبة، وأنا وأنت المعنيان بهذا بعد عمر طويل، جدّنا إنسان جميل، ستحبه حين تعرفه جيداً، إنه حياة كاملة وجميلة. لا أستطيع أن أشرح لك مدى فرحته حين علم بوجودك،

صار مثل طفل ينتظر فرحة العيد. سيطول الحديث في ما بعد بيننا. سأتركك الآن.

لم يمض نصف ساعة على ذهاب سوسن حتى سمعت صوتاً يستغيث وأبواباً تفتَح وتغلق بسرعة، وأقداماً تركض في كل اتجاه. وقفت حائراً في ما سأفعله.. هل أنطلق بسرعة إلى غرفة الشيخ لأرى إن كان بحاجة إلى شيء؟ هل أنتظر أن يستدعيني أحد ما لهذه الحالة الطارئة؟ فتحت الباب ووقفت منتبهاً لعلي أعرف سبب الضجيج. لكن عبثاً لم أرَ شيء. واربت الباب وانتظرت خلفه. دقائق خلتها دهراً، نظرت إلى الساعة لم تزل الرابعة بعد الظهر. هل فاجأت الشيخ أزمة جديدة؟ هل يموت أم إنه مات؟ يجب أن يخبرني بالكثير. خرجت ومشيت ببطء ناحية الأصوات. أين تقع غرفته تماماً؟

سمعت سعالاً حاداً بالقرب من المكان الذي أقف فيه. ركضت باتجاهه، كانت هناك سوسن وأمها وأمينة وقوفاً على الباب، الغرفة ممتلئة بالأجهزة والطبيب ومساعده. تقدمت ببطء ووقفت خلفهم عند الباب، وبما أن قامتي طويلة فقد كنت أطلّ على الغرفة بأكملها.

جرى مساعد الطبيب نحو الباب وسحبني إلى الداخل قائلاً:

– يا حاج يحيى، يا حاج. أتسمعني؟ افتح عينيك، يحيى بجانبي يمسك يدك.

ما إن لامست يدي يده حتى ضغط عليها فابتسمت.. التفت نحوي الطبيب متسائلاً، فهززت رأسي. عاد من جديد إلى محاولاته لإسعافه. ما إن تحركت من مكاني لأفسح مساحة للطبيب، حتى لاحظ الجميع كيف يبحث عن يدي همس يحيى أما زلت هنا؟ لا تتركني؟

لا أعرف ما الذي أصابني، غصصت بريقي، ولم يخرج صوتي، كل ما فعلته أن شددت على يده. دارت ابنته إلى الجهة المقابلة وأمسكت بيده الأخرى، وركعت بجانب السرير تقبّلها، وتبكي. ثوانٍ ثم سحبها ووضعها على صدره، فوضعت يدي الأخرى فوقها فابتسم.

طلب الطبيب من الجميع ترك الغرفة ما عداي رفت عين الشيخ وهزّ

رأسه موافقاً. ساد هدوء وصمت.

جلست بجانبه وهو مغمض العينين، سكون وسلام يملآن الوجه المتعب المتغضّن. بدأ الهدوء يتسرب إلى نفسي. أجلت بنظري أتأمل الغرفة، ما هذا؟ أهذه غرفة نوم أم مقاطعة؟ كانت تكبر بيتي كله بألف مرة. مقسّمة إلى أركان. ركن واسع يحتوي على أريكة كبيرة زرقاء أنيقة بوسائدها الصغيرة الملوّنة. أمامها طاولة متوسّطة الحجم من خشب الورد تغطّي سطحها طبقة من المرمر موشى بزرقة خفيفة. بجانبها كرسي ضخم موصول بأسلاك كهربائية، في الزاوية اليمنى، مكتب صغير عليه كمبيوتر وكرسي يدور في كل اتجاه. منضدة بأدراج كثيرة بمفاتيحها الخاصة. على الرف الأعلى رصّت ملفات.

هناك في الزاوية المقابلة الأقرب للسرير مشجب، عليه روب من الحرير وربطات للعنق ملوّنة وعكاز. السرير الرابض في منتصف الغرفة متسع مربع الشكل، مغطى بشراشف ملوّنة عدة، فوقه وسائد عدة لمساعدة الشيخ على الجلوس. في الزاوية اليسرى ركن مريح للتلفزيون والراديو وأجهزة كهربائية أخرى. سجادة ثمينة تفترش الأرض بنقوش زاهية الألوان.

عدت بنظري أتأمل هذا المستلقي على سريره. أين هو من كل هذا الذي يحيط به؟ هل كان سعيداً بما عنده؟ هل كان ينام كما تنام عيون البشر براحة بال وهدوء أم بحبوب منوّمة؟ هل كان أسعد من مختار حارتنا؟ هل كان يضحك مثله وعاش فرحاً بشبابه وأيامه الماضية بكل بساطة، أم بددها بجمع كل هذا؟ هل سهل عليه ترك كل هذا إلى غير رجعة برضا أم بحتمية القدر؟ يا الله، كم أتمنى أن أسمعه يحكي عن أيامه ولياليه. أن يجيب أسئلتي، أن يحكي عن أبي، عن ابنته، وعن زوجته، وبقية أولاده وإخوته. وأفراد أسرته. هل من يملك كل هذا يكتفي بولد أو باثنين؟

قطع حبل تفكيري صوته:

– يحيى، يا يحيى، أين أنت؟

قفزت من لجّة أفكاري وتساؤلاتي المبعثرة، وأجبت:

– نعم.. أنا هنا.

صمت طويلاً، ثم قال:

– أكنت تبحث عن أجوبة لأسئلة كثيرة تتردد في خاطرك؟

– الحقيقة نعم.. لكن.. كيف؟

– شيء طبيعي أن تتساءل، وأن تقلق، وأن! لا أريد أن أقول تخاف. مثلك لا يخاف.

قلت مداعباً:

– كيف تجزم بذلك ولم تعرفني إلا من ساعات؟

– ليس من ساعات بل أعرفك من قبل أن تتخلق في بطن أمك. كنت أحلم بك مذ صار أبوك شاباً. تمنيت له أن يحظى بزوجة غير كل النساء.. لتأتي غير كل الأطفال، غير كل الرجال..

– مثلك؟

– يجوز.. حين اختار أبوك تلك الفتاة للزواج رفضت بشدة.. لم تكن كفئاً لتصبح أم حفيدي. ليست لها المواصفات التي تجعلها تستحق أن تكون أماً لك.. قد يضحكك هذا الشيء، فأنت في أوج العمر.. وقد كنت لأموت من الضحك لو قال لي أبي قبل أن أتزوج بجدتك ما قلته لأبيك يومها.. لن أسمح لك بالزواج إلا بفتاة رائعة لتلد لي حفيداً رائعاً. الحمد لله لقد أخبرتني دنيا بأنه لم يتزوج من تلك النجمة، بل تزوج طبيبته التي عالجته بعد تلك الحادثة.

– حادثة؟ أي حادثة؟ أرجوك أخبرني.

– لم يحن الوقت بعد. حقيقة أن يوسف كان أشد ذكاء ونهماً للمعرفة من أقرانه.

– يعني أبي ليس خروفاً، وأمي ليست نعجة؟

– سنرى.. هل أكلت واسترحت قليلاً.

– لست جائعاً ولا تعباً. في الحقيقة أنا في حيرة من كل ما جرى. لا أريد أن أتعبك، وخاصة، بعد تلك النوبة. سيكون لنا، إن شاء الله،

جلسات كثيرة قادمة، لتحدثني طويلاً.

– أنت ولد ذكي العقل وزكي النفس. اتركني لأستريح، وقم إلى هذه الملفّات، واعبث بها، ستجدني هناك.

– اسمح لي أن أتركك الآن، وغداً أعمل ما تريده مني.

استدرت خارجاً، قال:

– ألن ترجو لجدّك نوماً هنيئاً.

انحنيت فوق رأسه وقبلته دون كلام. أقسم أنها كانت قبلة ليس كأي قبلة. كنت أقبل جزءاً مني، أو كأنني بعضاً منه.

عدت إلى غرفتي وبي شيء من الانتشاء. كم هو جميل أن يكون لك جدّ مثل هذا الشيخ! ما أجمل أن يحبك ويطلب حبك! قررت البقاء بجانبه.. لن يشغلني شيء آخر، حتى العمل..

صوت من داخلي سأل: ماذا هل وافقت؟ هل تنازلت عن حياتك الخاصة التي صنعتها بجدّ وتعب؟ هل ستستغني عن كل ما حولك لتعيش مع شيخ مودّع؟ هل ستنسى كم تناساك، وكم نبذك، وعذب أباك بلا رحمة؟ كتمت أسئلتي. سيأتي الرد عليها قريباً.

رجاء

قبل أن أستعيد فكري المشتت، انتصب أمامي خيال شاخص يتربص، منتظراً لفت انتباهي. كانت والدة سوسن. انتبهت حين سمعتها تستأذن بالدخول مع أنها كانت في منتصف الغرفة. قالت:

– نقرت الباب مرات عدة، ولما لم تجب خشيت أن تكون غادرت القصر دون إخبارنا. دخلت بهدوء لأجدك في سريرك سارحاً وراء خيالك. لعلك تحاول إحصاء الثروة التي ستؤول إليك؟

– لن أردّ عليك بما تستحقين. لكن أطمئنك، لا أريد شيئاً سوى البقاء بجانب الشيخ حتى يقضي الله أمراً.

– أعتقد أنك تتمنّى له الموت.

– ماذا عنك. أتحبينه؟ رأيت مدى كراهيتك بأم عيني.

– أكرهه من أعماق قلبي. لقد قتلني وظلمني وكأنني لست ابنته. كنت أظنه يكرهني لأنني بنت، ولكن حين رفع العصا بوجه أبيك أيضاً تأكدت أنه لا يحبّ سوى اسمه وأمواله ومشاريعه.

– لن توغلي صدري عليه مهما قلتِ.. يجب أن أسمعه وأعرفه، ثم لكل حادث حديث.

انهارت وراحت تبكي بمرارة وبحرقة.. أسقط في يدي.. وتذكّرت قول ابنتها سوسن إنها تعذّبت في الغربة طويلاً دون أن تمدّ لها يد. مسحت دمعها وصرخت:

– لا أريد أن أسمع منك مرة أخرى بأنني أكره أبي.

– لست أنا من قال هذا، بل أنت.

استدارت للخروج فمشيت وراءها وأنا أربتّ على كتفها التفتت نحوي. بدت سحنتها في منتهى الصرامة أشارت بإصبعها وهي تقول:

– أترى تلك القاعة المستديرة الجميلة التي تتوسّط هذا القصر الكبير؟ هناك ذبحني أبي. ما زال كل شيء على حاله في هذا البيت رغم مرور سنين. كان هذا البيت جديداً وكنت كبش فداء للبيت. أعني كنت أنا ابنته وباكورة أولاده، العقيقة. تلك التي يذبحها الناس عادة لدفع البلاء والشر والحسد. أبي ذبحني هناك تبركاً وفدية.

– ماذا؟ ذبحك؟ كيف؟

– كانت تلك الليلة ليلتنا الأولى في البيت الجديد. كنت حينها صبيّة في الثامنة عشرة من عمري. أنهيت دراستي الثانوية في مدرسة الفرنسيسكان بتفوق وصار تحقيق حلمي بتكملة دراستي للأدب الفرنسي بجامعة ما، قاب قوسين أو أدنى.

شتان ما بين تلك الفتاة التي أكلمك عنها وهذه المرأة التي تقف أمامك الآن. أنا الوحيدة التي تغير كل شيء فيّ تقريباً. حين عدت إلى البيت

ورأيت كل شيء على حاله من حولي، أستغرب. الحياة تسير، البيت ومن في البيت، كعهدي به، يشع بهجة. تلك القاعة مثلاً، كما هي بألوانها الزاهية ووسائدها الحريرية وجوّها السحري، وكأنها لم ترَ ولم تسمع بما حصل لي. حتى أريج الياسمينة التي تلتف حولها كما هي، لا تحمل أي أثر لتلك الجريمة التي ارتكبها أبي بحقي. لكن، أنا رجاء الابنة الكبرى لم أعد أنا. لم أعد تلك الفتاة الجميلة البريئة السعيدة. صرت مثل حجر جامد بلا مشاعر أو حب.

أرى الصورة واضحة تماماً الآن كما لو أنها حصلت بالأمس. أمي بأناقتها وجمالها وحضورها البهي. تتحرّك، ترحب بضيوفها، وتطمئن على راحتهم، وتدير الحفل بنظراتها الآسرة فينضبط كل شيء. حتى الخدم يلتزمون بتلك النظرة فيفهمونها. أما أبي فقد كان عريف الحفل النشط الأنيق الغني، يتصرّف كأنه ضيف، واثق بإدارة أمي.

رنّ جرس الباب رنات متوالية عجلى، التفت الجميع نحو باب الدخول. أجالت أمي نظرها تتفقد مدعوها، كان العدد مكتملاً. رفعت وجهها نحو المدخل، فإذا بلونها يخطف، وتتّسع حدقتاها، وتقف، ثم تهبط على مقعدها كأنما ساقاها خانتاها. أدرت نظري حيث نظرت. كان الضيف عمي شقيق أبي الذي أكاد لا أعرفه ومعه أفراد أسرته. دخلوا دون استئذان، دون انتظار من يستقبلهم. لم يكن بيننا وبينهم ود بل قطيعة دامت سنوات ما أن تصفو النفوس حتى تتعكر من جديد. بقيت أمي جامدة فزعة، انتقل فزعها للضيوف. فوجئنا بأبي يندفع من آخر القاعة، يتقدم نحوهم هاشاً باشاً ومرحباً. تعانق الإخوان تداخلت أفراد الأسرتين في عناق فاتر ليزيلوا الجفاء.

نحن، والحضور، نعرف أن هذا الحفل قد أقيم خصيصاً بمناسبة انتقالنا إلى بيتنا الجديد. لكن أبي وقف وأعلن على الملأ بأنه وأخاه قد تصالحا أول أمس، وأن مجيء أخيه إليه يستحق منه كل تقدير بمثل هذا الاحتفال وأكثر. صمت برهة ليرى إن كان الجميع في أتم الانتباه ثم قال: أعلن لكم مفاجأتنا الكبيرة. هي موافقتي على خطبة الدكتور أحمد

ابن أخي الأكبر لابنتي رجاء.

صعقت أمي، اقتربت من أبي تستفهم. نظر نحوها بقسوة أمام الحضور. تمتم أعلم مصلحة ابنتي أكثر منك. حاولت أمي تغطية موقفها الرافض بأن تمتمت: إنها صغيرة لم تنته من دراستها بعد.

ردّ عمي:

– سنأخذ بعين الاعتبار هذا الأمر. الدكتور أحمد عاد إلينا بعد أن تخرج وكان كالعادة أول دفعته لذا تمسّكت به الجامعة ليعمل في مشفاها. بعد إتمام الزواج الذي حدّد يوم الخميس القادم، إن شاء الله، ستسافر رجاء معه، وهناك ستكمل دراسة الأدب الفرنسي في عقر دار الفرنسيين. ماذا تريدين أكثر من ذلك يا زوجة أخي؟

علت الزغاريد وتقدم ابن عمي الدكتور أحمد مني، وألبسني خادم الخطوبة. انبرت زوجة عمي التي هي أم العريس، في إعطاء شهادة كاملة عن مواصفات الخاتم، كم قيراطاً هو، ودرجة نقاء وصفاء الحجر، وعدد زواياه، ومن هو صانعه، وأنه قد صنّع في باريس خصيصاً لرجاء، وأنه تكلف أكثر من مئة ألف دولار. أضاف عمي، رجاء تستحق، وقد طلبنا صنع العقد والسوار والحلق على جناح السرعة، ليقدّمها الدكتور أحمد إلى عروسه ليلة العرس.

وسط ذهولنا، قال أبي ببساطة وأمام الجميع:

– ها أنا ذا أقدّم ابنتي رجاء جارية في بيت أخي. وإن هذه الخطبة بمنزلة حلاوة الصلح بعد طول جفاء.

حين رأى الدهشة على وجوهنا جميعاً، ضحك وقال:

– ماذا في ذلك؟ ابنتي، وأنا حرّ فيها.

صمتت عمتي وكذلك أنا، لم أفهم. اعتقدت بأن ما تقوله هذراً تتسلّى بي أو تريد أن تخيفني من الرجل الذي رأته قد تعلّق بي. حين بقيت على صمتي لكزتني في خاصرتي وقالت متهكمة:

– ما رأيك؟

– متى كان هذا؟ لماذا لم تحاول أمك وأخوك إنقاذك؟

– منذ سنوات طويلة، أكثر من عمرك. أمي أعلنت الرفض التام بعد انصراف الضيوف. انفجرت بعد صمت سنين. نسيت حذرها الذي تعلمته من خلال رحلة الحياة معه بأنه لا يعاند. سمعتها تصرخ لقد تركتك تنفذ كل أمر يطرأ لك فجأة دون ترو حتى في ما يتعلق بمستقبل الأسرة. لكن رجاء لأحمد لا وألف لا. كنت كثيراً ما أرفض وأتراجع تفادياً للصدام الذي أكون دائماً أنا الخاسرة.

– وماذا عن أبي؟

– كان أبوك خارج هموم الأسرة. كان عنده كل يوم فكرة جديدة وهواية جديدة يريد تعلمّها. كان يلقيها على رأس أبي، فيفقده كل اتزان ورويّة وهدوء. كل حوار بينهما ينقلب إلى عراك، ينتهي بنتيجة أشد قسوة من السبب الذي أدى إليه، وينقلب على كل من في البيت.

– ليس لدي أي تعليق يرضيك. عشت عمري وسلطتي بيدي. تفهمت معنى أن أعيش عصر الحريات الشخصية وحقوق الإنسان وحق التعليم وحق الاختيار. إذا كان ما قلته صحيحاً فاسمحي أن أقول بأنني دهش. لو أهدى أحدهم نعجة لما تمّ الأمر بمثل هذه السهولة. عفواً، هذا ما ورد على بالي. ماذا حصل بعد الزواج؟

– تعال إلى غرفتي، وهناك سأروي لك بقية الحكاية. لا تنسَ أنني لم أتقبّل وجودك ولن أتقبّله. أبي فرح بك تكفيراً على ما فعله بيوسف. أما أنا فلم يعوضني عن كل خسارتي حياتي تركني تائهة في الغربة.

سأروي لك بقية قصتي التي بدأت بخطبة وزواج ومصالحة، انتهت بتشرد وعذاب. بداية بشعة ونهايته أبشع وأدعى للغرابة.

– لنبق هنا، فربما احتاجنا الشيخ بأي لحظة.

– ابق حيث أنت، وإلى فرصة أخرى، أكون فيها بمثل هذا المزاج الثائر لأطلعك على أمور أمرّ من العلقم، أذاقني إياها أبي.

– سأزورك قريباً جداً.

بعد أن تركتني وذهبت. قلت لنفسي: حقيقة "ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل". عشت حياة موجعة، لكن ما تعيشه هذه الأسرة شيء فوق احتمال البشر. عم هدوء مريب من حولي بعد انصرافها، ارتعد قلبي لصوت السكون والوحشة. أطبق على صدري مغيب الشمس ساحباً مني روحي. التصقت بزجاج النافذة الشفافة ارتد بصري هارباً من العتمة الزاحفة التي رأيتها تتلاعب على جدران غرفتي.

وجدت نفسي تائهاً بهذا الاتساع المهول، والأثاث الفخم. وسريري الواسع. ما حاجتي لكل هذا وقلبي ممتلئ بشجون جديدة، تغزوه رهبة وعدم أمان؟ تذكرت ذلك الشيخ النائم في غرفته بانتظار لحظة الأفول. تفوح في غرفته رهبة الموت الآتي. هو الأمس ويريدني غده. الأمس وغده لا يتلقيان إلا في لحظة أفول الأول وولادة آخر. يريد أن يعلّمني بسرعة، في سباق مع الموت لأكونه بعد الرحيل. أممكن هذا؟ الشمس الغاربة هي جدّي وشروقها الجديد أنا لمواصلة مسيرته.

يا لهذه العائلة الغريبة. أتحرّق شوقاً لمعرفة أخبار كل فرد من أفرادها، خاصة أبي. كيف ستكون تتمة قصة الابنة؟ إنها مع والدها على تضاد. هي فتية وحّية ترزق، مع أنها ميتة منذ تلك الليلة التي وأدها أبوها في بيت أخيه حلاوة صلح. وهو ميت لكنه حيّ يرتب لحياة قادمة يريدني أن أعيشها له. ترى هل سأكون مثله كما أراد ونجح في ما أراد، بل وتعشق نجاحه؟ لست أدري..

بدأت الأضواء تنار في القصر، والأقدام تزداد حركتها. سمعت نقراً على الباب وصوت رقيق يطلب الإذن بالدخول. قلت: تفضّل، الباب مفتوح، ظهرت عمتي ووراءها أمينة تحمل لي العشاء. قالت برفق:

– آسفة للإزعاج، لكن أمينة أخبرتني بأنك لم تأكل طوال النهار، فأحضرت عشاءك بنفسي. هيا قم، اغسل يديك وتناول عشاءك.

قلت بلطف:

– أشكر تعطّفك، لم أكن راغباً في شيء على الغداء، أما الآن فأكاد

أموت من شدة الجوع.

– نويت المبيت بلا عشاء، هيا سأبقى ريثما تأكل.

أجبتها على جدّيتها بهزل لطيف:

– أهلاً وسهلاً. البيت بيتك.

جلست على حافة السرير بينما قمت لأغسل يدي. قبل أن تنزل أول لقمة في جوفي الخاوي منذ أمس، وقبل أن تأخذ عمتي مكانها وتنطلق في وصلة شكوى من ألمها المزمن، عادت نوبة السعال لجدّي فركضنا باتجاهه تاركين كل شيء.

وجدنا الطبيب يحاول وضع كمامة الأكسجين وجدي يقاوم. عيناه جاحظتين تستجدي، وجهه بلون التراب كمن عانى من الاختناق. أسرعت نحوه فلحقت بي سوسن وأمها. أشار الطبيب لهما بالابتعاد وأمسك بيدي ووضعها بيد الشيخ. ضغط على يدي، انفرجت شفتاه عن ابتسامة ضنينة. حاول رفع الكمامة إلا أن الطبيب همس ليس بعد. رضخ، شدني نحوه فجلست على حافة سريره. تساءلت سوسن عن الوضع دون كلام، هززت رأسي لها بأن كل شيء سيكون على ما يرام. حين تنبّه الشيخ فتح عينيه وأشار إليها أن تأتي. تقدمت منه، ثم طبعت قبلة صغيرة على رأسه، جلست في الجهة المقابلة، فأعطاها يده الثانية فتمسكت بها ثم قالت هامسة في أذنه بعتاب محبّب:

– قلت لنفسي يا بنت يا سوسن راحت عليك. من وجد أحبابه نسي أصحابه. أصحيح هذا يا جدّي؟!

ابتسم لها، فعانقته قائلة:

– لو كنت أعرف أن مكافأتي هي إقصائي عنك لما بحثت عن هذا الغريم الذي سرق قلبك مني.

أشار للطبيب بنزق، رفع الكمامة، وأطبق بأصابعه حول المعصم لقياس نبض القلب. ثم ابتعد قليلاً مستعداً لأي طوارئ. قلت:

– إذا كان الكلام يتعبك إلى هذا الحد فلننتظر قليلاً.

ردّ ببطء:

– كله متعب يا بني، الراحة الأبدية على الأبواب، فلم العجلة.

قلت لسوسن:

– فلنقصر يا آنسة.

– لم هذه الكلفة؟ إنها بنت عمتك يا صبي!

قالت سوسن:

– من فضلك جدّي اسمح لأمي بالدخول لتراك فهي في قمة القلق.

هزّ رأسه موافقاً. قفزت راكضة نحو الباب وهي تصيح بأعلى صوت. ماما تعالي جدّي يريد أن يراك.

دخلت الأم مندفعة بلهفة ووقفت تكفكف دموعها. همس الشيخ:

– لا تصدّقي ما تقوله ابنتك فهي كما تعرفينها قنّاصة.

ساد السكون والهدوء. تقدمت عمتي مني وهي تقول:

– اذهب يا يحيى وتناول العشاء فأنت لم تأكل منذ الصباح.

قال الشيخ:

– إذاً اذهبوا كلكم فأنا مجهد، لا تقلقوا فالطبيب هنا.

– سأعود بعد العشاء، عن إذنك.

تناولت العشاء بهناءة لا أعرف من أين أتت، رغم هذا الاضطراب. وحبور لا أعرف كيف تجرأ قلبي عليه، فنحن تقريباً في معتقل. ضحكت وسألت نفسي كيف وليس في الأجواء ما يطمئن. مططت شفتيّ وقلت باستخفاف: لماذا الاستعجال؟ سرعان ما يعاودني قلقي الذي أدمنته وأدمنني كأنه لا يعرف غيري.

دخلت الحمام، كان في غاية النظافة والأناقة، بدأت أتحسّس الأشياء وكأنني ألهو، مددت يدي شددت الحبل المتدلي، فتح الباب وأمينة تنادي: نعم سيدي. ارتبكت، وقلت مستدركاً: خذي الصينية.

– أمرك سيدي.. السيد الكبير طلب أن أذكّرك بأن تذهب إليه حالماً

تنهي عشاءك. فهل أحضر أي مشروب إلى هناك؟

– إذا كان هذا ممكناً، أحضري لي شاياً بالنعناع؟

– أمرك..

كنت أتهيأ لسهرة جميلة مع الشيخ. ربما تحسّن. هو كالأسطورة، لا يحول بينه وبين ما يريده حائل، حتى المرض أو الموت. ربما سيحكي عن ماضيه. أو ربما أحكي أنا عن حياتي.

أخذت حمّاماً ساخناً، واستمتعت، فعلاً، بكل الأشياء الموجودة على الرفوف لتزيد من متعة الحمّام. لبست ثيابي ثانية، تمنيت لو أغيّرها فقد حملت آثار أحداث النهار بطوله. لا بأس، المهمّ روحي عالية، وعلى أتم الاستعداد لبدء خوض المعركة التي اختارني لها قدري.

ها هي حياتي تدخل عالم السرعة في كل شيء، سرعة التغيير، سرعة التحول، سرعة التنقل، سرعة وضوح ما كنت أجهل لن يبقى سراً بعد اليوم. بإمكاني التنبؤ بما سيحدث بعد لقاء الماضي مع الحاضر وجهاً لوجه. صرت قاب قوسين من الحقيقة. الآن دوري يا عصر السرعة، هيا إليّ!

تركت غرفتي إلى غرفة جدّي، نعم، هكذا ببساطة أقولها: غرفة جدّي. نقرت الباب وفتحته ودخلت. يا الله، ما أجمل تلك النظرة التي استقبلني بها، وتلك البشاشة وذلك الحبور رغم أنه ما زال مجهدا! وقفت منتظراً أوامره. تأمّلني من رأسي حتى أخمص قدمي. قلت:

– هل تريدني أن أقرأ لك؟

قال وكأنه في عالم آخر:

– أكره هذا النوع من الأحذية.

اعتقدت بأنه فقد التركيز. مع ذلك جاريّته وأجبت:

– أية أحذية؟

– هذا الحذاء التي تلبسه في قدميك! أرني إياه.

– ماذا تريد من حذائي؟ إنه ليس نظيفاً كما أنه عتيق جداً.

– ناولني إياه.

– ناولته الحذاء، بينما انقبض قلبي، وتبددت بهجتي، وسرحت وراء هذا الخوف الذي تسرّب لنفسي. كنت آمل ببداية أفضل. ماذا في الأمر؟ ناولني الحذاء وهو يقول بفرحة طفولية:

– إنك، أيها الشاب الوسيم، تلبس حذاء قبيحاً وعتيقاً ورخيصاً، الشيء الوحيد الحسن أنه على مقاس قدمي. هيّا، أسرع وأرمه هناك في الحمام وافتح الخزانة التي عن يمينك واختر الحذاء الذي يعجبك.

مثل المنوم قمت، وألقيت الحذاء في سلّة المهملات هناك، فتحت الخزانة التي أشار إليها، وأخرجت أول حذاء وصلت إليه يدي، كان زوجاً من الشامواه العسلي الأنيق، لبسته، ومشيت ثانية نحوه. تسللت بهجة خفيفة على الوجه المتعب. قال يمازحني:

– يحيى، لا يلبس أي شيء. يحيى، يجب أن يكون متميزاً.

– هذا أنت يا جدّي. أنت يحيى الذي يجب أن يتميّز لست أنا. أنا شاب في بداية عمري، أسير خطوة خطوة، وسأصل، سأكون مميزاً، لكن ليس بالحذاء.

– هل تظن، يا عبيط أن تميّزي بالحذاء. أنا إنسان عصامي، كوّنت حياتي من لا شيء، لم أكن أملك سوى هذا وهذه.

مشيراً إلى عقله وعضلات ذراعيه. قلت قبل أن يغضب:

– أعرفك يا جدّي تماماً. يكفي أن أرى وجهك وعينيك وحركات يديك لأعلم من أنت. إنها مهنتي.

– لا أريد معرفة مهنتك الآن، أخشى أن تكون ورثت أباك وليس جدّك. هل تعرف لماذا؟ لأنني متأكد من أنك حين تعرف عني كل شيء ستختار أن تكون معي وليس مع أبيك الفنان.

– إذا كنت فناناً، فهل هذا يضيرك حقاً؟

– شيء في داخلي مقتنع بأنك تعمل في شيء يشبه عمل أبيك. باختصار، فنان.. لكنني أكذّب هذا الشعور، وأرجو منك أن تعطيني

فرصة، ثم نتحادث في كل ما تريده. اتفقنا.

هززت رأسي محتاراً: لماذا يكره الفن بهذا الشكل؟ وكيف سأعيش معه دون أن أخبره بعملي الذي قد يحتاج وجودي أيضاً؟

– اسمع يحيى، لنعقد اتفاقاً بيننا مدته أسبوع من الآن، سيكون رهاناً على عمري. اتفاق سيبث في نفسي رغبة للعيش، بموافقتي وموافقتك لأعرفك وتعرفني. إذا مت قبل أن أنتهي من شرح قصة حياتي وكفاحي فأنت حلّ من الالتزام بالبقاء وتنفيذ ما سأوكلك به فلتعدّ لحياتك. وإن عشت ستكون حفيدي ووريثي وعمري القادم. موافق؟

– ظننتك ستقول العكس تماماً ستعفيني حالما تسترد صحتك وعافيتك إن شاء الله. أعطني فرصة لأشرح لك الأمور كما أراها. لعلي لا أمتلك خبرة ولا جرأة ولا قدرة لإنجاز ما تنتظره مني كأنك أنت. أنا غيرك، قدراتي محدودة بحكم العمر وبتوجهاتي الخاصة.

– ولا أنا قاهرك لتقبل. إنه اتفاق ودّي. عليك أن تعدني فقط بالتنفيذ. دعني أخبرك أنني تركت التعليم من الصف الرابع الابتدائي. وذلك بسبب الظروف الأمنية آنذاك. لكن حين صرت رجلاً، وناجحاً، وكبرت أعمالي ودرت مكاسب كثيرة. أدركت قيمة التعليم وبأول فرصة سنحت تمسكت بها وتعلمت. جملة واحدة دفعت الحماسة في قلبي قالها الأستاذ الذي أخذ على عاتقه تعليمي " من أراد استطاع " .

– لكنني سمعتك تتكلّم الإنكليزية!

– نعم، وهذه تعلّمتها من الأجانب الذين عملت معهم. آه ما زلت متعباً وسأستريح بعض الوقت. أريدك بجانبي. هناك على المكتب مسودّة كتاب حياتي أمليته على شخص قريب مني اقرأه، ثم فكّر فيه.

– أفضل أن أسمعها منك ونتحاور.

– بل اقرأ سيرة حياتي يا يحيى. فإنها شاقة عليّ وقد لا نجد متسعاً من الوقت لذلك. حين تشعر بالنعاس نمّ على تلك الكنبة القريبة من المكتب، فهي تفتح وتصبح سريراً مريحاً. هيا نفذ، هناك ملف يخصّك لا

تقربه قبل أن أسمح لك. تصبح على خير يا بنيّ.

قمت من فوري بتنفيذ الأمر، وجلست على طاولة المكتب. ضوء شديد انبعث من المصباح الموضوع فوق المكتب مسلّط على موضع يدي. كانت هناك ملفّات عدة – الأول الأضخم، كان ملفّ حسابات أملاكه، الثاني ملفّ الأطباء والفواتير والوصفات الدوائية. الثالث سماه كتاب حياتي. الملفّ الذي حذرني من الاطلاع عليه عرفته حالما وقع نظري عليه. كان كنز دنيا، تحرص على أن تجمع به كل ورقه تخصني وتخفيه عني. هو أيضاً ملف حياتي.

تناولت كتاب حياته جلست على الكنبة استعداداً لجلسة ستطول. حتماً في طياته إجابات صادقة لتساؤلاتي وحيرتي. باسم الله. هكذا بدأ كتابه.

الشيخ يحيى الكبير

هذا أنا.. بكل أمانة. دون زيادة أو نقصان. شخصية بسيطة، لم تغيرها الأيام ولا الكوارث، ولا الفقر ولا الغنى، ولا أي صنف من صنوف تعنّت الحياة إلا نحو الأفضل والأحسن.

يقولون إن الحياة محفوفة بالمكاره والمصاعب. أنا أكثر شخص عانى منها لكنني أؤكد وأزيد أنها نزيهة. تنفعل لمن ينفعل لها أو بها. تعطي بقدر ما تأخذ، تنصف بقدر ما تظلم، تحنو بقدر ما تقسو.

كنت في العاشرة من عمري حين اغتصبت بلادنا. لن أتمكن من استباق أحداث طفولتي ومأساتي لأروي أسباب ما حلّ بنا، ولا كيف. سمعت ما قاله الكبار ورسخ بذهني. إنها غدر وخيانة وظلم وسرقة وقرصنة. أقطاب العالم، دون استثناء، حتى من هم منا ينتمون إلينا وأنا أنتمي لهم ويؤمنون بما أؤمن به، شاركوا أو ربما، باركوا أو ربما باعوا وقبضوا سلفاً ثمن النكبة التي حلّت. حينها. لم أدرك معنى الكلمات الكبيرة.

تلك الفترة من حياتي أنهينا للتوّ من امتحانات الصف الرابع الابتدائي قبل موعدها، وقبل الانتهاء من المنهج المقرر بسبب توتّر الأحوال السياسية في البلاد. كان هذا في شهر أيار عام 1948. حدث لم يكن عادياً ولا منصفاً. أعلن عن إنشاء دولة لليهود المشردين. أقلية مضطهده تائهون. جبابرة قساة شرذمة أفاقين. لم تطرف لهم عين وهم يعيثون ببلادنا دماراً وتشريداً وقتلاً. ثم يعلنون دولتهم دون الإشارة إلى أنها قامت على أنقاض سكان البلاد الأصليين. تشرّد من تشرّد وقتل من قتل، وهرب من هرب.

نعم يا سادة العالم. أقاموا على أنقاضنا وطناً قومياً ليهود الأرض التائهين في شتات اختاروه بكامل إرادتهم وشردنا نحن مرغمين. لكن والحق يقال، صنّاع القرار آنذاك، أعلنوا أن بلادنا أرض بلا شعب، فمنحت لشعب بلا أرض. ردّ زعماؤنا بوهن وخوف بل وبرعب مخزٍ- أيهبها من لا يملك لمن لا يستحق؟ وتمت الفاجعة.

صرنا نتلقّف المآسي واحدة تلو أخرى، من غزاة جدد. مستعمرين جدد. بأسلوب جديد. تحكم مصائرنا، تزوّر تاريخنا، تقطّع أواصل جغرافيتنا وكرامتنا. أبادوا عصوراً، وانتهكوا حرمات، دمروا ثقافات وحضارات. وانبثق من تحت الأرض عالم جديد هجين. وسمعنا أول مرة عن وصايا حكماء صهيون وباء خبيث.

عرفتم الآن متى بدأت مأساتي ومصائبي. وكيف انتهكت طفولتي وسقطت فلسطين. قد تستغربون أنني أنعى حدثاً قديماً نسيته البشر. لعلي، لو لم تكسر ظهري، بفقدان عائلتي، وأرضي، وبيتي، كنت، مثل كل هؤلاء الناس أشجب، وأستنكر، ثم أنسى. لكن، أنّى أن أنسى. بل وكيف أنسى؟ وأنا وأخي وجاري وابن بلدي ومن بقايا شعب مكلوم، ما زلنا نعاني الدفن أحياء. صرخنا ما زلنا، وشكينا وما زلنا نشتكي. وما زال العالم يتفرج علينا كما يتفرج خالي البال على ألعاب سيرك يتصارع بها الإنسان مع الموت بكل دقيقة. ولا حياة لمن تنادي. صرنا قضية. صرنا رزم أوراق في ملفات ضخمة. دفنت في أدراج من ساهموا

بدمارنا. وشعارات لا أعرف من ابتدعها غير من وارانا أحياء تحت التراب. يجب ولا بد ولا تنازل عن الحق المسلوب. مضغة يتشدقون به يرتزقون منه. لغتهم المائعة الشاسعة الواسعة، لغة القراصنة والقتل الجماعي، قلبت الموازين، إحقاق الباطل، وإزهاق الحق كيف نفهم شيئاً كهذا.

أستحلفكم بالله ألا تسألوا السؤال الموجع نفسه- أين كنتم؟ لماذا قبلتم؟ لماذا هاجرتم؟ لعله ذهول الصدمة. لعله خيانات ودسائس ومؤامرات دنيئة وتسريب المكافآت. مفردات تتكلم عن مصالح فلنفهم ولنقبل.

قراصنة صاروا دولة. ونحن ما زلنا نتعرض لنفي وإلغاء وجود، بصكوك موثقة زوراً، ممهورة بتوقيعات دول كبرى وبصمات جهلة. جرعتنا ذلاً وهواناً في مخيمات، كانت مهيأة لنا قبل تنفيذ الوعود المشؤومة. كانت جريمة كاملة مع سبق إصرار.

وذات ليلة عجيبة. أعيها تماماً، محفورة في وجداني، في عقلي، في قلبي إلى أن أموت. ليلة ظلماء أتت بعد هدنة لا بل خدعة. بين فريقين غير متكافئين- فريق يدافع بوسائل بدائية. وفريق ينفّذ وعداً متقناً ومدروساً، مدبّراً في سراديب صناع القرار. في بيوتنا سكنوا. وعلى فراشنا ناموا. ومن بقايا طعام الليلة الفائتة أكلوا. قتلوا، شردوا، هدموا. واحتفلوا بالنصر. غشانا خوف مبهم، هل نحن في حالة حرب؟ من ضد من؟ بل لماذا كل هذا؟

صرنا لاجئين. فجأة اتسعت المسافة بيننا وبين بلادنا، بيننا وبين جيراننا، بين تفكيرنا وتفكير الآخرين. بين عواطفنا التي أخذت منحى غريباً بيننا وبين آخرين لا نعرفهم وليس بيننا وبينهم عداء او نوايا شر! صرنا عبئاً على غيرنا. البعض استضافنا والبعض طردنا. لأول مرة. في تاريخ الجرائم والمجرمين، لم يعلن أحد مسؤوليته عما حدث.

لم تكن عائلتنا من الفقراء، كذلك لم نكن أغنياء. كنا نعيش كما تعيش الغالبية العظمى من الناس راضيين. لا نعرف إن كان ينقصنا شيء. لا

نعرف إن كان في مكان ما شيء أكثر مما نملك.

نقيم في بيت نملكه. محاطا بحديقة واسعة، تعتني بها أمي. تزرعها بيديها بكل أنواع الخضار والفاكهة. لنا مزرعة صغيرة بجانبها دكان صغير يبيع أبي فيه نتاج أرضه. معروف باسم أبو عدنان الخضري.

تلك الليلة، ليلة الشؤم والغدر والخيانة، كان الهجوم صاعقاً. ضربة التصفية. شدّ أبي الرحال، وجمعنا نحن، أولاده الستة، يريد الفرار كالآخرين، لكن أمي تمسكت بأرضها صاحت ناحت: لن نغادر، سنموت هنا. الأرض أرضنا، والبيت بيتنا، ولن نتركها لهم بسبب الخوف من الموت. الموت أرحم ألف مرة من التشرّد. عويلها الحزين أربك عقل أبي وقلبه. هدأ وهو يتمتم:

– عندك حق يا أم عدنان، سنبقى. اجمعي الأولاد في القبو، وسننتظر نهاية هذا الجنون. من دول العالم الكبرى والصغرى.

سكت قليلاً ثم استأنف يهدر بكلمات لا نفهمها. يشكو الظلم.

– هم أنفسهم زودوهم بالسلاح وحرّموا علينا حمل أي وسيلة للدفاع عن النفس ولو سكاكين المطابخ، أو بارودة صيد، أو بارودة من مخلفات الحربين.

استمرت الهجمة الهمجية الباطشة بلا هوادة، وطلعت شمس اليوم الذي أذكره بكل تفاصيله. كان اليوم المحدد لإعلان هدنة. لم يكن بنيّة أحد الالتزام بها غيرنا. نحن المتضررون. كانت أمي قد جمعتنا في إحدى زوايا قبو بيتنا، أنا وأبي وأخي الكبير عدنان وأخواتي منيرة وهدى وبشرى وأخي الأصغر محمد. ما زلت أتذكّر محمداً جيداً، وخاصة، في ذلك اليوم، كان دائم البكاء والصراخ كالعادة، لكن هذه المرة كان صراخه مختلفاً. لا أعرف مما. أمن الخوف أم لأنه في مكان واحد وضيّق مدة طويلة. أبي صرخ بأمي:

– أسكتي نواح الصبي، أشعره ينبئ عن مصيبة ستحصل.

وتردّ أمي بصوتها الحنون الصابر:

– وهل هناك مصيبة أكبر من التي نحن فيها.

وتضم محمداً أكثر إلى صدرها، ولا تنسى الآخرين. أمي، آه.. ماذا أقول؟ لن أنسى ما حييت منظرها وهي تغطّينا بجسدها، تحمينا من الخطر القريب والخطر البعيد، من أصوات الطائرات وأصوات الانفجار والتدمير.

كلما سمعت صوت قذيفة تتشبث بنا، جعلت من نفسها ساتراً بشرياً لتحمينا. طبعاً هذا التعبير عرفته بعد أن كبرت، وكبرت معي قصصي وهمومي وفجيعتي - بلمح البصر تطايرت أشلاءأمي حولنا، ولكن، بقي جزعها فوقنا، يقطر دماؤها فوق الرؤوس المحتميّة تحته. حاول أبي دعم الباب بكل ما تقع عليه يده، فهوى بدوره مضرّجاً بدمائه.

لم أصدّق.. قبل دقائق كانت أمي تحدثّنا عن الغد والأمل وانتهاء الأزمات، كانت تطمئننا، وتمسح الخوف عن رموشنا، سكتت فجأة، تفتّتت أمام أعيننا. ثوانٍ وبدأ السقف يسقط فوق رؤوسنا، والأبواب بلمح البصر طارت، وحطّت في مكان بعيد، خجلة لأنها لم تحمنا كما يجب. النوافذ تحطّم زجاجها. كنت مغمض العينين أحميها، وحين فتحتهما، كنا جميعاً نغوص في دمائنا. أول صوت سمعته كان صوت أبي يصيح: اضربوا، حطّموا، لن نتركها لكم يا كلاب السكك.

انتشلني الصوت، صرخت منادياً بلهفة مجنونة: ما حصل يا أبي؟ مدّ يده وانتشلني من بين جثث إخوتي، وحملني وركض إلى زاوية بعيدة، يلقيني هناك، طالباً مني ألا أتحرّك حتى يتأكد إذا ما كان أحد من أخوتي حيّاً.

ما أن ابتعد حتى زحفت ببطء، كنت خائفاً محزوناً أريد أن ألقي نظرة على بقايا أمي. رأيته يسحب أخي عدنان من كتفيه، أجلسه قربي، وتركنا راكضاً في أنحاء البيت المهدّم باحثاً عن شيء يضمّد به جراحنا. عاد وهو يحمل بين يديه غطاء صلاة أمي، فأخذ يمزقها ويلف بها جراح عدنان ثم أنا وأخيراً جراحه. قلت له:

– أبي أحضر إخوتي. محمد الصغير لا بد أنه خائف، لا أسمعه.

– أخوتك وأمك قضوا نحبهم يا يحيى.

– ماذا يعني هذا؟

– ماتوا..

– لا ليس صحيحاً فلم أرَ سوى أمي تتمزّق وأ...

– ليس كل من يموت يتمزق، ها نحن ممزّقون وما زلنا نعيش، انتهى الأمر. المهم أن ننقذ عدنان من نزيفه، والأهم أن تأخذا حذركما، فنحن في مصيبة كبرى.. هيا معي لنبحث عن بقايا الباب لنحتمي خلفه ريثما تتضح الأمور.

هدأت الأمور، كأنها تصعّدت لتقتل أمي وأخوتي. لقد خسرنا كل شيء. لم يبق لنا سوى الدكان وجزء صغير من البيت الكبير، وأب يهدر بسباب وحنق محزن. اخترقت ساقه رصاصة ولم تخرج، وأخ لا يستطيع الحراك. شيء وحيد هوّن علينا، الانفراج الأمني. استطعنا التحرك. حملنا أبي على بغلته وأخذنا للطبيب.

أيام موجعة لا تحتاج رواية. بصماتها واضحة. الأجساد ضامرة بأسمالها البالية، والوجوه شاحبة، والعيون زائغة، وأسئلة حائرة معلّقة بلا جواب، تزعزع أكثر القلوب إيماناً وتسليماً.

لسنا جاحدين لدرجة أن ننكر المعونات– البطانيات، وفتات الطعام، وثياب أكل عليها الدهر وشرب. ويشهد الله، أننا لم نكن نرجو سوى صوت واحد يتساءل: كيف؟ ولماذا؟ حصل ما حصل؟

ذات صباح طلب مني أبي فتح الدكان كالسابق. أخبرني بأنه سيتفرغ لعلاج جروحه وجروح عدنان. قال وهو يناولني المفتاح:

– نحن الآن في عهدتك يا رجل، توكل على الله.

ذهبت وأنا أفكّر بالله، وكيف يسمح بكل هذا الشر؟ وأفكّر كيف سأعرف أن أبيع، وأشتري، وأوصل الطلبات وحدي. كنت أفعل ذلك أيام العطل المدرسية، لكن أبي كان بجانبي. لم أجد بدّاً من أن أتوكل على الله كما قال أبي. فهو يعرف أكثر مني. ها هو تقبل ما حصل. وعاد يتعامل

مع الحياة لتستمرّ.

لم يمضِ بضع أسابيع حتى نفد كل ما في الدكان. سألني أبي:

– لماذا لم تعاود شراء لوازمك حتى الآن؟!

كنت أرتعش وأعرق خوفاً وخجلاً متسائلا بيني وبين نفسي– هل فشلت بأن أكون رجلهما؟ قلت بتلعثم:

– ليس معي نقود.

– وأين النقود التي بعت بها.

– كثيرون لم يدفعوا لي. الجميع وعد بأن يدفع حين يتيسّر له ذلك، وقد أخبرتك فقلت: تساهل يابني، فالكل عانى من أين يأتون بالمال؟

– صحيح.. الحق معهم، ولكننا مثلهم لا نملك شيئاً حتى المؤن التي كانت أمك تخزّنها اختلطت بالأتربة المتساقطة من هدم البيت والمياه اتّسخت بالأشياء التي يطلقونها في السماء فتنزل كالصاعقة تقتل، تقلع، تهدم تتناثر حولنا حين ترتطم بالأرض. ماذا سنفعل؟

كانت هذه أول وآخر تجربة في الكسب لم أوفق بها. وقفت أمام الله وأنا أغادر البيت في اليوم التالي مع بزوغ الفجر، وقد تذكّرت أمي وهي تقول، وتكرر، أن الله يسمع مناجاتنا ودعواتنا في هذه الفترة من الصباح أكثر من أي وقت. ترحّمت عليها ونفسي نافرة من التصديق بأنها ذهبت بغمضة عين ولن تعود. عاهدت الله ونفسي، أن أموت دون القرش الذي نحن بأمس الحاجة إليه.

انطلقت في الشوارع أبحث عن عمل، في خيالي البيت ومن هم بانتظاري. علينا أن نستمر، أن نسكت جوعنا على الأقل. لم أوفق لأيام وأيام، كنت مقتنعاً أن الله يسمع فاستجديه وأصبر، وأصرّ.

أيام مرت وشهور تكدست فوق أوجاعنا. بدأ أخي عدنان في التحسّن، بينما ساءت حالة أبي. في مستوصف وكالة غوث اللاجئين وقفنا في طابور طويل من أهل المدينة المعتدى عليها، كل يحمل جراحه وألمه، نساء وأطفال مشعثة الشعر بقذارة عجيبة. رجال بأطراف متورمة من شظايا

القذائف. نساء حوامل فتحت بطونهن بسكين. نزف حاد. والأجنة في البطون تنتظر الفرج بموت أو بإعادة للحياة. في نهاية الطابور الطويل حان دورنا. نظر الطبيب طويلاً إلى ساق أبي، ثم تنهّد وقال:

– لا فائدة ياحاج، تأخرتم، لا ينفعك الآن سوى البتر إلى الركبة.

رد أبي بشجاعة:

– هل تعملونها هنا.

قال الطبيب بأسف ظاهر:

– حتى الآن لم يتوافر مثل هذه الاحتياجات بعد الاعتداء الأخير. ربما تجدونها في المستشفى الحكومي إن كان قد استعاد قدراته وإمكاناته في مثل هذه الظروف.

سألت الطبيب بدوري:

– كم تكلّف؟ وهل معنا وقت أم لا؟

تبسّم الطبيب بأسى:

– يا صغيري، ليس عندي جواب عن التكلفة، وخصوصاً، في هذه الظروف الحرجة في البلاد، المفروض أن تعمل بالمجّان، ولكن كل شيء رهن الظرف الحالي. كلما أسرعتم كانت نسبة النجاح أكبر.

استدار أبي خارجاً من العيادة وقد ألقى بكل ثقل جسده وهموم نفسه الغارقة في الحزن بيده على كتفي كأنها جبل. تمتم من أين لنا تكاليف العملية.

بالكاد خرج صوتي ورقبتي تنوء بحملها:

– خليها على الله يا أبي. أليست هذه كلمتك دائماً؟ سأجد عملاً.

ارتعشت يده فوق كتفي، ووقف على الساق السليمة وقال بجدية:

– إياك يا بني من المال الحرام، إياك ثم إياك.

هزت رأسي، وكأنني فهمت، مع أنني استنجدت بعقلي وبكل حواسي لأستوعب احتمال فقدان أبي أو أخي أو الاثنين معاً.

على غير هدى أسير مع يأسي. اكتشفت أن الأرض والسماء تشاركانني بؤسي وحيرتي. الشوارع مقفرة إلا من أولئك الذين يبحثون في المخلفات عن كسرة خبز وبعض الحيوانات الأليفة تبحث مثلهم. لماذا لا أبيع مزرعتنا الصغيرة وأعالج بثمنها رجل أبي؟ لم تكن تبعد عن بيتنا كثيراً، توجهت إليها. رأيتها خراباً، مدمرة، مهجورة. انحنيت والتقطت شيئاً من ترابها، مازالت تحمل عبق الحياة تزهو بلونها الأحمر الخصب، لكنها عطشى، قلت هامساً لها: لسنا أحسن منك حالاً. أملي أن أبيعك ليعيش أبي ويعود ويفك أسرك ممن سيشتريك.

طرقت أبواب المعارف وجيرانها وأصحاب الأراضي الكثيرة المنتشرة حولها. لا أحظى إلا بابتسامة حزينة وجملة واحدة: إذا كان أبوك يستطيع شراء أرضنا فليفعل.

همت على وجهي، الشيء الذي يجلدني من الداخل صار أعنف. قررت. يجب ألا أعود خالي الوفاض. اتجهت في سيري نحو الأماكن التي تعمل بشكل يومي وضروري مثل محالّ الخضروات والأفران. جمع غفير من الناس يزدحمون أمام أحد الأفران ينتظرون دورهم، دسست نفسي بينهم، لم يعترض أحد، ربما لصغر سني، ربما كرامة لأبي، ربما لأن معظمهم ساهموا بتفليسنا. سألت صاحب الفرن إن كان يريد أجيراً، هز رأسه بأسف، وهو يتمتم. الدنيا خراب.

انسحبت من أمامه بصمت وجلست على الرصيف باكياً.

إبراهيم عثمان

اقترب صبي في مثل عمري أو أكبر قليلاً. طلب مني مساعدته على إنزال حمله عن كتفه. قفزت من مكاني ملبياً وساعدته في إنزال تنكة كتلك التي كانت أمي تخزّن بها الزيتون. فوجئت بأنها لا تحوي زيتوناً بل رملاً سألته وأنا أمسح دموعي:

– ماذا تفعل بهذا الرمل.

– أوصلها للأفران، وللحمامات. دمر المجرمون خزانات الوقود.

– هل يدفعون لك مالاً بالمقابل؟

– أكيد فهم بحاجة إليها بقدر ما أنا بحاجة للمال.

– هل أستطيع أن أقوم معك بالعمل ذاته؟

– لم لا. لكنك صغير السن والبنية. هل تستطيع أن تحمل هذا الثقل والسير به مسافة طويلة؟ ثم إنك لم تسألني عن ثمن كل نقلة، ولا أين المكان الذي نجلبها منه؟

– لا يهم سأرضى كما رضيت أنت، سأقدر كما قدرت.

– إذاً هيا بنا.

انطلقنا معاً لينقل حملاً آخر. أنا سأقوم بنقل أول حمل في أول عمل حرّ في حياتي. كانت المسافة فعلاً بعيدة، والأسوأ أنها في المكان الذي يعسكر به الجيش الإنكليزي. تبعته وأنا أرقبه لأفعل ما يفعل، وجدته يتجه نحو أحد مخيمات الجنود الكثيرة، ويحضر لي تنكة فارغة، ثم أشار لي أن أتبعه. وصلنا إلى أبعد مكان في المعسكر وقف وتلفّت وهو يقول:

– سأبدأ أنا هنا، وأنت انتظر حتى تنتهي تلك الشاحنة من تفريغ حمولتها من المحروقات للمعسكر، وترحل. هناك، في المكان الذي كانت تقف فيه ستجد الرمال غرقى بالزيت عبئّ تنكتك.

ما إن فرغت الشاحنة من عملها حتى اندفعت بكل رغبتي في العودة إلى أبي، ومعي شيء من نقود. ونحن عائدان تعارفنا، قال:

– ما اسمك؟

– يحيى قادر، وأنت؟

– إبراهيم عثمان.

تبين بعد ذلك بأننا كنا في مدرسة واحدة، كان أكبر مني سألته:

– ألن تعود إلى المدرسة؟

قال باقتضاب:

– لا، لن أعود.

حين سألته لماذا؟ أجابني بنظرة لوم وعتب:

– هل بقي أمامنا فرصة لأي نوع من الرفاهية. صحيح أن التعليم ضرورة، ولكن يا أخي، ليس لأمثالنا. لن أسألك وأنت، لأنني الأكبر أعرف الجواب سلفاً. ما هذه إلا بداية مصائب ستدوم طويلاً.

– إلى أي مدى؟

– أوه يا صديقي، هذه بداية. نأمل أن يدرك العرب أن الدولة اليهودية ستتمدّد حتى تحقق حلمها من الفرات إلى النيل.

– اليهود مرة أخرى؟ هل هناك أفظع مما فعلوه بنا؟

– أكثر بكثير. أنت لا تزال صغيراً.

– كيف تعرف كل هذا؟

– كان أبي من رجال الثورة المجاهدين ضد الإنكليز، كذلك جدي. كنت كثيراً ما أسمع مناقشاتهم حول اليهود والإنكليز وبقية الدول.

– لماذا يكرهوننا؟

– يقولون "المصالح طرشة لا تعرف المشاعر". حين تكبر سنتحدث بمثل هذه الأمور. ها قد وصلنا إلى الفرن.

تقدّم إبراهيم وسأل الفران: هل تريد هذا الحمل؟ هزّ رأسه وهو يقول: واحدة فقط. ردّ عليه حسناً، خذ حمولة يحيى، فإنه جديد، وسأذهب أنا إلى عمي مرتضى.

كان هذا أول أجر. قبضت يدي بقوة على القروش القليلة التي أعطاني الرجل إياها. ذهبت إلى السوق ومن ثم إلى البيت حاملاً معي خبزاً وجبناً وعكازاً لأبي.

كلما مرت الأيام أزداد رغبة في العمل، ولا يفرحني شيء في الدنيا قدر فرحة أبي المريض، وهو يأخذ ما حصلت عليه من نقود طوال اليوم، ويطلب من الله أن يحفظني ويعلي مراتبي في حياتي.

توثّقت صداقتنا أنا وإبراهيم. توضحت لي كثير من الأمور التي أجهلها. صار يصحبني معه لأي عمل يدّر بعض قروش. خصوصاً بعد أن علم أنه، في الغرفة الوحيدة، التي بقيت لنا من بيتنا، ينتظرني أبي وأخي، مريضان يعانيان آثار الحرب الهمجية.

تنقّلنا بين الكثير من الأعمال إلى جانب نقلنا للرمل. نقوم بتوزيع الخبز للناس بعد استقرار الأحوال في البلد. بعد ذلك انتقلنا إلى عمل جديد مفيد نقوم به في الليل. كنا نلبي طلبات بيوت الأجانب وجنود الأمم المتحدة الحافظة للهدنة. في الليل نقوم بخدمتهم وضيوفهم في حفلاتهم الكثيرة التي يقيمونها.

في المرة الأولى، بعد أن خطوت بضع خطوات، تسمّرت في مكاني مندهشاً. لم أرَ في حياتي، ونحن مجتمع محافظ مثل هذا الخليط من الناس، رجالاً، ونساءً شبه عاريات، وضحكات تخترق هدوء الليل الذي ظننته مندهشاً مثلي. نحن لم نرَ شيئاً مثل هذا. يمكن أن يسميّه أهل بلدنا فجوراً.

شدّني إبراهيم من ذراعي وهو يقول:

– هيا لماذا تقف مثل المسمار؟

– ما هذا يا إبراهيم؟ أين نحن؟ هل حقاً نحن في بلدنا؟

– نعم يا يحيى. هذه بلدنا. وهذه حضارتهم وثقافتهم وطريقة عيشهم. هيا ادخل المطبخ والبس المريلة البيضاء فإنهم، رغم كل ما هم فيه من اندفاع مصعوق للأكل والشرب والهرج والمرح، يراقبوننا، ولن يتساهلوا، وخاصة في النظافة يعتبرونها كارثة الكوارث.

– هل يعلمون بما حصل لبلادنا وشعبنا؟

– والله أضحكتني. نحن الآن يا شاطر في المعمعة وانتهى الأمر. لا مكان هنا لهمس أو تعليق. أنت هنا لا ترى، لا تسمع، لا تتكلم.

بدأنا نحمل الطلبات ونضعها على الموائد الأنيقة المعدّة سابقاً. أطعمة من كل صنف، شراب من كل لون، كؤوس متعددة الأشكال

والوظائف. ما يكاد يفرغ صحن حتى يملأ من جديد، لحوم، طيور، أسماك. ونحن نهرول في الحديقة الواسعة بين أشجارها العالية الطروب تتمايل أوراقها حاملة نسائم فلسطين الأسيرة فتزيدهم نشوة ومتعة. هنا الدنيا غير الدنيا. منافقة لا تعرف الوجع. تتشارك معهم. يأكلون ويشربون الخمور والعصائر والسجائر والسيجار، يرقصون ويغنون في الوقت ذاته، وهكذا حتى ساعة متأخرة من الليل. علينا ألا نترك المكان إلا بانقضاء السهرة وتنظيف الموائد. وعند ذهابنا نحمل معنا إلى بيوتنا الكثير من الطعام والفاكهة والحلويات الفائضة التي يرمونها، ونحن جياع. بما أن إبراهيم كان بلا أسرة فقد كان يأخذ ما يكفيه، ويترك لنا الكثير. سألته:

– إبراهيم، لماذا هؤلاء الناس الأجانب الغرباء عندهم كل شيء، في الحرب وفي السلم؟

كان يجيب وهو جاد في المسير، وغضب مفترش وجهه:

– هؤلاء، يا يحيى، سبب كل مصائبنا.

– لماذا نخدمهم؟

– وهل هناك باب للرزق غيرهم؟

أصمت وأسير خلفه حاملاً غضبه ذاته، ووجهاً متجهماً مثل وجهه، ورضوخاً تاماً لقبول ما حصل، ويحصل.

ذات ليلة أحد. وعادة ما تطول أكثر من أيّة ليلة، استمر السهر إلى ما بعد منتصف الليل بكثير. كنت مع إبراهيم ننتظر بفارغ الصبر الانتهاء لكن عبثاً. يتراقصون، يتلاحمون، ثم يعبّون من الكؤوس المترعة بالشراب، ثم يعودون إلى الموائد يتناولون كل ما يصل إلى يدهم غير مبالين بنوعه أو شكله. ثم يعودون إلى الرقص، يتبادلون الشريك بآخر. بدا عليّ القلق قلت لإبراهيم:

– حين تركت البيت فجراً كان أبي يئنّ ويتوجّع، عندما سألته إن كان به شيء، تظاهر بالنوم خوفاً أن أبقى إلى جانبه وأترك العمل. ها هو

فجر اليوم التالي يبزغ.

أحس إبراهيم بما يعتريني فقال:

– عليك الذهاب إلى البيت الآن، سأبقى هنا انتظر حتى يفرغوا من سهرتهم الداعرة. سأقوم بالعمل كله، قم يا أخي، لا تتلكأ.

هززت كتفي بالرفض. تبسّم وقال:

– اتركني لأكون قدر كلمة أخي التي أقولها لك. سأساعدك في رعاية أسرتك، أنت أصغر من تلك المهمة.

سألته فجأة ودون سابق تفكير:

– قل لي، يا إبراهيم، هل ربّنا هو ربّ هؤلاء السكارى؟

– أكيد هو ربّ واحد يا يحيى.

– يتمتعون بكل ما ينقصنا مع أنهم في بلادنا.

– قم يا يحيى، واذهب إلى بيتكم وسأراك بعد ساعة أو ساعتين.

لحق بي بعد وقت قصير. نقر بخفّة، فتحت الباب، همس:

– آسف للإزعاج، هذه الأشياء لا تنتظر إلى الصباح. يلعن أبوهم، اللي يجيء منهم أحسن منهم. أيقظ النيام ليأكلوها طازجة.

تناولتها بصمت، لم يعجبه ردّة فعلي. فهمس:

– لا تكن ساذجاً، هذه أموالنا سرقوها منا، من أرضنا، من كرامتنا التي يدنّسونها كل يوم، لذا فهذا حق. صحيح ليس هو ما نريده، ولكن الأيام ستأتي، وهي غالباً تأتي بمعجزات. لا بد أن في رحمها الطيب بطل أو أبطال سيعيدون الحق إلى نصابه.

هكذا قال تلك الكلمات، بهدوء وببساطة وبإيمان، وذهب. لكنها بدأت تتمدّد في رأسي، تحفر أخاديد في وجداني. شعرت بأنني ربما أكون أنا هذا البطل المنتظر لأخرجهم من أرضنا. ألست أنا بطل هذا البيت؟ نمت على ذاك الحلم البعيد، جرفتني الحياة، ولم أعد أتذكر، أو أجد في نفسي الشجاعة على تذكّر الكلمات الثائرة.

عدنان القادر

أبـي مـات قبل أن نجمع المـال الـلازم للعملية، تسمّم جسمه كله بالغرغرينا. غاب مثل الذين غابوا. لم يكن بينه غيابه وبين غياب أمي وإخوتي سوى شهور. وقعت في فراغ مؤلم. خمدت حماستي، كرهت العمل، لم أعد أتمنّى سوى أن ألحق بمن ذهبوا. وبينما كنت أنهار كان أخي عدنان يقوى، ويشتد، ويمتلئ صحة وشباباً، لكنه يزداد كسلاً. سألني بفجاجة:

– لماذا لم تذهب إلى عملك كل هذه المدة؟

– الأجدر بك أن تسأل نفسك: لم لا تبحث أنت عن عمل؟

تجاهل سؤالي، وأجابني بسؤال:

– كيف سنعيش؟

– تحمل مسؤوليتك فأنت الكبير. ألا تخجل من الاعتماد على أخ له نصف عمرك؟

ردّ بلا مبالاة:

– لن أعمل عند أحد، حين تتحسّن الأمور، سأبيع مزرعتي.

– مت يا حمار.

وقف فجأة منتفضاً، ثم صفعني على وجهي فسقطت أرضاً. ركلني خارج الغرفة. نزف الدم من أنفي سمعته يعنفني قائلاً:

– حتى لا تنسى نفسك، وتهين أخاك الأكبر. أنا حمار يا صعلوك، يا خادم بيوت الخواجات؟

وقفت وكأن عقرباً لدغني، صحت غاضباً:

– أنا لا أفكر بهذه الدناءة. سأبيع الدكان وأهاجر.

– خيراً تعمل، لكن تذكر أنك من يترك أملاكه ويهاجر. ليس من حقك أن تعود ذات يوم وتسألني عن أرض أو بيت.

صرخت بوجع:

– خذها، لا أريدها.

هذه هي الدنيا يا يحيى، تكشّر لك عن أنيابها دون مواربة، لا تظن أنها ستصبح أفضل، ولا تظن أن عدنان سيكون أخاً حقيقياً ذات يوم، سيبقى كما عرفناه طمّاع، وأناني، وبلا خجل. كان عليه أن يرعاني وأنا مبتئس كما رعيته وهو مريض دون كلل.

تذكّرت من ماتوا، أمي وأشلاءها تتناثر فوق أجسادنا، تذكّرت أبي ومراعاته صحة عدنان وتناسى آلامه، والسمّ ينهشه يوماً بعد يوم ولا يبالي، ولا يشتكي. لم يتركنا نلحظ بأنه يموت.

لم بعد بإمكاني السيطرة على روح أيامي. أصبحت عجوزاً وأنا في الحادية عشرة من عمري. همت على وجهي في الليل، في طرق غير آمنة، وظروف سيئة مرعبة. وصلت بيت إبراهيم.

عشت مع إبراهيم في بيته ذي الغرفة الواحدة منذ تلك الليلة المشؤومة. رميت أحمالي عليه. غارق في حزني، منطوياً على نفسي. بضعة شهور مرت وأنا على تلك الحال، غير قادر على جمع شتات نفسي المتناثرة، ولا همتي الهامدة، ولا روحي الهاربة مني. كشجرة يابسة بلا معنى لوجودها، تشغل حيزاً فحسب، رقماً وحسب، ولا شيء آخر. ليس بحيّ ولا أنا بميت. لا أريح ولا أستريح. إبراهيم يراقبني بصمت، كأنني همه الوحيد. قال معاتباً:

– وبعد يا يحيى! ما هذا الذي أنت فيه؟ إلى متى؟ سأخبرك بحقيقة لا تعرفها– في بداية معرفتنا كنت لي القدوة الحسنة، كنت لي نوراً أضاء حياتي بعد ظلمة الحرب والفقدان. كنت أندفع معك طلباً للرزق بسبب اندفاعك وهمتك العجيبة وإصرارك. آنذاك كنت في مثل حالتك الآن فاقد الحماس وحيداً، كرهت الدنيا وكرهت نفسي. حين لقيتك وطلبت منك معاونتي على تنزيل الحمل عن كتفي، رأيتك تسرع لمساعدتي، رغم دموعك، ويأسك، وحزنك البادي على وجهك، شعرت بأنني ظلمت نفسي، فالدنيا لم تزل بخير.

– لقد أصبحت وحيداً مثلك. فأنت أخي الذي لم تلده أمي.

– إذاً هيا عدّ إلى الحياة وعدّ إلى العمل. لا تشغل بالك، ما مضى فقد مضى. العبرة في الغد. مهما كان، حتماً سيكون أفضل. سنتغلب على كل الصعاب، ورداءة الزمان وقبحه.

– ها أنت قلتها يا إبراهيم " الزمن قبيح ".

– أزيدك علماً أن الإنسان أيضاً قبيح– قبيح الخلق، قبيح السلوك، قبيح الكلام. ليس على مستوى الفرد بل على مستوى العالم كله والدول كلها. الوعود قبيحة، النفوس قبيحة، فيا ويل من تمسّك بخلقه وبقي حقيقياً صادقاً منزّهاً، يتمتّع بجمال نفس وعذوبة روح وسط هذا القبح، مثلك يا يحيى.

قلت مقترحاً:

– ما رأيك أن نهاجر؟

– ونترك بلادنا للأوغاد؟

– ربما عدنا أقوى من الآن، واستطعنا أن نعمل شيئاً لبلدنا. أو لعلنا من هناك نجد وسيلة للمساعدة، أو ربما صدقت نبوءتك، وجاءنا اليوم العظيم واغتنينا. أليس في السفر فوائد؟

– والله جبتها يا يحيى، ألم أقل إنك منارتي.

– أترى؟ ما زلنا نتذكّر ما تعلّمنا في المدرسة.

– يعني لسنا جهلة. يعني أنه من الممكن أن نعمل شيئاً.

– تفضل الآن وفكّر.. إلى أين سنهاجر؟ وكيف؟ ومتى؟

تنهدت عميقاً كأنما انتشلت من بئر لا قرار لها وقلت:

– سنفكر سوياً. يلزمنا مال كثير، وهذه مشكلة المشاكل.. سأبيع الدكان المغلق.

– وأنا سأبيع الغرفة التي أقيم فيها مع بقايا البيت المهدّم. قم بنا الآن ننجز عملنا، فاليد العاطلة نجسة.

ضحكنا وقد تبدّل يأسي تفاؤلاً، وأحزاني حافزاً، وصداقتنا رأسمال لن ينضب. الهجرة هي مفتاح السر.

انتزعني صوت جدّي من عالم بعيد. كنت غارقاً فيه حتى استولى علي الشعور واللاشعور. كنت هناك أنا يحيى الطفل، ويحيى الرجل الغريب الأطوار. قال:

– هل نمت يا يحيى؟

صحوت من غيبوبتي، نظرت نحو الرجل أتأملّه، أهذا هو يحيى الذي كنت معه قبل قليل، أم ذاك أنا؟ ذلك الرجل في شبابه يشبهني أكثر مما يشبه جدّي. تفرّست بوجهه مندهشاً. وضع يده على كتفي:

– ما بك أيها الشاب؟ هل تظن أنني لست صاحب الحكاية؟ أظنه موعد تناول الدواء هاته.

ناولته الدواء وأنا هائم، لم أعد بعد من الرحلة التي كنت أعيشها. بعد أن أعطيته الدواء سمعت نفسي تقول:

– فيه كل الشفاء أيها الرجل العظيم.

تبسم وربت على يدي الممسكة بملعقة الدواء. في عينيه نظرة تشعّ فخراً واعتداداً بنفسه وبأيامه الماضية والقادمة. قال:

– نم الآن يكفي. أتوقّفت عند تفكيري بالهجرة كحلّ سحري؟

– نعم كيف عرفت؟ وهل كانت، فعلاً المفتاح السحري؟

– أكيد وإلا لما كنت قد دونّت هذه السيرة. أتعتقد أن مثلي يقبل الفشل، أو النكوص عمّا اعتزم؟ أبداً، أبداً، أبداً. تصبح على خير. إذا رغبت أن تنام في غرفتي فنم، وإذا فضّلت الذهاب إلى غرفتك فلك الخيار في ذلك.

ذهبت إلى غرفتي، ونمت قبل أن أبدّل ثيابي، ليس لأنني لا أملك سواها، بل لأنني منهك ولا أريد الخروج من المزاج الجميل الذي عشت فيه بقصة جدّي. غصت في النوم دون حراك. استيقظت من حلم طويل دار حول ما قرأت حتى إنني أكاد أجزم، بأنني الآن إذا ما رأيت إبراهيم

عثمان، الرجل الذي نفخ العزيمة في روح جدّي، بين جمع من الرجال لعرفته. لا بدّ أنه يشبه الرجل المقيم في الغرفة الكبيرة بشكل من الأشكال.

نهضت من فراشي، ألقيت التحية على نفسي بابتسامة عريضة، مباركاً لنفسي صمودها في إدارة حياتي منذ طفولتي الغضة. صحيح أن دنيا كانت نقطة ارتكازها، لكنني، أيضاً، ملكت إرادة من حديد. آه.. بمن أتشبه هنا، بيحيى الكبير، الكبير في كل شيء.

جاءت أمينة تسألني إن كنت سأتناول فطوري في غرفتي أم في غرفة الطعام. قلت لها بصوت عالٍ:

– إذا كنت سأتناول الفطور في غرفة الضيوف بمفردي فأنا أفضل أن أبقى في غرفتي. أما إذا كنت سأتناول فطوري مع العائلة فلا بأس، سأكون جاهزاً بعد دقائق.

جاءت سوسن ضاحكة وقالت:

– صباح الخير يحيى. هيا إلى المكان الذي نتناول فيه فطورنا عادة، شرفة المطبخ، تطل مباشرة على الحديقة.

تتكلّم بإسهاب حلو. المطبخ في الجانب الآخر. صاحت:

– أمي، وصل الضيف العتيد. خرق كل القوانين، وأتى إلى عرينك.

لم يشِ وجهها بأي شعور قالت:

– على الرحب والسعة، يكفي أن تكون ضيف أبي حتى تصبح من أهل البيت، فما بالك وهو يعتبرك حفيده؟

– وأنت، ما رأيك؟

– لو قلت، يا عمتي، في نهاية حديثك كنت أخبرتك، وبما أنك تتجاهلني فإنني خير من يفعل ذلك.

– لم أعتد بعد، حتى جدي حين أذكره أسميّه الشيخ الكبير. المسألة مسألة وقت ليس إلا.

– إذاً، أنت صدّقت أنك ابن أخي يوسف.

– هكذا هو اسمي، وهكذا يقول الشيخ، وهكذا قالت سوسن. وكذلك الأوراق الرسمية، يعني حق، أجمع عليه رأي الأغلبية. بالمناسبة، هذا لا يعني أنني أريد من هذه الخدمة التي سأقدّمها للشيخ أيّ مقابل. أنا مثل أبي فنّان، هذا لن يرضي جدي. سأذهب حالما يسترد عافيته.

– لكنه لن يتركك تذهب.

– لا تقلقي سأتدبّر أموري. ماذا أعددت يا أمينة على الفطور؟ بالمناسبة لا أستطيع تناول كل هذه الأنواع في وجبة واحدة، معدتي معتادة على التقشف ولا أريدها أن تغيّر عادتها.

قالت العمة بجفاء:

– لن تعود للتقشّف مرة أخرى، فأنت الآن رجل تملك ملايين.

– ومع ذلك لا أريد إفسادها. دوام الحال من المحال.

تسللت من القصر بغية العودة إلى بيتي لتفقّده بعد أن تركته يوماً، وليلة، وهو دون باب. أسرع السائق بفتح باب السيارة.. شكرته.. كنت مستعجلاً أريد أن أنتهي من تلك المهمة قبل أن يصحو جّدي من نومه ويطلبني. لحقت بي سوسن صارخة ولاهثة:

– انتظر. إلى أين؟ هل تريدني أن أبحث عنك مرة أخرى؟

– أنا على عجلة من أمري، سأتفقّد بيتي وأعود قبل أن يصحو جدّي، ويطلبني.

– أودّ التحدث معك.

– أعرف أنه غير مرغوب بوجودي. ليس هذا فقط، بل هناك رعب من جانب والدتك، أحاول طمأنتها، ولكن عبثاً. ألم تصادفوا في حياتكم أشخاصاً لا يعنيهم شيئاً قدر المشاعر والأحاسيس؟

– هل أفهم من ذلك أنك تهيننا، أم ماذا؟

– الحقيقة "أم ماذا".

عدت إلى السير جاداً، فركضت ورائي، سارت بجانبي ممسكة بيدي.

بقينا صامتين حتى وصولنا، كان الباب مغلقاً، فتحته فوجدت جاري صفوان نائماً فيه. هب واقفاً وهو يقول:

– آسف أستاذ يحيى، لقد حاولت إصلاح الباب فلم أفلح بأكثر من هذا، فقررت أن أنام هنا لأحرسه ريثما تعود.

أخذ نفساً عميقاً ثم استأنف:

– كنت واثق بأنك ستعود. أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً يا أستاذ.

– أشكرك، يا صفوان، من كل قلبي. لم أقلق فجيراني طيبون.

انسحب بلطف، وهو يسألني إن كنت أريد أن يرسل لي من يصلح الباب. هززت رأسي نفياً مع ابتسامة شكر.

كانت سوسن تقف أمام عتبة البيت، لا تعرف هل تدخل أم تنتظرني ريثما أتفقّد البيت ثم نعود سوياً. قلت:

– تفضلي، وحاولي أن تجدي مكاناً لجلوسك، ريثما أصلح الباب الذي تم القضاء عليه بالضربة القاضية بإشارة من حضرتكم.

لم تعلّق سوى بضحكة صغيرة، ودخلت وجلست على حافة الفراش، بينما انهمكت في تصليح الباب. حين فرغت منه فتحت باب الخزانة الصغيرة التي كانت تستند بلا ظهر إلى الحائط، وتناولت منها بعض ملابسي. كثيراً من الأوراق والكتب والأقلام، وضعتها في كيس البقالة التي جمعتهم دنيا. حملت الكمبيوتر وقلت هيّا. قالت:

– لا أصدق أنك عشت في هذه الغرفة سنوات طويلة.

– صدقي. لم أشعر يوماً واحداً أنها غرفة واحدة.

خرجنا ووجدنا أهل الحي متجمعين أمام الباب، هجموا هجمة واحدة يشبعونني ضماً ولثماً ودعاء. سألني المختار:

– ماذا حصل يا بنيّ؟

– كل خير. سيد القصر يريدني بمهمّة، سأقضيها وأعود إلى حياتي. لا تقلقوا فأنا أعامل هناك كصاحب بيت.

– بل أنت صاحب بيت يا أستاذ، دون أدنى شك؟

– من أين لك الثقة بأنني صاحب البيت بلا أدنى شك هذه؟

– لقد أخبرت دنيا زوجتي منذ زمن. قبل وفاتها طلبت أن نكون بجانبك إذا حصل لك مكروه، لا قدّر الله.

– أنا بخير أعيدها، وأكررها، أنتم أهلي وأصحابي. سأعود يوماً.

قال جاري صفوان:

– هل حقاً ما تقول؟ هل سنبقى أهلك وأصحابك؟

– دون أدنى شك، إلى اللقاء.

ضحكنا جميعاً التفتت سوسن خلفها رأت الجميع منحنين يودعونني وأيديهم على قلوبهم ويتمتمون بالدعاء.

وصلنا القصر ونحن صامتان، اتّجهت إلى الغرفة المخصّصة لي، وأغلقت الباب على نفسي. رتبت ملابسي القليلة البسيطة في الخزانة الكبيرة والفخمة. وضعت أوراقي وأقلامي والكمبيوتر فوق المنضدة بزاوية الغرفة. فتحته على ملفات عملي، مسرحيتي التي أكتبها. جلست بهدوء محتضناً الكمبيوتر. وبدأت أقلّب بملف صور ووثائق كنت أعدها فيلماً وثائقياً لعرضه على شاشة ستوضع في صدر المسرح قبل عرض المسرحية. سرحت.. يا الله، كم يحمل الفن قضاياه بأمانة! يفتح أبواباً، يغلق أبواباً. يجعل المستحيل ممكناً.

تذكرت جدّي! كيف يظن أن الفن لا يعني شيئا؟ كيف لا يصدق قيمة الرسالة العظيمة للمسرح؟ لا بل للكلمة.. لا بل للأغنية، بكلماتها ولحنها. بل الممثل الذي يهدي كل أيام عمره لخشبة مسرح، يقوم بدوره دون حساب لما يعتمل في فكره من هموم ومشاكل. سواء أكان يعرض مآسيها ومباهجها بشكلٍ أو بآخر. همه أن يوصل للمتلقّي إشارات لينير له حقائق الحياة.

مسرحيتي تحكي حالة تولي زمام أمور حياتنا رجل غير كفء. جشع منتفع دكتاتور. يسحب الأمة كلها إلى أضيق زاوية فتختنق هناك ويترك لنفسه كل المساحات، والامتيازات يصول ويجول بجبروت

وتعنّت بالحق المسروق. تنبهت ألم يفعل عدنان هذا بأخيه الصغير. من هنا سأنطلق شارحاً لجدي قيمة التنوير والتوضيح، لتتدارك الشعوب مصائرها، قبل الوصول لجحيم الحياة.

الفن! علاج ناجع للنفوس. كلمة تنعش الأمل بإحقاق الحق والعدالة. ولمسة حنون تشفي مريضاً. ولحن شجي يبدّد عتمة نفس. سأقول لجدي هذه مهنتي أكتب وأمثل وأغني وقد أرقص أحياناً.

نقرات خفيفة على الباب. إنها أمينة تستدعيني لمقابلة جدّي. ألقيت نظرة مجملة على نفسي لأرى مدى ما أتمتّع به من شباب ووقار وأناقة. صرت أعرف أن المظهر شيء مهمّ جداً في حكم جدّي على الأشخاص. قد يعطيهم فرصة تلو الأخرى طالما نجحوا في كشف الهيئة. لم أنس بعد، ذاك الحذاء اللعين.

سرت إلى جانب أمينة بخطوات جادّة نحو غرفة الشيخ. تركتني أمينة أنقر الباب وأدخل بمفردي. حييته فابتسم لي. كان جالساً في فراشه ورأسه مستنداً إلى الوسائد النظيفة الملوّنة كأنها استبدلت للتوّ. نظيفاً حليقاً ووسيماً، يتناول إفطاره من يد سوسن. مسح فمه وقال وهو يتفحّصني بزهو:

– سوسن، أتعرفين من هو هذا الفتى الأنيق الجميل والمهذّب؟

– نعم، أعرفه سيدي. فهل تريدني أن أقدّمه لك وأعرّفك عليه؟

– تفضلي يا سوسنة البيت.

– إنه حفيد رجل عظيم. يحمل اسمه وشكله وصفاته وطباعه.. لا تستغرب يا سيدي، إن جيناتك واضحة فيه. خاصة في أثناء التعامل معه أو محادثته أو مناقشته، يسهل الأمور حتى تظن أنك أمسكت بالأمر، فإذا به يشبه ما يسمّونه السهل الممتنع. اختبر ذلك بنفسك.

قلت مقلّداً عبثها:

– هل الآنسة مخبر سري، أم تعمل في السلك القضائي؟

أجابت وهي تترك الغرفة:

– كل ذلك يا أستاذ.

وخرجت بهدوء.. كلهم يتحركون حسب أوامره قبل الأمر. ضحكت بيني وبين نفسي.

يحيى الكبير وأنا

سألني:

– هل نمت جيداً؟

– نعم.. ماذا تريدني أن أفعل اليوم؟

– هل أنت مطيع هكذا دائماً، أم أنك وطنّت نفسك على الاستجابة لطلبات شيخ مودّع؟

ماذا يعني هذا؟ هكذا سألت نفسي قبل أن أجيب. حملوني حملاً إلى هنا.. ماذا يحاول؟ أيختبرني؟

قلت بثبات:

– لا هذا ولا ذاك لكني حين تُوكل إليّ مهمة أحبّ أن أتقنها.

شهق من جوابي.. صمت لم يعلق.. أخذ يتمتم ويكرر جملتي: أقوم بمهمّة ما. أنا، مهمّة، يقوم بها.. عمل.. رفع صوته:

– هل تتوقع أجراًعلى هذا العمل؟

– بالتأكيد.. مرضاتك.. صحيح، بأنني أتيتك هنا أمس عنوة، لكنني اليوم ذهبت إلى بيتي وأحضرت بعض حوائجي وأتيتك بإرادتي. أريد أن أسمعك، وأعرفك، وأتعلم منك. حياتك فريدة، عليّ تعلمها لأستحق اسمك. أحببت شخصيتك القوية العارفة طريقها.. رقودك.. مقاومتك، رغبتك أن يظل اسمك يحفز الشباب للسير قدماً. هل أنا مخطئ؟

– لا لست مخطئاً. وأنت تستحق اسمك بجدارة. هيا، يحيى، أحك لي: كيف كنت تعيش؟ ماذا قالت لك دنيا عن والديك وعني؟

– قالت إننا من الطبقة المتوسطة الحال والمحترمة. بعد الغزو

واحتلال البلاد ذهب عدد من أسرتنا ضحايا شهداء. وخسرت العائلة كل ما تملك. كلمتني عن ماض ضاع به الحق، وصلته بمستقبل قادم تنبأت لي بأنني قد أكون ممن ٍيعيدون الحق إلى نصابه.

صمت، ثم ضحك ساخراً:

– سياسة! من يدري؟ بالنسبة لي فقد طلّقت هذه الأمور. أيام رجال السياسة العظام ولى. عالمنا الذي نعيش فيه فقد توازنه، أصبح مجنوناً! بكل ما في تلك الكلمة من معنى.. سنوات تتوالى والوضع العام على كل المستويات يسير من سيئ إلى أسوأ. يتناوب علينا حكّام يخوننا بأول فرصة. يبيعوننا برخص التراب. كلما أبكانا أحدهم جاء من بعده من هو أسوأ منه، حتى لنبكي على الراحل وعلى أيامه. لا يخيب الجديد توقعاتنا ومخاوفنا. فيشد العزيمة على تحقيّق منافعه وزيادة بضعة أصفار لحساب فتحه للتو. تتكدس أموال فوق أموال، لا تعد ولا تشبعه. مثل نار جهنم التي تقول هل من مزيد.

– أهذا حقد على السياسة والسياسيين؟

– ليس حقداً يا يحيى الصغير إنها حقائق يعرفها القاصي والداني. السؤال الذي كان يجدر بك أن تسأله: من أين لهم كل هذه الأموال؟ بما أنك لم تسأل فأعلمك إنها رشى للرضوخ لأوامر دول عدوة لنا، وسبب بلائنا. ثم كرسي الرئاسة له فتنته. إذا كان رأي آخر بالسياسة لا تهتم بتخريف عجوز. ما عملك يا يحيى؟

– آخ.. أتينا إلى الجدّ. أنا فنان.. أكتب النثر والشعر، أمثل، أغني، أعزف على آلات موسيقية عدة.

– يا إلهي.. أهذه أيضاً تورّث؟

– إنها خير ميراث. أهم بكثير من توريث المال.. نعمة يمنّ بها الله على خلق دون غيرهم. من يرثها فهو إنسان محظوظ. نعمة ومنّة من الله. الفن ثورة على الجمود، خروج عن المألوف. يعطي للحياة توهجاً ورونقاً. نخبة غير عادية، قدرها جميل، ورائع. تتحكم بهم مشاعرهم. معاناتهم، حزنهم، فرحهم. مفطورون على تفاصيل صغيرة تفجّر

ينابيع إبداعهم. هو الإنسان الحق، المتميّز بوجدان وضمير حيّين.

بالنسبة لي، عشت اليتم والفقر والتشرّد والهروب من مكان إلى آخر، تمسك بيدي الصغيرة امرأة، لا تمتّ إليّ بصلة، لكنها أحرص عليّ من أبي وأمي. علمتّني الكثير، بثّت بروحي الثقة بقدراتي التي لم تتكون بعد، علمتني التشبث بالأمل وتحدّي الصعاب. علمتّني رغم الفوضى التي عشناها سوياً، الالتزام. وكيف أكون إنساناً صالحاً راقياً ذا شأن. أما هوايتي للقراءة فقد علمتّني قيمة العلم والمعرفة.

– إذاً لا بدّ أنك بارع بهذا الجهاز الساحر، الكمبيوتر.

– جداً، دائماً ترانا سوياً، رابضاً في حضني وأصابعي تداعب أحرفه وأرقامه، وتتغلغل في كل زواياه. يردّ على أسئلتي بمصداقية تامة.

– ما آخر عمل شغفت به، فشغلك عني؟

– لن يشغلني عنك أي شيء بعد الآن. لك الأولوية في حياتي. صدقّني. أنت مدرسة الحياة الحقيقية، سأتعلم الكثير من خبراتك. النظرية التي قرأناها في الكتب، رأيتها كائناً حياً يمشي على قدمين.

– ماذا تكتب الآن؟

– مسرحية عن عالمنا. أردت أن أقول للعالم. إن الحضارات لا تحتاج إلى حوارات ولا دراسات، بل تحتاج لمن يقتنع بأنها ثروات، إرث للجميع. من الحمق تسخيف ثقافة لإبراز ثقافة أخرى.

– كأنك تعيش الحياة كمأساة.

– أو ليست كذلك يا جدّي؟ أليست معركة. لا بد فيها من غالب ومغلوب. أحياناً أشعر بضيق الحيز الذي أعيش فيه. كلما كبرت، ووعيت، وتعلمت، ضاق عالمي أكثر. فخلقت لنفسي عالماً جديداً أعيشه بكلّيّتي، أحزاني تصير فرحاً أهديه للغير. بكلمة، بنظرة حب، بلمسة اهتمام، تسعدهم، تخفّف من أوجاعهم.

– ترى الفن بلا مدى. خفته أم ذبت فيه. خلقت لنفسك عالماً مغايراً للعالم الذي نعيشه. تحلّق به بين سماء وأرض مختلفة عن سمائنا

وأرضنا. تهرب من الحقيقة إلى وهم، ومن الواقع إلى خيال. هذا ليس بمستغرب فالزمان مجنون. ستضيع، يا يحيى، تناطح صخر لا تراه.

– كل الأشياء التي تحقّقت في العالم كانت أفكاراً حاكها خيال إنسان متعب من واقع أصبح بلا ملامح، بلا معايير، بلا ثوابت، بلا هوية. فتطلّع إلى البعيد برجاء وأمل.

سمعنا نقراً على الباب، ثم دخل طبيبه. فرغ من معاينته قال:

– ما شاء الله، أنت اليوم أحسن. الدواء الأخير أفادك جداً.

ابتسمت عيناه، وغضون وجهه. قال بفرح:

– لا.. ليس الدواء الجديد يا طبيب، بل هذا الشاب الوسيم الذي يحمل اسمي، يحيى. لا تستغرب إن رأيتني غداً أشارك في رالي، وأفوز. أحذرك يا يحيى، سأفوز بالاتفاق الذي بيننا.

ما إن غادرنا الطبيب حتى تنحنح وقال بودّ:

– تعال إلى جانبي. خذ هذه الأموال لعلك تكون بحاجة إليها؟

– شكراً لست بحاجة للمال فمعي ما يكفي.

– أعرف أن معك ما يكفي. أريد من الآن أن يكون في جيبك فوق الحاجة. ثم إنك لم تخبرني إن كنت تكسب من عملك أم لا؟

– لقد حصلت على مبلغ كبير من مسرحيتي الأخيرة.

أخرجت المال من جيبي فغير الموضوع بسرعة قال:

– هات ما عندك عن مسرحيتك، متى عُرضت وأين؟

– لقد عُرضت في مسرح أكاديمية الفنون. نالت إعجاب الحضور.. أساتذة، ومعيدين، وصحافيين، وأصدقاء. كانت مشروع تخرجي لنيل درجة الماجستير. كتبتها وأخرجتها ومثلت دور البطل.

– متى كان هذا؟ كم تمنيت لو كنت معك في ذلك اليوم.

– كان ذلك في اليوم ذاته الذي توفيت فيه دنيا. كنت عائداً فرحاً أريد أن أبلغها خبر النجاح الذي أحرزته. كانت تعاني سكرات الموت ولم أفهم

أنها تموت. صرخت بوجهها لأول مرة في حياتي. شعرت بأنها خانتني. كذبت عليّ. ظننتها خدعتني ليس عندها ما تحكيه.

– مسكينة حقاً. قدرت لها كثيراً مجيئها وإعلامي عن وجودك. كان أعظم خبر سمعته في حياتي. كنت أقول إن أكبر فرحة لي عند أول مليون جمعته. لكن كم صغر كل شيء مقابل وجودك يا يحيى. دنيا عوضتك برعايتها فقدان الأم فمن أخذ مكان الأب؟.

– الدكتور مؤنس. أستاذي في سنواتي الجامعية. كان صديقاً لطلبته. أطلق علينا شباباً مشاكساً. ثم يستدرك. هذه ليست شتيمة بل مديحاً. تعلقنا به. كان كثير الغياب. فنشعر بأننا تائهون دونه. نسأل عنه كل من يعرفه فيأتينا الجواب الأفضل لكم ألا تسألوا. سيعود. سأعرفك عليه وستحبه.

– أشعر بالامتنان لكل من وقف بجانبك. لكنه امتنان لا يخلو من الغيرة لأنهم أخذوا مكاني. هل الدكتور مؤنس موجود الآن أم مختف؟.

– الدكتور مؤنس ليس شخصاً عابراً في حياتي. كان عوناً وسنداً لا أتذكر أنه خذلني في يوم من الأيام. المرة الأخيرة طال غيابه، فأجلت العرض أسابيع علّه يعود. كان لا بد من عرضها كمشروع التخرج.

على الرغم من وجود العديد من الأساتذة الدكاترة المتخصصين، والنقاد والصحافة فإنني افتقدته كثيراً. تدور عيناي بكل مكان بحثاً عنه. أكاد أراه. فهو من طلب مني عرضها لأنال الدرجة التي أستحقها. فوجئت به واقفاً بطوله الفارع مصفّقاً مبتسماً يقول بصوت عالٍ: الآن أعلنك يا يحيى فناناً شاملاً وكاملاً.

نزلت عن المسرح بفرح لا يوصف فأفسح لي مكاناً إلى جانبه قلت:

– سعدت بعودتك. أسعدني حضورك عرض مشروع تخرجي. لعل جهدي واضح بمدى الالتزام بقاعدة مهمة تقولها " لا تنازل في الفن ".

أجاب ممازحاً:

– أوتحاول رشوتي؟!

ضحك، وضحكنا وأنا أهز رأسي نافياً التهمة. سأل جدي بفضول:

– هل أعجبته المسرحية وماذا كان تعليقه؟

هو ناقد قاسٍ لكنه قال.:

– جميل يا يحيى أن مسرحيتك دارت حول مشاكل الشباب، التعليم، المستقبل، إصرارهم على حقهم في تطوير بلدهم. ورفضهم الاستسلام لمكاتب التنسيق والتوزيع الاعتباطي، مؤسسات، مصانع، شركات خاصة دون اعتبار لتخصصاتهم ومؤهلاتهم. كذلك فتحت ملفات مسكوت عنها من فساد واضطهاد وبطالة مقنعة.

قال جدي مقاطعاً:

– لا شك أنها كانت رائعة خاصة أنك تجرأت على معالجة موضوع الشباب ومعاناتهم. أكنت تعلم شيئاً عن معاناة أبيك؟

– ليس لدي جواب يرضيك. بعد كلامك عن أبي، أيقنت أن موقفي بآخر مشهد من المسرحية، مسيرة تجول في شوارع المدينة ندق الطبول حاملين الشموع ونغني لا للإلغاء لا للفساد. لا للمحسوبية. نريد حرية ومساواة وعدالة اجتماعية. كنت فيها أبي بصرخات لحظات اليأس. هل ظني في محله

– في تلك الأيام اعتبرت ما كان يقوله ويفعله حماساً طبيعياً لشباب بداية العمر. ماذا كان تعليق الدكتور مؤنس؟

علق الدكتور مؤنس قائلاً:

– لم يمررها بل جعلها محوراً للمناقشة بينه وبين الدكتور المشرف على رسالتي. قال مثل ما قلت حماس سرعان ما ينطفئ. هكذا كنا ونحن في مثل عمرهم. أجهضوا حماستنا مثل فقاعات الصابون!

فزع الدكتور الذي كان مشرفاً على رسالتي فصرخ:

– أرجو ألا تكون كذلك. ظروفهم مختلفة. بين أيديهم تكنولوجيا مخيفة ووسائل اتصالات مذهلة. عليهم فقط أن يحسنوا استخدامها.

أجبته بزهو:

– إنها ثقافة عصرنا. لا بد أن نتأقلم مع تقنياتها ونحسن استخدامها جداً وإلا نكون كمن يغني خارج السرب. أجمل ما بها أنها تتيح للجميع مزيداً من المعرفة. بعضنا انتسبوا لمراكزها العالمية.

وهكذا دارت المناقشات والانتقادات السلبية والإيجابية. يا سيدي.

قال جدي–:

– لماذا لم تكمل بقية المناقشات التي دارت لعلها في غير مصلحتك؟

– أبداً. ذلك اليوم أسعد أيام حياتي لو لم تمت دنيا في اليوم ذاته.

– إذاً أكمل يا يحيى حديثك.

قلت على الفور:

– خشيت عليك من الإطالة بموضوع الفن الذي لا تحبه.

– ألم أخبرك بأن كل ما يهمك يهمني؟

– لا لم تقلها بعد.

– يقولون إن اللبيب من الإشارة يفهم.

– عندك حق. ما سأقوله الآن لن يعكر صفوك. فكما مدحت يجب أن أنتقد أيضاً. فجأة غضب الدكتور مؤنس وسألني:

– هل سألت قبل إقحام نفسك بتلك المراكز العالمية عن أهدافها؟

كان الانتشاء بالمديح يملأ رأسي فقلت بلا تردد:

– أكيد. هدفها تنوير شباب العالم. فنحن مثلاً ما كان ليخطر على بالنا أن نحلم بوطن معافى، من حقنا أن يكون لنا دور فيه. تعلمنا أن تلك الحقوق منوطة برجال الدولة ورؤسائها. بعد تدريبنا بتلك المراكز واختلاطنا بمجموعات شباب من جنسيات مختلفة. تفهمنا معنى المجتمعات المتحضرة. دربونا بإخلاص كيفية الوصول إلى المعلومة التي تفيد كل فرد في مجتمعنا. بالمناسبة هذه المراكز منتشرة في كل دول العالم وبعض دول الجوار.

قال الدكتور مؤنس:

– اشرح أكثر عن الأشياء التي تعلمتموها ولم تجدوها في مناهج التعليم في بلادكم؟

– يكفي المعرفة أنها حق للجميع مثل الهواء والماء والغذاء. انفتاح على العالم، قبول الآخر، تطوير أفكار قديمة من آلاف السنين بعد أن صارت عائقاً لحركات التحرر في مجتمعاتنا.

– لماذا تعجبون بكل ما هو أجنبي. أنا شخصيا لا أثق بهم. تدس السمّ بالعسل. ليس رأيي فقط بل آراء لجان التحكيم التي كانت حاضرة التدريبات معكم. حميت المناقشة انفعل الأساتذة والطلبة. انتهوا بأنها أفكارها هدامة تدمر وتزلزل عقول الشباب، تثيرهم ضد ساستهم.

فعالم مثل عالمنا حقل خصب، شبابنا متعب، مجهد، مهمش. لا يعطى فرصته في نهضة علمية وعملية لرفع مستواهم المعيشي. يجب على كل الشباب أن يتعلموا كيف يؤدون دوراً فعالاً في عملية التطوير. كل منا يقوم بما أوكل إليه من عمل بضمير مهني يفرض عليه الإخلاص في جعل ساعات العمل هي للعمل بكل أمانة.

هذا لا يتم بالثورة على أوضاع البلاد وحسب بل بتنمية الوعي والحرص على الإتقان. أكثر ما يثير السخرية أنها تبث في الشباب روح التمرد فتعم الفوضى الخلّاقة. ما رأيك بهذه التسمية يا يحيى؟

تحمس جدي وجلس في سريره وقال:

– لم أفهم. كيف هي فوضى وخلّاقة؟

هذا ما قلته للدكتور. لكنه لم يهتم بل تابع:

– ارتكاب خطأ بسبب الجهل لا يعفي من المسؤولية. أرجو أن تدخلوا عوالم المعرفة، بوعي وتبصر. وتتفهموا الحقائق. حقيقة ما جرى، حقيقة ما يجري، حقيقة العدوان والبغي. حقيقة إقصائنا عن المشاركة الفعالة. أثبتوا أنكم أهلٌ لدخول معترك الحياة. ارفضوا جريمة " لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم " . لا تصدقوا أن الحياة تأتي بضربة حظ، أو بتوصية. كأنكم استبدلتم بسيد سيداً أقوى وأطغى.

كان جدي يصغي بشكل مذهل. عيناه تدوران في محجريهما بسرعة وقلق، عرفت بأنه سيهاجمني في ما أؤمن به. فعاجلته:

– جدي. أريد القول بأن الأفكار الجديدة تناسبت وطموحاتنا. شعرنا هناك بين الشباب الآتي من بلاد يتمتع أهلها بشيء من الحرية أكفأ منا بالفعل. بل وشعرنا بأننا الأقل جودة.

قال بفخر:

– هذا ما عناه الدكتور مؤنس "السم المدسوس بالعسل".

لكن حين ودعني الدكتور مؤنس همس لي:

– تنبهوا جيداً "العالم كله في خطر، كله يحترق" تهانيّ يا شباب. أحسنتم، ما كان النقاش ليقلل من قيّمة العمل كنص وإخراج وتمثيل.

قال جدي مهزوماً:

– ما أشد فرحتك بمكافأة وشهادة عالية. فهذا سيدفعك للاستغناء عني وعن أموالي وعن قرابتي. لماذا ستعود إليّ بعد ذلك؟

– إن وجودك في حياتي أكثر أهمية من وجودي بحياتك. لكن ذلك اليوم كان يوم سعدي. بهذا النجاح دخلت عالم الفن الذي أعشقه. لكن كان يتنازع فرحي فرح أشد. كان ذلك اليوم هو الموعد الذي ستخبرني دنيا بالحقيقة كلها. تركت المسرح ودنيا في خيالي. ستضحك فرحة. ستقبل وجهي ويدي وتعود لجلستها كالمعتاد وتبدأ بشرح ما أخفته سنوات عمري. وخاب ظني وكُسرت من جديد.

– لا تقل ذلك عن نفسك. لا تقل كُسرت فأنا معك الآن.

– كان يوماً لا ينسى. كان صوت عبدالحليم يصدح بأغنية وحياة قلبي وأفراحه ما لقيت فرحان في الدنيا قدّ الفرحان بنجاحه. تمايلت من النشوة والجمع لاه. تعجبت لماذا لم يهتموا بفرح أو خيبة. توارى الجميع بعجلة مقلقة. توقفت عند الحائط المتهالك من القدم والهموم. أرشيف الأيدي المتعبة. أطلقت عليه ديوان المظالم. كان يكبر ويكبر كل يوم. كان لا بد لي من الوقوف أمامه باحترام وقراءة المستجد من مطالب

بحريات ومساواة وعدالة. شكوى من العوز والجوع والمرض. تذكرت قول المختار:

– ألن تمل من قراءة هذه السخافات؟

– كيف تنعتها بالسخافات وأنت مختار الحارة. إنها شكوى المظلمين والخائفين. كان أولى بك أن تحيلها إلى من يهمه الأمر. ذات يوم سيصرخون وسيثورون.

تلفت أبحث عن المختار فلم أجده. أطلّ وجه من عل ثم انسحب. خفت اندفعت إلى البيت وأنا أصيح كالمجنون– دنيا.. أين أنتِ؟

رأيتها ما زالت في فراشها متوعكة كما تركتها. فرحة افترشت نفسي يكفيني أنها موجودة وحسب. صحت بمرح هيا قومي واسمعي أخباري. لقد صرت شاباً كما تمنيت لسنوات طويلة. الدكتور مؤنس عاد، وبارك لي بعملي، سندعوه للغداء أليس كذلك؟

مدّت يدها وأزاحتني، وقالت بصوت مبحوح:

– ليس الآن يا يحيى أنا متعبة.

صرخت:

– متعبة! والوعد الذي قطعته على نفسك. وعد الحرّ دين.

قالت بصعوبة بالغة:

– اتركني الآن. اذهب وأرسل الخالة أنيسة.

– ليس عندك ما تقولينه. عيشتِني أكذوبة طويلة.

سمعت نشيجها:

– الله يسامحك، يا يحيى.

همدت تماماً. وبسمة ساخرة افترشت وجهها، فتحت عينيها على وسعهما لكن لم أرَ بهما حياة. للأسف يا جدي لم أفهم. أو لعلي لا أريد أن أفهم. خرجت من البيت إلى الطريق. ورأسي يئن سأبقى بلا هوية بلا تاريخ حتى أموت.

فجأة أطلقت الخالة أنيسة الصراخ. رغم أنها المرة الأولى التي أتواجه مع الموت فهمت. تملكني ذهول وندم وحزن. فقدت توازني ترنحت. تلقتني يد المختار، وسحبني إلى مقره وهمس بهدوء:

– تجلد يا رجل. دنيا في ذمّة الله.

– ماذا تعني؟

– أسلمت الأمانة إلى بارئها.. ماتت.

– غير صحيح. لن تذهب قبل أن تخبرني، دون أن تحكي.

– وهل، يا ولدي، بيدنا الذهاب الأخير؟

– موتها مصيبة. انتهزت غيابي وخانتني.

اندفعت في عويل ونواح، أندبها وأبكي.

– تجلد يا رجل! لم تتركك طفلاً وعاجزاً. الحياة يجب أن تستمر.

– نعم ستستمر وسأستمر أعيش دون معالم.

تنهد جدي محزوناً:

– مسكين يا صغيري الشاب، عانيت وحدك. هل تركك أستاذك؟

– قد لا تصدق كنا أنا والدكتور نتكلم عنها بعد انتهاء العرض. سألني عن مصادري لهذا الكم من معلومات تاريخية طرحتها في حوار المسرحية. أخبرته أنها دنيا. قال بتحبب– دنيا اللي نعرفها؟ نعم حكت لي الكثير من تاريخنا. منذ طفولتها حتى الآن. صدرها معجمٌ يحتوي على الكثير. والأغرب أنها حكت بسخرية عن حرب دامية قامت بين الأعراب أنفسهم، بسبب مرعى ومجرى ماء وإبل وحصان. يومها سألتها– متى كان هذا يا دنيا؟ قالت منذ زمن بعيد. صارت أغاني ومواويل لبطولات تدمر بعضها بعضاً.

قال جدي بوجع العارف:

– بل ما زالوا يتقاتلون دون سبب. والأدهى والأمر، لم نعد نعرف من يقاتل من، ومن عدو، ومن صديق. نخاف من بعضنا وحين يشتد الأمر بيننا نلجأ لمن أشعلوا النار في أطراف ثيابنا بطرف خفي.

– جدي أريد تفسيراً لكل ما أخفته دنيا عني وأخذته معها.

بدأت بنواحٍ وبكاء من جديد. ثقل صدري، ضاقت أنفاسي. رفع جدي ذراعيه وضمنيَ، هامساً:

– لا تبكِ يا يحيى. الرجال تتألم وتحترق من داخلها لكنها تتجلد.

– أيعني هذا أنك في كل فترات حياتك العجيبة لم تبك أبداً؟

– بكيت حين طردني عدنان من البيت إلى الشارع وآواني إبراهيم.

– إذاً البكاء ليس عيباً يخدش كرامة الرجال. الدمعة رحمة.

قام من السرير وجلس على الأريكة الواسعة وأجلسني بقربه وقال:

– كنت متعباً وعلى وشك النوم لولا استفزازك لي بهذا الكم من القهر والحزن. لذا سنغير الموضوع، وأحكيلك بعض أسرار حياتي، لعلها تسري عنك. أعتقد بأنك توقفت بالقراءة عند الاتفاق الذي تمّ بيني وبين إبراهيم حول الهجرة والبحث عن أسباب حياة أفضل. كنا نحلم بها، ونستحقها. ربما كلامك عن الحلم، والحياة الأفضل، يشبه ما اعتمل بنفسينا أنا وإبراهيم آنذاك. تطلّعاتنا كانت شخصية بحتة. فقد انطلقنا في الحياة ونحن نزحف فكان علينا التفكير كيف نقف على رجلينا. كيف نكتفي لنستطيع التفكير بالآخرين. هذه حقيقة.

كان معنا شبابنا الذي أراه فيك الآن، رجاحة تفكير، قلما تتوافّر لمن كان في مثل عمرنا، وبظروف تعسة كحالنا. يجوز لأننا فقدنا أهلنا وبيوتنا ووطننا، يجوز لأننا كنا نعامل كرجال مسؤولين منذ أن كنا أطفالاً، أو لعلنا نخبة محظوظة كما يرانا الفاشلون.

مرّت شهور دون أن تأتي الفرصة المنتظرة لننطلق للمجهول. في أذهاننا ملامحه وفي عيوننا علاماته. نسأل ونتحرى. ثم نهمد ونحبس أمانينا في دواخلنا لنهون الأمر. نؤمل أنفسنا بجديد سيأتي. خوفاً أن تموت أحلامنا من صقيع أحوالنا السيئة، التي تسوء يوما بعد يوم.

كنا في تلك الفترة نعمل في مطعم لمجنّدي منظمة الأمم المتحدة.

نحضّر للجنود وجباتهم الثلاث. كنت أعمل نادلاً بينما كان إبراهيم الرئيس يحرّك كل من في المطبخ. كان يعدّ العجين في الليل وقبل الشروق يكون قد بدأ يخبز ويحضر كل أنواع الخبز الأفرنجي والفطائر الطازجة- حلو المذاق أو المالح منها. حين تفوح رائحته وتملأ المعسكر يأتون هرولة لتناول طعامهم، فيحيونه ويمتدحونه. لم أرَه أبداً يردّ ابتساماتهم أو تحيّاتهم. يقف مشدوداً شامخاً كأنه قدّ من صلد، يشبه الآلة التي يعمل عليها. كنت أعرف كان في أعماقه يسبّهم ويلعنهم. يعز عليه أن نقوم بخدمتهم في ديارنا وفوق أراضينا.

لم أعرف كيف، ولا متى، تعلم إبراهيم كل هذه المهارات. لكن الشيء الذي كنت متأكداً منه، أنه مستعد ليخترق الأرض والجدران وكل مستحيل ليعمل، وليثبت وجوده. كان يدّعي أني معلمه، ولكن الحقيقة أن السبب وراء هذا النجاح في كل ما يؤديه، رغبته الملحّة في التعلّم، وثقته بنفسه. كان ينجز كل ما يقوم به بإتقان حتى العشق.

كان في عهدتنا مخازن التموين، وحدنا لنا الحق بأن نفتحها متى شئنا، ونأخذ لوازم اليوم كله. كان معظم شغل إبراهيم في الليل. كان عملي طوال اليوم. ينتهي بعد تقديم العشاء. في الصباح الباكر أعود للعمل قبل إبراهيم، لأقوم بتقشير البطاطا التي هي أساس طعامهم وتقشير البصل وتقطيع الخضار لصنع شوربة الخضار اليومية. إضافة إلى الشاي والقهوة والمشروبات الروحية والعصائر.

لم يكن طعامهم يشبه ما اعتدنا عليه من تعدد الأصناف. كان إبراهيم يعدّ لنا وجبة العشاء. في زمن التقشف تتألف من علبة لحم محفوظ وعلبة بازلاء وصلصة وأرز، نتناولها حين نفرغ من عملنا. بعد ذلك صرنا نعد أطباقاً من أكلاتنا الشرقية المميزة. أحياناً يسألوننا عن تلك الأكلات وروائحها التي تثير الشهية حين تصلهم من مطبخنا. كانوا يعجبون بها ويأكلونها بنهم عجيب.

كان إبراهيم يعود من العمل مع الفجر، فيجدني قد صحوت من النوم وجهزت الشاي وأشياء قليلة للفطور، نتجالس قليلاً، ونتحدث عن أخبار

يومنا السابق واليوم الذي ابتدأ للتو. ونحكي كثيراً عن حلمنا الوردي الذي ما زال في عالم الغيب، الذي هو في الوقت ذاته الدافع الحقيقي للاستمرار. نتعاهد من جديد بأن نقوم بأي عمل مهما قلّ شأنه. ونتقبّل أي نوع من الطعام وأي ملبس ومسكن. لا شيء يهم، فنحن بانتظار إشارة سنعرفها حالما ترد، لننطلق إلى عالم العمل الحقيقي والنجاح الحقيقي والمال الكثير.

رغم ضيق اليد، ورغم العمل الذي يستنزف طاقتي. نهاري وساعات متأخرة من الليل، ليس بالشيء السهل على طفولتي. لم أنس أخي عدنان الذي طردني منذ شهور، أتفقده بين فينة وأخرى. أسمع من الجميع، بأنه ما زال عاطلاً عن العمل بانتظار فرصته، شبه المستحيلة وهي استرداد البيارة من جنود اليهود الذين احتلوها واستعمروها، بنيت فيها منازل جاهزة ومتحركة، بكل المرافق الضرورية التي لم نملك مثلها قبل الحرب أو بعدها.

ما أن أدخل حارتنا حتى ينتشر الخبر فيأتونني طالبين مني تسديد ديونه. البقال، واللحام، وصاحب القهوة، وصاحب الحانوت، الذي يبيع الملابس المستعملة، والسجائر التي يدخنّها. أسدّدها وأوصيهم به. أحياناً كنت أنتظر عودته لأراه فلا يأتي. علمت في ما بعد أنه كان يتأخر متعمّداً حين يسمع بوجودي. يدور في الطرقات ريثما أتعب، وأذهب، فيعود هو إلى البيت.

الانتظار أشقانا أكثر مما أشقانا العمل. بدأنا نشعر بالملل والكلل. عمل دؤوب وقروش قليلة وأمل غارب عن مضاربنا. عند الظهيرة حين كان إبراهيم قد بدأ عمله، التقت نظراتنا. كلانا محبط وبمزاج تعس. أيام ونحن هامدان، لم نعد نتكلم عن الأمل والحلم. دّب اليأس فينا. دخل مستر نورهام قائلاً مع ابتسامة:

– مساء الخير يا أصدقاء.

رددنا بصوت خافت يائس. بالمناسبة، يا يحيى، هذا الرجل لعب دوراً مهماً في حياتي. كان يعرفني منذ كنت صغيراً أوصل إلى بيته

طلبات زوجته، مما يلزمها من دكان أبي. كانت تعتبرني ابنها لأنها لم تنجب، فكنت أقضي النهار حول بيتها في اللعب بعد أن أنجز كل ما كان أبي يطلبه مني. كثيراً ما كانت تجالسني بعد الظهر تقدّم لي البسكويت مع الشاي. تقول لضيوفها إنني طفلها المدلل.

اختفيت عنهم فترة مأساتي التي كنا نعيشها في أثناء الحرب وبعده. صدفة التقيت مستر نورهام عند الجزار، سألني أن أوصل إلى بيته ما اشتراه من اللحم والفاكهة وهو يقول:

– السيدة تبحث عنك. طلبت مني أن أرسلك إليها حين أراك، هيّا.

– بكل سرور سيدي. هل بإمكانك إيجاد عمل لي ولصديقي؟

– غداً سأردّ لك الجواب.

لم ينسَ ولم أحتج إلى تكرار السؤال. ترك الجواب عند زوجته التي عادت إلى تدليلي والاعتناء بي. فكان هذا العمل الذي نقوم به في مطعم جنود الأمم المتحدة. قال ذلك اليوم:

– أيها الشابان أريد غداءً مختلفاً اليوم. أولاً لأنني شديد الجوع وثانياً لأنني أحمل لكما خبراً سعيداً.

كان يتكلم العربية بطلاقة ماعدا بعض الحروف تستعصي عليه. كنا نضحك ساخرين فلم يبال. أحنى إبراهيم رأسه طائعاً وباشر بإعداد شريحة اللحم للشواء. استأذَنت في الذهاب لمساعدة إبراهيم. سألته عن الخبر السعيد. لم يرد بل سألني:

– ألست صغيراً على هذا العمل؟ ألن تعود إلى المدرسة؟

أجبته كما أجابني إبراهيم ذات يوم:

– المدرسة ليست لأمثالنا سيدي. نحن إذا لم نعمل نموت جوعاً. وهذه الأعمال هي خصيصاً لأمثالنا، نحن الذين لم ينالوا حظاً من التعليم بسبب سلب الوطن والبيوت وقتل ذوينا.

– أوه، يحيى، آسف. أريدك أن تتعلّم مهنة على الأقل. أنت ذكي جداً بل أنت خارق الذكاء، كذلك إبراهيم. خسارة كبيرة أن تكون حياتيكما

بمثل هذا النمط. صحيح أن هناك في بلادنا معاهد خاصة لتخريج طهاة وخدمة للفنادق. أما أن تنتهي أحلامكما هنا فلا.

رد إبراهيم وهو يضع أمامه الطبق الشهي دون النظر بوجهه:

– هذا عمل مؤّقت، ننتظر الفرصة للخروج من البلاد.

– سأساعدكما. إمكاناتكما أكبر من هذا. سأرسلكما أولاً إلى فايد في مصر. هناك كامب كبير للجيش الإنكليزي ومرشدي القناة. بعد بضعة أشهر أجد لكما المكان المناسب. جهزا أوراق السفر.

– ليس معنا أوراق ثبوتية، ولا نستطيع أن نحصل على جوازات سفر لأن بلدنا محتلّ. هل يعني هذا أننا لن نسافر؟

– إنها مشكلة حقيقية. لكن هناك من يستطيع أن يخرجكما من هنا دون تلك الأوراق الملعونة. هذا لا يعني أنني أوافق على تلك الطريقة لكنني أراعي ظروف البلد.

كانت ليلة ليلاء، طوال ساعات العمل كنا كعهدنا من انضباط ونشاط، أفكارنا تتسارع، وعيوننا زائغة، ترسل إشعاعات بريق أمل يكاد يضيء المكان من حولنا، وكلما التقينا في أية زاوية نتساءل بهمس: ترى هل آن الأوان كي يتحقق حلمنا الذهبي؟

ما أن انقضى وقت العمل، حتى هرولنا إلى مكاننا المعهود، حيث يتسنى لنا به الراحة وتناول العشاء. لا، لم يكن عشاء عادياً. لقد أعدّ إبراهيم اللحم المشوي والبطاطا المقلية بلون الذهب، وكمية رائعة من السلطة والأرز المطبوخ على الطريقة البخارية. ارتمينا على الأرض، ونحن نتفرج على تلك المأكولات اللذيذة التي تدعونا لنغرق بطعمها ومذاقها الشهي. خيّل إلينا أننا سننقضّ على العشاء ونلتهمه التهاماً ولا نتوقف حتى نأتي على آخر لقمة فيه.

لا.. لم يكن هذا ما حصل، فمنذ اللقمة الأولى أو الثانية حتى شعرنا بالشبع الكامل. حاولت أن أستمر في الأكل لئلا يعتقد إبراهيم أنني لم أستحسن الطبخ. اتضح، بعد ذلك، أن إبراهيم شعر بالشعور ذاته، بأنه

لم يعد بقادر على الأكل، لكنه استمرّ خشية أن أكون جوعان، وأتوقف عن الطعام مثله.

ضحكنا كثيراً وبصدق على المشاعر التي انتابتنا. عدنا لحديثنا المفضل عن حلمنا إنه على وشك التحقيق. مدحنا الرجل الإنكليزي بلا حساب. كثيراً ما شجعنا على تعلم الإنكليزية من حارس المخازن.

قال إبراهيم:

– لا أعرف مدى كرهي لهؤلاء الأجانب الذين يعيشون على أرضنا، ويحكموننا. لكن، في الوقت نفسه أشعر باحترام شديد لطريقة تفكيرهم والتزامهم بقوانين لا يخرقونها، ولو كانوا دون رقيب.

– عندك حق، لعلهم، كأفراد، لا بأس بالتعامل معهم. لكن حين يكون الواحد منهم يقوم بعمل أوكل إليه، وتتدخل "المصالح الطرشا" حسب قولك، يدافع كل عن مصالح حكومته. ربما لا يكونون مؤمنين بما كلفوا به، لكنه الواجب.

– صدقت. المهم أن يصدق معنا. إنه الحلم يا يحيى. سيتحقّق.

– سيتحقق بإذن الله. فنحن، كما قال مستر نورهام، نستحق.

– أخبرناه بأننا لا نملك أوراقاً ثبوتية، فهل نخبره لا مال أيضاً؟

– إياك يحيى لن نخبره بمثل هذا لأنها مشكلتنا. سنحلها بإذن الله. أمامنا وقت، سنقتصد، وسنبيع ما اتفقنا على بيعه.

سكت جدّي بضع دقائق. قمت وناولته كأس ماء، شرب وعاد إلى سريره ووسائده استلقى وأغمض عينيه. انتظرت ريثما يأمر بأن أذهب، أو أبقى. جلست مكاني مأخوذاً بالشعور الذي تملكني حين صمت عن الكلام، كأنني كنت راكباً بسيارة مسرعة، وفجأة فرملت، فاهتزّت وارتطمت بالعقبات التي حالت دونهم والحلم.

يا الله، أين كنا؟ أي عالم ذاك؟ فتح جدي عينيه وهو يقول لقد أجهدت يا يحيى سأنام.

عدت إلى غرفتي، تمددت على السرير. كانت الساعة تقارب الثانية،

ما يعني أن جدّي تكلّم ما يقارب ثلاث ساعات. نسيت أن أنبهه، كنت بحاجة لمن ينبهني.

سمعت نقراً على الباب، دخلت أمينة لامست وجهي. همست:

– تفضل يا سيدي، الجميع بانتظارك على الغداء.

– لم أرتح بعد يا أمينة، ما زلت متعباً، لا أريد طعاماً.

– الساعة الآن الرابعة والنصف، وقد أعدت تسخين الطعام مرتين لأن الست سوسن قالت إنك أتيت متأخراً، وبحاجة إلى الراحة.

قفزت صائحاً:

– نمت ساعتين؟ لا أصدق. إنها دقائق يا أمينة.

نظرت إلى الساعة حقاً إنها الرابعة والنصف. قفزت من السرير إلى الحمام، غسلت وجهي، وتبعتها.

مضت فترة ما بعد الغداء حتى حلول المساء ونحن نحتسي الشاي بطقوسه المعتادة في بيوت الأغنياء، كما أخبرتني سوسن هازئة. كنا نحن الثلاثة، عمتي، وسوسن، وأنا في حديث عابر. قالت عمتي:

– صحة أبي تتقدم، كاد يستسلم للنهاية، ثمة شيء طرأ عليه.

أجبتها ببساطة:

– عاد الأمل إليه. جدّي يريد إنجاز أمور كثيرة بعد.

– العمر محتوم لا يتعلق بالأمل أو بإنجاز عمل.

– هذه حقيقة. لكن، لتطور العلم والحياة ونظام التغذية. كذلك التقدم في مجال الطب واكتشاف العلاج لكثير من الأمراض ارتفع متوسط عمر الإنسان. ولقد لاحظت أن جدّي يأكل طعاماً صحياً. ثم هو ليس مريضاً وليس كبيراً جداً.

– الحقيقة هو في السادسة والسبعين، لكن طريقته في العمل وشدة حرصه على أن يكون كل شيء بالغ الكمال عجّزتاه مبكراً.

– أعتقد أن وعكته عابرة وسيقوم منها. هل ما زال يداوم على الذهاب

إلى مكتبه يومياً؟

– ولمعظم ساعات النهار. نهاره يبدأ عند الفجر مباشرة.

– هل يصلي؟ أعني هل هو متديّن؟

– لا يصلي. يعتقد أن الدين هو المعاملة الحسنة بين الناس، والعمل الـدؤوب، وتشغيل عدد كبير من الناس في مصانعه وورش عمله ليفتحوا بيوتهم، ويربّوا أولادهم. شيء كهذا يعتبره عبادة. علاوة على أنه ملتزم تقريباً، فهو لا يشرب الكحول، ولا يقامر، ولا يفعل أياً من الموبقات. حتى ولو حاول "حسب رأيه" فثمة ما يعصمه. كذلك هو بارّ بأسرته، ما زال يبرّ كل أقاربه.

– شخصية فريدة. يستحق التقدير والاحترام ممن يتعامل معه.

كانت سوسن ساكنه هادئة لا تشاركنا الحديث. أردت مداعبتها:

– ما رأيك؟ وخاصة أنك عشت معه قبلي. لا تبقي ساهمة هكذا، أجمل ما فيك روحك المرحة.

تنهّدت ونظرت إليّ طويلاً:

– هل تعتقد أنني حين قلت لجدي ما قلته عنك كان مجرد كلام لأرضيه أو أرضيك؟ أبداً. لقد توصلت إلى هذا الرأي بعد أن عرفتك بساعات. قبل أن تتعرف إليه. الحقيقة، أني وجدت فيك الكثير منه. صحيح بأنني لم أرَ خالي إلا في الصور التي بحوزة أمي، وهنا في بيت جدّي. أراك تشبه جدّي كثيراً. حين سمعت دنيا تحكي عنك عن طفولتك وصمودك ومثابرتك ونجاحاتك المبهرة. ذهلنا من قوة تحمّلك، وصبرك، وإصرارك وتطلّعك نحو الأعلى والأسمى، فأنت هنا يحيى الكبير. لكنني آمل أن تشبه أباك في مسألة المشاعر. أقصد حين تقع في الحب، جدّنا لا يعترف بالمشاعر جملة وتفصيلاً.

– شكراً للإطراء، لو أرى نفسي بعينك كنت سأمشي تيهاً.

– تستحق، يا يحيى، كل ذلك.

لم أرَ على وجه عمتي أيّ انطباع، لم تؤيد أو تنفِ ما قالته سوسن.

تتحاشى النظر إلينا خيّل إلي أن تنفّسها اضطرب. قامت مغادرة الغرفة وفضت جلستنا.

دخلت غرفتي ثم جلست أمام الكمبيوتر أعيد قراءة ما كنت بصدده قبل هذا التحوّل المفاجئ في حياتي. أمامي مجلّدات اشتريتها من مركز الدراسات الفلسطينية. أحدها اسمه "ما قبل الشتات" والآخر "حتى لا ننسى" والثالث ألبوم طوابع فلسطينية قديمة كهوية حقيقية لذاك البلد الضائع والشعب المهجّر. لم يعترف أحد بأحقيتهم في العيش في وطنهم. أمسكت بالقلم وأشرت إلى تواريخهم. اخترت بعض الفقرات من كتاب حتى لا ننسى. نوايا خبيثة باحتلال الأرض وتشريد أهلها. لم يكن وعد بلفور الشرارة الأولى، بل إن بريطانيا منحت الوعد وتكفلت بإنجازه. قصة قديمة منذ أيام الحكم العثماني. حسب قول أحد رؤساء الولايات الأمريكية "إسرائيل ما وجدت إلا لتبقى".

حدثت نفسي. ما العجب في ذلك. ألم يكن قيام دولة اسمها أميركا على حساب أصحاب الأرض الأصليين أبادت معظمهم. شيدت استقرارها على جماجم وأنهار من الدماء واغتصاب أراضيهم. صورة طبق الأصل نشأت الدولة العبرية الحالية.

دخلت سوسن بكل ضجيجها وعفويتها وصباها البهي معلنة بأنها تريد التنزّه معي خارج القصر. ألقت بنفسها قريباً مني، وأخذت تتطاول برأسها لترى ما بين يدي. مطّت شفتيها استغراباً، قالت:

– ظننتك مستغرقاً بصور فتيات جميلات أو صورك خاصة بك فأفاجأ بطوابع بريدية لا تعني شيئاً.

نظرت نحوها بشيء من الاستغراب:

– كيف تقولين عن طوابع أثرية تؤكد حقنا. أنها لا تعني شيئاً؟

– حقنا؟ من نحن؟

– نحن الشعب المهجّر، المفجوع بوطنه. الخاسر كل شيء.

– لم عليّ التفكير بوطن لا أعرفه وضاع وسلب قبل أن يعرفني؟

– ألم يحدثك جدك عن أهم حدث في حياته؟

– حاول ووجدني ملولة فكفّ. طبعاً ألقى اللوم على أمي التي عشقت الفرنسي. هل تعرف أحداً غيرك له هذه الاهتمامات غير المجدية؟

– هناك كثر وربما أنا أقلهم اهتماماً. ربما كان لتلك النكبة والهجرة تأثير كبير على الشعب الذي بين ليلة وضحاها وجد نفسه صفر اليدين. توجهوا للتعليم. نسبة المتعلمين تعليماً عالياً منهم تفوق أي نسبة في دول أخرى؟

– لا بل لا أتصور شعباً مهجراً ومغتصبة بلاده وفاقد لاحتياجاته الأساسية في حياته خاصة المسكن والملبس والطعام يهتم بالشهادات العالية.

– ربما شيء كهذا له دلالته لتوضيح طبيعة هذا الشعب كان في أي بلد من بلاد المهجر يتفوق ويخلق روح المنافسة بين شعوب جنسيات مختلفة ويدفعهم للاتجاه ذاته. شعب مثل هذا لا يموت ولا ينسى حقه ولن يفقد إيمانه بنفسه وبقضيته. أستطيع أن أجزم أن كثراً منهم نجحوا في امتلاك ثروات عظيمة، ومناصب كبيرة بأكثر من مجال. ومع ذلك بقوا غرباء.

– هذه الطوابع ستردّ لكم حقّكم؟ يا أخي كان غيرك أشطر. أنت إنسان رومانسي ترى العالم من وجهة نظر مختلفة.

– مختلفة أم متخلفة؟

– الاثنتان معاً.

– بل أرى الأمور جليّة وواضحة. يوجد كثيرون مثلك نتاج التجهيل الذي فرض علينا ممن تداولوا على حكمنا قروناً. وكذلك أعرف أن كثراً أصابهم يأس قاتل لذا ما زالوا يتغنوا بأمجاد حضارة بادت.

– أول مرة أسمعك توجه نقيصة لأصحاب حضارة.

– الحضارات الماضية التي استندت عليها حضارات كثيرة تم استئصالها بشكل إجرامي مازال ساري المفعول بتفنن. تحت مسميات

مختلفة أنا أسميها مؤامرات تفني دولاً وبشراً من الوجود.

– لماذا يفعلون هذا وهم الأكثر تقدماً وقوة وغنى؟!

– الحقد على عالمنا لأنه حقيقي. عالم له جذور وأصالة. له حضور وإشعاعه بين الحضارات. والعالم الذي وصفته قبل قليل بالتقدم والغنى والقوة، عالم لم من كل حدب وصوب بلا جذور.

– إذا كان عالمك بهذا القيمة والتأثير فلماذا لم يقاوم؟

– هذا ما أقصده بالمؤامرة. ممنوعات كثيرة خفية أحبطتنا. من يحاول فضح الحقائق، يجزّ عنقه السياف الشهير مسرور. نعم يجب أن يكون اسمه مسرور. للتأكيد أنه منا وفينا. أو يشترى فيسكت.

– إذاً لماذا وجع الرأس هذا، قم معي لنتنزه، وانس.

– أرجوك لا تقولي ننسى فهذا القول بحد ذاته جريمة بحق مقدساتنا وبحق مستقبلنا. يموت الكثير منا موتاً حقيقياً أو مجازاً لأسباب أبعد ما تكون عن السبب الأحق أن نموت لأجله. الحق والمكانة.

– هل تريدنا أن نحمل همّ ما يحمله الغيب، نعيش مرارته، نتنفس حرائقه، ونزيد جروحنا عمقاً؟ كيف سنعيش؟ أأنت جادّ فعلاً؟

– كل الجدية. لا أقصد أولئك الذين يعيشون بلا هدف، بلا غد.

– حقاً. ما يهمّني سوسن فقط وأن أعيش برخاء وبهدوء وكسل. هيا.

– آسف فمثلك لا يرافق، ما يشغلك لا يعنيني إطلاقاً.

تركتني غاضبة. نظرت إليها وهي تجمح في سيرها كأنها ذاهبة لتغرف سعادة من مجهول أشقاها. أي ظروف تعسة عاشتها فوصلت لأنانية مفرطة؟ لعلها موجة عصر الأنا ومن بعدي الطوفان.

عدت لما كنت فيه. خطر في بالي جدي. فكرت في ما لو دار مثل هذا الحوار بيني وبينه. تخيلت رده "هذه أحاسيس ومشاعر ماتت وما التفكير فيها إلا ضياع للجهد وللوقت والمال".

صرت أفكّر بجدّي بطريقة مختلفة. نعم أعجبت به لكن لم أعرفه

بما يكفي لأحدد مشاعري نحوه. هل هو واحد من أولئك الذين اخترقوا قوانين الحياة وقوالبها؟ ماذا لو أنه يؤمن بقانون الغاب؟

سألته ذات مرة شيئاً كهذا فقال:

– الحياة تعطيك بقدر ما تريده أنت منها. لا تكن كالبعض الذين ضيّقوا على أنفسهم بقوالب جامدة فضاقت عليهم.

– من باعتقادك قيّدها بهذه القوالب الجامدة؟

– بالبداية وأنا أقفز فوق حواجزها فكرت من سيحاسبني؟ توصلت إلى الجواب. وجدتهم لا يستحقون عناء التفكير فيهم. أعداء النجاح، يرون أنفسهم أحق من كل البشر بالتميز، يقفزون فوق أعناق البشر. ربما انتزعوا لقمتهم من أفواه جائعة، ليس ليغتنوا بل ليتمتعوا بإيذاء الغير. ربما هم الشياطين أنفسهم التي حكت دنيا عنهم. قدراتهم خارقة على اللعب وخلط أوراقها.

– أيها الشيخ، من أين كنت تستمد الجرأة وأنت بلا سند؟

– لم أفكر أن ما قمت به جرأة. لكن لم أكن أملك ما أخاف عليه.

– كم كنت بحاجة ماسة لظهورك في حياتي. يا مفتاحي السحري.

نقرت بخفّة على بابه وانتظرت، لم أسمع صوتاً. حين دفعت الباب بهدوء وصلتني نمنمة موسيقية هادئة. انتظرت برهة فقال:

– أين كنت بعيداً يا ولد؟

سكت منتظراً. استأنف الحديث:

– لقد أرسلت من يتجسّس عليك. قيل لي إنك غارق في قراءة شيء أو كتابته. قلت لنفسي: دعه، يا رجل، يمارس ما يحب، حتى يكون معي متوقّد الذهن منفتح القلب، يعني أن تكون سعيداً.

صمت برهة ثم سألني:

– أيكون الإنسان أسعد حالاً إذا مارس عملاً يحبه وإن كان مضيعة للوقت والجهد. ويتعسه ممارسة الشيء ذاته كواجب؟

بقيت مصغياً أسترجع السؤال الطويل. كأنه يوحي إليّ بجواب

بعينه. تعجب من تردّدي، وقد عرفني لا أهادن، فقال:

– يبدو أنني لمست موطن ضعف فيك، أو وضعتك داخل مصيدة!

– لا هذا ولا ذاك سيدي. شعرت بأنك توحي لي بالإجابة التي تريدها مني. هذا ليس بعدل. ومع ذلك سأجيبك. النجاح بشتى صوره يسعدنا. كلنا نتطلع إليه لكن قلة من يفوزون به. برأي أن فرصة إحرازه أكبر حين نقوم بعمل نحبه.

– أنتركه ينطلق دون الاستفادة من ذوي الخبرة؟

– ليس تماماً. على أهل الخبرة، تقدير ميوله وقدراته، لا إجباره على ممارسة ما يناسبهم كأن تكون مهنة العائلة مثلاً. سيكون همّه إنجاز ما أرغم عليه فقط، رغم شعوره الموجع بالإكراه والإحباط.

– إذاً. ما المهنة التي تمارسها ونجحت بها، فجعلتك هكذا سعيدًا، أعني حاضر البديهة ذكياً، لبقاً، وجريئاً؟

– سأجيبك بصدق مهنتي هي الفن بكل أشكاله. لكن دخولي لعالمك الأهم. أنت مدرسة زاخرة بمعرفة حياة لم يتح لي تعلّمها.

تبسم ثم ضحك جذلاً وهو يقول:

– أنت تمسكني من اليد التي تؤلمني. رغم ذلك أعدك أنه لن يفرقنا إلا الموت، وإن كان وشيكاً. كلمني عن دنيا وحياتك الماضية معها.

– دنيا امرأة رائعة حقاً. هي كل من لي في الدنيا.. بيتي، أسرتي. محارة طفولتي، شرنقتي، حضن حنون دافئ ألوذ فيه. كانت لي نعم أم. كنت الأهم في حياتها. منذ العام الأول لدخولي المدرسة حتى الثانوية العامة، لا تتوانى بمتابعة دراستي. تمسك بكتبي وتسمّع لي مادة إثر أخرى. لن أنسى انتظارها لي عند باب البيت مهما تأخرت. تدور بين أصابعها حبات مسبحتها بالدعاء لي. حين تراني تبادرني:

– بسرعة، يا يحيى، اقرأ الأسئلة وأجبها تماما كما فعلت.

كنت أعرف بأنها بالكاد تقرأ وتكتب، كنت أطيعها بشكل مذهل. أقرأ السؤال وأجيبه. تقوم من مكانها وتضمني إلى صدرها وهي تتمتم

وتبسمل. فأقول لها:

– أنت أحسن أم يا سيدتي الجميلة.. أنا أحبك.

– وأنا لا أرجو شيئاً من الحياة سوى أن أعيش لأراك رجلاً ناجحاً. وأرى الدنيا بعيني هاتين، تفتح لك ذراعيها. بعدها أموت.

همها الوحيد مواصلة تعليمي. تشجعني بتكرار كلمات قالها أبي. أن أحرص على التعليم وأغرف من بحوره دون كلل أو ملل. لا تخف شيئاً فعندك ما يكفي إلى أن تصبح رجلاً قادراً على الكسب.

واصلت تعليمي وتخرّجت في الجامعة بليسانس باللغة الإنكليزية وآدابها. قرأت الكثير لمبدعين عرب وغربيين. عشقت المسرح وقررت التخصّص بفنه. درست الإخراج المسرحي في إحدى جامعات لندن. مشروع تخرجي كان مسرحية كتبتها وأخرجتها. كانت تحكي عن علاقات الشرق والغرب كنت أعني الشمال المتحضر والجنوب المتقاعس بمكانه. نلت عليها درجة امتياز. أنهيتها بقولي لنعمل يداً بيد. يصبح العالم بنياناً مرصوصاً. سلسة حضارات متتابعة تدعم بعضها بعضاً.. حضارة تبنى فوقها حضارة، القديم والجديد معاً. لا يسعنا إلا الانحناء، لهذا الإرث، لهذا المجد الضخم.

بما أنني أحمل الجنسية الإنكليزية بسبب مولدي فهناك. أعلن المخرج العظيم فيليب سميث الذي علمني الكثير بأنني فنان إنكليزي. لذا حرصت جداً حين عدت إلى شرقنا تقديم مسرحية عن أحوال شبابنا العربي، المتعلم والمتفوق والمهمّش في بلده. تلك التي أخبرتك عنها بأنها عرضت يوم موت دنيا. حالياً أكتب مسرحية عن العالم الجديد. سأسأل الناس في ما قلته لي أن شريعة الغاب كانت ولا تزال تتحكم في عالمنا. آكل أم مأكول.

– عليّ الاعتراف بأن دنيا أحسنت تربيتك بينما فشلنا في تربية أبيك حتى أضعته. كم غيرتني وأوجعتني سنوات غيابه. فقد البيت بهجته، فقدت زوجتي وهي فقدتني. هذه حقيقة. كنا نتعارك، عراك محبين، عراك تفاوت فكرين أو رأيين في مجالات الحياة. لكن بغيابه صار عراكنا

جديّاً، بلا رحمة. كل منا يحمّل الآخر مسؤولية خسران ابننا.

شريعة الغاب ليست جديدة بل أتساءل وبجرأة متى لم تكن كذلك؟ أنت لا تزال في مقتبل العمر. لم تعرف الحياة حق المعرفة. تظن أنها فاتحة ذراعيها لك. أتمنى عليك أن تعي حقيقة الأمور قبل أن تتعرضّ لفاجعة. ربما أشاركك ببعض الآراء في مسرحيتك الجديدة. يجب البدء بسؤال- متى بدأ الاختلاف بين الشرق والغرب؟ منذ استلاب فلسطين. منذ الحربين الأولى والثانية، وسايس بيكو. منذ الحروب الصليبية. أريد رؤيتها قبل أن أموت.

– أرجوك لا تذكر الموت الآن. عدني أن تتمسّك بالحياة.

– من أنا لأعدك؟ هذا أمر ليس بيدينا، ها هو يلاعبني منذ زمن وأنا بين مد وجزر، ولو لم تكن أيام العمر معدودة لقلت إن ظهورك في حياتي بدد أحزاني. هيا لملم أوراقي المتناثرة على طاولة المكتب. اقرأها وابحث عما تريده. مع هذه الموسيقى الهادئة اتركني أداوي جراحي كما تعوّدت.

– هل كان أبي موسيقياً أم عازفاً أم مغنياً كما يخيّل لي؟

– كان كل ذلك، داس على أحلامي، ترك وراءه ما بنيته طوال عمري، وتفرّغ لما يمكن أن يفعله في ساعات الفراغ من العمل.

– لكنك، تحب الموسيقى. وروحك تسبح في عالمها!

– لا أكره الفن كفن، كرهت أن يجعله ابني مهنته. ثم قراره الزواج من إنسانة لا تمت لنا بصلة. غريبة الأفكار مثل الخطر الداهم على مستقبل الأسرة. أنا الذي مات أهله، وتهدم بيته، وسرقت أرضه، فقاوم وكافح وشقي حتى خرج من تحت الأنقاض. لا تلمني يا يحيى.

– احكِ شيئاً عن أبي.. أرجوك نبذة صغيرة عنه فقط.

– لا بأس يا يحيى.. يوسف كان وحيداً مع ابنتين. كان الصغير. كنت فرحاً فعلاً به، لكنني لم أظهر له شيئاً من هذا. أمه دللته كثيراً. لا أنكر أنها كانت على درجة كبيرة من الوعي وسموّ الروح. وربت أولادها خير تربية. ما كنت لأستطيع تربيته كولد وحيد بين ابنتين كما فعلت أمه.

خطئي أنني لم أعبّر لهم عن أهمية وجودهم وأعطيهم بعض وقت. لطالما غرقت بأشغالي وغبت عنهم.

بعد أن أنهى دراسته الثانوية قرّرنا إرساله إلى لندن لإكمال دراسته هناك. كان متفوقاً في العلوم لذا أساتذته نصحوه بأن يكمل دراسته حتى نيل شهادة في هذا التخصّص، وتنبأوا له بمستقبل واعد. كان ينجح سنوياً بامتياز، فجأة وفي منتصف السنة النهائية ترك الجامعة، التحق بكلية للفنون، ثم أسس فرقة موسيقية وتفرغ لها.

جاءتني رسالة من مدير الجامعة يعبّر لي بها عن حزنه الشديد لأن يوسف ترك دراسته معلّقة في السنة النهائية. قال أعرف سيكون علماً من أعلام الفيزياء في العالم لذلك أحيل المشكلة إليك.

استدعيته بسرعة وصل البيت عند منتصف الليل وجدني بانتظاره. لم أمهله حتى الصباح ليرتاح من السفر. صرخت بوجهه بكل وجع.

– ما هذا الذي تفعله؟ تطبّل، وتزمّر، وتمتهن مهنة النّور والغجر. سأقتلك قبل أن تضيّع أحلامي.

رد بسرعة وببساطة، وكأنه يبلغني قراراً اتّخذه بلا رجعة:

– أبي.. هذه مهنتي مستقبلاً.. لن أضيع حلمي لأحقّق حلمك.

صدمت ثم استدركت. تماسكت وابتسمت، وربت على كتفه بحنان. انتفض، وابتعد، نظر لي بريبة. قلت بمرح مصطنع:

– عظيم.. لك ما تشاء، ليس لدي مانع. بشرط تكمل السنة الدراسية النهائية، وبعدها لك الخيار في كل ما تريد فعله.

– موافق، شرط موافقتك على زواجي من الفتاة التي اخترتها.

– الأجنبية، تلك التي كلمت أمك عنها؟ على كل حال أعدك أن نتباحث في هذا الأمر لاحقاً، عليك إنهاء دراستك أولاً.. اتفقّنا؟ شد على يدي موافقاً. وعاد إلى دراسته.

سكت، وترقرق الدمع في العينين المثقلتين بتعب السنين وبخيبة الأمل، رجف صوته ويداه. رفع كفيّه ومسح على وجهه ثم غطس في

سريره وأغمض عينيه. ربما ليخفي الدموع التي كانت على وشك الظهور، لكنني رأيتها وانتهى الأمر.

قلت أحثه على الكلام:

– وبعد يا جدّي.. هل حصل مكروه لأبي في حينها. أكمل يا جدّي أرجوك.. أتوسّل إليك.

– لماذا يا يحيى تريد تعذيبي؟ هذا الموضوع أغلقته، حتى جدتك حاولت جاهدة أن تشرح لي كيف صارت الأمور بعد ذلك، فلم أسمع.

همست حزينا وراجياً:

– أرجوك يا جدي.

– حسناً.. لك ما تريد. لكنك المسؤول إذا قضت عليّ مشاعري التي لم تهدأ حتى الآن. أصررت على تحقيق أملي بالتخرج. لا تفهمني بالشكل الخاطئ الذي فهمه أبوك وجدتك. هل من الخطأ أنني تمنيت بعطش السنين أن يأخذ ابني مكاني، ويتزوج، وينجب؟

حملت آمالي وأحلامي وذهبت إلى لندن، إلى بيته، قبل انتهاء العام الدراسي بشهر. أردت أن أكون بجانبه وهو يستعدّ للامتحان الأخير، لن أفلت الفرصة من يدي. قررت مفاجأته بقدومي. سيجدني بانتظاره حين يعود من الجامعة. في طريقي إلى لندن أسلي نفسي بالتفكير في الأطباق التي يحبها لأجهزها له قبل حضوره للعشاء. مازلت أتذكر بعض وصفات الطعام التي تعلمتها من إبراهيم.

صمت جدّي، وابتعد عني كلياً. ازدت شغفاً لمعرفة ما جرى. لا بد أن مصيبة حصلت في ذلك اليوم وإلا لماذا اختار هذه الحادثة بعينها؟ تنفّس عميقاً ثم قال:

– فتحت باب البيت بهدوء، تناهى إلى سمعي ضجيج وأصوات آلات موسيقية وغناء وضحكات. تسمّرت في مكاني وأنصت.. عاصفة غضب اجتاحتني، هزت كياني. تـردّدت.. هل أدخل أم أعود أدراجـي؟ اشتد غضبي أكثر. خطوت خطوة نحو غرفة الجلوس فإذا بي وسط أوباش

يترنحون. ازداد ألمي وغضبي، صار فوق احتمالي، كيف سيتحمله يوسف؟ هدأت الأصوات. تنبه الجميع لدخول شخص غريب فتوقّفوا. تقدم يوسف وكتم صرخته "بابا". امتقع لونه، ترنّح كأنه سيغمى عليه، لا أعرف من الرهبة أم من السكر.

تماسك ثم التقط يدي فإذا بيده باردة مثل قطعة الثلج، قادني إلى غرفة نومه. أجلسني هناك بضع تمتمات، هو نفسه، لم يكن يعرف ما يقول، وخرج ليفضّ الجلسة.

لم أنتظر. لم أمهله، لحقت به. كانت فرقة من الشباب والبنات كاملة العدد والعدّة يقومون بالتدريب. هجمت على الكمان الذي كان يوسف يواريه في مكان ما، وانهلت به على رأسه، فتحطّمت آلته وانبثق الدم من رأسه. كان يتوسل أن أؤجّل ذلك. بهت الجميع، ازداد هياجي، اندفعت من جديد، أكسر أكثر من آلة، وجرحت أكثر من شخص، وأنا أزعق:

– هذا الذي تعيش له في غربتك؟ هذه المساخر تقوم بها في البيت الذي اشتريته لتتخرج بدرجة امتياز؟ على هذه المساخر تنفق الأموال التي أجنيها بتعب وعرق؟ أهؤلاء الفشلة تؤويهم وتطعمهم يا كلب؟ لست ابني.. ولا تستحق أن تكون ابني.

حين أفقت من صراخي وهيجاني، لم أجد أحداً حولي، سوى بقايا معركة التحطيم التي قمت بها، وبقع دم على السجادة التي أدوس عليها بقدميّ، دم ابني. من يومها لم أرَه أبداً. لم يعد إلى بيته في لندن ولم يعد إلى بيت الأسرة. لم أرَه حتى اليوم.

رجعت إلى بيتي بالطائرة ذاتها التي أقلتني إلى هناك. ساعتان فقط بين وصولي إلى بيته والعودة إلى المطار، بما فيه الوقت الذي حطّمت فيه كل شيء– الأشخاص والآلات الموسيقية، وأشياء أخرى.

استقبلتني أمه بعاصفة من الأسئلة لم أجد في نفسي القدرة على الإجابة عنها. من شدة الحزن الذي أعانيه. أفزعها صمتي، تكهنت أن سوءًا قد حصل ليوسف. نواحها قطع صمتي وحزني، فأخبرتها بكل شيء. سافرت من فورها إليه وطال غيابها وغيابه.

أكثر من خمس وعشرين سنة مرت وهو بعيد. عدت أغذي في نفسي مشاعر الغضب عليه حتى لا أشعر بلوم أو ندم. تناسيته بكل قسوة، أجبرت نفسي على عدم سماع أيّ خبر عنه.

إبراهيم صديقي كان يزور لندن بين فترة وأخرى لزيارة ابنه طالب الطب– كما لم أفعل أبداً– أخبرني بأنه في المستشفى منذ شهور يعالجون جسده مما لحق به. حالته النفسية أسوأ من كل الجروح. أدمت نفسه المهانة التي تعرض لها.

بعد مرور سنتين أو أكثر على تلك الحادثة. عادت أمه تصرّ أن أسمع شيئاً عنه. قالت: رغم ما تعرض له فقد نجح بتفوّق وحصل على الليسانس. أفجعتها بصلابة موقفي. جملة واحدة أرددها– ليس عندي ابن اسمه يوسف.

– هل كنت معتاداً على ضربه كلما أخطأ؟

– لا أذكر بأنني ضربته. لكنني أعترف بأنني كنت قاسياً جداً عليه، قولاً، وفعلاً، في طفولته وفي شبابه. أردته رجلاً بمعنى الكلمة.

– ماذا تعني بذلك؟

– خشيت عليه من أن يشب متنعماً، طري العود مثل أولاد الأغنياء الذين أعرفهم، خاصة أنه يعيش وسط أختيه البنتين. أردته صلباً متمرساً في مواجهة الحياة. أردته أن يعاني ما عانيت.

– أهذا ما يصنع الرجال برأيك؟!

– على الأقل من خلال تجربتي. بعد بضع سنوات أخبرني إبراهيم، الذي ظل يبحث عنه ويتابع أخباره. أن يوسف أصبح ذا شأن مع فرقته الموسيقية "وجدان" التي أسسها.

ذات ليلة اتصل إبراهيم راجياً أن أفتح التلفزيون على محطة البي بي سي، وأرى يوسف مع فرقته في بثّ حيّ من مسرح كبير في لندن، يقف عليه نخبة من الفنانين المشهورين.

قال إبراهيم في اليوم التالي:

– ليتك رأيته، فقد قدّم عرضاً رائعاً أمام جمهور غفير. غنّى شعراً مع الفرقة عما يجري في العالم ويدبر بالخفاء. عن سماسرة الحروب. وتجار القضايا، ومشرّعي قوانين الغابة.

– ما يدريك قد أكون رأيته.

– حتى وإن شفتك بأم عيني لا أصدق، فعقلك أقسى من حجر الصوان في بلادنا، إذا ما زلت تتذكّره.

لأول مرة أختلف مع إبراهيم بعد طول سنين، لأنه رآه على حق، ورآني قد قسوت عليه وأهملت رعايته بانشغالي الدائم.

تركت جدّي يجفّف دموعه، ويسكّن جراحه، وجلست على مكتبه في غرفة نومه. وفتحت الملف الذي بدأت أقرأه في المرة السابقة. لم أستطع القراءة، كانت الصورة التي امتلأ بها خيالي هي ثورة جدّي، ورأس أبي المصابة، وفرقته المذهولة لا تعرف كيف تلوذ بالفرار من طوفان الغضب الذي دمّر كل شيء.

أغلقت الملف، وارتميت بكامل ملابسي على الكنبة، أبكي بصمت وبحرقة، بدموع غزيرة أغرقت مخدتي، دموع حقيقية تركتها تغسل كل هذا السواد الذي يكتنف قلبي مذ وعيت على فقداني لأبي.

لم أنم، وكذلك جدّي. كلانا كان يتمزق لأسباب مختلفة. غرقنا بحزن طويل قاتم، لم ينجل مع انجلاء ظلمة الليل وبزوغ فجر اليوم التالي، واليوم الذي يليه. ما إن تقابلنا وجها لوجه حتى فتح لي ذراعيه، وارتميت على صدره، احتضنني بلا دموع، بلا كلام.

مضت بضعة أيام وجدي متوعك، عازف عن كل شيء.. عن الكلام وعن الطعام، وعن الدواء، وعن الموسيقى. كان سارحاً في عالم بعيد. اتبعت نصيحة سوسن بأن أتركه ليعود إلينا من تلقاء نفسه.

لم أكن بأحسن حال منه. كأنني خرجت من دنياي، والتحقت بشخص هام على وجهه سنوات، لا أحد يعرف إن كان حياً أم ميتاً. أتساءل: إذا كان حياً، لم تركني سنوات عمري؟ لماذا لم يسمح لدنيا أن توصلني إلى

جدي؟ أسئلة تحيرني، تعذبني وتظل بلا إجابة.

هل سأجد تتمة القصة عند سوسن أو عند عمتي؟ لعل جدتي عندها الإجابة. لم أرَها بعد؟ انتعشت ذكرى أبي، شعرت بأنفاسه بل بأصابع فنان تكتب وتبدع أجمل الكلمات، وتلحن أجمل الألحان. شعرت بيده تمسح دمعتي. نظرت إلى جدّي، كان مغمضاً عينيه، يتنهد بين فينة وأخرى. هل يعرف مدى الضرر الذي لحق بي من قسوته على أبي؟ هل أحببته حقاً؟ هل أرغب في صحبته؟

لاح لي الملف الذي كان في بيتنا منذ وعيت. راقداً بحزن على المكتب. مددت يدي ففتح على صحفة بعينها، وإذ بي أمام صورة كبيرة تجمعنا، أنا وأبي وأمي. تأملّتها، لعلي كنت في الرابعة من عمري، لم أتذكرهما. طويته وألقيت برأسي للخلف. هدر صوت جدّي:

– لقد خرقت شيئاً ممنوعاً يا يحيى. أعطني الملفّ.

ناولته الملف، وعيني غارقتين بدموع غزيرة، همس:

– ليس قبل أن آذن لك.

قلت بصوت مخنوق:

– متى؟

– لا تستعجل الأمور.

– لا تنس أنه أبي.

– وابني الوحيد.

ركعت بجانب سريره، ودفنت وجهي في الوسائد، وأخذت في بكاء هزّني من الأعماق. مدّ يداً مرتعشة ورفع وجهي فقلت:

– أرجوك دعني أقرأ الفقرة التي وصلت أنت إليها فقط. قرأت جملة ورأيت صورة، ثمة شيء بداخلي احترق. لن أقوى على الانتظار.

لامست يده رأسي، ومسحت على شعري. غطس في فراشه، وأدار لي ظهره، أجهش في البكاء وهو يقول:

– لك ما تشاء.

يوسف

حكى أبي:

بعد تلك الحادثة المروعة تجزأت. روحي ظمأى لشيء فقدته إلى الأبد، جسدي يعمل الأطباء على إنقاذه، يجبرون كسوره ويخيطون جروحه. لكن الألم الأشد كان في قلبي الذي كسر. خائف يرتعش مع كل حركة مع كل صوت عالٍ. ممدّداً على فراش في المستشفى.

أجلت عينيّ في أرجاء الغرفة رأيت أمي جالسة على كنبة كبيرة رافعة قدميها على مقعد صغير، وفي ذراعها جهاز ضغط الدم مثبتاً. كانت على ما يبدو نائمة.

نزلت من السرير لاحتضانها. رأيتها بقايا المرأة التي كانت أمي. بيدها ريموت التلفزيون، سحبته من يدها، وجلست على حافة السرير أتذكر متى جاءت لزيارتي؟ كانت شديدة الهزال. صعقت أمي أجمل الجميلات، وأكثرهن أناقة.

نظرت نحو التلفزيون، أردت إغلاقه لأتركها تنام، وإذ بي أمام منظر تقشعرّ له الأبدان. رفعت الصوت قليلاً لأعرف أين هذا الحدث، كان في غزة. شاب في مثل عمري لا يحمل بيده شيئاً سوى حجر، وجنديٍ يهودي يضربه بكل وحشية. مد يده إلى جيب الشاب وأخرج منها حجراً أكبر، وأخذ بضرب الشاب على رأسه المحشورة بين زاوية حائط ويد الجندي الممسكة بشعر رأسه. يضربه بالحائط بكل ما يمتلك من قوة، بكل قهر وحقد لا يمكن أن يتخيّله بشر. الدم ينبثق من رأسه، فيرشق وجه المجند وثيابه والأرض.

خارت ساقا الشاب تحت جسده المعذّب، وانثنت ركبتاه، وصارٍ نصفه على الأرض، والنصف الآخر يشدّه المجند من شعر رأسه محاولاً تثبيته على الجدار الذي أصبح بلون الدم المتناثر بالهواء.

تحرّكت الكاميرا لتجول في المكان، كان هناك الكثير من الشبان واقفين محاولين قذف المجنّد ومن حوله بالحجارة. بين الأقدام أطفال صغار يرفعون أصابعهم بإشارة النصر، ووجوههم تشي بفقر وجوع وأجساد شبه عارية. الحزن أكبر منهم، ولكن بلا خوف، بلا فزع.

وقفت على قدميّ منتفضاً، تذكّرت.. كنت في هذا الموقف، لكن متى؟ قبل أيام أو أسابيع أو شهور لا أذكر. الجلّاد كانٍ أبي. لم يكن بيدي حجر ولا سلاح، كانت بيدي كمان أعزف بها ألحاناً تنشر السلام والمحبة، وتتنكر للظلم. أغنّي كلاماً يدافعٍ عن مظلومي الأرض. وما أكثرهم! إذاً الرجل الذي ضربني كان واحداً من هؤلاء اليهود. على الأقل مثلهم، يؤمن بأن الدنيا بكل ما فيها ومن فيها، سخّرت لخدمة الشعب المختار. وهو الرجل المتفوق القادر.

صرخت وبكل ما بي من قوة، بداية بلا صوت بلا كلام مفهوم، حشرجة موات، ثم انطلقت أرقص وأغنّي تلك الأغنيات التي كان الفدائيون يرددونها أيام الانتفاضات "طل سلاحي من جراحي" ثم أصيح "الله أكبر" "مرفوع الهامة أمشي".

صحت أمي من نومها على هدير جنوني. اندفعت نحوي غير عابئة بجهاز الضغط المحيط بذراعها الذي طاح على الأرض. احتضنتني وأخذت تبسمل لتهدّئ من روعي، ثم تهرع لطلب الاستغاثة. وأنا ممسك بكتفيها أهزها وأصرخٍ: الآن قولي لي ولكل هؤلاء أن الذي ضربني بتلك الوحشية كان يهودياً، هيا قولي إنه ليس أبي، قولي إنه ليس أبي.

ها أنا أصحو من جديد من نوم قسري. أمي ممدّدة على سرير مجاور لسريري، معلّقة بأجهزة وخراطيم، وبدقات أجهزة منتظمة تشبه دقات القلب. ناديتها فتحت عينيها وابتسمت، وبوهن قالت: الحمد لله على سلامتك يا حبيبي، ثم صمتت ونامت.

كنت أغوص في غيبوبة أم أنام بفعل منّوم. دخلت عليّ طبيبة، مبتسمة تفوح منها رائحة العطر والمطهرات، قالت بالعربية:

- صباح الخير يوسف. أنا طبيبتك النفسية. سأتولى علاجك.

سأساعدك على التخلص من تعبك. سنتعاون أليس كذلك.

مدّت يدها مصافحة، سألتها عن حال أمي. ابتسمت وقالت:

– هي أمّ. الذي سيساعدها للعودة كما عهدتها معافاتك التامة. سنكافح من أجل ذلك، من أجلك، ومن أجلي، ومن أجلها. اتفقنا.

هززت رأسي موافقاً. قالت بلطف:

– غداً سنبدأ العلاج بعد نقل أمك إلى غرفة أخرى، لقد أصرت على البقاء إلى جانبك. الآن أنت بيد أمينة، بين يدي نفسك. خلّص نفسك من كل ما يعذبّها، تصالح معها. أعد إلى جسدك وإلى روحك وإلى قلبك الوئام والحب. تكلّم وبح بكل ما يخطر على بالك، تماماً كما حصل قبل أيام. كن صريحاً مع نفسك لا تستهن بشيء، ولا تجبر نفسك على التذكّر. اترك نفسك على سجيتها.

بقيت صامتاً أنقل عينيّ بينها وبين أمي. ملامح وجهي توحي بعدم استيعابي لما تقول. أكملت:

مثلاً.. تخيّل الشخص الذي سبّب لك الأذى واقفاً أمامك، ووجّه له التهم، ردّ له الصاع صاعين كائناً من كان. لسنا بعجلة، ستعرف بنفسك متى تصبح جاهزاً، لا تحتر من أين ستبدأ، المهم أن تبدأ.

– يحيى تعال.

تنبهت.. لم أستجب. كنت أبكي بحرقة بصمت، وأهمس لنفسي: الأفضل أن يعيش الإنسان بلا أب على أن يكون له أب يهودي.

– يحيى.. لا تزد أحزاني. اتركني أفرح بوجودك. عشرات السنين وأنا حزين. أنا عشت هكذا. كان أبي أشدّ قسوة، كان يبرر قسوته بأنه مضطر حتى نقوى على قسوة الحياة.

اقتربت بتمهّل. حاول الجلوس، هرعت لمساعدته. قال بانكسار:

– هل ستبقى معي؟

لم أرد.. وخرجت من غرفته إلى غرفتي أعتصم بها. ثلاثة أيام متتالية، لم أرَ جدّي ولا هو أرسل في طلبي. كانت أمينة تحضر الطعام،

وتعود لأخذه دون أن يمسّ. كنت حزيناً بشكل مخيف، لم يحصل لي ذلك من قبل، حتى موت دنيا وشعوري العظيم بعدها بوحدتي. لم يكن يشبه هذا الشعور، سواد شملني، لفّني من رأسي حتى أخمص قدميّ، غضب يعصرني ولا أعرف على من أصبّه.

أعاود قراءة أوراق أبي، أحاول أن أتبين الأمور الذي غفلت عنها في أثناء قراءتي الأولى للورق الأصفر البالي. تتفتت بين يدي لقدمها وللعصبية التي أمسكها بها، أحرص عليها وعلى الصورة التي وجدتها داخل الملف تجمعني بأبي وأمي، أسرتي الصغيرة التي لا أعرف حتى الآن من بعثرها قبل أن يشتدّ عودها. ولا لماذا حرمت منها.

خرجت من الغرفة وإذا بي وجهاً لوجهٍ مع جدّي. يرتدي ملابس الخروج، منتصب القامة نشطاً. لم يخفَ عليّ التجلد المفتعل الذي يبديه. دخل غرفتي، مدّ يده لأساعده وأجلسه على كرسي المكتب مقابل الكمبيوتر المفتوح على الملف الذي كنت أعمل فيه.

تشاغل عن الحديث بمحاولة قراءة شيء مما أمامه على الشاشة. تنهد وقال العتب على النظر. سكتّ ولم أرد. عاد يقول:

– الإنسان.. أعني لكل منا، حياته وتكوينه البدني وطريقته في التفكير. التنشئة والظروف المحيطة والعادات والتجارب والتعامل مع الناس، كل ذلك له دوره وتأثيره على تصرفاتنا.

بالنسبة لي لم أجد بدّاً من التخلّق بأخلاق السوق، وعقلية أهل السوق. في ذلك العمر الصغير، بين أناس أكبر مني من مختلف الأجناس. تعلّمت منهم فنون التعامل لا أقول أحسن أو أسوأ. عندئذ، لم أكن أدرك الكثير من الحقائق.

ما زلت مطرقاً، عقلي متجمّداً عند نقطة محدّدة، وسؤال ملح: لماذا فعل كل ذلك بابنه؟ لم يسعفني تفكيري إلا بأنه إنسان عاشق لذاته، لا يرى سوى نفسه ومطامحه وأحلامه ومقتضيات استمرار إنجازاته.

وقف ثم تقدّم نحوي بحذر، أحاط رأسي بكفيه، هزّني برفق. ثم انحنى فوق رأسي وقبله ولامس شعري وهو يقول:

– أعطني فرصة أعوضّ خسارتنا. نعم، كلّنا خسرنا يا يحيى.

جاءنا صوت عمتي حاملاً غلّ الدنيا كله:

– ما الذي حصل؟ يا ناس، هل يصدق أحد عرف يحيى القادر حق المعرفة أنه يحتضن، ويقبل، ويعتذر، بل، يكاد يركع على ركبتيه ليسامحه ابن يوسف المزعوم؟ لماذا كل هذا الحزن؟

– أهذا الكلام وهذه اللهجة لي أنا يا بنت؟ والله لولا وجود هذا النبض الذي في قلبي تجاه يحيى الصغير لما غفرت لك. قلت لك مرات ومرات لا أريد أن أراك، ولا أريد سماع صوتك. حتى وإن كنت أموت، لا تأتي لوداعي. كم أشقيتني!

– أنا أشقيتك، أم أنت من قتلني؟ لقد دمّرت حياتي.

– إن كنت تقصدين زواجك بابن عمك فها هو قد عاد، صار أقرب إليك مني. ربما تتآمرين معه علينا.

– هو والد ابنتي. والد سوسن.

– والدها الذي لم يعترف بها وهي جنين في بطنك.

– سيعترف، وسيعطيها اسمه.

– إذا كنت تريدينها أن ترث شيئاً مني فاتركيها على اسم الفرنسي الذي ربّاها. اغربي عن وجهي. يحيى هو صاحب الحق الوحيد.

انسحبت غاضبة وهي تلعن اليوم الذي دخلت فيه دنيا الخادمة إلى هذا البيت وجاءت بالمصائب. التفتت نحونا، وقالت:

– من حق سوسن أن يدافع والدها عن حقها بكل وسيلة.

تداعى الشيخ ثم تماسك. طلب مني إعادته إلى غرفته واستدعاء الطبيب. رقد بضعة أيام، ثم تعافى. حين رآني بجانبه ابتسم وقال:

– أشهد أنك شاب شهم. كنت أظن أن ما رويته لك كفيل بجعلك تهرب وإذ بك بجانبي تساندني. ماذا فعلت في هذين اليومين؟

– لا شيء. كنت أرقبك فقط، وأنتظرك لتعود من جديد. رأيتك بلا حول ولا قوة إنساناً عاطفياً بامتياز. لكنك، تستميت لتثبت للجميع أنك

قاس وجاف وواقعي. توهم الجميع أن وجودهم وعدمهم سواء؟

– أهذا رأيك؟

– بل هذه هي حقيقتك. قسوتك مجرد صدفة تختبئ في داخلها.

– أول مرة في حياتي أسمع مديحاً ولا أنسبه إلى مصلحة. لنعد لسابق عهدنا، ونكمل ما بدأنا. لا تقرأ عن أبيك حتى أسمح لك.

– لنعد، لكن دون وعد مني بألا أحاول معرفة أبي في أثناء تجوالي معك في رحلة حياتك، ورحلة حياته وحياتي.

عدت إلى سيرة جدي..

بداية المشوار

جاء موعد السفر بعد طول انتظار، أخبرونا بأن نكون على استعداد بعد غد الجمعة. سأله إبراهيم إن كان علينا الدفع مقدّماً، قالوا: نتحاسب حين نصل. كانت الفلوس التي تمكّنا من جمعها معي، هكذا أراد إبراهيم. جمعنا كل ما نملك من عتاد وهو قليل، حرصنا على حمل بعض الأطعمة المتوافرة والضرورية.

قبل شروق الشمس كنا نجدّ لنلحق بالقطار الذاهب إلى مصر. هدوء وصمت مطبق، حتى الطيور لم تستيقظ بعد. لمسة برد، مع شيء من القلق تمس نفوسنا فنتلهى بتخيل مصر، أم الدنيا، لا يضيع أحد هناك فمثله كثر.

وصلنا المحطة. جموع غفيرة من البشر. لا تميز وجهاً من آخر، خليط بكل الألوان بكل الأشكال. يتلف حولهم حمالو وموظفو المحطة، آخرون يقفون بتكبر ينتظرون أن تفسح لهم الطريق ليعبروا إلى الدرجة الأولى لعلهم موظفون كبار أو ملاك أراضي. صعاليك حفاة تستر أجسادهم ملابس مهلهلة، يحملون سلالاً وأكياساً. أخيراً وبعد طول تدافع، يوصلنا أو يقصينا، صعدنا إلى الدرجة الثالثة. كان مكاننا مع الصعاليك والعمال والشحاذين حشرونا كما يرص السردين في علب

صغيرة. متجمدين لئلا نتدافع من جديد.

جاءنا رجل التذاكر، المسبقة الدفع، كان يتناولها بقرف، يخرقها بآلة ثم يقذفها في الهواء. سارت الأمور بلا مشاكل. الجمع غدا مستسلماً ساكناً مع هزات القطار الرتيبة. بين محطة وأخرى يصرخ رجل التذاكر باسم المحطة، ثم يعطي إشارة معاودة المسير. في رفح أشار مرافقنا لنا بالنزول. قال:

– هيا شباب سنكمل الطريق سيراً على الأقدام لنعبر الحدود.

نظر كل منّا للآخر هلعاً. لم نجرؤ أن نسأله توضيحاً. كأننا نخشى أن يغير رأيه ويتركنا. وضح قائلاً:

– أنتما لا تملكان أوراقاً ثبوتية. يعني ستدخلان مصر بشكل غير قانوني تهريباً يعني، سيتم كل شيء إن شاء الله، بأمان وصبر.

اقترب مني إبراهيم وهو يقول:

– احرص على الفلوس، هذا رجل لا نعرفه، ونحن، على ما يبدو، في صحراء لا حياة فيها، ربما يطمع بنا ويذبحنا.

هززت رأسي وضحكت ساخراً.. رد إبراهيم:

– يعني هو يعرف أننا لا نملك إلا القليل. الحرص واجب.

– يا أخي إذا كنا قد عزمنا على هجرة بلادنا، ورضينا أن نعيش في الغربة سنوات طويلة من عمرنا، ربما عمرنا كله، فممن نخاف وعلى ما نخاف. نحن اثنان. توكل على الله.

التفت إلى المرشد وقلت له:

– يا ريس أين نحن بالضبط؟

– نحن في رفح الفلسطينية، وسنمشي بضعة كيلومرات حتى نصل إلى رفح المصرية. أمامنا طريق ممهد قبل نقطة تفتيش الريسة. سنتجه شرقاً إلى طريق فرعي حتى نعبر برّ الأمان. أنتما مع خبير.

ضحك وضحكنا، وجددنا بالسير، كنا على ما أتذكّر في نهاية الربيع ومع ذلك لا نشاهد مظهراً من مظاهره في هذه الأرض القاحلة. كنا

نستريح بين حين وآخر. كان إبراهيم قد بدأ بالتدخين منذ شهرين وحين نهيته طمأنني بأنه حين يستريح وتستقر الأمور لن يعود بحاجة إليها. هادنته كنت أفكر بطرقة أكثر وعياً منه، أؤمن بأن ما يواسينا ويعيننا على الصبر هو الأمل، أغذّي أحلام يقظة تراودني، بأننا فعلاً في طريقنا لنبدأ حياة الرفاهية والعيش الرغيد. وإن كان عملنا سيبقى، كما أعتقد، متعباً بل شاقاً. فما معنى أن نهدر قروشنا وصحتنا على التدخين ونحن لا نملك في الدنيا سواها.

صاح المرشد، وكان يسبقنا بمسافة بعيدة نوعاً ما:

– من هذا المكان نستطيع ركوب الحافلة إلى العريش.

حافلات كبيرة عتيقة ومهلهلة تشبه حياتنا الشقية. أشار المرشد إلى واحدة صعدنا إليها وكانت ممتلئة برجال ونساء ممن يعملون في الموانئ. صيادوي السمك، يبيعونه بعد أن تطبخه نساؤهم للعمال هناك. كانت ثيابهم بالية، ولحاهم طليقة، وشعورهم ملبدّة لم تعرف الماء منذ زمن. رائحتهم كريهة، رائحة السمك المخزون "الفسيخ".

سارت بنا الحافلة ما يقارب الساعتين، ببطء من ناء بحمله أو بعمره الافتراضي. توقّفت فجأة، اهتزت الأجساد، وتنبهت العيون الغافية من تعبها، نزل بعض الركاب فأشار لنا بالنزول، أشار على الطريق الفرعي الذي سنسلكه لنبتعد عن نقطة تفتيش ثانية.

سارت الأمور كما قدر لها ومشينا على أرجلنا ما يقارب الكيلومار ونصف الكيلومتر وإذ بنا مجاورين لقناة السويس. كنا في غاية التعب والجوع، ارتمينا على الرمال الممدودة أمامنا بلا نهاية. كانت باردة ناعمة، احتوتنا بحضنها، فاستسلمنا لها.

كان ثمة عربان ينقلون الرمال من حول القناة ويرمونها بعيداً. جاءنا أحدهم يطلب منا أن نأتي للعشاء عندهم. عرفنا أنهم من الصعيد يبحثون مثلنا عن لقمة العيش.

انتقلنا إلى جوارهم ورائحة العدس تنتشر في الجو، مما ساعد على تعاظم شعورنا بالجوع الذي كتمناه طوال ساعات السير الصعب على

القدمين. رأيت كبيرهم يغرف من برميل كبير، كانت أمي تستعمل مثله للغسيل، يحتوي على شوربة العدس، كنا، بانتظارها في لهفة. قدم لكل منا صحناً بلاستيكياً عتيقاً بلا لون. قدم آخر بعض كسرات من الخبز اليابس القديم يحملونه معهم من بيوتهم قبل السفر، أمسك بقطعة منها، فتتها وألقاها في صحنه، وبدأ يأكل بتلذّذ واضح. فحذونا حذوه. امتلأت معدتنا فروادنا نعاس المتعبين.

تمددنا على الأرض لنستريح كما هي الأصول في بيوت الناس المرتاحة، إذ لا بد من القيلولة بعد الغذاء الدسم. كان ذلك بالنسبة لنا بالقيمة ذاتها. إذا قلت إنه أطيب طعام ذقته في حياتي فلن أكون كاذباً. تذكّرت أمي، الله يرحمها، كانت تمقت كثيراً أن يقول أحدنا أمامها أنه تذوّق طعاماً طيب المذاق عند فلان أو في المحل الفلاني، كانت تغضب وتصرّ على أنها أحسن من طبخ، هي كذلك.

قضينا ليلتنا في العراء برفقتهم. من يشعر ببرد الليل يلتف في بطانيته الباليه، ويقلب أحد البراميل على جنبه ثم يدّس جسده داخله قدر الإمكان، يبقى رأسه المعمّم خارجاً. في صباح اليوم التالي تركنا المرشد. أصبح بإمكاننا التنقّل كما نشاء.

عند الضحى كان رجل منهم يهمّ بالسفر إلى الإسماعيلية ليقضي بعض المهمات، كان كبيرهم يوصيه ألا يعود قبل أن ينهي مهمّته في اليوم ذاته. أعددنا أنفسنا للذهاب معه. توجهنا إلى محطة الباصات وركبنا أحدها ودفعت قرشين عني وعن إبراهيم.

وصلنا الإسماعيلية، لأول مرة في حياتي أرى مدينة بهذا البهاء والجمال والنظافة. سألني أحد المرافقين:

– إلى أين، إن شاء الله، يا أخ يحيى؟

– لا أعرف فالمدينة كبيرة، فهل لك أن تدلنا على مكان رخيص، نقضي به يومين ريثما نتعرف إلى أحد من بلدنا.

– يعني أنتم مش راجعين معنا. إذا كنتم بحاجة لعمل فاعملوا ما نعمل، فكلّه شغل.

– سنبقى هنا، وسنتدبر أمرنا. شكراً على كل شيء.

سرنا في الشوارع على غير هدى، كان إبراهيم قد بلغ التعب منه مبلغه. طلب أن ندخل إلى أية قهوة فإنه بحاجة إلى شيشة وفنجان قهوة. ليس من الضروري أن نبقى على السرعة ذاتها والخوف نفسه، فنحن الآن بأمان. مررنا بفرن كبير، وعلى بابه رجل يدخّن الشيشة ويشرب الشاي، فحييته وسألته أن يدلنا أين نجد مكان نرتاح فيه لأننا أغراب، ثم قلت بمرح: صاحبي يريد شيشة كما تفعل. كان يتمتع بروح النكتة التي سمعنا كثيراً أن أهل مصر يتمتعون بها، فقال وابتسامة مرحبة تنير وجهه:

– أهلاً وسهلاً. ما غريب إلا الشيطان، تفضّلا بالجلوس وحالاً ستأتي الشيشة والشاي. أم تفضّلان القهوة؟

– أنا أريد الشاي، وصاحبي إبراهيم يريد شيشة وقهوة. آسفين للإزعاج يا حاج.

– أنا الحاج غريب. صديقك اسمه إبراهيم، ما اسمك أنت؟

– يحيى قادر. نحن من فلسطين. وتركنا بلادنا نبحث عن عمل في أي مكان في مصر.

جاءت الشيشة والقهوة لإبراهيم والشاي لي، وأحضروا لنا بعض البسكويت الذي يصنعونه في فرنهم. عاد الحاج للسؤال:

– ماذا تعملان؟

– كل شيء، نحن، بل كل شباب النكبة متعودون على الشقاء.

– إذن أنت ستعمل عند جاري بائع الفول والكشري، وإبراهيم يعمل عندي في الفرن. في هذه الفسحة أمام الفرن يأتي بعض العمال لتناول غدائهم ويشربون الشاي ويدخّنون الشيشة. الحقيقة أنا بحاجة لمن يساعدني. ليكن صديقك إبراهيم. وأنت عند صديقي رمضان الفوال، هيا بنا فخير البر عاجله.

ذهبنا عند رمضان، عرفه بي وسأله إن كان يوافق أن أعمل عنده

حتى تتضح أمورنا، ونجد عملاً هز رأسه وهو يقول:

– تؤمر يا حاج، من له كلام بعد كلامك؟

– هذا عشمي فيك يا أخي، سيبدأ يحيى غداً صباحاً.

عدنا إلى الفرن لنجد إبراهيم يعمل بهمّة فقال الحاج مازحاً:

– تعال يا إبراهيم. اليوم للراحة، وغداً يبدأ العمل. سنذهب إلى بيتي فأنتما ضيفيّ هذه الليلة.

ذهبنا معه إلى منزله، حال دخوله إلى البيت صاح يا الله ينبه الحريم، ثم نادى يا حجة نزهة، عندنا ضيوف من فلسطين التي تحبينها، تعالي سلّمي. جاءت الحاجة وأهّلت بنا وسألتنا عن أخبار البلاد، وكيف تركناها؟ كنا نجيبها باقتضاب. علق الحاج: يعني كيف تركاها يا حاجة ألا ترينهما متعبين وجائعين، مري لنا بعشاء، وبعدها سوف نتحدث بالسياسة كما تحبين.

خرجت الحاجة ملبية أمر الحاج، بينما أخذ الحاج يحدثّنا عن زوجته بأنها ابنة أحد العمد في الصعيد، وهي متعلمة، وتجيد الخياطة والتطريز والطبخ أيضا. ثم قال: اطمئنّا.. ستتحفكما بعشاء شهي.

فعلاً كان عشاء لذيذاً وشهياً. كانت تقتطع من الدجاجة الكبيرة الرابضة في الصحن النحاسي، وتناول كل منا نصيبه، وتؤهل وترحب. بعد شرب الشاي طلب منا الحاج أن ننام في غرفة الضيوف حيث نحن، وسيرسل لنا أغطية وماء. لكننا رفضنا، وشكرناه على كرمه. مسألة النوم، اسمح لنا، لا تجوز. قال: إذاً تنامان في الفرن مع حسن وعطا الله.

كان ذلك حلاً مناسباً. فنحن لا نعرف البلد، ولا نملك المال.

في الصباح ابتدأ العمل. إبراهيم عند الحاج غريب، وأنا عند رمضان الفوّال. كانت الأجرة ثلاثة جنيهات في الشهر لكل منا.

بعد ثلاثة أشهر، كانت مدخراتنا عشرة جنيهات. قررنا ترك العمل في الإسماعيلية والذهاب إلى فايد. استأذنا من أصحاب العمل، ودّعناهم

آسفين وانطلقنا إلى فايد بالسيارة بعد أن ذهب معنا دليل يوصلنا إليها. ذهب معنا عطا الله أجير الفرن الذي أصبح صديقنا.

حين وصلنا، أعطيت الدليل شيئاً من المال ليأكل ويعود من حيث أتينا. تابعنا سيرنا إلى معسكر الإنكليز الذي سنعمل فيه. استقبلنا المسؤول عن تشغيل العمال. وسألنا عن أوراقنا الثبوتية، أخبرناه بالحقيقة، شجعنا على القدوم مستر نورهام. قال:

– عليكما الذهاب إلى القاهرة، سأعطيكما عنوان شقيقي مصطفى وهو سيتكفّل بعمل فيش وتشبيه لكما ثم تعودان إلى هنا لتحصلا على العمل بطريقة قانونية. الناس هنا انكليز، يعني مضبوطين تماماً.

أرسل معنا من يوصلنا إلى محطة القطار. تحرك القطار بنا إلى المجهول مرة أخرى. كنت كلما مر قاطع التذاكر أذكره بأننا سننزل في باب الشعرية، حارة سيدي بومدين رقم 19، فيرد بصبر حاضر يا ابني لا تقلق لسّه قدامنا كثير. يواصل القطار سيره غير عابئ بقلق من يقلق، أو تعب من يتعب، أو يسأل، أو يحلم. بعد ساعة انطلق صوت يقول أنت يلي نازل باب الشعرية تفضل. لم أسمع كنت غارقاً في بحر ليس له قرار حتى أتى إليّ وهزّني وهو يقول يا حضرة، مش نازل باب الشعرية؟ قفزت مرتاعاً ساحباً إبراهيم، ونزلنا بسرعة البرق.

طلق القطار صفارته، فأجابه آخر ثم غيره. تهنا في زحمة الناس، وتشابك القطارات، وأرقامها، وعدد الصاعدين والهابطين منهم. حولنا ناس لا أعرف عددهم، مختلفون في الأشكال واللباس. موظّفون وعمال وحمالون، الكل يصرخ، الكل يسأل، ولا أحد يجيب أحداً. كنا نتحرك بصعوبة من كثرة الازدحام، ومن جهة أخرى لا نعرف إلى أين سنتجه. أخيراً أوصلنا التدافع خارج المحطة سألت رجلاً بجانبي:

– يا أخي، أين نحن؟

– يا خبر! حدّما يعرف باب الحديد في القاهرة.

– لا تؤاخذني، نحن أغراب، ونريد الذهاب إلى باب الشعرية.

– اركب أتوبيس نمرة 13 ثم ادفع تعريفة لكل منكما وأسأل الكمساري سيدلّك. أو ستعرف بنفسك باب الشعرية. خطوات قليلة وتدخل درب الطبال، ستعرفها من الراقصات المنتشرات في الشوارع.

– شو يعني راقصات.

– نعم ياخويا. ما بتعرف الراقصات بتوع هشك بشك. قوم الله يسهلك، الحق على نفسك، مع السلامة.

لا أعرف إن كان البلد يلف بنا أم نحن اللذان كنا ندور ونلفّ، فنجد أنفسنا في المكان الذي انطلقنا، من جديد. سألنا كثيراً واستغربنا أكثر، حين يجيبنا أحدهم إنه من هذا المكان لكنه لا يعرف عمن نسأل. حقيقة أقولها: بقدرة قادر وجدنا أنفسنا أمام البيت رقم 19. تنفسنا الصعداء. رجونا الله أن يكون هو البيت الذي نريده. كان البيت كبيراً وقديماً، له باب بني اللون شاحب، وسطه مطرقة طرقنا عدة مرات، لم يفتح أحد، أعدت الطرق بشدة أكثر من ذي قبل، قد لا أجد أحداً، حتماً سأصاب بالجنون.

جاء الفرج أخيراً، أطل علينا من فرجة الباب الضيقة رجل بملابس داخلية كالحة، فوقه صديري مقلّم، وسروال كبير يشدّ على دكته بين كلمة وأخرى تساءل: من؟

– ضيوف يا أخي.

– ضيوف من أين؟ الوقت متأخر، قل بسرعة أيش تريد؟

– أريد مصطفى أنا جئت من طرف أخيه في فايد.

أغلق الباب، وذهب برهة، ثم عاد ومعه رجل قائلاً: ها هو صطيف. سألني بدوره ونحن لا نزال واقفين أمام الباب، من أنتما؟ وماذا باستطاعتي أن أقدم لكما؟

– أليس في مقدورك أن تدخلنا لنتفاهم؟ الناس نيام ولا نريد مزيداً من الإزعاج الليلة.

أفسح لنا المجال، أخذ يدفع درفة الباب الصغيرة المتحركّة فصدرت

عنه صوت كالعويل. دخلنا بسرعة، وأغلق خلفنا، وابتلعتنا الدار الواسعة. وإذ بعدد من الغرف المحيطة بساحة الدار تفتح، ويطل عدد كبير من الرجال يتثاءبون، بعضهم يهرشون رؤوسهم أو أجسادهم، الجميع فاغر فاه يتساءل عن الضجيج. همست لإبراهيم:

– لم أعرف أن الوقت متأخر بهذا الحد.

– الوقت ما زال باكراً على النوم، لكن، يبدو أنهم عمال يقومون من الفجر إلى أعمالهم.

التفت إبراهيم ناحية مصطفى، وهو يعتذر عن خطأ غير مقصود. لكن الرجل ابتسم متفهماً، وسار بنا وأدخلنا إحدى الغرف، ثم غاب لحظات، عاد وهو يحمل أدوات الشاي. جلس القرفصاء ورحب بنا ثم سأل عن أخيه وبعد ذلك تنحنح وهو يقول:

– نعم أي خدمة.

أخبرته بإيجاز عن قصتنا وعن احتياجنا إلى فيش وتشبيه من أجل الحصول على عمل في فايد. أبدى استعداده وقال في الصباح رباح. المشكلة كيف ستنامون وكل الأسرّة مشغولة، ولا يمكن أن أدعكما تخرجان من هنا في هذا الليل. قلت:

– لا تهتم يا أخي، إذا أمكن ننام حيث نحن، على الأرض.

– لا جود إلا من الموجود. تتدبّرا أمركما الليلة.

جاءنا صباحاً وقال وهو يناولنا ورقة:

– ستذهب إلى شارع البارودي، خلف وزارة الداخلية. هناك سيسألك الموظف من أين أنت؟ قل له بثبات أنا من أم الريش الإسماعيلية. حاولت أن أعطيه بعض المال لكنه رفض بحزم.

– نشكرك على كل شيء.

حين وصلنا إلى العنوان، في الدائرة المختصة بعمل الفيش والتشبيه وقفنا في طابور طويل حتى جاء دورنا. سألني الموظف بشكل روتيني دون النظر في وجهي عن اسمي وقريتي واسم عائلتي. فقلت:

– أنا يحيى من أم الريش تابع الإسماعيلية.

رفع وجهه، ونظر إلي يتفحصني، رفع نظارته، فبدت ريبة في عينيه المحدقة بوجهي بانتظار اسم عائلتي، انتقل الشك لنفسي، سمعت أحدهم يناديه باسم مرقص، قلت دون تردد:

– يحيى جرجس.

ختم الأوراق وقال 25 قرشاً، أدفعهم هناك عند الصندوق.

حملت الأوراق، وسرت كأنني أطير بالهواء، خوفاً، طرباً، هرباً لست أدري. عند الصندوق التقيت إبراهيم، وجدته مثلي، متمسكاً بالأوراق كمن يمسك بزمام الأيام القادمة.

كان علينا العودة إلى فايد فوراً. عودتنا لم تكن سهلة، اضطررنا إلى تغيير اتجاه سيرنا عدة مرات لعدم أمان الطريق. رأينا جموعاً من الناس فزعة وهاربة. فتوقفنا ريثما يمر سرب إثر آخر، بيد كل منهم قطعة سلاح ذكّرني بالسلاح التي كان يحمله رجالنا المدافعون عن الأرض المسلوبة، تذكّرت أيضاً قول أبي: هل العين تقاوم المخرز؟ سألت أحدهم عند نقطة تفتيش. أجاب بفخر وثقة: هذا ممر الثوار.

– الثوار؟

– جماعة مناضلة ضد الاحتلال الإنكليزي. يتنقلون من مكان لآخر بعد أن يكبّدوا العدو خسائر فادحة.

– بهذه الأسلحة البدائية، لا أظن أن بإمكانهم إحراز نصر، فنحن، قبلهم قاتلنا بمثلها وكانت النتيجة ضياع أوطاننا وأهلنا وكل ما نملك.

– الاتكال على الله.

سألت إبراهيم هامساً:

– هل بلاد العرب كلها محتلّة؟

رد باقتضاب:

– نعم بطريقة أو بأخرى.

– ما جدوى الهروب إذاً؟

– نبحث عن الرزق يا صديقي، هل نسيت؟

وصلنا أخيراً منهكّي القوى. توقعنا أن يتسلّمنا شقيق مصطفى الذي قابلناه في المرة الأولى، آملين بأوراق ثبوتية أن تكون إقامتنا شرعية. خاب أملنا، قابلنا رجلاً لا نعرفه، قادنا خلال ممرات طويلة، إلى مكتب مدير التوظيف. رجل طويل جداً وسمين بملابس عسكرية أشار لنا بيده أن نلتزم الوقوف بصف طويل بانتظار دورنا.

تلفتنا نبحث عن وجه نعرفه ليساعدنا لإنهاء مهمتّنا، أظن أن من يحمل أوراقاً مزورة كالتي نحملها، لا بد له أن يتوتر ويتشتت وربما يرتجف حتى تتم الإجراءات بسلام.

نودي على اسمي واسم إبراهيم فتقدمنا إلى الأمام، بجانبنا وخلفنا طابور من طالبي العمل. وقف المدير وتكلم بصوت جهوري ولغة عربية متكسرة علمت في ما بعد بأنه يهودي مصري. قال:

– عندنا عمل لميكانيك سيارات، من يتقن هذه المهنة، فليرفع يده.

رفع معظم الواقفين أيديهم، ورفعت يدي مثلهم. ابتسم وقال:

– نريد سائقي سيارات شحن.

رفع الجميع أيديهم وأنا معهم. وهكذا. طلب طباخين وعمال خدمة الموائد وعمالاً مساعدين في المطبخ. كانت الأيدي تنزل وتطلع بالوقت ذاته. أخذ يسخر من هذه الجموع الآتية من كل مكان باحثة عن عمل، ومع ذلك تتقن كل شيء. فجأة صرخ:

– نريد طيارين و...

حين ارتفعت الأيدي أمام ناظريه ضحك بل قهقه. تفرس في وجوهنا ثم أشار لي أن أتقدم. كنت شاباً صغيراً جسوراً، أرتدي قميصاً بياقة منشية وبنطلوناً كاكياً قصيراً، وحذاء مطاطياً وضع يده على كتفي وسألني:

– اسمك وعمرك ومهنتك؟

– اسمي يحيى جرجس، وعمري ثلاث عشرة سنة، وأعمل كل شيء.

– طيّار كمان؟ تعمل كل شيء، أصدقك، أما أن تكون طيّاراً وفي هذه السن، كبيرة شوي. أنت هنا وحدك؟

– لا معي صديقي إبراهيم. تعال.

تقدّم إبراهيم، ظهر وجه نعرفه، كان عطا الله الذي رافقنا الرحلة. كان يملك أوراقا ثبوتية حقيقية، لذا بقي في فايد. وصار طباخاً. قال:

– سيدي هذان هما الشخصان اللذان كلمّتك عنهما سابقاً. إذا لم يكن هناك ما يمنع أرجو أن تسمح لهما بالعمل معي في المطبخ. إبراهيم يعرف الطبخ، سيساعدني، ويحيى يعمل نادلاً.

ردّ الرجل بالموافقة، فسحبنا عطا وراءه. هكذا أصبحنا موظفين نحن الثلاثة بما يسمّى. واي سي إيه، طيران فايد. كان راتبنا الشهري أربعة جنيهات مصرية لا غير.

قضينا في هذا العمل تسعة أشهر، نعمل، ونأكل، وننام، ونوفر الراتب الشهري للأيام القادمة التي لم نعد نستطيع تخمين لونها إن كانت بيضاء أم سوداء. مضت سنة منذ غادرنا الديار، لا نزال في طور السعي وراء حلم، لا نعرف كيف ولا متى ولا أين سيبدأ تحقيقه.

بعد كل هذه المعاناة، شيء ما خمد في داخلي. هل هذا ما أردته وتمنيته؟ أهذا ما أقدر عليه؟ فكري جامد، ضباب كثير لفّ عقلي، وبدأ يزحف على حواسي. شيء بداخلي، لعله الشر فينا، لعله الجانب الأسود بنفوسنا، لعله شعار– رحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

ماذا عندي لأكون أفضل؟ لا حظ من التعليم ولا مهنة ولا رأسمال. كان أبي دائماً يقول إننا أبداً لن نضطر للبدء من الصفر. إذاً وأنا تحت الصفر كيف أبدأ يا أبي. ليس بيدي سلاح أجابه به واقعي المرّ؟ آكل، وأشرب، وأنام، وآخذ راتباً شهرياً هزيلاً مقابل الخدمة بين الموائد. تحت إمرة طباخ كان صديقاً أصبح شرساً بشكل لا يوصف.

تحرّك ذاك الحس النبيل الأبيض الخيّر فيّ، تنصب للدفاع عني وعن آمالي وطموحاتي. نعم، ما زلت أملك نفسي وأحلامي وشبابي وعافيتي

وإصراري. نعم ما زلت كما أنا، ما زلت أخطو خطوتي الأولى من الألف ميل. سأصل، سأواصل، سأعمل بجدّ أكبر. إنه المكان. لا بد أن أغير المكان ولكن.. إلى أين؟ وكيف؟

يحيى الكبير

صحوت على هزّة عنيفة في كتفي. كان جدّي واقفاً أمام الكنبة التي أجلس فوقها وأقرأ، يبدو بأنني نمت وأنا أردّد ما كان جدي يردّده: إلى أين؟ وكيف؟ إلى أين؟ وكيف؟

تنبهت فركت عينيّ لأتأكّد أنني لست أحلم، ولا أتخيّل. إذاً، هذا جدّي، بلحمه وشحمه، شامخ القامة، حليق الوجه، جميل المحيّا. يرتدي قميصاً نصف كمّ منقوشاً بأشكال هندسية بمربعات وخطوط طولية وعرضية بألوان زاهية تتضاحك في ما بينها. اللون الأزرق يحاكي اللون الأبيض، والأبيض يحتضن القلم النبيذي الرفيع، وسروالاً من الجينز الأزرق الغامق، يشدّ خصره بحزام من الجلد الداكن، ينتعل حذاء خفيفاً، يشبه ذلك الذي أمرني أن أبدله بحذائي. كل هذا أضفى عليه مظهراً شبابياً مدهشاً. قال مبتسماً:

– سمعتك تتمتم بكلمات، ثم تكررها، فأتيت لأعرف ماذا في الأمر. حين رأيتك تنام على الأريكة دون فتحها، ورأسك ملقى على الجنب الآخر منها وكأنه ليس لك، أدركت بأنك غير مرتاح، فأيقظتك.

– صباح الخير. لا أعرف متى نمت. كنت أقرأ في مذكراتك كرّرت الكلمات التي كنت تكرّرها، فعزفتها.

– أضحكني قولك عزفتها. تذكّرت أنني حين أمليتها على الكاتب عدت إلى الوراء ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً، عشت اللحظة ذاتها مرة أخرى. بداية دندنتها بحرقة، ثم صارت تضحكني. إنها الحقيقة التي صارت شغلي الشاغل. متى وكيف وأين؟ دعك من الكتاب، جهز نفسك للذهاب معي إلى المصنع ستتعرف على الموظفين والعمال.

– مستحيل ما تقوله يا جدّي. لم يسمح لك بالتنّقل بأكثر من غرفتك. لن أوافق على ذلك أبداً ولو اضطررت أن...

– لا تتعب نفسك، فيحيى القادر عندما يقول كلمة فهي الكلمة. عجّل ولا تضع الوقت.

– عندي موعد ضروري اليوم. غداً نذهب.

– هذه آخر مرّة أقول لك جهزّ نفسك. إذا لم تقفز من مكانك فوراً فلن تذهب معي، سأتركك، سأذهب وحدي حتى وإن بكيت.

قفزت من فراشي قبل أن ينهي الجملة وذهبت ركضاً إلى غرفتي، اغتسلت ولبست ثيابي في وقت قياسي. وجدته في غرفة الطعام.

لدهشتي لم أجد أحداً يستغرب تصرّفه هذا، ابتداء من طبيبه، إلى ابنته، إلى سوسن، إلى أمينة. تقبّلوا الأمر وكأنه عادي وطبيعي. بدأ يرتشف قهوته وينظر إليّ يستعجلني. فعلاً هببت واقفاً ومشيت أمامه نحو الباب الخارجي. ركض السائق ليفتح الباب الخلفي. قال جدي:

– تولّ القيادة، سأدلك على الطريق.

فتحت له الباب الأمامي، وأجلسته ووضعت له حزام الأمان، أسرعت بالجلوس خلف مقود السيارة، وانطلقنا، كانت المرة الأولى التي أقود فيها سيارة بعد محاولات صبيانية فاشلة. صعب علي إخباره بذلك. خرجنا من باب القصر. ننحرف إلى اليمين ثم إلى اليسار حسب تعليمات جدّي. وصلنا إلى الشارع العام. ومنه إلى المنطقة الخاصة بالمصانع والمعامل. وصلنا بسلامة عجيبة وهو لا يكل ولا يمل من تحذيري، على مهلك، لا تسرع يا يحيى، لا تتجاوز أحد، انتبه للإشارات الضوئية.

دخلنا المصنع الضخم فواجهتنا آلات ضخمة ووراء كل مكنة عمّال. ظل كل منهم في مكانه لم يتقدّم أي من العمال أو الموظفين لتحية صاحب العمل، وخاصة بعد هذا الغياب المرضي. بدوره السيد لم يعرهم أي اهتمام، يراقب من طرف خفي كل فرد، كل حركة. انشغل الجميع بما يقومون به.

الشيء الغريب الذي أذهلني حقاً حين توقفنا في زاوية صغيرة، فيها طاولة عتيقة وكرسيين خشبيين كان عدد من الموظفين ملتفّين حول طاولة أخرى أحسن حالاً من الأولى. كانوا أربعة أشخاص. قدمّهم جدّي لي: هذا عمر أمين الصندوق، وهذا أحمد كاتب الفواتير، الثالث جميل مدير الحسابات، والرابع مراد مسؤول عن مراقبة الأسعار التي تتغير كل يوم.

قدم أحدهم الكرسيين واحداً للسيد والآخر لي. كنت أنتظر أن نكمل طريقنا إلى مكتب صاحب المصنع الكبير الذي يضّم هذا العدد الكبير من الموظفين والعمال.

من ذلك المكان حيث نقف أنا وجدّي نستطيع مراقبة الجميع. سحب جدي المقعد مبتعدًا عن الجميع جلس وأمرهم بمتابعة عملهم. جلست حيث أشار لي. سأل عن أحوال العمل في فترة غيابه. كان يردد جملاً محدودة- لا يهمني كل ما قمتم به، المهم ترجمة العمل لمال يدخل إلى البنك. افتح دفاترك يا جميل وأشجني.

كنت أتلهى بالفرجة على الجدران والأبواب، وإذا بي أفاجأ بأبيات شعر موضوعة ضمن إطار ذهبي أنيق قرأته:

ومن يتهيب صعود الجبال

يعش أبد الدهر بين الحفر

إذا ما طمحت إلى غاية

ركبت المنى ونسيت الحذر

سمعت جدي وقد أسعدته النتائج يقول:

- هيا يا يحيى أريك بقية المصنع. هذا الشعر كان سبب إصراري على مواصلة المسير، بلا كلل أو ملل بل وبإتقان. الله يحب من يتقن عمله بل ويتفانى فيه. أحياناً يعطينا ومضات، قد نفهمها، فنجتاز بنورها عقبة، أو محنة أو خسارة. قد لا نتفهمها فنضيع الفرص.

مررنا بجميع أقسام المصنع، كان يشرح لي بالتفصيل، فلم أفهم رغم

الجهد الذي بذلته كي لا أخذله ـ اختصاص كل آلة موجودة هناك. هذه للقص، وأحرى للصق، هذه للخراطة وتلك للف. فمصنعه كان ينتج كل لوازم البناء، ابتداء من الحديد وانتهاء بالألمنيوم، بالزجاج، بالبلاط، بالرخام، وبالنجارة.

تجرأت وسألته:

– أين مكتبك؟

– ذاك الذي جلسنا فيه قبل قليل.

– أليس لك مكتب خاص؟

– لماذا المكتب الخاص. إذا كنت أريد الاسترخاء والهدوء فلأذهب إلى بيتي. هنا مكان عمل، يعني مقدس. الالتزام واجب على الكل، ابتداء مني وانتهاء بهذا الذي يقدّم القهوة والشاي. حتى القهوة والشاي ممنوعان فترة الدوام. اليوم كان استثناء بسبب وجودك. أظنك لاحظت أنه لا أحد اقترب مني ليلقي تحية ترحيب أو مجاملة. شعاري من يرد تحيتي أو مجاملتي فليقم بواجبه أو سيفصل.

– أنت إنسان فريد.

– لعلك تعني أنني أشبه الآلات الموجودة في مصنعي.

– ربما. لكن لماذا لا تتمتع بأي امتياز نتيجة جهدك الطويل؟

– من قال إنني لا أتمتع؟ وجودي بين هؤلاء الناس متعة. حين أرى التزامهم بعملهم والتفاني فيه متعة، حين أعلمهم أهمية الالتزام بشروط العمل. يوم يقبضون رواتبهم وأجد الفرحة على وجوهم متعة. حين أرى انضباطهم ودأبهم سواء غبت أو حضرت متعة. العمل عبادة. أشعر برضا لأنني أساعدهم ليفتحوا بيوتهم ويعلموا أولادهم ويتحدوا مصاعب الحياة.

كانت الساعة تقارب الثالثة ونحن لا نزال نمشي بين المصنع والمخازن والإدارة حين سألته:

– هل أنت بخير؟

التفت نحوي بنظرة تقدير وإعجاب:

- كيف عرفت؟ أكاد أقع على الأرض، لكنني أتماسك. لن أترك شيئاً يغلبني. عشت في صراع مع كل ما يكلّ عزيمتي.

- لكنك مريض، إذا لم ترد الاعتراف بأنك بحاجة إلى الراحة، فعلى الأقل أنت بحاجة إلى الغذاء والدواء. هل نعود؟

- ليس الآن.

التزمت الصمت، فقد رأيت كيف يتعامل معه من حوله، هم الذين يعرفونه حق المعرفة، لا يتراجع عن كلمة قالها. لكن، بقيت عيناي عليه. استطاع أن يمضي ساعتين إضافتين على تلك اللحظة التي اعترف فيها أنه متعب ويقاوم. نهض فجأة وقال: السلام عليكم. سارعت إلى السيارة، وبسرعة فتحت الباب، وساعدته للجلوس بجانبي كان مستسلماً تماماً. انحنيت فوقه لأربط حزام الأمان. ربت على وجهي، وهمس بوهن:

- كم كنت بحاجة إليك يا يحيى.

بعد وصولنا إلى البيت مباشرة أجرى الطبيب له الفحص اللازم، فلم يعجبه الوضع. أمر له بطبق حساء الخضار الساخن المعتاد، أعطاه الدواء وساعده على التمدد بفراشه. بضع دقائق واستغرق في النوم. كنت أنظر إلى الطبيب بعينين خائفتين لكنه هز رأسه وهمس لي:

- أنت لست مسؤولاً عما حدث، أعرف عناده وإصراره. صحيح أنه منذ حضرت صار يرهق نفسه ولكن، بالمقابل، عادت له رغبة الحياة من جديد. اذهب استرح بدورك.

نعم، لولا وجودي لما تحرك من السرير، ولم يمضِ على تلك الذبحة الصدرية القوية إلا قليل. قبل أن أترك الغرفة تعالى شخيره توقفت. أشار لي الطبيب بترك الغرفة فهو مجهد. لا زيارات المساء ولا الليل.

تناولت الغداء بمفردي، إذ كانوا قد سبقوني إليه أثناء تواجدي مع جدي. دخلت غرفتي لأستريح قليلاً وبعد ذلك أذهب إلى المسرح لأعرف

الأحوال هناك. نمت حتى الساعة السادسة مساءً، قمت مذعوراً، أركض في الممرات الطويلة لأطمئن عليه. كان نائماً وطبيبه ما زال بقربه مع الممرض طمأنني بأن كل شيء تحت السيطرة.

عدت لغرفتي ولكتابتي، لا أعرف لم شعرت بأن جدي، هذا الرجل الذي عاش حياته بكل هذه القسوة، يشبه الحياة، بقسوتها بجفافها وباندفاعها باتجاه واحد. كأنه أحد قطاراتها السريعة الذي ينقل الناس دائماً إلى محطة أخيرة. فزع قلبي، سيتوقف في محطته النهائية ويذهب. شخص مثله قدوة لمن لا يعرفون قيمة الحياة.

كم مرّ في طرقات الحياة المندفعة، أشخاص لم يعيشوا على كدهم وجهدهم بل على أكتاف الغير، صيداً واقتناصاً. وهناك، من تعبوا ومرضوا وماتوا، جوعاً، عوزاً، دون أن يظفروا بما حلموا أو بتقدير.

كنت أتناول قهوتي على شرفة غرفتي سارحاً وراء مثل تلك الأفكار والتساؤلات. مثل: هل الدنيا ضربة حظ حسن؟ تخيلت نفسي أسأل جدي. بكل تأكيد، سيرد لا يا يحيى، هناك شيء اسمه سوء إدراك أو سوء اختيار أو عدم قدرة على المواظبة والسعي الجاد.

ظهرت عمتي وبيدها فنجان قهوتها. سألتني:

– هل رأيت اليوم سوسن؟ أعني كانت معكما؟

– لا لم أرها اليوم.

– ولا أنا. كيف كان مشواركما هذا الصباح؟ قلقنا وكالعادة لم نجرأ نسأله مباشرة. تحرينا الأمر من المدير العام قال إنه متعب لكنه لم يقرر العودة بعد.

– لقد بدا مستمعتاً جداً بما يعمل وبما يرى. وقد تعب فعلاً لكن لم نغادرإلا حين صار تعبه بالغاً. قام الطبيب بكل ما يلزم وهو الآن نائم ومستريح فاطمئني عليه.

– أريد أن أنتهز فرصة وجودنا معاً دون ثالث لأعلمك بشيء مهم

جداً بالنسبة إليّ. لقد كنت موجوداً وسمعت ما قاله عني وعن ابنتي قبل يومين. إذا نفذ وعيده وحرم سوسن سوف أجن. قد أقتله إن فعلها وهو حيّ. إنها حفيدته أيضاً.

– يا ساتر! القتل؟ اطمئني. لا أريد شيئاً. أعدك إذا عملها سأعيد كل شيء لكما. كل ما في الأمر أنني أشعر بمدى سعادته بوجودي، فلم لا نسعده، هذا أقل ما يمكن أن يقدمه إنسان لإنسان. بالمناسبة لا أجد سبباً لحرمانها من ميراثه فإنه يحبها كثيراً.

– لكنه لا يحبني أبداً. وهو أيضاً يشك بنسبها. فليكن والدها كائناً من كان إنها ابنتي وحفيدته.

– عندك كل الحق إنها ابنتك وحفيدته مهما كان.

– لولا ظهورك. كان يعتبرها حياته.

– اسمحي بأن أقول لك بأنك قاسية جداً عليه. مهما كان الأمر اغفري. زوجّك لابن عمك غصباً عنك أفهم، ولكن كل هذه الكراهية لا. حاولي أن تفهميه. يمر بمرحلة صعبة من عمره. يشعر بانسحاب بساط الحياة من تحت قدميه التي لا يعرفهما إلا قوتين ثابتتين راسختين. تعب وشقي كثيراً حتى وصل لما هو عليه. سيبقى هذا حاله حتى تنتهي أيامه. لنتركه يعيش أيامه كما يريدها وثقي بي.

– أثق بك أنت؟ الحياة كثيراً ما جلدتني واستنزفت طاقتي. لن يريحني سوى أن تعود من حيث أتيت.

– لا لن أذهب. لن أتركه لكل هذا الكره والحقد في قلبك الأسود سأبقى إلى جواره، أرعاه وأقدم له كل ما يسعده. إذا كان بإمكاني أن أهب له شبابي لفعلتها دون تردد. فهو يساوي الكثير بين يديه بينما أنا قد أبدده دون فائدة ترجى.

انخرطت في بكاء مرير، قالت وسط نشيجها:

– يؤلمني ما تقوله ومتأكد منه، إنه ليس بأمان بين يدي. وتلك الكلمة قلتها بلحظة غضب، إنه أبي. لكن من أين لك أن تعرف معنى الأبوة، إذا

كان أبوك قد ظلمك حين تخلى عنك. تركك لدنيا وذهب يناضل لتحرير المظلومين.

– لا تظني بأنك بما تقولينه تجعلينني أشعر بضغينة عليه بل على العكس، أعطيتني لمحة جميلة عن أبي لأفخر به. أشكرك. هذه أول معلومة تصلني عنه بعد اتهام جدي له بأنه كان ابناً عاقاً مستهتراً. وإذا كان قد وهب نفسه لهدف نبيل كالذي قلته، فهو إنسان عظيم، وأب كريم. تخلصي من الحقد والكراهية هذا شيء معيب حقاً.

– الكراهية تسكنني حتى لنفسي ولكل من يعيش على الأرض. حتى سوسن لم أكن أحبها حتى كبرت واحتوتني وجعلتني أحب الحياة. أتريد أن أروي لك ما فعل أبي وأخي وابن عمي؟

– بكل تأكيد أريد. كلي شوق لعلي أجد لك العذر، فمشاعرك تجاه الجميع، باعتقادي تشبه المرض.

قامت لتملأ فنجان قهوتها من جديد وأشعلت سيجارتها ثم عادت لجلستها الأولى فوق الأريكة، وبدوري أخذت وضعاً مريحاً. الجلسة ستطول، فهذا الشيء الذي قتل إنسانيتها لم يكن عادياً بل كان مؤلماً فتاكاً قتلها هي قبل أن يقتل مشاعرها.

بعد الخطبة وبعد عودة المياه إلى مجاريها بين أبي وأخيه. وبعد محاولة أمي رفض الفكرة من أساسها همدت وتناست استعدادها لعمل أي شيء لإبطال هذا الزواج. فقد رد أبي على كل حججها، صمت طويلاً ثم رفع رأسه بتجبره المعروف وقال ببرود قاتل:

– خلص عرفت ما تريدينه. دعيني الآن أخبرك بما أريده. سيتم الزواج سواء وافقت أنت وابنتك أم لا. أنا أعرف مصلحة العائلة أكثر من الجميع. هذا الزواج نواة لتبدأ العائلة تكبر من جديد.

استغربت أمي هذا الحديث وقالت بهدوء:

– أي عائلة يا يحيى. أكاد لا أعرفهم وكذلك أولادي. العائلة التي يجب أن تحرص عليها هي هنا داخل بيتك.

رد أبي باقتضاب لينهي الجدل:

– كونك لا تعرفينهم لا يعني شيئاً. أنا أعرفهم وأريد أن أصاهرهم وأعيد ربط العائلة من جديد.

– لكن إبراهيم صديق عمرك وأخيك في رحلة حياتك، ماذا عنه؟ لقد ترك بيتنا غاضباً بعد أن تجاهلت خطبة رجاء لابنه.

– إبراهيم سيتفهم الأمر فهو صديق العمر كله.

سكتت أمي وإن كانت ثورتها لا تزال على أشدها، فهي قد اعتادت هذا العناد من أبي حين يريد تنفيذ أمر فلا بد أن يتممه. من يجرؤ على العودة لهذا الموضوع بعد هذا الحسم القاطع؟

كان أبي قد ترك بلدتهم وهاجر للبحث عن عمل وترك وراءه كل شيء. لكنه لم ينس أخاه، ظل يرسل إليه المال كلما تحسن وضعه المادي أرسل أكثر. حدثنا أبي ذات مرة، أنه أرسل له أول مائتي جنيه استطاع إدخارها بعد سنتين من الاغتراب ليتزوج لكنه حمّله تبعات زواجه ومعيشته ثم أولاد. اعتبره دجاجته التي تبيض ذهباً.

ظلت حياة أبي وأعماله بازدهار. حين ظهر عمي بحياتنا ثانية كانت السنوات قد محت الأسى من قلب أبي. استجار بأصحاب أبي ومنهم العم إبراهيم ليصلحوا بينهما. استقلبهم أبي بحفاوة. حين طلب منه كبيرهم أن يقبل أخيه من جديد لأنه جاء معهم ليقدم له اعتذاره رد أبي نحن إخوان لا يستغني أحدنا عن الآخر. قال عمي باكياً:

– اشهدوا بأن أخي يحيى له عليّ أفضال كثيرة وأنا أجحفت حقه. إن سامحني فهو كريم وإن طردني لا تلوموه فأنا أستحق.

تعانقا وذهبا سوياً إلى عشاء أقامه إبراهيم صديق أبي العتيد وكان أيضاً قد اغتنى. دعا إليه جميع الذين جاؤوا مع عمي. بعدها كأن شيئاً لم يكن، عادت المياه إلى مجاريها. دعاه أبي مع الموجودين على عشاء سيقيمه بمناسبة انتقاله إلى البيت الجديد.

– هل أخبركم بالبيت بهذا الصلح؟

– أبي قليل الكلام في البيت، يعتبر كل شيء يجري معه خارج البيت سراً لا يخص غيره. حتى أحواله الصحية، والهزات المالية، لم نسمع بأي شيء كأنه في دنيا غير دنيانا. كنت أظن أنه أخبر أمي واتفقا على الخطبة لكن فزع أمي ليلتها جعلني أدرك بأن هذا الاتفاق قد تم بين عمي وأبي في لحظة مجنونة مهووسة بالصلح.

المهم أننا تزوجنا أنا وابن عمي أحمد، أو الدكتورأحمد كما تحب عائلته أن تناديه. كانت ليلة من العمر لكل من حضرها إلا أنا. بذخ فيها ما يكفي لإعالة مائة عائلة معدمة لسنوات قادمة. لن أنسى أن أخبرك أن عمي وزوجته وابنته وابنها، قدموا مجوهرات، ناءت رقبتي بحملها وأصابعي ومعصميّ. وهذا ما حيرني. فلماذا تزوجني إذاً؟!

في اليوم التالي سافرنا لقضاء شهر العسل. ذهبنا أولا إلى نيس ثم إلى كان. ثم رجعنا بالقطار عبر مرسيليا إلى باريس. الحقيقة كنت أحاول دفن الحب المتنامي في قلبي لخطيبي أسامة ابن صديق العائلة إبراهيم إلى الأبد. أجاهد لأوطن نفسي على القبول لم أقوَ. كنت دائماً أدعي الصداع والمرض. ليس لأحرمه حقوقه، كان يعرف كيف يأخذها متى شاء وبأي وضع وبأي ظروف. كنت أدعي المرض بسبب عدم قدرتي منع إخفاء التجهم والحزن وخيبة الأمل عن وجهي. حين أستيقظ من النوم وأجده بجانبي أكتئب من جديد.

شقة العريس في باريس التي أشبعنا وصفاً لها، حتى خيل إليّ أنني سأسكن جناحاً في قصر فرساي. كانت شقة أقل من متواضعة، فرشها بال، ضيقة وينقصها الكثير لتعتبر بيتاً. ولم يسمح لي أبي بأن أشكو أو حتى أعترض. أسكتني بنهرة أطاشت صوابي قال اصبري فالرجال مثل الشجر تكسى وتعرى، عليّ الانتظار فهو خريج جديد.

استسلمت بعدها لحياة بطيئة مملة. لم أفهم أسلوب الحياة التي فرضت عليّ. منذ البداية، لم يساعدني لنبني حياة بيننا أبداً. حين أدركت صرت أتساءل بيني وبين نفسي لماذا تزوجني يا ترى؟ من أجل مال أبي؟ أم من أجل إرضائه؟ أم من أجل تعذيبي حسداً أو حقداً على أبي

وعلى العائلة كلها.

الحقيقة لم أعد أبالي. فأياً كان، فقد تم الأمر. ثم فهمت حين قال:

– حبيبتي هل معك نقود؟ لم أكن أعلم أن الزواج مكلف إلى هذا الحد. آسف أن أطلب منك ولكن ممن إذن؟ فأنت زوجتي.

– معي مبلغ صغيا، أبي وعدني أن يرسل لي كل ما أريده.

– لا يا حبيبتي. لن نطلب من عمي ونحن يمكننا التصرف.

– عظيم تصرف.

– أريد جزءاً من مصاغك. لا أظنك ستجدين وقتاً للبسه وأنت صبية صغيرة في الغربة ومنشغلة بالدراسة.

– لا تكمل.. فهمت إنه في الخزنة.

غاب دقائق وعاد محملاً بكل مصاغي وقال على عجل.

– سأتصرف بجزء بسيط فقط، ثم سأودع الباقي في خزانة البنك. هكذا آمن لنا من السرقة.

وصل إلى الباب ثم عاد وسأل:

– أين خاتم السولتير؟

مددت يدي ليراه في إصبعي، انتزعه بقسوة بل بوحشية وقال هذا أيضا ثمين لا يجوز لبنت صغيرة التجول به.

لم أعد أرَه إلا في الليل. صرت أحاول أن أتحرك في البلد. أتسوق ثم أعود أطبخ وأنتظره لكنه حين يعود يعتذر بأنه مرهق ومتعب، كل شغل المستشفى على رأسه، أكل هناك لقمتين وشبع. على هذا الحال مضى شهر ووراءه شهر وأنا ما زلت أنتظر أن يسجلني في الجامعة، أوراقي كلها معه لكن عبثاً.

رن جرس التلفون عرفت قبل أن أرد بأنها مكالمة من أبي بعد شهور. دخل بالموضوع مباشرة وسأل عن الجامعة. قلت أحمد مشغول ولا يجد وقتاً ليسجلني. رد بعنف:

– ولماذا أحمد؟ اذهبي بنفسك وسجلي اسمك وادفعي مصاريف الجامعة وابدئي بالدراسة.

– لا أعرف كيف أن...

أغلق السماعة في وجهي، كنت أعرفه، هذا أمر وليس اقتراحاً. حين عاد أحمد بالمساء قلت له أبي كلمني وهو.. قال بهلع:

– هل أخبرته بالمجوهرات؟

– لم يسأل، أمرني بالذهاب للجامعة لأسجل نفسي للدراسة.

غضب بشدة ثم ضبط نفسه وقال بتودد:

– حبيبتي لا نريد أحداً ما أن يتدخل بحياتنا ولو كان عمي.

ابتسمت مؤيدة ولكن من يجرؤ على معصية يحيى.. نفذ ثم اعترض.

في الصباح ذهبت إلى الجامعة، كانت من أسهل الأمور. أوصلني التاكسي إلى الجامعة. لم تكن كأي شيء تصورته في خيالي. السوربون صرح ومعلم في باريس لا يخطئه قاصده. بمجرد دخولي شعرت بالفخر بأنني سأكون بعد قليل طالبة في هذه الجامعة الرائعة. تم كل شيء بسهولة ويسر. كنت أحمل صوراً عن الأوراق والوثائق التي يريدونها. سألتني المسؤولة:

– هذه الأوراق غير كافية نريد الأصل. لقد تأخرت، ابتدأت الدروس قبل أسبوعين فهل تستطيعين اللحاق بزملائك أم تريدين أخذ دروساً مكثفة مدة أسبوعين.

أجبتها بالفرنسية الجميلة التي أتقنها جيداً. سأحاول ذلك بمفردي وسأنجح لأنني متفرغة. أبدت إعجابها بإجابتي وبإتقاني اللغة الفرنسية، ورحبت بي طالبة في قسم الأدب الفرنسي.

انهيت معاملة الدخول كلها ودفعت الرسوم. عدت للبيت محملة بكل اللوازم لأحتفل ولو لوحدي. لكنه خنق فرحتي. حين عاد في المساء وأخبرته بكل ما جرى معي. يبدو بأنني كنت ولأول مرة في بيته أبدو

سعيدة ومنطلقة، أكاد أرقص أو أطير. فجأة أربدّ وجهه، وبعصبية شديدة أطاح بطاولة السفرة الصغيرة المتواضعة، المركونة في زاوية. لم تحتمل قدمها تلك الرفسة فوقعت وانكسرت أرجلها.

لم تنته المشكلة التي ابتدعها، خمسة عشر يوماً متواصلة لا أراه إلا لماماً. رافضاً إعادة أوراقي التي في حوزته دون إبداء أسباب. لم أهتم ولماذا أهتم؟ لا يعنيني هذا الرجل أبداً، لم أقدر على حبه ولا احترامه. يكفي أن تمر ببالي صورته، وهو يذعن لزواج لا يريده، من فتاة يكاد لا يعرفها، وهو من عاش سنوات في باريس قلل من شأنه. صرت أداوم في الجامعة يومياً. ابتدأت أتعرف على زملاء الدراسة. بعضهم عرب من شرقنا أو من شمال أفريقيا وبعضهم من جنسيات أخرى.

كانت أقربهم إلى سمرة الحاج من المغرب. كانت في كليتي وتقريباً من عمري أو أكبر بسنة. كانت وحيدة أهلها. كثيراً ما أخبرتني عن صوت أمها كيف تدللها كل ليلة قبل النوم، دون ذكر والدها أبداً. حين سألتني عن شعوري في الغربة، احترت كيف أجيبها. ثم رويت لها شيئاً قليلاً عن أبي، كيف ربانا بقسوة لا متناهية. هزّت رأسها بلا تعليق بأنها فهمت وأقفلنا الموضوع.

كانت تقيم بالقرب من بيتنا فصرنا نذهب سويا ونعود سويا. بعض الأوقات نتناول غداءنا معاً في بيتي أو في بيتها أو في مطعم الجامعة إذا لدينا أي نشاط بعد الظهر. وهكذا قيض الله لي من يملأ فراغ وحدتي. كثيراً من الأحيان أنسى بأنني زوجة لكثرة غيابه عن البيت. أذكر مرة طرأ اسمه على لساني حين كنت مع سمرة سألت من هو أحمد هذا؟ قلت زوجي. أأنت متزوجة؟ نعم من ابن عم لي اسمه أحمد. ضحكنا. ولكن حين وقفنا للوداع قالت بجدية:

– رجاء. هل أنت متزوجة حقاً وإلا هيك وهيك.

– ماذا تعني هيك وهيك؟

– زمالة غرام.

– اسكتي، والله لو سمعك والدي لقتلني وقتلك قبل أن يتذكر أنه من

زوجني بابن شقيق له ظهر فجأة بعد طول انقطاع.

– وكيف وافقت؟

– كافأ أخاه على العودة على حسابي. وهبني لابنه. يعني هدية ليكون العود أحمد. سأخبرك لاحقاً كم قدر الهدية بعدين. باي.

حين دخلت المنزل وجدته ينتظرني هاشاً باشاً ماداً ذراعيه على وسعهما ليحتضنني صائحاً:

– حبيبتي روحي زوجتي أهلاً وسهلاً كم اشتقت لك.

همست في سري الله يستر. سحبني من يدي إلى ركن السفرة وقال:

– جهزت لك عشاء فاخراً حلاوة الصلح.

– صلح من على من؟

– أنا وأنت يا حبيبتي. أنا آسف. ماذا سيحصل إذا ذهبت للجامعة وأكملت تعليمك. هكذا اتفقنا بداية. عصبت دون معنى فاعذريني.

– الصراحة نسيت الموضوع كليّاً. هذا شيء يخصني، عليّ منذ البداية أن أهتم به ولا أحملك فوق طاقتك، فأنت متعب طول النهار.

– عظيم تفضلي على العشاء.

– آسفة لقد تناولت العشاء للتو مع سمرة، لم أتوقع أن أجدك هنا. بالمناسبة لماذا أنت هنا؟

– الحق علي، أتيت لأعتذر. تعالي وكلي ولو لقمة واحدة.

لم أرد بل مشيت نحو الغرفة لأبدل ثيابي، لحق بي وحملني ووضعني أمام مائدة الأكل وتناول لقمة ووضعها في فمي عنوة.

لأول مرة في حياتي أشعر بمثل هذا الخوف. همدت وأخذت ألوك اللقمة ولا أجد لها طريقاً لأبتلعها وأخلص. حين التقت عينانا ابتسمت من شدة الخوف فابتسم. وهذا يعني أننا لقد تصالحنا. أبديت فرحتي المزيفة. خشيت أن يضربني أو قد يقتلني فهو وحش وأنا فتاة رقيقة.

قبل أن ننام أطفأ النور ثم أضاءه وقال:

– آه. نسيت أريد خمسة آلاف فرنك لأمر مهم جداً.

– لماذا تخبرني.. أطلب من أبيك أو من عمك. أنت لا تصرف على البيت أنا التي تفعل. إنني طالبة والجامعة لها مطالبها.

– إذا لم أذهب غداً صباحا بالمبلغ فسوف أدخل السجن.

– لا أملك هذا المبلغ الآن.

– كاذبة.. فأنت لم تكلفي نفسك وتسأليني ما هو الأمر المهم.

– طالما لا أملك المبلغ فلماذا أسألك؟

قفز من السرير إلى الخزانة فتح حقيبة يدي ووجد بها مبلغ بسيط هجم على الخزنة فلم تفتح. صار كالمجنون يسألني عن رقمها السري الجديد فغطيت رأسي ونمت. قفز فوق السرير واضعاً كفيه الضخمتين حول رقبتي، بين ثانية وأخرى يخفف الضغط ليسألني عن رقمي السري. لم أرد فيعود لهز رأسي ورقبتي التي بين كفيه. روحي عالقة في حلقي. أخبرته لأنجو، حين سمع تمتمة توقف فقلت تاريخ مولدي.

تركني إلى الخزنة. أخذ كل ما بداخلها وانصرف. بقيت طول الليل أبكي خائفة مرتجفة حتى بزغت الشمس. طلبت من سمرة وسط نشيجي الحضور وأفهمتها بأنني قد تعرضت للسرقة.

حين وصلت كنت أحاول الوصول إلى الباب. مجرد طرقه خفيفة فتحت، أفاجأ بأنها اصطحبت معها رجل بوليس. أسقط بيدي لم أعرف ما أقول له أو لها. ركضت نحوي رفعت شعري كانت علامات أصابعه على رقبتي حمراء ومنتفخة وعلى وجهي آثار صفعات وشعري منكوش. صرخت:

– يا الله ما الذي حدث. من فعل هذا بك؟

– لا أعرف.. حين دخلت البيت أحسست بأن أحداً بالبيت فتشت كل ركن لم أجد أحداً فأخذت حمامي ونمت. ثم صحوت فزعة وشخص يحاول خنقي.

قال رجل البوليس:

– هل رأيت وجهه أو تشتبهين بأحد.

– لا لا. كان ملثماً وليس لي معارف أنا طالبة جامعية.

– أتعيشين وحدك.

– نعم نعم أعيش وحدي.

لكن سمرة أجابت بالعربية:

– هل قصة زواجك هزل.

لم أرد عليها لكنني توجهت لرجل البوليس:

– آسفة على إزعاجك.

– لا بد أن أقوم بجولة في أنحاء البيت. ممكن؟

– تفضل..

سرت أمامه وهو خلفي وسمرة خلفه، حين وصل لغرفة النوم وجد الخزنة مفتوحة وفارغة، على الأرض، بضع ورقات مبعثرة، انحنى والتقطها كانت عقد زواجنا بالفرنسية وشهادة ميلاد لي وله. وصورة عن طلب الجنسية الفرنسية لأنني زوجي يحملها.

لملم هذه الأوراق وخرج إلى الصالة. قال:

– لا مجال سيدتي للكذب. هل هو زوجك؟

– لا.. زوجي مسافر إلى ليون برحلة عمل منذ يومين.

– لعله أحد أصدقائه عرف بغيابه. سنبحث الأمر معه حين يعود.

– أرجوك انس الأمر. زوجي غيور جداً، قد لا يصدق قصة السرقة، وخاصة أنه يعرف أن الخزنة كانت فارغة إلا من هذه الأوراق الرسمية والحمد لله لم تضع.

قبل أن يغادر ألقى نظرة على شبابيك البيت وباب الحريق وقال:

– أنصحكم بوضع حديد على كل المنافذ حتى باب الشرفة وباب الحريق. في الحقيقة، السكن غير محاط بحديد، وهذا معناه أن الذنب

يقع على الساكن. هل أصحبك إلى المستشفى.

– لا أشكرك مع السلامة.

وأغلقت الباب.

لم أخبر أحداً بالحقيقة ولا حتى سمرة، صدقت القصة التي رويتها لرجل البوليس لكنها أنحت باللائمة على أحمد. فلم أرد.

غاب أكثر من شهر. شعرت بوادر الحمل. كان كثيراً من المرات يأتني على حين غرة فلم أحتط. ذهبت إليه في المستشفى كي أبلغه الخبر ونتدبر الأمر. كان بانتظاري مصيبة أخرى سألت عن الدكتور أحمد فلم أجد من يعرفه. تذكرت بأنني لا أعرف اختصاصه فحاولت التجول في الأقسام دون جدوى. فجأة سألني أحدهم:

– هل تقصدين طالب الامتياز أحمد القادر.

– نعم هذا اسمه، ولكنه متخرج منذ زمن طويل.

– متخرج؟ إنه سمسار يؤجر شققاً للطلبة، غالباً يجلس في الكافتيريا. اذهبي إليه في آخر الممر.

حين وصلت إليه كان فعلاً هناك، يجالس مجموعة طلبة جدد. بدا بينهم كأنه أمير وهم أعوانه، الكل يأكل ويشرب على حسابه. وقفت أتأمل هذا المنظر من بعيد وتذكرت أبي كيف رماني لمثل هذا الحقير دون أن يسأل عنه. الطبيب النجيب سمسار فاشل وخائب.

جلست على إحدى الطاولات لأستريح فقد شعرت بدوار خفيف. جاءني النادل وسأل إن كنت أريد أن أشرب شيئاً. رفضت وقد سالت دموعي على خدي رغماً عني. ذهب وعاد بشراب قائلاً إنه شراب الأناناس مع التفاح سينعشني. أخبرني هامساً بأنني غير ملزمة بالدفع طالما مستر أحمد هنا فالجميع يشربون على حسابه. دون شعور أبعدت الصينية من أمامي وإذا بالكوب يطيح على الأرض ويحدث صوتاً لفت نظره فجاء هرولة، سحبني من ذراعي وهو يصيح:

– لماذا أنت هنا؟

– أتيت أخبرك بأنني حامل.

– ماذا! ألم نتفق بأننا لا نريد أطفالاً أثناء الدراسة.

– نعم اتفقنا ولكن حصل. أليس لك صديق طبيب يخلصنا من هذا المولود. أنا أيضاً لا أريده.

– عودي للبيت وسأتدبر الأمر.

بعد يومين جاء وصحبني إلى الدكتور سفيان بكير. هذا الطبيب والده عربي وأمه فرنسية. لكن سفيان أو ستفن كما ينادى هنا ولد وعاش مع أمه في باريس، لم يزر أي بلد عربي. سألته بتوجس:

– هل ستوافق على إجراء عملية الإجهاض؟

قال بالعربية:

– السلام عليكم مدام رجاء.

ثم أكمل بالفرنسية اعتذاره بأنه لا يعرف أكثر من ذلك. سأل إن كنت متعبة أم لا. رددت عليه بالفرنسية بأنني حامل ولا أريد الطفل. لأنني ما زلت طالبة. قال سنرى.

بعد المعاينة خرج وهو يقول:

– لا يمكن هذا. الجنين كبير الآن. إنه في الشهر الثالث.

تدخلت بالحديث شارحة له بأنني لم أرَ أي أعراض للحمل إلا في الشهر الأخير. قال ولو تحصل كثير. أحمد قال لي بالعربية:

– إذا بقي هذا الحمل فأنت طالق. لا أريده ولا أريدك.

– ممتاز يادكتور. سأسافر إلى أهلي وهناك سأفعل كل ما تريده ليس حفاظاً عليك، بل لا أريد طفل أنت أبوه.

– تدبري أمرك هنا.

تركني وخرج.

تدخل الطبيب سائلاً:

– ما الأمر. هل تريدين إجهاض نفسك دون موافقة زوجك؟

– بل نحن متفقان وهذا الحمل نتيجة خطأ، هل تقبل أن يأتي طفل إلى الدنيا بطريق الخطأ. لسنا مستعدين أرجوك دكتور سفيان.

غير الموضوع وقال:

– أنا في باريس اسمي ستيفن.

– أعرف. أفضل أن أقول لك سفيان لتتذكر أصلك وتساعدني.

ضحك فضحكت مجاملة له. فقال:

– اسمعي رجاء. سأعمل ما باستطاعتي. خذي هاتين الحبتين إن كان الجنين قوياً سيبقى وإلا سيجهض. هذا حلّ مرضي لي ولك.

خرجت من عنده وأنا في غاية التعاسة لأخبر أمي بالموضوع. عدت إلى البيت لأجد رسالة من أحمد لأبي. جاء فيها:

عمي العزيز.

أنه ليحزنني أن أخبرك بأن رجاء لم تكن أمينة على اسمك واسمي. تخرج صباحاً ولا تعود إلا في المساء. حين نتواجد معاً في البيت تخاصمني. غالباً ما أبقى في المستشفى هناك ليلاً ونهاراً. طردتني من البيت منذ ثلاثة أشهر، وأنا احتراماً لك تركته لها عن طيب خاطر. أين أترك ابنة عمي إذا لم يكن في بيتي؟ طلبت منها مراراً أن نعود إليكما ونتفاهم رفضت صائحة أنها وحدها مسؤولة عن نفسها.

جاءت منذ بضعة أيام إلى مكان عملي. ظننت أنها عادت لرشدها وستطلب مني العودة إلى البيت. فوجئت بأنها تخبرني بأنها حامل منذ شهرين. فكتبت لك لأعلمك ومنذ البداية أنني غير مسؤول عن هذا الطفل. لك حرية التصرف.

لم يعد في رأسي عقل. عرفت أنه تافه وحقير منذ زمن، لكنني لم أكن أتصور أنه بمثل هذه الدناءة وقلة الضمير. لم أذهب إلى الجامعة يومين متتالين وأنا أفكر للخروج من هذا المأزق فلم أفلح. تجرأت وطلبت رقم أبي في غرفته الخاصة رفع سماعة التلفون وحين سمع صوتي أغلقها بوجهي بل صفعني بها. بعد ساعات اتصلت بأمي وقبل أن تسمع كلمة

مني بادرتني:

– لقد علم أبوك بالمصيبة التي حصلت. هدد وتوعد من يكلمك. إذا كنت تريدين توضيح الأمر ارجعي حالاً إلى البيت. عندها ستعرفين تماماً رده على ما اقترفت.

صمتت قليلاً، غصّت الكلمة في حلقي، مندهشة، كيف صدقوه فأنا ابنتهم وليس هو؟ استأنفت أمي الحديث:

– أنه يعرف كيف يعيدك، من الأفضل أن تعودي من نفسك. إنه بانتظارك. أما إذا بقيت هناك فأنت بالنسبة له ميتة وإلى الأبد.

لم أنطق بحرف أغلقت السماعة قبل أن تنهي كلامها وقررت أن أتصرف. عدت للطبيب وأنا عازمة أن أكون معه بمنتهى الصراحة. حين أخبرته بأن زوجي طلقني لا يريد أطفالاً مني. قال باندهاش:

– لماذا رجاء.. أنت امرأة رائعة وجميلة ومثقفة.

– أرجوك خلصني من طفل هذا الحقير والده.

لم يلن. بكيت ونحت وشددت شعري لكنه لم يلن. قلت هل تعرف تقرأ عربي. رد بسرعة ضاحكاً:

– إذا كنت لا أتكلمها فكيف لي أن أقرأها.

أخرجت الرسالة من حقيبتي ووضعتها أمام عينيه. ثم قرأتها مترجمة بالفرنسية. رسالة من أحمد إلى أبي يخبره بأنني حامل. والطفل ليس ابنه فهو لم يقربني منذ شهور بعد أن طردته من بيته. هل تصدق شيئاً كهذا؟

شهق ثم قال بنبرة حزينة:

لا أصدق أن إنساناً بالوجود يتنكر لابنه. آسف يا رجاء، لا أستطيع قتل طفل قد حرمت منه. زوجتي تركتني لأنني لا أنجب.

أنجبيه، أنا سآخذه منك بعد الولادة وأتبناه. أخلصك منه، وأسعد أنا به وأسعده. صدقيني إذا وافقت تكونين قد قدمت لي جميلاً لن أنساه.

خرجت من عنده وأنا في قمة اليأس. ذهبت إلى سمرة في بيتها،

رويت لها كل الحكاية. قالت أنا سأكلم ستيفن إنه قريبي.

- لن يوافق يا سمرة، الجنين يكبر يوماً بعد يوم. وقد عرض عليّ عرضاً غريباً اليوم قال سأتبناه بعد الولادة وأخلصك منه.

قالت سمرة:

- والله حلّ معقول يا رجاء.

- ما هو الحلّ المعقول؟ هل التصرف بحياة إنسان سهل إلى هذه الحد. أعطيه لإنسان لا يمت له بصلة.

- أليس خيراً من أن تقتليه يا رجاء.

رجتني أن أبقى عندها لكنني أخبرتها عن الرسالة التي أرسلها أحمد إلى أبي. صمت برهة ثم قلت:

- أبي صدقه يا سمرة ولم يسمعني. لذا يجب أن أبقى في البيت لعله يروق أو تستطيع أمي فعل شيء. أريدهم أن يجدونني هناك. تعالي أنت معي.

- سأذهب معك ولن أتركك حتى تضعين المولود.

- لا تقولي مثل هذا الكلام أدعو الله أن يرقق قلب الدكتور سفيان ويعمل لي العملية.

- إذا قال لا فمعناها لا. لماذا؟ أكيد لمصلحتك أيتها الكارهة نفسها. ثم إن له مصلحة بالطفل.

- أمعقول هذا؟ لم أسمع في حياتي مثل هذا أبداً.

- كيف لم تسمعي ألا يوجد فقراء يبيعون أطفالهم.

لم يبق لي باب أطرقه سوى أخي يوسف. بعد عدة محاولات سمعت صوته فتداعت الهموم في نفسي. أتكلم بسرعة أضحك وأبكي بالوقت نفسه. كان يعيش في لندن وكان على خلاف دائم مع أبي من أجل الموسيقى والغناء. سألني فجأة:

- ماذا أستطيع أن أقدم لك بالضبط؟

– أريدك أن تشرح الأمور لأبي. إنني متهمة بشرفي. وأنت تعرف معنى هذا عند أبي. يجب أن يعرف الحقيقة. هذا الرجل الذي زوجني منه سرق مصاغي وسرق كل المال الذي سأعيش منه. هذا الرجل حقير وسافل، لقد أصبحت بلا مأوى. بيته الذي أقيم فيه شقة مفروشة ولم يدفع إيجارها وأنا عند صديقة لي. المفاجأة الكبرى أنه ليس طبيباً بل شخصاً فاشلاً يعمل سمساراً لتأجير شقق مفروشة للطلبة.

– أتمنى أن أساعدك لكنك تعرفين ما بيني وبينه. يرفض سماع صوتي. أستطيع إرسال بعض المال لتعودي إلى أهلك.

– ماذا تقول؟ أنت تحكم عليّ بالقتل.

– ابقَ حيث أنت إلى أن تنهي دراستك واحتفظي بابنك. سأساعدك. الآن ابتدأت بإنشاء فرقة خاصة بي سأشارك بها بمناسبة ملكية في ألبرت هول هنا في لندن. بعدها مستعد أكثر. قد تأتي لتعيشي معي.

المأساة صارت تكبر يوماً بعد يوم. قالت سمرة:

– بيتي الصغير سيسعنا. نستطيع أن نؤمن كل ما يلزم للمرأة الحامل من عند الدكتور ستيفن. كذلك ستكون الولادة عنده دون مقابل. هيا قرري. هل مثل هذا الحل يناسبك. اختاري. بعدها لن نضيع الوقت بشيء لا بد حاصل مهما قاومنا. لنلتفت لدراستنا فالامتحان على الأبواب وها نحن سننهي سنة دراسية ونبدأ الثانية يعني الأيام تمضي بنا.

وافقت. لم يكن لدي أي خيار. كما قالت سمرة صار الأمر مفروغاً منه ولا مفر. في أوروبا معتادين على الأم المفردة دون أب، لذا فليس هناك مشكلة بيني وبين من يعرفني.

مضت بنا الأيام سريعة بين الجامعة والبيت لم يسأل أحد كأني ميتة. أو كأنني لم أكن موجودة أصلاً. الاتصال بيني وبين يوسف فجأة انقطع. لم أعد أعرف أخباره.

استسلمت لقدري. أذهب إلى الدكتور سفيان بشكل دوري. يقدم لي كل العناية التي أكون بحاجة إليها. يتكلم مع الطفل الذي أحمله كأنه

أبوه. سألني مرة:

– ألا تودين معرفة جنس المولود؟

هززت رأسي بالرفض لم أكن فعلاً أهتم لكنه فاجأني قائلاً:

– لكنني أتوق لمعرفة ما سيرزقني الله.

لم آبه بكل ما قاله. بل حتى لم أسأله توضيحاً ما. اعتبرت الأمر تشجيعاً لي وبث الثقة في نفسي.

هكذا عشت كل شهور الحمل. تقدمت للامتحان ونجحت مع بداية الفصل الأول من السنة الثانية جاء وقت الولادة التي تمت على يد الدكتور سفيان. ودون أي سبب معروف دخلت في نوم عميق وبعيد. بعد ذلك صرت أصحو وأنام. حين أنام أغوص في بحر ظلمة مخيفة. كأنني مقتولة ودمي ينزف من شريان رقبتي. فأعتقد بأن أبي قتلني وإني في ظلمة القبر. حين أصحو التفت فلا أعرف أي وجه من تلك الوجوه المتطلعة نحوي بشغف وانتظار.

أخيراً رأيت الدكتور بجانبي سألته ماذا أنجبت:

– طفلة في منتهى الجمال والكمال.

– أريد أن أراها.

– تذكري أنك قد رجوتني مراراً أن أخلصك منها. سترين بنفسك كم هي طفلة جميلة وبريئة. تبنيتها لذا ستعيش معي، أنا أبوها. أعدك ألا أخبرها عن نواياك السابقة حين كنت تريدين قتلها.

غاب دقائق ثم عاد يحمل بيده طفلة أكبر مما يولد الأطفال غالباً. الحقيقة لم أكن لهفى على رؤيتها. لم أمد ذراعيّ لتناولها فوضعها في حضني. رأى حيرتي فقال:

– أقدم لك ماديموزيل سوسن. أخبرتني سمرة أنك اخترت لها هذا الاسم. كنت أفضل تسمية ابنتي ياسمين. بعد أيام ستكمل الشهرين.

– شهرين. أمس دخلت المستشفى للولادة.

– لا يا عزيزتي كنت بغيبوبة كل الوقت. الحمد لله على السلامة.

صحت:

– ماذا تقول يا دكتور؟ غيبوبة لماذا؟

– ربما أن عقلك الباطن ما زال يذكر أنك لا ترغبين بها. لا أعرف شيئاً من هذا القبيل. فالولادة كانت سهلة وطبيعية لا قلق بعد اليوم التفتي لدروسك وأنا من سيهتم بالصغيرة.

هكذا احتضنها سفيان ورعاها بكل حرمان سنيّ عمره. أخبرتني سمرة في ما بعد بأنه أحضر لها مربية منذ يوم ولادتها لتعتني بها. لذا عدت لدراستي ببال خال من أي مسؤولية تجاهها. شيئاً فشيئاً بدأت أتعلق بها وصار لزاماً أن نتنازع أنا وسفيان عليها. بقي على الاهتمام بي وبها بشكل دائم. أتذكر أول كلمة نطقتها كان بابا فكاد يفقد عقله من شدة الفرح. سألته:

– هل حقاً يعتبرها ابنته؟ ماذا لو أحمد اعترض وسبب له مشاكل.

– أحمد لا يزال على موقفه لا يريدها، ولن يعطها اسمه.

– كيف عرفت كل هذا؟

– الآن يمكنني أن أخبرك أنني في يوم ولادتها بحثت عنه كثيراً. ظننت أن من حقه أن يعلم. أخيراً علمت بأنه في السجن، فقد صدم رجلاً كان يسير على الرصيف. مما زاد موقفه سوءاً أنه كان يقود سيارته وهو مخمور. وقتها قيل لي إنه ينتظر قرار المحكمة التي هي بدورها بانتظار حالة الرجل المصاب. ذهب إليه وأخبره بأمر المولودة. فأجاب:

– لست والد أحد، أسأل تلك الساقطة من هو والدها.

قلت له:

– أستغرب كيف تسمح لنفسك بأن تقول مثل هذا الكلام على ابنة عمك ووالدة ابنتك. سأتبناها وأربيها أحسن من تربيتك أيها الفاشل.

– افعل ما تشاء ولا ترني وجهك مرة أخرى.

– ما أخباره الآن أين هو؟

– هذا الكلام منذ سنة فسوسن ستتم سنتها الأولى لذا دعيني أحضر

لها مفاجأة وحفلة تليق بابنتي التي قالت لي بابا قبل أيام.

عشت في باريس مع طفلتي وسمرة وسفيان حتى أنهيت دراستي. كانت أمي ترسل بين فترة وأخرى بعض المال لا يقدم ولا يؤخر في باريس، اعتبرته اعترافاً منها ببراءتي وبوجودي، إنما الذي تكفل بكل ما يخص سوسن كان سفيان.

حين صارحني سفيان بحبه لي وتعلقه الكبير بسوسن، وأنها أعادت له حياته المبتورة. تنهد ثم قال مباشرة:

– سنتزوج يا رجاء، سنعيش سوياً لنربي ابنتنا الصغيرة. لا أظنك سترفضين مثل هذا الطلب. فلو رفضت سأعود لقوقعتي من جديد وأبدأ أعدّ الأيام العقيمة من جديد. أعتقد بأن الله لم يساعدني على إجهاضك، من أجل أن يعوضني حرماني من الأبوة.

رددت بفرح:

– هكذا أنت دائماً تقرر وتنفذ دون انتظار رد الطرف الآخر.

– هل لك اعتراض ما؟ سنسويه معاً.

قبلت دون الرجوع لأي شخص كان. كانت حياتي وحياة ابنتي على المحك فاخترت أن نعيش وتزوجنا. حتى حين علم أبي بالأمر هدّد وتوعد، لم أهتم. فقد كنت لحسن حظي أعيش بمدينة متحضرة، يبثون فينا ثقافة الحياة لا ثقافة الموت. لماذا أقيم وزناً لمن أفسدوا حياتي مرتين ويهدّدوني؟ جاءت أمي حاملة التهديد الأخير. أخذتها إلى بيتي وتعرفت على سفيان الذي لم يشأ أن يخدعها بل أخبرها بأنه لا تهمه كثيراً إلى أي جنسية ينتمي ولا إلى أي دين. إنه إنسان، بتلك المشاعر وقف بجانب إنسانة مظلومة. زوجها تبرأ من أبوته. ووالدها تبرأ منها بل وألغاها من الوجود دون ذنب.

كانت أمي تقيم في الفندق المجاور لكننا كنا نقضي الوقت كله معي. كانت تكلمني عن أبي وشدة عناده ومعنى الخروج عن طاعته. كأنني لا أعرف. كأنني لم أذق الأمرين من هذا التعسف. مع ذلك كانت كلماتها

تأخذ كل تفكيري طوال الليل فلا أنام.

قبل سفرها جلست معي تسألني عن قراري الأخير لتنقله إلى أبي. صرت بيني وبين نفسي أفكر جدياً بما سمعت. وإذ بي أكتشف أشياء كثيرة، حمدت الله أن أتت أمي إليّ، لأتوصل إلى تلك النتيجة. اكتشفت كم أحب هذا الرجل الذي ظننت بأنني ما تزوجته إلا من أجل ابنتي ومن أجل استمرار الحياة. ما قلته لأمي يومها أدهشني:

– عوضني هذا الزوج هذا الأب الرائع عن كل شقاء السنين. أعترف بأنه وحده من أشعرني بأنني امرأة وأنثى وزوجة حقيقية وأم. رجل بكل ما في الكلمة من معنى. كم كان شهماً في كل الملمات التي عشتها، بوقوفه مثل السد المنيع من غضب الأيام القادمة. جعلني أصمد وأقوى. قولي لأبي بإمكانه نسياني كما نسى شيماء. حياتي مع سفيان كان أفضل قرار اتخذته في حياتي. لا أستحق الفضيحة والعار اللذين ينتظرانني في بيت أبي. أو ربما دفني حيّة.

كان ما قلته حقيقة لقد أسعده وجودي معه. ورعى سوسن طيلة أربع سنوات. أعطاها اسماً مشرفاً ونظيفاً. لن أتردد بمنحه عمري كما أعطيته حق تبني سوسن. والدها الذي اختاره لي أبي ليس بأهل أن يعطيها اسمه. هذا إذا تنازل ووافق.

في أول روضة أطفال ذهبت إليها كان اسمها سوسن سفيان. كان أباً حنوناً مجنوناً بها. كان مؤدباً راقياً شفافاً حريصاً على رضائي وراحتي. حين كنت أمازحه وأقول أشكر الله أن رزقني بهذه البنت الجميلة لألتقي بك وتشملني بكل هذه الحب. يرد سريعاً بل أنا الذي اشكر الله أن وضعك في طريق حياتي ليعود الأمل والحب لحياتي. بفضل وجودك ونعمة وجود سوسن. تحققت كل أمنياتي.

حين سكتت كان الليل قد أرخى عتمته على البيت. حاملاً معه هدوءاً غير عادي. فمثل هذا الوقت نكون عند الشيخ المريض فها هو في نوم عميق يزيد الوحشة في القلب المتعب.

كانت عمتي قد استنزفت بشكل مخيف، شحب وجهها وضاق

صدرها الذي أطلق زفرات حارة، كمن فقد عزيزاً لا يعوض، إلا بمثل هذا الصبر وبالأسود الذي تلفه فوق رأسها وتلبسه على جسدها الذي ما زال متناسقاً وممشوقاً، جعلها تمشي في تعالٍ وكبرياء. في بداية الأمر لم أفهمها. شموخها ليس تعالياً بل كبرياء امرأة جريحة قد آلت على نفسها أن تدفن كل أيامها التعسة والحلوة في أعماقها. تخيلها تطلق لهما العنان حين تغلق عليها باب غرفتها تنزوي بانتظار الرحيل لتلحق بالحبيب الفقيد.

يحيى الكبير

صباح اليوم التالي صحوت من نوم قلق. لا أعرف هل نمت أم لم أنم؟ بعد الحمام الساخن شعرت بنفسي أفضل فخرجت بعد أن سويت هندامي حتى أرى على وجه جدي تلك النظرات المحبة والمعجبة والفخورة. وجدته في غرفته والطبيب يعاينه. سألني بعتب رقيق:

– أين أنت أيها الشاب وأنا ملقٍ على فراشي مثل ديك مذبوح؟ أتعبت من صحبتي؟ إن كان هذا صحيحاً فسأذهب. أعلم بأنك بعدي ستشقى إذا تركتك قبل أن نرتب الأمور بيننا.

أشار لي أن أقترب وأجلس بجانبه على الكنبة الكبيرة الواسعة. أرمقه بعطف مشوب بتناقضات غريبة. حب وكره، أمان وخوف، إعجاب وقرف. بما أني عودت نفسي على تغلب الإيجابي على السلبي وإن كان مرعباً فإن مشاعري لانت. رددت بتأنٍ حتى لا تفضح نبرات صوتي بالأشياء الكامنة داخلي بعد حديث عمتيً. قلت:

– ستجدني دائماً على بابك، وما ابتعادي إلا لظروف صحتك التي نحرص كلنا عليها، حرص طبيبك بل أكثر. كان يطمئننا كلما جئنا إليه، يصرّ تركك أطول وقت لتستعيد قوتك بعد خروجك قبل الأوان.

– أريد تناول الفطور معكم يا يحيى. إذا لم يسمح الطبيب بهذا فاضربه حتى تكسره.

قال الطبيب:

– لا أرجوك. تفضل.. دعني أكن بجانبك لأراقب ما ستأكله.

سرنا جميعا إلى مائدة الفطور. كان يمشي بتمهل لكن بفخامة حين وصلنا أجلسه طبيبه بقربه وأخذ ينتقي له فطوره بعناية. صرخ بمحبة:

– ما هذا؟ هل تطعمني من بيت أبيك؟ أم تعتبرني شحاذاً تتعطف عليه بكم لقمة؟

قلت له مداعباً:

– جدي.. عليك بأن تطيع النظام الذي تفرضه صحتك. عصيتها أول أمس وها هي تحاسبك. أرجوك تحمل حتى تعود لطبيعتك.

هز رأسه متضاحكاً. طافت عيناه في الغرفة، نادى عدة مرات على سوسن لكنها لم تجب. كانت عمتي تجلس أمام النافذة غير بعيدة منا منهمكة بحياكة جاكت صوف لسوسن. لم ترد أو تخف لمناداتها. اقترب برأسه مني وشبح ابتسامة لئيمة تلوح وهمس:

– هذه البومة، حين تلتف بالسواد هكذا، وتزوم بشفتيها هكذا، وتعبس وجهها هكذا، أشعر وكأن غراب البين حلّ في بيتنا. حالاً أطلب منها أن تدخل غرفتها نريد أن نأكل ونستمتع.

– دعها ياجدي. فهي مريضة وتعبة وحزينة. لم تنم ليلة أمس.

– أكيد لم تنم، تندب ذلك الفرنسي الذي عشقته وعاشت معه قال شو! كان يربي البنت، وكان زوجها، يعني بأي دين هذا يحصل، رجل أجنبي له أسماء عدة للتمويه يموت بمرض ما، فتحزن وتقول سأحزن عليه العمر كله ولا تستحي. قال عمرها قال. أي عمر؟!

– حقها يا جدي، كان زوجها، ربى ابنتها التي أنكرها أبوها.

– اسكت كل هذا الكلام خدع وحيل. هذا الزواج لا يجوز أبداً، هذا زنا يا بني افهمني الله يرضى عليك.

– لا تقل مثل هذا الكلام يا جدي. هذا الرجل تزوجها بعقد شرعي في

باريس، ثم إنه كان لها أحسن ممن اخترته لها فسرقها و..

– رفع كفه بضجر وصاح. انتهينا. لا أريد سماع معزوفة ألفتها ولحنتها تلك العمة. قل لي بالله عليك متى غنتها لك لتبرر فعلتها لتصبح محامياً ماهراً لها.. قم معي نتحدث بعيداً عن هذا الجو الخانق، وبعيداً عن هذه الأحاديث.

وصلنا غرفته تمدد على الأريكة. تتألق عيناه ببشر أدهشني. قال:

– عندي اقتراح.. ما رأيك أن تقرأ شيئاً من كتابي وأنا أستمع لك.

– أنا قارئ جيد. سأحضر الملف. ستسمع أجمل صوت مسرحي في الدنيا. وصلنا عند سؤالك الحائر الذي رددته كثيراً. إلى أين؟ وكيف؟ بعد ذلك قلت يا سيدي ما يلي:

تعبت جداً من الروتين اليومي، من ملل الانتظار. زهق ونزق، لا أرى حولي سوى فراغ. ابتعدت عن الجميع، بمن فيهم إبراهيم، الذي ما زال كما عهدته، مخلصاً للصداقة ملتزماً بها. حين كنت أتباطأ في عمل ما، يقوم به على أحسن وجه حتى لا يلحظ أحد غيابي.

منحت نفسي إجازة، فانسللت خارجاً من الكامب، راكضاً على قدر ما تسمح به همتي. تأخذ بمجامع فكري أحجية– إلى أين؟ وكيف؟

وجدت نفسي في تلك اللحظة أمام محطة القطار، شعرت كأنما إشارة غير مرئية تدفعني باتجاه ما. صعدت القطار بإصرار كأنني على موعد. دفعت ثمن التذكرة– سألني إلى أين؟همست السويس.

هناك، اخترت ذات المقهى الذي دخلته قبل عدة شهور دون خيار مني. يومها لم أكن أملك ثمن شراب أو طعام. تحسست جيبي، نعم عندي ما يكفي، لأمتّع نفسي التي ملت التقشف والشقاء. طلبت صحن فول بالزيت الحار، وبعض الفلافل وبيضاً مقلياً وسلطة وبضعة أرغفة. رحت أتلذذ بتذوق طعامي الذي اخترته بنفسي. تناثر لسمعي حديث بين شابين لا أعرفهما يجلسان على الطاولة خلفي. وصل إلي حديثهما

كأنني أجالسها. قال أحدهما للآخر:

– هل تعرف من صادفت قبل قليل على الميناء؟

رد الآخر بعصبية غير خافية:

– من؟ خلصني بسرعة ولا تعملها قصة. روحي بمناخيري.

– مروان الراوي، كان عائداً إلى السعودية حيث يعمل. تبادلنا الحديث عرفت بأنه في أحسن حال. كان في زيارة لأهله في بلده بفلسطين بعد غياب سنتين. تصور أنه اشترى ملابس جديدة من السويس لكل فرد في العائلة. وقبل المغادرة للعودة لعمله ترك 2000 جنيه. جنبه ينطح جنيه.

رد صديقه الجالس مقابلا له غير مصدق:

– 2000 جنيه. غير معقول ما تقوله يا محمد. أهو الذي أخبرك بكل ذلك أم سمعته من ناس فاضية شغلتها تأليف القصص وتفصيلها وتخيطها وتصديقها. أنت غافل عنهم الفين جنيه أهذا معقول؟

– لا يا أخي هو أخبرني شخصياً. وقال في السعودية شغل كثير بعد ظهور البترول هناك. إذا أردنا الذهاب سيساعدنا للذهاب هناك.

– في أي بلد هو؟

– هو يقول في الرياض لكن في السعودية مدن كثيرة، وكلها فيها شغل وبحاجة لعمال من كل صنف.

– لم أسمع عن الرياض إلا في أغنية عبدالوهاب لما قال ولقد مررت على الرياض. أهناك رياض أخرى؟ أتضحك على خيبتي؟ أضحك ما شاء لك. كل شيء سيتغير ها هي جاءت على رجليها، يمكن الله سيتوب علينا من التسكع والبطالة. قم نرى ماذا سنعمل.

حين قاما من مجلسهما وجدت نفسي أعدو إلى القطار وعدت من فوري راجعاً إلى فايد. أحادث نفسي المتعبة. حلت الآن مشكلة إلى أين؟ ولكن الآن، كيف سيتم ذلك؟

وصلت عند العصر وجدت إبراهيم وعطا الله جالسين في عزلة حتى

لا يراهما أحد فيسأل عني ولا يجدان جواباً. القلق والخوف منتشران على وجهيهما. ركضا نحوي يتساءلان معاً– أين كنت كل هذا الوقت؟ قفز إبراهيم نحوي معانقاً وهو يقول:

– يا أخي شغلتنا عليك.

أما عطا الله، لم ينس أننا تحت إمرته فقال بتهكم:

– الحمد لله على السلامة. على الأقل استأذن مديرك.

سحبت إبراهيم من يده وقلت له على انفراد:

– أه يا إبراهيم، العبد بالتفكير والرب في التدبير.

– أين كنت؟ تبدو بحال غير الحال.

– كنت مع بدايات السعادة، مع بداية تحقيق الحلم. سنذهب من هنا بأسرع ما يمكن. سنعود إلى بلدتنا حالاً، لإخراج جواز سفر لنسافر إلى السعودية هيا قم بنا الآن إلى الإسماعيلية.

– أبهذه السرعة يا يحيى؟ لنفكر بالأمر.

– لا شيء يحتاج للتفكير. هيا بنا لنستقيل ونرحل.

لم نجد صعوبة كبيرة في ترك العمل. حاول عطا استبقاءنا. بذل جهده وضرب أمثالاً أكبر منه. اصبروا عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة. ولما حكيت له ما سمعت في السويس. سنذهب أنا وإبراهيم إلى هناك بأسرع وقت ممكن. كل منا يملك تقريبا 50 جنيهاً، يكفوننا حتى نصل، ونبدأ العمل. قال عطا:

– وأنا.. ماذا سأفعل؟

– ما رأيك في الذهاب معنا. علينا التطلع للأفضل. في البداية حلمنا بما يقيم أودنا، أما أن يبقى هذا كل ما نريده فهذا خطأ كبير.

رد دون تباطؤ:

– سأذهب معكما.

بمجرد وصولنا إلى الإسماعيلية ذهبنا إلى الشيخ غريب. كان

استقباله في غاية الحرارة كأننا من أهله. حين أخبرناه عن نيتنا في الذهاب إلى السعودية للعمل هناك، سرّه ذلك، فكر ثم قال:

– عليكم الذهاب أولاً إلى أم الريش وسلموا أنفسكم للنقطة هناك، أخبروهم أنكم دخلتم تهريباً، يجوز أن يحتجزوكم يومين ثم يرحلوكم.

فعلاً وصلنا نقطة أم الريش. سأل ضابط النقطة:

– هاتوا أوراقكم الثبوتية.

غمزت الشابين أنني سأتكلم. قلت:

– الحقيقة يا سيدي نحن تركنا بلدتنا أثناء الحرب بعد أن فقدنا كل أهلنا. تسللنا دون أوراق وها نحن الآن نريد العودة إلى موطننا.

– كيف دخلتم؟ طريقة غير شرعية؟ اجلسوا هنا، سأكلم الضابط المناوب وهو يعرف ما الذي عليكم فعله. والله مسكين الشعب الفلسطيني يقوم من مصيبة ويقعد ببلوى.

جاءنا الضابط الآخر يبدو أنه كان نائماً وأيقظ من عز النوم. ما الذي يجري هنا. أشار لي حيث كنت بالمقدمة وقال:

– اشرح لي مرة أخرى ما قلته لزميلي.

– نريد العودة لبلدنا ولعملنا. أثناء الحرب كان القصف في ذلك الوقت شديداً ولم نعرف إلى أي اتجاه نسلك، وفجأة وجدنا أنفسنا أمام سكة حديد وكان القطار يقوم بأول رحلة بعد هدوء الأحوال. حين لم يجدوا معنا الأوراق أنزلونا في منتصف الطريق. سرنا على غير هدى حتى وجدنا بعض العربان أخبرونا أننا في الأراضي المصرية. فبقينا معهم وعملنا معهم بنقل التراب من حول القناة وحين صار معنا بعض النقود قررنا العودة خاصة أننا سمعنا أن الحرب هدأت. مددت يدي إلى جيبي وأخرجت الفلوس فبرقت عيناه فقال لزميله:

– ضعهم في الحجز حتى الصباح.

قبل الصباح وجدناه بيننا يقدم لنا الشاي الساخن ويمتدح فلسطين وأهل فلسطين العظماء الشرفاء ويقول:

– كرماً لفلسطين لن أوقفكم أكثر هيا في أمان الله.

شكرته وصافحته وتركت بيده خمسة جنيهات، ضجت الحياة في وجنتيه شاكراً. انطلقنا إلى محطة سكة الحديد وركبنا القطار الذاهب إلى فلسطين، أو لعله الأدق أن نقول الجزء الباقي منها، وصلنا عند العصر وكان يوم جمعة، الشوارع فارغة. قال إبراهيم:

– سنذهب إلى نزل صغير في وسط البلد. لا أظنك يا يحيى تريد الذهاب إلى أخيك وأنا لا بيت لي.

قال عطا:

– خالتي هنا عندها بيت كبير بحديقة واسعة تؤجر غرف بيتها للمتزوجين حديثاً لقضاء بضعة أيام عسل. ماذا لو ذهبنا ثلاثتنا وقضينا عندها ليلتنا بالأجرة طبعاً. إذا استرحنا بقينا حتى ننجز جوازات سفركم، إذا لم نرتح فغداً نبحث عن مكان لنا.

استقبلتنا الخالة بكل ترحيب وقدمت لنا الغرفة مجاناً كرمال ابن أختها، وبعد قليل جلبت لنا عشاء مما تيسر لديها وجلست تسامرنا وتشتكي من ضيق ذات اليد فمنذ انتهاء الحرب والشباب تشردوا أو أسروا أو قتلوا ولم يعد أحد يفكر في الزواج وتكاليفه.

في الصباح الباكر وقبل أن نغادر تركت لها مبلغاً صغيراً. توجهنا بعدها إلى مكتب سفريات الحلبي حيث كان المكتب الوحيد الذي بقي يعمل رغم كل الأحداث، كان هناك موظفان وفتاة تعمل على الآلة الكاتبة. حين عرف ما نريد قال نحن نقوم بكل تلك الخدمات مقابل مبلغ من المال لكل منكم.

دفعنا المطلوب لاستصدار جوازي سفر باسمي وباسم إبراهيم وتجديد جواز عطا ووعدنا أن يتم الأمر خلال ثلاثة أيام. أخذ منا العنوان الذي نقيم فيه. قال سأخبركم في حال انتهاء المعاملات. قبل خروجنا استوقفنا موظف آخر يجلس بالجوار وقال:

– من الصعب استصدار تأشيرات لكم للذهاب إلى السعودية بهذه

السرعة. ما رأيكم أن نستصدر لكم تأشيرات لقضاء فريضة الحج، فهذا موسمه. هناك حملة حجاج على وشك السفر.

شكرناه بحرارة لأننا في غاية العجلة قال:

– اعتمدوا على الله. كيف ستسافرون براً، أم جواً، أم بحراً؟

أجبنا ثلاثتنا الأرخص. قال:

– إذن بحراً. ستذهبون إلى السويس ومن هناك تأخذون الباخرة الذاهبة إلى جدة. سنحدد لكم الموعد حين ننهي جوازات السفر.

بضعة أيام وكان كل شيء معد للسفر. ودعنا الخالة تركناها تبكي بحرارة على الشباب الذي لم يجد له مكاناً في بلده المغتصب إلا بالهجرة. الله يحفظكم. عودوا فهذا بيتكم وبلدكم، بالبركة يا شباب.

عدنا إلى مصر. هذه المرة بشكل قانوني. بأوراق ثبوتية وتأشيرة دخول لأداء فريضة الحج. كانت وجهتنا مدينة السويس، لم نسافر بالدرجة الثالثة في القطار كالسابق. ببعض المال حجزنا تذاكرنا بالدرجة الثانية. قد تأتي فرصة ونعود بالدرجة الأولى.

كانت المحطة مكتظة بالناس كعهدها، استقر بنا المقام أخذنا نشارك الحجاج بالتوحيد والتكبير والبسملة، اندمجنا بالغناء معهم بأناشيد دينية لا نعرف متى تعلمناها.

في الميناء. سفن صغيرة وكثيرة تنتظرنا لنقّلنا إلى الضفة الأخرى حيث بانتظارنا الباخرة الكبيرة. قال عطا:

– أختي تقيم هنا منذ تزوجت، أريد أن أراها.

سألنا أحد أفراد مرشدي القناة، سمح لنا باستعمال التليفون شرط أن يطلب المرشد النمرة بنفسه. جاء صوت الأخت من الطرف الآخر. سألها هل لك أخ اسمه عطا، أجابت بالإيجاب، حين أخذ عطا السماعة سمعها تسأل بلهفة ماذا به أخي قلّ لي ألو.. ألو ماذا به عطا. أجابها عطا:

– أنا عطا. لا تقلقي أنا في السويس في طريقي لجدة للحج.

سمعنا أخته تقاطعه:

– سأحضر لأراك حالاً.

بعد ربع ساعة كانت سيارة كاديلاك فاخرة كبيرة تتهادى نحو الميناء. ركض عطا نحو السيارة صائحاً أختي. ترجلت وتلاقيا بحرارة وتعانقا طويلاً. كانا مأخوذين بالحديث بعد طول غياب حين أطلقت الباخرة بوقتها معلنة أنها على وشك التحرك مشت معه حتى وصلا إلينا، حيتّنا ثم أوصتنا بعضنا ببعض خيراً. تحركت الباخرة الضخمة وسمعنا سكاكينها تشق عباب الماء فتنساب بسلاسة.

بحثنا عن مكان لنا بجهد من شدة الزحام. حين استقرينا سألت عطا عن أخته فهي لا تبدو من بلدنا الفقير المباح للقصف وللحصار والاستلاب. قال بأنها تزوجت منذ خمسة عشر سنة رجلاً غنياً يملك مصانع للمفروشات المنزلية سألته:

– كيف لم يساعدك زوج شقيقتك ويؤمن لك عملاً ما؟

– أنا مالي وماله، أختي هي زوجة الرجل الغني ولست أنا. بالمناسبة هذه أول مرة في حياتي أقبل منها مساعدة مالية.

أخرج من جيبه رزمة من المال. أكمل جملته:

– قبلتها بيني وبين نفسي على سبيل الدين، لأننا ذاهبون لنغتني كما وعد يحيى. هذا المال لنا نحن الثلاثة ريثما نجد عملاً ومأوى.

فقلت صادقاً:

– إذن هو دين علينا نحن الثلاثة.

قادنا أحد العاملين على السفينة إلى المكان المخصص للدرجة الثانية ربما كانت العاشرة أو المئة. فبقدر ما عشت في بيوت بسيطة لم أسكن بمثل هذا المكان الشديد الاكتظاظ، المملوء بروائح لا يمكن تخيلها ما لم تجربها. لا أستطيع وصفها إلا بأنها مكان ضيق مملوء تماماً بعدد من البشر من كل الأجناس والألوان صعب إحصاؤهم. رؤوس سوداء مكشوفة، رجال تلبس الحطة الفلسطينية بلونيها المنقط أسود وأبيض

أو أحمر وأبيض. رجال يلبسون عمامة ملفوفة بعناية أما النساء بعضهن يعصبن رؤوسهن بمناديل سوداء أو بيضاء أو ملونة. كذلك كان هناك نساء سافرات. الجميع يتحرك بحثاً عن أماكنهم. تختلط روائحهم ولهجاتهم وألوان ملابسهم كأننا في إحدى حفلات التنكر التي كان يقيمها زمان مجندو اليو إن في بلادنا.

الرائحة ودوار البحر يخدرانا فتدور الرؤوس. نتصبر الوقت يمر كعادته، وسنصل وسنبدأ حياتنا. قبل أن أفقد صوابي وأتقيأ كل ما جوفي وربما معدتي انسللت إلى زاوية مكشوفة قليلاً. قررت أن تكون جلستي حتى نصل. إن كان الجو بارداً أم حاراً.. ليلاً أم نهاراً.

فراري من هذا الكم الهائل من البشر ضروري لإنقاذ البقية الباقية من مقاومتي، والتشبث بحلم جميل بات قاب قوسين أو أدنى. ها أنا أقترب من الهدف الذي سكنني منذ زمن. ها هو منذ ساعتين تبرعم وبدأ يزهر. أو لعلي أستطيع أن أعترف لنفسي، أنني اعتزمت أن يكون أكبر من كل ما تخيلته سابقاً، منذ رأيت شقيقة عطا وسيارتها الفخمة تدخل الميناء، وبملابسها وتناسقها، والذهب المعلق في عنقها، ويديها، وأصابعها. قلت لنفسي لن يكون لأحلامي حدود بعد الآن، لن تبقى طلباتي، متواضعة وبسيطة واهنة، ومقتصرة على الأكل والشرب والمأوى وتلك الهلاهيل التي يسمونها ملابس. سأجدّ وأعمل ليل نهار حتى أصبح غنياً، غنيا جداً. أمتلك كل ما أريده وأتمناه، مثل أولئك الناس الذين يملأون خزائنهم بالمال وبالملابس الفخمة، والبيوت الكبيرة وسيارات ربما طائرات. نعم هذا حلمي منذ الآن وغدا وإلى أن أموت.

وصلنا جدة بعد الغروب كنا فعلاً نعاني الدوار والشعور بالغثيان والتعب من جلستنا غير المريحة والطعام المحفوظ. لم نشعر بأننا بحاجة لشيء سوى مكان نمدد فيه أجسادنا المكورة، ورؤوسنا التعبة. إذ بنا بالميقات للإحرام. ألقينا بأجسادنا على الأرض.

انضممنا إلى مجموعة من الحجيج الذاهبين إلى مكة. أخذوا في إعداد أنفسهم بأخذ حمام للطهارة والوضوء. تعلمت منهم كل شيء. كانت أول

مرة في حياتي أمارس طقوس الصلاة. كان موضوع الدين والتدين ما زال بعيداً عن مخيلتي لعله لم يتسن للأسر تعليمنا من شدة بحثهم لنا عن الغذاء والدواء بعد كل نكسة من العدو المتربص بهم.

لقد كان فكري مسكوناً بهواجس شتى. أولها وآخرها لقمة العيش والمأوى. فبين غمضة عين وانتباهها وجدنا أنفسنا مع معظم سكان مدينتنا والمدن القريبة والقرى المجاورة تحت خط الفقر.

فزع حقيقي يطل من عينيّ كلما تذكرت آخر الجرائم وأهمها وأفظعها، أشلاء أمي المتطايرة حول أجسادنا المخبأة تحتها. صرختها الأخيرة المدوية التي أخرسها الموت المفاجئ. منظر أبي وهو ينتظرني لأجمع المال اللازم لإجراء عملية البتر لساقه فلم يتم لنا هذا المراد. رغم العمل الشاق والمتواصل لم يكتمل المبلغ. كان الموت أسبق، لعل أبي كان بانتظاره.

في تلك اللحظات الجليلة، ونحن نعدّ أنفسنا للانطلاق إلى مكة والحج، لم يكن أكثر من وسيلة بالنسبة لنا لبدء كفاحنا الجدّي. لكن أمام جلال المكان، وصلاتنا لركعتين على نية الحج والعمرة، بات، بحد ذاته، رغبة حقيقية. من يمكنه التطاول وهو يقوم بهذه الشعائر الدينية والهتاف بالتكبير بلفظة الجلالة، الله أكبر كبيراً، تملأ الآفاق.

زحام شديد، قلوب واجفة وأبصار خاشعة. نحن في مكة. أمامنا الكعبة المشرفة، تتوسط المسجد الحرام الشريف. خاشعين لخالق الدنيا والدين. بذل حلو المذاق، له رهبة، فيه طعم الرجاء والأمل. حفاة عراة. بدأنا شعائر الحج بالطواف حول الكعبة المشرفة.

كل مجموعتي بدأت الطواف إلا أنا، كنت متصلباً بشكل غريب. لا أدري خوفاً أو رهبة أو مرضاً. شيء في أعماقي ارتجف، وارتجف. موقف ليس كأي موقف. أكبر من كل خاطرة أو فكرة وردت على ذهني. حين حاولت نقل قدمي للتقدم والانخراط مع هذا الكم الهائل من البشر كدت أقع مغشياً عليّ. تلقاني الرجل الواقف خلفي وحماني من السقوط. همس في أذني الله أكبر الله أكبر سر يا أخي على بركة الله. إنه الوجل فأنت الآن أمام أقدس ركن في الدنيا ارفع يديك وكبر وردد كل ما تسمعه

ممن حولك.

اندفعت وراء مجموعتي، الرجل ما زال ورائي، نصحني بالتروي وألا أستعجل ممن هم أمامي. لنسر بهدوء مراعينً هيبة المكان وقداسته. ملتزمين بأوامر الله في الحج وإلا ستذبح فدية. ابق معي وافعل كما أفعل هيا سنطوف حول الكعبة المشرفة سبعة أشواط.

انتهينا من الأشواط السبعة فذهب الرجل إلى مكانٍ آخر فتبعته. همس مرة ثانية هنا الصفا والمروة. هل تعرف شيئاً عنهما، هززت رأسي نافياً، ما علينا، الآن سنهرول بينهما سبعة أشواط ذهاباً وإياباً. كلما عدت من حيث بدأت قف وانظر إلى الكعبة وكبّر. حين رأى التساؤل في عيني ووجهي المنتصب بخشوع نحوه رد على تساؤلي قائلاً: نحن نقتدي بستنا هاجر، كانت تركض بين الصفا والمروة، تبحث لابنها إسماعيل عليه السلام عن ماء، فلا تجد. يشتد خوفها وألمها فتعدو من جديد. بعد سبعة أشواط عادت لتجد الماء قد تدفق بين قدمي صغيرها الباكي.

الحقيقة لم أزل مأخوذاً بكل ما أره وبكل ما أسمعه وأفعله. وجاء يوم الصعود إلى منى والبيات فيها، وعند فجر اليوم التالي قصدنا جبل عرفات. إنها وقفة عرفات. اقتداء بالرسول الأعظم. في غروب اليوم نفسه نزلنا إلى مكان اسمه المزدلفة ورجمنا الشيطان ثم عدنا للبيات في منى وهكذا ثلاث ليال.

عدنا إلى مكة، وطفنا طواف الإفاضة. جرينا السبعة أشواط ذهاباً وإيابا بين الصفا والمروة كالسابق. ثم ذبحنا وتحللنا وانقضى الحج.

سرعان ما عدنا لبشريتنا وهمومنا وأوجاعنا من جديد. عادت بكل قسوتها. أين كانت ونحن بين يدي الرحمن لا أدري؟ كيف نبذها عقلنا وقلبنا، لم يبقَ في البال أو الفكر سوى الرهبة من الحياة ومن الموت؟ عدنا إلى جدة، عدنا للبحث عن عمل، جيوبنا فارغة، هذا صحيح، لكن قلوبنا عامرة بالثقة بالله.

في جدة قيض الله لنا أناساً طيبين ساعدونا لاستئجار بيت يؤوينا

نحن الثلاثة. صار لنا بيت صغير بسيط. أحضرنا له كل الأشياء الضرورية والبسيطة بسرعة. وتعشينا تلك الليلة الأولى خبزاً وجبناً وخياراً وبندورة. قال إبراهيم:

– لقد التقيت أثناء تأدية الحج برجل سعودي يملك متجراً لبيع ثريات الكريستال وتحف للمنازل. طلب مني أن أتسلم له المحل مقابل راتباً شهرياً قدره 400 ريال سعودي. سوف يعلمني مهنة البيع والشراء وتركيب الثريات. لقد وعدني، إذا كنت عند حسن ظنه، سيرفع لي راتبي في المستقبل. وجدتها فرصة لأتعلم شيئاً محدداً بدل البقاء في عمل أي شيء. ما رأيكما أن تبحثا بدوركما عن مهنة محددة.

قال عطا:

– أظن أن مهنتي جاهزة، أنا كما تعلمون مغرم بالطعام وأتقن صنعه وأحب هذا العمل. سأعمل في أي مطعم، حين تتحسن الأحوال سأفتتح مطعماً يخصنا.

رد عليه إبراهيم:

– ممتاز.. سأكلم المعلم عبدالله، لعله يتوسط لك عند أحد أصدقائه. ماذا عنك يا يحيى؟

– يبدو أنني لم أستقر على مهنة ما. أفضل أن أبقى على حالي بأن أعمل أي عمل يدر مالاً. سأتدبر أمري لا تقلقوا علي.

في الصباح حين توجه إبراهيم ليقابل السيد عبدالله. بقيت وعطا في البيت. بعد قليل قال عطا:

– نحن في جدة إذن علينا بأكلة سمك سأذهب لأحضره وأطبخه. اعمل أي شيء ريثما نجتمع في المساء على العشاء.

بدأ تنفس جدي يهدأ، ثم نام عميقاً. انسحبت من جانب سريره وجلست على الأريكة التي يمكنني التمدد عليها وقت ما أشاء. لم يزل الوقت ضحى. عدت للقراءة، متلهفاً لمعرفة قصة الأصدقاء الثلاثة في البحث عن عمل. فتحت الملف من جديد. وقرأت:

ذهبت من فوري إلى المدينة على غير هدى أتسقط أحوالها. لعلي أتمكن من تأمين شغل لنفسي بما أنني الوحيد العاطل عن العمل. لن أعود خالي الوفاض. رأيت أمامي شاحنات كبيرة تفرغ حمولتها أمام أحد المخازن فسألت الرجل الذي يدير حركة العمل:

– هل أنتم بحاجة لمساعدة في التفريغ.

– يبدو أنك غريب، من أين أنت؟

– أنا من فلسطين وأبحث عن عمل.

– أيناسبك هذا الشغل؟

– لا بأس.. لم أعتد أن أكون بلا عمل.

– كم عمرك يا فتى حتى تقول لم تعتد أن تكون بلا عمل؟

– عمري أربعة عشر عاماً، أعمل مذ كنت في الثامنة من عمري. بسبب الحروب المتتالية في بلادنا كما تعلم.

– قم وساعد في تنزيل الحمولة. هؤلاء العمال يأخذون راتباً محدوداً ولكن أنت سأحاسبك على كل كيس تنزله ريالاً. ما رأيك؟

– نعمة يا أخي. كم ساعة سنعمل.

– حتى ينتهي الحمل كله وترص البضاعة في المخازن. الساعة الآن العاشرة صباحاً أعتقد بأننا سننتهي في الخامسة نظراً لتوقفنا عند صلاة الظهر والعصر ثم هناك نصف ساعة للغداء.

– أنا لا أصلي، لا أريد أن أتوقف عن العمل.

– إياك أن يسمعك أحد المطوعين بأنك لا تصلي ولا تريد التوقف في فترة الصلاة وإلا ستجلد.

– لماذا.. أليس هذا شيء يخصني؟ أنصلي خوفاً من الجلد؟!

– تحرك لعملك. في هذا الدقائق خسرت أكثر من ثلاثة ريالات بكلام فاضي، وأنصحك ألا تقول ما قلت قبل لحظات أمام أحد أبداً.

عدت للمنزل في الساعة السادسة. كان الصديقان ينتظراني على

العشاء الذي أعده عطا بجهده وبماله. تناولنا عشاءنا ونحن نثني عليه هذه الجودة بالطبخ وعلى طعمها الشهي. بعد ذلك جلسنا نتناول الشاي الثقيل الذي أعده إبراهيم. قال إبراهيم:

– السيد عبدالله يريد التعرف عليكما.

قال عطا فرحاً:

– يا الله ما أجمله إن كان قد قرر أن يفتح لي مطعماً. سأجعله لا يندم إلا على شيء واحد، هو أنه لم يعرفني من قبل. لكن ماذا عن يحيى. لقد قضى اليوم بلا عمل.

– من قال هذا. لقد قضيت ساعات من العمل المتواصل والشاق وهاك المال الذي حصلت عليه.

ألقيت المال على الطاولة العتيقة الشاحبة فتناوله عطا وصرخ:

– بحق الله قل ما هو العمل الذي يدر هذا المال في ساعات.

– عمل ما، قد تأنف منه، لكنني لا أرى عيباً بأي عمل. حين عبرت الشارع الكبير بدا لي سوق على جانبيه حوانيت تبيع كل صنف. في منتصفه وجدت جماعة من العمال يقومون بإنزال حمولة من الشاحنات فساعدتهم. كان المشرف رجلاً لطيفاً وعدني أن يعطيني ريالاً على كل شوال أنقله إلى المخزن وأضعه في مكانه الصحيح. في البداية نقلت في الساعة الأولى ثلاث حمولات وفي كل ساعة أخرى صرت أسرع فحصلت على هذا المبلغ.

– يعني حمّال. لا لن أدعك تقوم بهذا العمل. اصبر سنجد لك عملاً. ثم إنك صغير وظهرك لا يحتمل مثل هذه الحمولة.

– اسأل إبراهيم عن أيام تنك الرمل. أنسيت يا إبراهيم؟

– وهل هذا شيء ينسى. لكن الشوال أثقل بكثير. اسمع يا يحيى أريدك أن تتعلم صنعة ما. خلص انتهى عهد العمل بأي شيء. اليوم قال السيد عبدالله: "صنعة في اليد أمان من الفقر".

– حتى ولو أردت أن أتعلم صنعة هل سأنتظر حتى تبدأ تعطي

المردود. سأقوم بأي عمل مربح. اضرب واهرب.

– لا يهم يا أخي، أي عمل، إلا حمل الأثقال هذا.

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنا نقف أمام السيد عبدالله. الذي ابتدرنا بمقالة كبيرة عن فلسطين وأهلها المناضلين الشرفاء. وانتهى بضعفه أمام فلسطيني يبحث عن عمل. قال:

– صديقكما إبراهيم أحب عمله. وبحكم خبرتي، عرفت أنه إنسان على قدر المسؤولية.. جدع ونزيه ويعتمد عليه. نأتي لعطا، أريدك يا عطا أن تستلم المطبخ بكل مسؤولياته ابتداء من إحضار الخضار من السوق حتى يتم طبخه وتطعم مئة عامل من عمالنا.

– هكذا.. أتريديني أن أقوم بكل هذا وحدي دون مساعدة؟

– لا يا عطا المطبخ جاهز فيه كثير من العمال الذين سيساعدونك. كنا بحاجة ماسة لمثلك. كان عندنا طباخ أمرضنا كلنا.

ضحك فضحكنا معه ثم التفت نحوي وهو يقول بتدليل:

– أما أنت يا صغيري العزيز أريدك أن تتعلم أي شيء، فأنت ما زلت في بداية عمرك وسهل أن تتعلم. ماذا تتمنى أن تكون مهنتك في المستقبل؟

– أريد أن أتعلم تمديدات كهربائية في العمارات.

– ممتاز. هنا بالقرب من محالّنا رجل يوناني أو ربما هو ارمني معلم كبير في التمديدات الكهربائية، الآن سنذهب إليه ستتعرف عليه. إذا أحببت العمل معه فشيء عظيم إذا لم ترغب فهناك غيره.

– أتمنى أن يقبل هو أن يعلمني، فأنا ليس لدي أي مشكلة. الحقيقة همي الوحيد أن أعمل.

هكذا منذ الأسبوع الأول استلمنا نحن الثلاثة العمل. ابتدأت بالتعلم بسرعة، أعمل كل ما يطلبه مني ومن غيري. كان يستغرب كيف يجدني في كل مكان. فأحبني وقربني إليه. كان يقول لي تذكرني بنفسي حين كنت بمثل عمرك يا يحيى. في كثير من الأحيان، كان يصحبني إلى بيته،

ومع الأيام صرت فرداً من تلك الأسرة الصغيرة.

كان زميليّ يكسبان أكثر مني بسبب أنني كنت تحت التعليم. فصرت أذهب بين المغرب والعشاء أنقل أشولة كما فعلت في اليوم الأول وأضيف إلى دخلي بعض الريالات. حدث ما حذراني منه، أصبت بفتق سبب لي ألماً شديداً في أسفل بطني، لم أخبر أحداً تحاملت وصبرت حتى صرخت ذات ليلة من شدة الألم، نقلاني إلى المستشفى، ثم أجريت لي عملية بصورة عاجلة.

حين خرجت من المستشفى صار الدين الذي في عنقي لصديقَي هماً وقلقاً. مادياً كأجرة العملية ومعنوياً بما أحاطاني برعاية ومحبة.

وجاءت الفكرة. كنت واقفاً عند زاوية شارع أرنو إلى البحر وأتذكر بحر بلدنا، كان كلما لذنا بحضنه يغسل عن أرواحنا، وأجسادنا، كل شقاء وتعب وقلق. أشحت بوجهي ألماً، وإذ بي ألمح عربة يقف خلفها شاب، يشغل حيزاً صغيراً من ركن الشارع، يبيع الفلافل، يلف بعضها برغيف ويضع الخضار يلفها بالورق ويناولها للعمال الواقفين مثل طابور طويل وللمارين. خطرت ببالي فكرة، اقتربت منه وألقيت عليه التحية وطلبت ساندويتشاً بينما أنا أقضمه أخذت أدردش معه. فهم بأنني أريد أن أعمل مثله. فقال لماذا لا تشاركني. أنا أعمل من الظهر إلى المغرب، وحين تنتهي من عملك تأتي وتستلمها مني. عليك أن تحضر كل لوازمك كما أحضر كل لوازمي، وتدفع لي مبلغاً شهرياً قيمة عملك على هذه العربة واستعمالك لكل شيء فيها. وافقت. ابتدأت العمل دون إخبار إبراهيم وعطا ريثما تتكشف الأمور.

كانت التجربة أكثر من ناجحة. فكنت أتعلم طوال النهار وأعود عند الغروب للعربة. كنت أكسب بشكل لم يخطر لي على بال. وكانت التجربة الأكبر حين مرض شريكي وطلب مني أن آتي في الصباح والمساء ريثما تتحسن أحواله. وهكذا استأذنت من المعلم بولص أن أتغيب بضعة أيام فوافق ممتعضاً.

عملت بضعة أسابيع بصناعة الفلافل حيث كنت أصنعها كما أحبها،

أملأها بالخضار والبهارات فأعطيها لوناً جميلاً ونكهة بديعة. صرت مشهوراً بأن الفلافل عندي أطيب من أي مكان آخر. وزادت زبائني، فوقعت في حيرة.

إبراهيم لم يوافق على التفرغ لصناعة الفلافل. نصحني ألا أترك المهنة التي صرت عارفاً بها. وأضاف يجوز أنك الآن تحصل على فلوس أكثر، لكن تخيل نفسك وقد أتقنت المهنة وصرت تأخذ مقاولات كبيرة خاصة، فالبناء هنا على قدم وساق. لم أستمع وتفرغت لها.

بعد ستة أشهر مللت الفلافل وقررت العودة إلى عملي السابق ولكن معلمي بولص اعتذر بأن عنده عمالة كفاية، أقول الحق لقد طردني. قررت ترك جدة كلية والسفر إلى مدينة أخرى لأجرب حظي فيها. صديقاي رفضا الموافقة على قراري، أصررت وقلت مهوناً عليهما. إلى أين سأذهب؟ إذا لم أوفق فسوف أعود.

انتقلت إلى الرياض وبدأت بالعمل بمفردي. اشتريت عدة كاملة واستأجرت بيتاً صغيراً جداً فيه غرفة ومكان صغير جعلته ركناً للطبخ وحمام صغير يفي بالغرض. بدأ عهدي الجديد في المدينة الجديدة، في العاصمة الكبيرة. لا يعرفني أحد. بعد بضعة أشهر تقدمت لمناقصة تمديدات كهربائية لعدد من القصور الملكية. كنت أجهل كتابة المناقصات، سألت أحد المقاولين فأخبرني بالخطوات الأولى، لم أخبره بأنني جديد على المهنة ولا أعرف بعد تقييم الأسعار. رست عليّ ثلاث مناقصات. اتضح أني تقدمت بأرخص الأسعار دون دراية. حين وقفت أمام الرجل المسؤول عن تسليمي المناقصة نظر طويلاً وقال ضاحكاً:

- أأنت صاحب هذا العطاء يا بني؟
- أجبته بجرأة نعم يا سيدي.
- هل قمت قبلاً بمثل هذه الأعمال؟
- نعم إنها مهنتي.
- لكنك صغير جداً وواضح بأنك غير متمرس على الدخول

بمناقصات. أسعارك رخيصة، وستخسر خسارة كبيرة خاصة إذا لم تتقيد بموعد التسليم..

– لا تهتم.. إن شاء الله سيكون كل شيء على ما يرام.

غاب قليلاً في الداخل ثم عاد وهو يقول مبتسماً:

– لقد زودت لك المبلغ جعلته أقل من العطاء الأخير بقليل. بدأ صراعي بين عدم تمكني من المهنة وكذلك الوقت. استأجرت عمالاً ذوي خبرة طويلة صاروا يعملون بطريقتي العجولة ولكنها متقنة فأنجزت العمل كله بوقت قياسي سلمته قبل موعده المحدد، فأخذت أول مبلغ كبير نوعاً ما في حياتي.

كل مقاولي ومتعهدي البناء حولنا منحوني ثقة كبيرة. مما جعلني أجتهد أكثر وأتقن أكثر، فصاروا يرشحونني للعمل معهم. بدأت الأموال تكثر في يدي وبدأت بدوري أعرف كيف أشغلها.

بعد سنة صار لدي عدد من المحالّ التي تدر ربحاً يومياً. كنت أؤمن، وما زلت، بأن الإنسان الذكي، يحرص على أن يكون عنده عملاً ما، يدر دخلا يوميا، وأن كانت تطلعاته كبيرة.

فجأة وكأن الأرض انشقت وأخرجت شركة قائمة مديرها أنا وعدد كبير من العمال والموظفين. وكل تلك الأعمال الصغيرة انضمت تحت جناح الشركة الأم. محطة بترول ومغسلة سيارات، مغسلة ملابس، مطعم للعمال. مساء كل يوم نلتقي لتصفية الحسابات يومياً.

لم أنسَ أخي، لم أقطع عنه المال في أي مرحلة من مراحل حياتي. والآن صارت أموالاً وفيرة فكنت أبعث له مبلغاً شهرياً. ثم تزوج.

توقفت عن القراءة، نظرت ناحية جدي كان ساهماً. قلت مداعباً:

– ماذا عنك؟ ألم يئن الأوان لدخول المرأة إلى حياتك؟

– لا تذكرني.

تبسم بمرح ثم أخذ يضحك ويضحك والكلام يتقطع على لسانه وجسده يهتز والسعال علق بحنجرته ومع ذلك لم يتمكن من الكلام إلا

بعد حين. قال:

– يا لطيف على تلك القصة التي مررت بها حين تقابلت وجهاً لوجه مع المرأة الأولى في حياتي. بعد ما يقارب السنوات العشر. أصبحت شخصاً آخر شكلاً وموضوعاً. إذا قلت لك يا يحيى بأنني لم أعدّ السنوات ولم أبالِ بالأيام أكن صادقاً. تنبهت بأنني أصبحت رجل أعمال ناجحاً ومشهوراً بالأمانة والصدق وإتقان العمل وأسعاري لا تضاهى. ومواعيد دقيقة. وانتشرت أخبار عملي ونجاحي إلى كثير من البلاد المجاورة وصار لي معارف وأصدقاء بكل مكان.

كانت زيارتي الأولى لبلدتي في فلسطين. استقبلني أخي ببيته الكبير على شاطئ البحر. وسط أسرته الكبيرة. سررت جداً بذلك ظننت بأنه اعتدلت أحواله وفكر بقيمة العمل كعمل قبل أن يكون مردودا ماديا. لم أعرف ولم أسأل عن نوع العمل الذي يقوم به ويدر عليه هذا الكم من المال.

مضت بضعة أيام حدثته فيها عن أحوالي وما عانيت في الغربة وما وصلت إليه. لم تلتقِ عينايّ بعينيه، بدا وكأنه يتهرب من الجلوس معي. لم يسألني أين أقيم ولماذا لا أقيم في بيته؟ مثل هذه الأمور في بلادنا حساسة وتعني الكثير بيننا وبين أنفسنا وبين المحيطين بنا. أثناء حديث مقتضب سألته بنية صافية:

– ماذا حصل لأرضنا التي كنا نملكها.

فأجابني ببساطة وهدوء:

– أي أرض يا أخي، لقد أخذها اليهود بوضع اليد.

صدقته. انقطع الحديث إذ قام من مكانه وتركني وحدي. إذاً سؤال طرح نفسه إن حالة أخي المعيشية لا تشي بعوز أو فاقة بل تشير إلى يسر بل غنى. ولماذا إذن كان لا يترك مناسبة إلا وشكا ضيق ذات اليد بكل وسيلة ممكنة، سواء بالتلفون أو بالرسائل المكتوبة والشفهية مع كل مسافر من عنده وإليه. قطعت أفكاري وتساؤلاتي بقولي لنفسي الحمد لله أنه بخير وأولاده كلهم بالمدارس.

في المساء التقيت مختار حارتنا القديمة المتجددة على مأدبة عشاء أقيمت على شرفي سألته أثناء الحديث:

– يامختار هل هناك ما يمكن عمله لاستعادة أرضنا؟

– ألكم أرض غير تلك التي باعها شقيقك لليهود؟

– هي أرضنا التي تعرفها لا نملك غيرها. أقام جنود الأمم المتحدة.

– لقد باعها عدنان بمبلغ كبير من المال، وتنازل نهائيا عن الكثير. تعلم بأن أرضكم كثيفة الأشجار كانت مخبأ للفدائيين إثر كل عملية يقومون بها. قطع اليهود كل أشجارها، تركوها عارية فتشرد الفدائيون. قد لا تصدق. كما نحن لم نصدق بأن عدنان كان يراقب الفدائيين ويبلغ عنهم. فيكافأ يمكن يحاسبونه على كل رأس يقبضون عليه.

امتقع لوني وبان الغضب على وجهي قلت هامسا لنفسي ربما نكون لا نعمل بالسياسة ولا نفهم بها لكن ماذا عن الوطن المسلوب. استأنف المختار حديثه محاولاً تهوين الأمور:

– أقسم يا بني، أنني حاولت مع بعض الأقرباء، أكثر من مرة نصحه، بألا يفعل مثل هذه الأشياء المشينة. لم ينتصح حتى أنه تطاول علينا فآثرنا السلامة. بعدها بدأت النعمة تظهر عليه. إذا سألهم أحدهم عن تلك النعمة المفاجئة يخبرهم بأنك ترسل له بآلاف. بينما يشكوك في كل مجلس بأنك منذ سافرت لم ترسل درهماً واحداً.

بعد ذلك تزوج وأقام حفلاً كبيراً حضرة كل المغضوب عليهم لذلك قاطعنا الحفل. فقاطعنا بدوره. لا يكلمنا ولا يقترب منا. أصحابه الآن المحتل والغاصب والمتستر عليهم.

كدت أفقد صوابي فصرخت بالرجل:

– ماذا تقول يا رجل؟

– الحقيقة. هل تعني أن كل شيء تم دون علمك.

– أكيد.. لم يخبرني بشيء. ومنذ يومين سألته عن الأرض أجاب الأرض ضاعت، أخذها اليهود بوضع اليد لغياب أصحابها. فكرت أن

أستشيرك لتنصحنا بعمل شيء ما لنستردها، من أجله ومن أجل أولاده. كنت أساعده منذ البداية وما زلت.

كنت غاضباً بشكل مؤلم، وجع اعتصر قلبي. أرضنا آلت لليهود القتلة. قتلوا أمنا وأبينا وإخوتنا. يكذب ويسرق ويخون شباب المقاومة الذين يقومون بإقلاق المحتل. روحهم على أكفهم من أجل الوطن.

بعد العشاء ذهبت إلى أخي، فتح الباب فأمسكت برأسه وصحت:

– ما زلت كذاباً وحقيراً. ما زلت تعيش على الاحتيال. تبيع أرضنا لمن قتل أهلنا وشردنا. تشي بالناس الشرفاء بثمن بخس يا كلب.

– وأنت ما دخلك في هذا الموضوع. أليس أنت من ترك كل شيء وراءه وذهب ليجمع الملايين دون أن يبالي بأخ ولا وطن.

– تقول هذا الكلام بوجهي ولا تخجل؟ هل قطعت عنك الفلوس منذ أصبحت قادراً على توفيرها؟ كلما تحسن عملي ودخلي كنت أزيدك، وحين طلبت مبلغاً لتتزوج أرسلت لك كل ما كنت أملك في ذلك الحين. استغليت ذلك لذر الرماد في العيون حتى لا يعرف أحد بالكيفية التي تكسب فيها هذا المال. لا أعرف كيف تجرؤ..؟

– أنت الكاذب الحقير الذي تركتني وأنا بأمس الحاجة لك، تركتني مريضاً محتاجاً لأي معونة..

– اخرس قد يصدقك أولادك وزوجتك. ذيل الكلب طول عمره أعوج.

– الذي أخبرك بهذا الكلام غداً سيكون وراء القضبان وإلى الأبد.

– تعملها ببساطة لأنك حقير.

تماسكنا بالأيدي، صارت زوجته تنادي الجيران والمارين، وفعلا تدخلوا وأبعدوني عنه. أقسمت بأنني لن أراه حتى أموت.

في تلك البلدة الصغير وناسها البسطاء لا تفوتهم شاردة ولا واردة، يعرفون بعضهم بعضا تمام المعرفة. صدقوني بقولي. أما هو أخي لم يكن في يوم من الأيام محل ثقة أحد.

تدخل قريب لنا من جهة أبي، ألح بأن يستضيفني في بيته لأقضي

الليلة. كاد الليل بطوله ينقضي، وهو يحدثني عن وجوب عودتي، لآخذ مكانة أبي، ومحاسبة عدنان على ما فعل. بهذا تسترد الأسرة اسمها النظيف. صمت ثم قال:

– العائلة كلها بحاجة لشخص مثلك ليلم شملها ويستعيد مكانتها وهيبتها. عد يا بني وتزوج فتاة من عائلتك تصونك وتأخذ بالها منك، وتعوض أسرتك بأسرة جديدة بأخلاقك ذاتها.

كأنه ضرب على الوتر الحساس في نفسي، كنت آمل كثيراً بأن أكون كبيراً هذه العائلة المفتتة بفعل أبي. كان يبعدهم عنا ويتكبر عليهم. سأرفع من شأنها وألملم فروعها وأؤمن لهم باباً للرزق.

لم تمضِ سوى ليلتين إلا وكان زواجي من ابنته أمر مفروغ منه. قال وكأنه يخطَبني لها:

– لا بأس إن وجد الأب رجلاً صالحاً لابنته أن يسأله الزواج بها. وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مدى إعجابي بك وثقتي بأنك تستحق زعامة الأسرة.

بسرعة البرق تم كل شيء. كتبوا الكتاب وجهزوا للعرس. طلبت من عمي رؤية العروس والجلوس معها لنتعارف، لكنه أصرّ أن هذا ليس من عاداتنا، غداً تتزوجها وتراها وتخلفان لنا صبيانا وبنات.

ليلة العرس جاءت العروس، ترتدي فستان زفاف بالياً وقديماً، ووجها ملطخ بأشياء ملونة، ورائحة كريهة تنفث حولها مع كل حركة من حركاتها. جلست بجانبي وهي تضحك، تمسك بيدي تارة، وتضع رأسها على كتفي تارة أخرى، بين حين وحين تقول لي لا ترفع الطرحة إلا في غرفتنا وإذ كنت مستعجل هيا بنا. وترفق ما تقول بابتسامة ساذجة وغبية.

لعب الفار بعبي، هناك شيء لا يردون لي رؤيته إلا بعد أن تقع الفأس بالرأس. التفت نحوها أتأملها. مددت يدي ورفعت التل الأبيض عن وجهها. يا لهول ما رأيت. صرخت من الرعب. قفزت من جانبها إلى البعيد فكنت وجهاً لوجه مع والدها الذي سد في وجهي الطريق. نظر لي

بشذر. فقلت بصوت متهدج:

– لا يا عمي أرجوك. هذه ليست العروس التي أتمناها ولن يتم هذا الزواج ولو على جثتي.

همس بقرف:

– أنت تتزوج بنت ناس. بدورنا أردنا أن نكسب رجلاً.

لم أعطه الفرصة ليعيدني إلى مكاني بجانب العروس البلهاء. اندفعت بعيداً ألهث من الحنق وكأنني وعلى وشك الاختناق. وقف عمي يشهد الناس على المفتري، الذي أراد أن يعصمه من الغربة ويعيده إلى أهله فرد الجميل بفضح ابنته الخجول ويتركها ليلة زفافها.

تقدمت زوجته حاملة صينية أعدت من قبل عليها أساور ذهبية اشترتها بنفسها مع العروس قبل يومين. كانت مكومة فوق بعضها تشع بريقاً جعل العروس وأمها ينظران إليها بشره وتخوف مما قد يحدث في ما إذا فشلت الزيجة. انقضت يدها على الذهب قبل يد أمها بفزع. وبعد ذلك.

توقف عن السرد. وأخذ يضحك من جديد. قلت:

– ما الذي أضحكك؟

مسح الدموع عن عينيه وهو يقول:

منظرهما وهما تدسان الذهب في طيات ثيابهن. أوحى لي بفكرة للخروج من الورطة. بداخلي تبسمت لقد فتحتا لي باباً لأخرج منه. تقدمت منهما ونزعت الذهب من أيديهما وقلت بغضب:

– أعطوني هذا الذهب. لا أريد الزواج سأسافر غداً. ولن أطلق.

قفزت بين الناس فتبعتني أم العروس صائحة:

– وقف يا حبيبي. ما الذي كدرك، انتظر سنجد حلاً يرضيك.

صاح زوجها:

– دعيه يغور في داهية، والله خطوة واحدة خارج الباب سأقتله.

تناول بندقية قديمة من على الحائط وسددها على ظهري، لم أبالِ ولم أخف بل أزحت الجميع من أمامي لأخرج وأنا أقول:

– صدقني الموت أهون ألف مرة من أن أتزوج بهذه الطريقة، بهذه البنت. لست متأكداً إن كانت امرأة أم رجلاً.. مستحيل.

تدخل المختار أخذنا أنا وعمي وبعض الرجال إلى مجلسه المعتاد وأنهى القضية بكل بساطة. قلت أسترضي المختار:

– أنا مستعد لعمل أي شيء يرضيكم ما عدا الزواج.

قال عمي:

– ﴿وإن اتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً﴾.

صمت طويلاً وكأنني مأخوذ من خسراني ذلك الذهب الذي كان لا يعني شيئاً مقابل عتقي من هذا الزواج. تركتهم لقلقهم ثم قلت:

– أنت عمي ولا فرق بين وبينك، لك كل ما في جيبي. حلت البركة خذوا كل هذا الذهب وخذوا كل هذه الأموال التي أحملها.

تناوله عمي بسرعة قبل أن يحدث إشكال جديد فأغير رأيي، خرج بضع دقائق سلمهم لزوجته الواقفة بالباب تنتظر على أحرّ من الجمر فركضت مبتعدة بغنيمتها. بعد دقائق قلت:

– هل أنت راض يا عمي. آسف كان بودي إرضاءك أكثر، لكن ما باليد حيلة. تأكد بأنني سأبقى ابنك المطيع.

قال المختار:

– لقد كفيت ووفيت يا يحيى وأنا أحلك من هذا الارتباط، الذي لو تم لن يجلب إلا المصائب عليك وعلى ابنة عمك.

تحركت وظهري متجها نحو الباب. قلت بسرعة:

– إذن ابنتك يا عمي طالق طالق طالق. آه نسيت اسمها.

قال المحتار:

– اسمها حميدة.

- زوجتي حميدة طالق ثلاثاً.

ما أن خرجت من الباب حتى أطلقت ساقيّ للريح، صرت أركض مبتعداً وصوت الرصاص يلعلع خلفي. تركت القيامة تقوم في بيت المختار واتجهت مباشرة بأول تاكسي صادفني إلى سكة الحديد.

- هل تريد مني أن أصدق أنها كانت أول امرأة في حياتك؟ آسف فأنا شاب مثل عمرك آنذاك وأعرف.

- أنت تعرف لأنك ابن بيئة مختلفة. كنا قليلاً ما نرى النساء. وخاصة حيث كنت أعيش، المرأة في هذه الأيام تصاحبك طوال يومك في كل مكان في المدارس في الجامعات، في النوادي في المنتديات، في العمل، وفي البيت وآخر المطاف على شاشات التلفزيون الذي يجعلك تعتقد أنه وجد خصيصاً لوجود المرأة بصورة ملحة كضرورة مثل الماء والهواء.

- ماذا عن زواجك. متى وكيف بدأت تشعر بالمرأة ضرورة؟

- قبل ذلك أود أن أحكي لك أول تجربة مررت بها. ظننتها مأساة حقيقية. أما بعد ذلك فقد صارت تضحكني من أعماق قلبي.

كان موضوع المرأة في حياتي يشغل بال أبو جون الذي عشت بقربة يعلمني وينصحني ويأخذ بيدي. كان شريكي في العمل لأنه كان مهندساً كهربائياً معروفاً. صار العمل الذي أقوم به كبيراً ولا يحق لأحد أن يقدم العطاء إلا إذا كان مهندساً.

صار يصحبني معه عند أصحابه ومعارفه، وخاصة حين تكون السهرة في بيته حيث إن حضوري شيء مفروغ منه فقد أصبحت واحداً من أفراد البيت. أبوجون هذا عنده ابنة وابن يدرسان في لبنان في مدرسة للراهبات لذا كان وجودي يعوض عليه فراق ولديه اللذين هما في مثل عمري.

أصبحت محط أنظار كل عائلة عندها بنت، يدعونني ويتركون لي فرصة للجلوس إليهن والتحدث معهن. الحق يقال بأن بناتهن كن أشجع مني وأكثر معرفة. حين انتهاء السهرة كان أبو جون وزوجته يسخران

مني كيف أجالس الصبايا بعدم الاكتراث. سألني أبوجون:

– يحيى ألم تشعر بعد بحاجة لامرأة ما؟

أجبته بسذاجة:

– لا. لماذا تسأل.

– خائف عليك. هذا إحساس طبيعي بين الجنسين لا يحتاج تعليماً.

– لكني فعلاً لا أجد الوقت لأفكر بمثل هذه الأمور. كل وقتي محصور بالعمل والنجاح وجمع المال. يجب أن أنجح وأغتني وأعود لبلدي. لن تضيع سنوات غربتي سدى.

– أنت تتكلم عن شيء مختلف. أنا أريد أن أفهمك أن الرجل الذي يبتعد عن الجنس الآخر إما هو مريض ويجب أن يعالج وإما ليس برجل مكتمل الرجولة يعني بين البينين.

– ماذا يعني بين البينين هذا؟

– يعني أن يكون للرجل ميول نحو أبناء جنسه. ألا ترى في كل مكان حولنا رجال متبرجين كالنساء ويعيشون مع أصحابهم.

قاطعته زوجته ضاحكة:

– ماذا تحاول أن تقول يا رجل؟ إذا كان الصبي لا يعرف بعد العلاقة الطبيعية فكيف تتوقع منه أن يفهم الحالة الأخرى الشاذة. عشر دقائق من الآن الحقا بي العشاء جاهز. أغلق الموضوع أعتقد أنه ما زال صغيراً ليدرك هذه الأمور.

اقترب من أذني وهو يقول:

– غدا الأحد سأصحبك إلى مكان سيعجبك وستتخلص هناك من جهلك بهذه الأمور المهمة. آه لو أعود لمثل عمرك لكنت. مش مهم. غداً سينتهي كل شيء وتدخل الحياة فعلاً. أكيد لا تحتاج لأن أوصيك لا تخبر هذه المرأة التي تنتظرنا على العشاء ما قلته لك. لا تسألني لماذا وإلا سأقتلك.

ضحكنا ونحن نمشي سوياً إلى المائدة التي أعدتها تلك السيدة

اليونانية بما لذ وطاب من أطعمتهم اللذيذة وشرابهم الذي لا يتركونه ليلاً أو نهاراً الذي حتى هذه اللحظة لم أجربه بعد.

سكت جدي، طلب مني بعض الماء والدواء وحاول أن يتملص من تتمة القصة. قلت ممازحاً:

– لن تنام قبل تتمة القصة.

– صدقني أخجل من روايتها. يا إلهي كم كنت ساذجاً. لماذا أرويها؟ تستطيع التكهن بما حصل في سهرة يوم الأحد الدامي.

– أريدك أن تخبرني بنفسك هيا لا تتهرب. أنت فتحت على نفسك هذا الباب ولن يغلق حتى تغلقه بنفسك.

– ذهبنا تلك الليلة إلى مكان غريب. بيت عادي من الخارج ولكن في الداخل نار جهنم. نساء كاسيات عاريات مصبوغات الوجوه والشعور والأظافر. يمشين بخلاعة غريبة. مال مرافقي نحوي وقال:

– هـه. بماذا تشعر؟

قلبت شفتاي بقرف. نادى النادل الذي يحمل الكؤوس اللامعة التي تحمل شراباً مختلف الألوان. اختار صنفاً وقدمه لي دون كلام وهز برأسه أن لا مفر. ما أن ذقت رشفة منه حتى شب نار في حلقي وسعلت سعالاً متواصلاً. قال أبو جون:

– خيراً لي ولك أن ندعي بأنك مريض بالسل من أن نقول لهم بأنها المرة الأولى التي تشرب فيها.

– لكنها المرة الأولى فعلاً. ثم إنها حرام. كيف تحصلون عليها في هذه البلاد المسلمة.

– أسكت الله يلعنك. خذ رشفة أخرى ستكون خيراً من سابقتها.

ابتعدت. وحاولت. وحصل لي أسوأ مما حصل في المرة الأولى. رأيته قادماً نحوي ويده بيد فتاة جميلة، تضحك وتتلوى وهي تتمنع وهو يجرها، وصلا إلى حيث أقف قال لها:

– هذا الشاب بعهدتك. بشطارتك أنسيه حتى حليب أمه فهمت..

سحبتني من يدي فسرت وراءها كالمنوم. دخلنا غرف واسعة ملونة بألوان الدنيا. أرخت ستائر شفافة وسحبت الأغطية ثم قالت بدلال:

– لا تتعبني سأذهب لتغير ثيابي وأنت أيضاً أستعد. حين رأت علامات التعجب على وجهي همست لي بما يجب أن أفعله حين تعود. عادت واستلقت على السرير عارية إلا من غلال سوداء رقيقة تتحرك كيفما تحركت فتشف عن أشياء لم أرها من قبل. أشارت لي أن أصعد السرير وأقبلها وأحتضنها. فعلاً فعلت. لكنني كنت ما زلت بكامل ملابسي. حاولت أن تجعلني بوضع أشد إثارة. لم تجد تجاوباً فما كان منها إلا أن أطاحت بي بعيداً وهي تقول بسخرية لاذعة:

– خلص يا شاطر.. هذا كل شيء. انتهى دورك. أنا عندي زبائن كثر، يكفيني مرافقك الذي لا يشبع.

لملمت نفسها، فتحت لي الباب بعنف ودفعتني إلى الخارج فتلقاني أبو جون. وسألها بعينيه. فأجابت:

– من أين أتيت بهذا المغفل. إنه أكثر من خام، لن يفلح في هذا المجال أبداً. هيا تعال أنت.

سحبته من ربطة عنقه فسار معها باستسلام أدهشني. من حولي كان عدد من الرجال كل منهم يحتضن واحدة من الفتيات ويسعها لثماً ومعانقة وملامسة مماجعلني أتقزز.. فجأة قال أحدهم:

– ألا يخلصنا أحد من نظرات هذا الفتى الوقحة، إنه يجرح أحاسيسنا الرقيقة بنظرات يتوعدنا بعذاب في الدنيا والآخرة. ضج الجميع بضحكة ساخرة فيها الكثير من الفجور.

صمت طويلاً.. تركته يرتاح. أعرف بأنه سيغرق في نوم سريع ومؤقت. أغمض عينيه بسلام. تمنيت أن أقف إجلالاً واحتراماً له. تمنيت أن أضمه إلى صدري وأقبل رأسه ووجنتيه إكباراً. قمت من مجلسي فتح عينيه وهو يسأل:

– هل أدركت الآن معنى حياتي التي وهبتها للعمل ولم ألتفت إلى

شيء خارج هذا النطاق. أيستحق جهداً كهذا أن يلقى وراء الظهر ولا يلتفت إليه كما فعل أبوك؟

– لا.. بل إنه يستحق كل تقدير واحترام. لم تكن فرداً واحداً بل كنت مجموعة من الناس. والحق معك حين انطلقت وحدك دون رفيقيك فلا أحد يشبهك. معظم الناس، حين تحصل على الثروة والنجاح والمنصب يزدادون فحشاً وكذباً ورياء.

– أريد منك أن تتذكر أولئك الناس الذين وقفوا إلى جانبي. هناك من ساعدني لصغر سني. وهناك من أعجب بنباهتي وذكائي الفطري وطموحي. قدر ذلك كل من تعامل معي فدفعني للأمام. التقط رسائلي السماوية تتوارد التقطتها. لكل مجتهد نصيب.

– هل كنت تقرأ لي أم كنت أنا الراوي. أين وصلنا؟

آه.. لقد تنبه، نام فترة وتنبه أو ربما شرد لذلك البعيد. قلت:

– وصلنا لنقطة وقوفك تحصى إنجازاتك.

– قبل ذلك سأخبرك عن أستاذ لغة عربية تعرفت عليه عن طريق إبراهيم. كان يريدني في خدمة انجزتها بسرعة وإتقان، كانت سبب صداقتنا دامت كل عمره. لاحظ أنني بالكاد أقرأ وأكتب. فأخذ يحدثني عن أشياء تاريخية وحدود طبيعية بين البلدان وقصص وحكايات وشعر وفكاهات لم يشعرني بخجل أو نقص كلمة قالها ببساطة إن شيء كهذا حصل لكثيرين من أبناء جيلي، أبناء النكبة.

كنا نسهر معظم الليل نتحادث في كثير من الأمور التي فاتتني. فأرى نفسي أكبر، وأنضج، وأتعلم بسرعة مذهلة. بعد ذهابه أكتب وأقرأ من الكتب التي كان يصحبها معه ويتركها على المنضدة التي خصصتها لتلك الجلسات. كان له الفضل بمعرفتي للحياة. فنونها، طرقها، وسائلها. إلى تعلم القراءة بشكل جيد والكتابة بخط حسن.

ذات يوم روى لي قصة أثرت فيّ. قال هذه أقصر قصة قصيرة كتبها كاتب روسي معروف. تحكي عن شاب كامل يمتلك الكثير من المؤهلات

لكنه كسول لا يحب العمل. حين يمشي يحدق في الأرض غير مبال بما حوله. ذات يوم وجد شيئاً يلمع. انحنى والتقطه. كان روبل، فرح كثيراً وذهب وأشترى شيئاً يأكله. صار يحدق بالأرض أكثر لعله يجد شيئاً. مرت السنوات وصار شيخاً وهو على عادته. حين وقف ليتساءل كما تساءلت أنا، ماذا أملك وقد انقضى العمر؟ أجاب نفسه- أملك الآن ظهراً منحنياً، وشعراً أبيض، وحذاء بلا أرض، وزناراً عريضاً، وجاكيتاً ممزقاً.

سرّ الأستاذ وأنا أناقشه بحماسة فقال:

- لقد أعجبت بك يا يحيى منذ تقابلنا. أعجبت بمشيتك الواثقة ونظراتك المثبتة على هدف تراه دوننا. لكن رغم هذا الشموخ، لا تتوانى عن السؤال والاستفهام قبل القيام بأي عمل. تنفذه بتواضع وأدب جم. ستصل يا يحيى إلى هدفك الذي لا يعلمه أحد سواك.

قلت بإعجاب وإكبار:

- يا جدي أنت جبّار. من زرع فيك هذا العزم والإرادة.

- الاحتلال يا يحيى. نعم إنه الاحتلال. فهمت بعد أن كبرت أنهم لم يغتصبوا بلادنا فقط بل سحقوا بحذائهم العسكري ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. كأننا لسنا بشراً. كأننا عار على جبين الحياة.

كل يوم أكبر فيه تكبر مأساتي. جهات لا تعلم حتى بوجودي في هذه الدنيا، بطريقة عشوائية قضوا على طفولتي، حكموا علي باليتم والفقر والجهل. عرفت في ما بعد بأنها سياسة الغابة. قويها يأكل الضعيف فيها. لو كنا متعادلين مع عدونا، لما كانت شظايا أمي لتتفتت فوق أجسادنا. ولما كان لأبي أن يموت من الغرغرينا، ولا أخي ينفض يده مني لأنني تركت العمل بضعة شهور من شدة حزني وألمي. نعم يا بني، اختلال المعادلة هي السبب. كفتهم ترفعهم للسماء بسبب القوة الكبيرة وإن كان يمدهم بها الشيطان نفسه، المال وإن أتوا به عن طرق قذرة لا يجهلها عاقل. سعيهم الحثيث لإقامة وطن الوهم المعشش في رؤوسهم ونفوسهم المريضة. كفتنا-نحن أصحاب حق-ضعفاء فقراء

جهلاء كسالى متواكلون.

يكفيك اليوم ويكفيني. لقد عريت لك نفسي. هيا اذهب إلى غرفتك لترتاح فقد أرهقك شباب جدك الهارب وأنت تجري خلفه.

– صدقت.. هل تسمح لي بأن أقبلك؟

– لم أسمح لأحد قبلك بذلك. لا أحب أن يقبلني أحد. بل أكره ذلك. لا تسألني لماذا فأنا حتى الآن لا أعرف الجواب.

قبل أن أغادر أتت سوسن بكل ضجيجها وشبابها ضاحكة مستبشرة وهي تخبرنا بأن الساعة الآن الثالثة وهو موعد الغداء.

– هل تريد يا جدي أن أحضره لك هنا؟

– هيا يا صغيرتي أحضري لي الغداء بعد تناولك غداءك. ستحكي بصراحة وصدق أين كنت طوال هذا النهار.

– سأفعل..

تركته ونفسي ممتلئة بتساؤل غريب عن شعوره وهو يستعيد ذكريات ستين سنة من العمل المتواصل بتعب بين إحباط ونجاح؟ وسؤال آخر ثم ماذا بعد الحاجة الماسة للمال وقد أصبح طوع أمره وتحت يده؟ كيف تمالك توازنه؟ كم ترك وجع الأيام ألماً في نفسه؟ أولئك الرجال الذين ساعدوه وهو يتلمس طريقة للوصول تركوا أثرا طيبا في نفسه.

كنت أتلهف لأعرف وجهه الآخر، لا يمكن أن يكون بمثل هذه المقدرة والصمود في كل حالاته، لا بد أن له نقاط ضعف زلزلت الأرض تحت قدميه. ترى ما الذي يثيره غير كلامه عن أبي وعمتي؟ ما سبب التوتر المرضي بعلاقته بابنته؟ قدرته العجيبة حذف من لا يريده داخل حياته وينساه كما هددني.

كنت أحدث نفسي بهذا في قيلولة ما بعد الغداء. سمعنا صراخه وصوتا رقيقا يبكي ويتوسل. قدرت أنه صوت سوسن، لكن ماذا فعلت حتى يصيح عليها بمثل هذا الصوت العالي والجارح وهي على حد

علمي فتاته المدللة.

سوسن

حين وصلت، كانت عمتي قد وصلت قبلي. وجدت صينية الأكل مبعثرة محتوياتها على اتساع الغرفة، كان الطعام وخاصة الشوربة قد طرشت الأرض والسجادة حتى مدخل الغرفة حيث وقفت. كانت عمتي تحاول تنظيف السرير، تسحب الملايات من فوقه وتحته وهي تبكي. سوسن متصلبة قرب السرير تبكي ولا تساعد أمها فتقدمت ورفعته بين ذراعيّ لأمكّنها من إعادة أغطية السرير، تعلق برقبتي وحاول الجلوس. بهمسه المكتوم– شللت يا يحيى لن أتحرك بعد الآن.

استدعيت الطبيب على وجه السرعة، أتى يحمل بعض الأجهزة والأدوية لتهدئته. خرجنا جميعاً من الغرفة وبقي الطبيب ومساعده وممرضة لكننا جميعاً كنا وقوفاً خلف بابه نستطلع الخبر. كانت عمتي فجأة كفت عن البكاء، سوسن مازالت مستمرة في نواحها. وأمها توبخها قلت: لا تخبريه فلن يتحمل. فتزيد سوسن نواحها وتتطاول لتراه من فرجة الباب.

مضى وقت طويل ومشاعري تتخبط بين الخوف والرجاء. كنت معه قبل ساعة يروي قصصه بمنتهى الصدق والفكاهة، يضحك ويقهقه، ثم يشعر بالحرج وبعد دقيقة يعود لطبيعته. أحسست بمدى حاجتي له. ومدى لهفتي لتعلم الكثير منه. الغريب أنني أصبحت أفسر الأمور بشكل مختلف. أدركت بأنه يريد تهيئتي، لأحافظ على ما حققه عمره كله. اعتبرني جزءا منه، أو بديلا لأبي الذي حرم منه.

كنت واقفا منتصب القامة ناظرا إلى الأرض. تذكرت غضبته حين وقفت أمامه مطرقاً. تذكرت القصة التي رواها قبل قليل. إنه لن يفلح ولن يظفر بشيء من ينظر تحت قدميه. رفعت رأسي فإذا بدموعي تسيل على وجنتي قهراً وغصباً، خجلت من نفسي. رأيت عمتي المتماسكة ترميني بنظرة لؤم وتقول:

– أتبكيه؟ متى عرفته؟ أظن أنك تبتزنا بدموعك وتمثيلك دور الحفيد. ماذا تعني له؟ ماذا يعني لك؟ إنه أبي أنا وجدّ ابنتي أنا.

– أبكيه كإنسان رائع. لم يجد في حياته من أحبه دون غاية. قبل قليل كنت أفكر بك. لعل مشاعرك السلبية تصله. فيقسو عليك. لم يجد من يفهمه ويقدر إنجازاته.

– عمل لنفسه، احتضنك للغاية نفسها. يريد أن يمتد عمره بك.

– وماذا في ذلك أنه ليشرفني أن أكونه، لكن هيهات، فمثله لا يخلق إلا كل مئة سنة مرة. لن أتركه حتى يصرفني بنفسه.

اقتربت مني سوسن وقال وهي تجهش:

– لقد قتلته يا يحيى. أنني حقاً أحبه. لكنني أكره منه التدخل في حياتي. حياتي التي لم أردها ولم أحبها، ألا يكفينا شيء واحد سيئ، أن نأتي للدنيا دون إرادتنا؟

هجمت أمها عليها وهي تسحبها بعيدة عني:

– نصحتك لكنك لم تسمعي نصيحتي. أنت مثل أبيك شكلاً وموضوعاً أكرهك كما كرهت أباك. لن أعيش في هذا البيت.

اندفعت خارجاً، تركتنا فعلاً والأزمة على أشدها. صفق الباب الرئيس. تجمدنا صامتين بمكاننا. لم تتحٍ لنا فرصة الدخول والاطمئنان عليه، غير أن الطبيب همس لنا بأنه تعرضَ لذبحة صدرية عنيفة يبدو أن هناك تخثراً مستقراً في مكان آمن، وعلينا أن نذهب للراحة ونصلي لأجله.

ابتعدنا عن المكان إلى البهو جلست على كنبة مقابلة للغرفة التي يرقد فيها. طلبت من سوسن، إن كانت تعرف أين تجد أمها، فلتذهب إليها وتحضرها. فيجب أن تكون بيننا في مثل هذا الوقت العصيب. رأيتها تتطلع نحوي بحيرة وهو تقول:

– أحقاً ما تقوله يا يحيى. ألم تغضب منها؟

– أنا في العادة لا أغضب بسرعة، أو في الحقيقة أغضب من أشخاص

أحبهم ولي بهم ثقة وأمل. لكن بعد أن جالست هذا الرجل العظيم تعلمت، أن لا شيء يستحق الغضب، سوى الفشل في إنجاز عمل، أو ضياع أمل، أو تقصير أو إهمال. كما عاش جدنا.

– إذا أمرك بتغير حياتك ألا تغضب وتكرهه؟

– في الحقيقة أتمنى أن يهتم بأموري ويغير سلبيات حياتي. نحن لا نعرف أنفسنا كما يجب لصغر سننا، لكن من يحبوننا يتمنون لنا الخير يعرفوننا أكثر. غضب منك يعني أن ما قلته كان صعب عليه قبوله. صدمته كان يأمل منك لكثير فخذلته. تذكر أبي وعصيانه.

– ماذا يعنيه بمن أتزوج ومتى أتزوج، أليس هذا أمر يخصني. أتركه يزوجني بمن يختاره دون الاكتراث برأي. كما فعل مع أمي.

قلت بتعجب:

– إذن هناك رجل يريد انتزاعك منه بينما هو يحضر عريساً آخر.

ردت ببراءة:

– حسن هو الشخص الذي أحب ويحبني. بينما جدي يريد تزويجي من حفيد صديقه إبراهيم ليسترضيه عن خطأه حين زوج أمي لأبي دون أن يقيم اعتباراً لصحبة العمر.

– هل يعرف قصتك مع حسن أو تفاجأ به الآن؟

– يعرفه.. لقد عرفت حسن في ذات السنة التي قدمت فيها من باريس. لم أدخل بعد عالم الصبا. عشت أنا وأمي في بيت جدي غير مرحب بنا لم يجالسنا قط. كنت أكره حياتي.. أكره أمي وأبي وجدي. أكره موضوع الشجار اليومي والوحيد بين جدي وجدتي. هي تؤكد أنني ابنة أحمد ابن شقيقه الذي زوجه ابنته دون روية. يجيبها بعنف– إنها ابنة الزنا، ابنة الفرنسي الذي من أجله تركت ابن عمها. بالمناسبة ذاك الفرنسي كان لي أباً رائعاً وأحببته.

بدأت أحب حياتي بعدما عرفت حسن. كان أستاذ اللغات في المدرسة التي ألحقني بها جدي. ألح إتقاني اللغة العربية كالفرنسية والإنكليزية،

كان حسن الوحيد الذي يتقن الفرنسية بين الجميع لذا كنت ألجأ إليه وقد أخذ على عاتقه تعليمي العربية.

أحببت يوم مولدي. خمسة عشر سنة وأمي تحتفل بميلادي وحدها. بل كلما رأيت استعدادها للاحتفال أشعر بألم في قلبي وغثيان وأمرض فعلاً فأحبس نفسي في سريري ولا أخرج إلا بعد أن ينفض الحفل. أسمعت بأحد يكره حياته ويوم مولده؟

– نعم سمعت.. أنا.. لم أكرهه تماماً، لم يعنِ شيئاً مهماَ. كانت أسئلة كثيرة تراودني شغلتني عن مثل هذا الأمر. تمَنيت أن أعرف متى كان؟ وأين؟ ومن هما والديّ؟ من هي دنيا؟ وكيف وصلت بين يديها؟ لماذا هي؟

لم يحصل أن احتفلت مع دنيا بيوم مولدي برضا أو قبول. كنت أجاريها لأنني أحبها. هديتها في ذلك اليوم بعض أخبار عن أبي وأمي. وعندما تشعر بفضولي للمزيد تنسحب قائلة لم يحن الوقت بعد. ليس قبل أن تنهي دراستك الجامعية. سؤال ملح الآن لماذا لم يرسلني إلى جدي؟

– يحيى هل في حياتك حب؟ أعني فتاة تتمنى أن تتزوجها.

– نعم أحب فتاة تعمل معي بالفرقة. لكنني لم أفكر بالزواج، لأنني لم أستقر بعد. لا أعرف إن كنت سأتزوج الفتاة ذاتها أم لا؟

– تتكلم عن الزواج وكأنه نهاية العالم.

– عند حق.. لا أحب الزواج. لا أحب أن يثمر زواجي شاباً مثلي أو فتاة جميلة مثلك ولا أستطيع أن أكون والداً له أو لها بمعنى الكلمة، والتخلي عن مسؤوليتي بموت أو هجران.

– أتريد أن أخبرك بما قلته لجدي؟

– في الحقيقة لا يهمني ما بينك وبين جدك. المهم الآن أن يعود لنا، لحياته التي يحبها ولم يفرغ منها بعد. في اعتقاده أن الله يعطي لكل الإنسان ما يحبه، فقط إذا إصر عليه. سيعود، وستتسامحان.

– لكني سأتزوج غداً.

– غداً؟ ولم العجلة؟ في هذا الوقت العصيب؟

– اتفقنا على الزواج غدا.

– اتصلي به الآن وأخبريه ماذا حصل لجدك. وأنك في حل من وعدك، غداً سيتحسن، انتظري. برأي هذا عين الصواب.

– لقد رتب أموره وأخبر زوجته أنه ذاهب لرحلة عمل لمدة أسبوع. تصور أسبوع كامل سيبقى معي يا يحيى.

– أهو متزوج؟ لماذا يا سوسن هذا الرجل المتزوج؟

– إنها قصة حب قديمة. حين أحببته لم أكن أعلم بأنه متزوج. أمس مساء حين أخبرت أمي بأني سأتزوج من حسن ثارت ثائرتها ولم تسمح لي بأي شرح. أخبرتها بأنني سأخبر جدي حذرتني بل رجتني، لكنني لم أقتنع وأخبرته.

– لماذا أخبرته، إذا كنت تعرفين أنه لن يوافق وأنت لن تستمعي لنصيحته.

– لا تعرف كم أحبه، لذا لا أطيق أن أخفي عنه أي شيء. خاصة أنه يستطيع معرفة كل شيء متى أراد أن يعرف. الحب بحد ذاته كان بالنسبة إلي فرحة وسعادة. لم أكن أمشي على الأرض بل كنت أطير أرقص أغني أمازح جدي. أحببت كل الألوان، كل الأصوات، صرت فراشة هائمة لا أستقر بمكان. حين رآني جدي على هذه الحالة من السعادة تساءل عن سبب هذه السعادة قلت له أن في حياتي إنسانا رائعا ونحن متحابان. قال بجديته المعهودة:

– ماذا يعني أنكما متحابان؟ الحب بداية وليس نهاية يا سوسن. أريد أن أراه بأقرب وقت ممكن. بهذه الخطوة تكتمل صورة الحب.

أول مرة يطرأ على تفكيري مثل هذا السؤال ماذا يعني أننا متحابان؟ إنها بداية السطر وليس نهايته. فرحت بأنني أخبرته وفرحت بأنه استقبل الخبر بتفهم وقبول. فأن يطلب أن يراه فهذا شيء كبير ليس

بالنسبة لي بل لحسن وللدنيا ولكل قصص الحب.

كم آلمني تلقي حسن للخبر. والسؤال الذي بدا له أحجية لا جواب لها إلا في جراب الحاوي. ماذا بعد؟ بهت، أصفر لونه وزاغت عيناه، ثم استهان بالأمر وضحك من الفكرة. وجد الأفضل ألا يأخذ المسألة على محمل الجِد. ثم قال وهو يقلب شفتيه تبرما– سأفكر بالأمر. صار يبتعد عني أياماً وربما أسابيع دون أعذار أو تبرير.

رغم كل هذا كنت ألتاع من غيابه، وأذبل، وأبكي، عافت نفسي كل ما حولي. لاحظ جدي هذا العزوف عن كل شيء حتى مداعبته. قال لي بلا اهتمام وهو يقرأ الجريدة ذات صباح:

– سوسن.. أين رجلك الهمام، أعتقد أن في حياة ذلك الرجل الذي تحبينه شيئا يخفيه. أعطني اسمه الكامل وعنوان عمله. لقد قلت لي بأنه أستاذ في مدرستك الثانوية أليس كذلك؟

– نعم يا جدي. حين تعارفنا كنت تلميذته قبل الثانوي.

– يعني يكبرك بعشر سنين على أقل تقدير.

– عندما تراه ستعرف كم هو جاد وناجح. اختارني من بين كل بنات المدرسة. كن يتسابقن للفت نظره لكنه أحبني أنا..

– سنرى.. غداً كل شيء سيتضح.

أتصدق. ساعتان من التحري وهو ما زال في البيت لم يغادره، عرف بأنه متزوج. يا للكارثة الكبرى، شن ثورة غضب مرعبٍ. أمي دخلت غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح، كأنه سيأتي ويمزقها إرباً، لأنها ولدت مثل هذه البنت، التي لا تقيم وزنا لكرامتها أو كرامة عائلتها.

اتهمني بأنني أعرف ورضيت بمثل هذه المهانة، رضيت بأن أكون الثانية في حياة زوجي الذي كان يجب أن أكون ابنة له وليس حبيبة أو زوجة. صمت قليلا ثم صاح من جديد:

– إذن– كم من القصص أخفى عنك يا صغيرتي. إنه رجل كاذب، عشق على زوجته، بعد أن عاشت معه سنوات طويلة، تحملت منه

الكثير وتحمل الكثير من أجلها، بينهما عيش مشترك وأشياء كثيرة في حياة الزوجين لا تنسى. سيتزوجك لأي سبب إلا الزواج ذاته. الزواج هو مرة واحدة حقيقية، والزيجات التالية تسلية وانتهاز فرص. لن أوافق. اتركيه فوراً.. فهمت هذا الأمر.

– هل تركته فعلاً؟

– ليس قبل أن أضع النقاط على حروفها. واجهته بما أخبرني جدي. أنكر جداً. وأقسم أيماناً بقدر وسع السماء ومياه البحار، بأنه لم يحب أحداً قبلي، ولن يحب بعدي، وأن حياته ستنتهي حالما أتركه.

حين عدت لجدي لأخبره بما قال، زم شفتيه وعقد ما بين حاجبيه وطلب مهلة، يوما واحدا فقط، وسيعرف عدد أنفاسه في الدقيقة. في آخر النهار كلمني جدي على الهاتف ودعاني للمصنع على وجه السرعة. ذهبت أمسك بيدي وساقني إلى زاوية بعيدة عن الموظفين. كانت هناك سيدة جميلة وأنيقة، تجلس على كرسي خشبي عتيق. قال موجها الكلام لي:

– أقدم لك زوجة حبيبك، وأنت سيدتي أقدم لك زوجة زوجك المقبلة. هذه حفيدتي. ستنهي دراستها الثانوية آخر هذا العام الدراسي. عمرها أقل من ثماني عشرة سنة. زوجك. أستاذها. يكبرها بالتمام والكمال بخمس عشرة سنة. تصرفي سيدتي قبل أن أتصرف أنا. أنصحك أن تبقي على بيتك وزوجك فمثل هذه الأمور تحصل أحياناً في حياة الزوجين.

– ماذا حصل بعد ذلك؟

– تركته.. . وأحببت مرة وأخرى وثانية وثالثة، وبعد كل مرة أكتشف بأنه لم يكن حباً، كان بديلاً أو دواءً للنسيان فكففت. كان أبي قد ظهر بعد طول غياب. استدعته أمي على وجه السرعة بعد خروج دنيا مربيتك من عند جدي. جدي وجّه لها، كالعادة، التقريع والتقليل من شأنها ومن شؤونها.

– هل أخبرته بقصتك مع حسن؟

– لا لكنني أعتقد بأن أمي فعلت. رفضته كما رفضني ذات يوم.

– سأضيف قصتك هذه إلى ما كتبه جدي، وسأطلب من عمتي أن تروي قصتها ثم نجمعها في كتاب ستكون رواية جميلة و..

– ماذا عنك أيها الفنان؟

– سأكون الراوي وأحكي حكاياتي من خلال حكاياتكم. مهما انقلبت حياتي لن أتخلى عن عملي وكتاباتي وإنجاز مسرحيتي.

همت بمغادرة المكان أمسكت بيدها أستبقيها فقالت:

– إذن سأكتب لك عن أشياء كثيرة ربما لن أستطيع أرويها.

– ماذا حصل بعد أن تركت حسن وكيف عدتما؟

– افترقنا أكثر من سنتين لكنه عاش بكل عصب فيّ. كانت رسائله تأتيني يومياً. وكنت أرد وأحتفظ بالرد. فجأة انقطعت الرسائل فرحت وأملت أن أستريح منه ومن خياله الساكن بداخلي وبدأت رحلة عذاب لا توصف. التقينا صدفة وعاد كل شيء كما كان. سألحق بأمي وأعيدها لهنا قبل أن يملأ أبي رأسها بخطط جهنمية ضد جدي أو ضدك. على رأي جدي، هو إنسان فاشل لا يراعي أخلاقا ولا ضميرا.

– وأنا راجع إلى جدي، الحقي بي إلى هناك.

ما زال الشيخ غارقاً في سباته. استدرت مبتعداً إلى مكتبه. كان هناك الكثير من الورق متناثراً من الملف الذي كنت أقرأ به. لملمت الأوراق عن المكتب وأخذت في ترتيبها حسب أرقامها وجدت أوراقاً كثيرة ناقصة كأن أحدا ما قد عبث بها.

تحت المكتب، أوراق منتشرة، بعضها ممزق. لملمتها وعدت من جديد أنظمها. كانت هناك أحداث قبل الأحداث التي رواها لي جدي صباح هذا اليوم. أخذت في الاطلاع عليها وقراءتها. جلست على الأرض مسندا رأسي إلى وسادة كبيرة كان جدي يرفع عليها قدميه. أشعلت المصباح الموضوع على المكتب وأخذت أقرأ.

بضع ورقات ودخلت عالم جدي الساحر. مددت يدي بتراخٍ وأطفأت ضوء المكتب فغرقت الغرفة في العتمة. تهت وراء خيال أبي وهو يهذي وجدتي حاول تهدئته واحتضانه بين ذراعيها. جو عابق بالمحبة والحنو وتمرد أبي وشعوره بالقهر بما لاقاه من يد أبيه.. نمت..

سمعت وكأنني في حلم حشرجة وصوت مكتوم يحاول جاهدا التخلص من الاختناق. صرخة صغيرة مكتومة تلاها صمت. نوبة سعال شديد كتمت. همهمات. انتفضت محاولاً تحرير نفسي من خدرٍ نوم مسيطر على رأسي. صوت عراك خفيف. أدركت بأن ثمة شخصاً يحتاج مساعدتي. أبي أو جدتي أو كائنا من كان يكاد يختنق ولا أستطيع الفكاك. قاومت ثقل هذا الكابوس حتى تعبت من المقاومة فاستيقظت على همس صوت جدي:

– يحيى..

زفر بعمق. وشهق مرات لاستنشاق الهواء. اتجهت نحوه رأيت شبحاً ينسل من وراء الستارة إلى باب الشرفة المفتوح. لأول مرة منذ حضوري أراه مفتوحاً. وجه جدي كان غارقاً بالعرق. أمسك بيدي وألقاها بعيداً عنه بعنيف. أضأت النور بجانب سريره كان صدره يهبط ويرتفع بشكل غير عادي فهلعت ظننته يموت. خطوت نحو باب الغرفة. كان مفتوحاً أيضاً وقد أغلقته بنفسي قبل أن أطفئ النور. أسرعت للشرفة رأيت سلماً صغيراً تحت الشرفة. حذاء مطاطياً أبيض بجانب السلم. عدت إلى جدي. ما زال يحاول استرداد أنفاسه شهيق عميق وطويل ثم زفير هادئ.

خرجت من الغرفة لم أرَ أحداً. سعلت بشكل لافت فجأة ظهرت أمينة تساءلت بهزة من رأسها بشيء من الفزع. أشرت لها أن تأتي لحقت بي داخل الغرفة لا يزال جدي يقاوم ببسالة. وضعت أصبعي على رقبته لأحس نبضه، قبض على يدي وحرك رأسه يمنة ويسرى، فصحت به جدي أرجوك رد علي طمئني. هل أنت بخير؟ رأيت جبينه يتفصد عرقاً من جديد، بذل مجهودا كبيرا ليتكلم فلم يفلح.

فتح عينيه جالتا في أنحاء الغرفة كأنه يبحث عن أحد أو شيء ما. لاحت شبه ابتسامة على شفتيه. صرت أعرف معناها من كثرة ما لاحظتها أثناء أحاديثنا معاً. تعبيره الشخصي عن الألم النفسي للمعاناة فيرد عليها بتلك الابتسامة الساخرة، لكنها اليوم مريرة. عدت من جديد أمسح العرق عن وجهه. نظر ناحية أمينة وهمس:

– أرسلي سوسن وأمها حالاً.

سألته بحب:

– هل أرسل لك الطبيب أيضاً؟

هز رأسه موافقاً.

جاءت عمتي وسوسن وطبيب غير الطبيب المقيم يرتدي الروب الأبيض النظيف بجوارب دون حذاء. همست سوسن يحيى هذا أبي. سمعته يقول بلهجة استغراب:

– من أنت؟

– لا بل من أنت؟

– أنا الدكتور أحمد والشيخ عمي.

– لماذا أنت هنا؟

قالت عمتي:

– لماذا تسأل؟ والد سوسن كان هنا سمعنا صوت الجرس فأتينا.

– ما أعرفه أنه غير مرغوب فيك هنا.

– أنا طبيب، وهذا أقل واجب يقوم به طبيب تجاه إنسان بحاجته.

– أنا حفيده. حالا سأستدعي له أمهر الأطباء إذا احتاج الأمر. لست أدري كيف ستكون ردة فعل الشيخ حين يجدك هنا؟

تغيرات طفيفة بدت على وجه جدي. ساعات وطلع الصباح. جدي استفاق وقع نظره على أمينة طلب منها كوباً من الحليب الساخن مع العسل. نظر نحوي وقال:

- يحيى أخرج هذا الرجل من غرفتي.

بدأ أحمد يتقدم بخطى بطيئة نحو جدّي بوجه متجهّم. فجأة استجمع جدي قواه. يا للعجب. ووقف على قدميه، أمسكه من ياقة قميصه ودفعه بقوة أذهلتنا جميعا خارج الغرفة. قال موجها الكلام إلى ابنته وحفيدته بالوقت ذاته:

- اخرجوا حالاً من البيت. يحيى أعطني تلفوني.

ناولته إياه. قال:

- ابحث عن رقم إبراهيم وأخبره بأنني متعب وأريده لأمر مهم.

طلبت الرقم صاح الرجل بصوت جزل لكنه ضعيف:

- أهلاً يحيي كيف حالك. جميل أنك تتفقدني بين حين وحين.

- أنا يحيى الصغير حفيده.

قاطعني بلهفة:

- حفيده؟ أأنت ابن يوسف؟

- نعم أنا هو. جدي يريد حضورك حالما تتمكن من ذلك.

رفع جدي يده معترضاً بأنه يريده الآن. فأخبرته بذلك الفرمان.

جاء الرجل على الفور. تصدت عمتي بنبرتها الساخطة:

- أبي متعب جداً ولا يمكنه مقابلة أحد.

نحيتها جانباً وقد عرفت العجوز، رفيق درب جدي. قلت:

- تفضل يا عمي إبراهيم أهلاً بك. من هنا.

قدتهما إلى غرف جدي فدخل عليه وهو يتوكأ على عصاه مد يده ووضعها فوق يد جدي فانفرجت شفتاه قال العم إبراهيم:

- منذ مدة وأنا متعب ولا تسأل عني. حين طلبتني قلت لا بدّ من وجود ظرف طارئ. أجلت الموت وأتيت لأراك.

ضحك الصديق، استرخى وجه جدي. قدم لنا حفيدته الدكتورة

هناء. التفت نحوي وقال:

– إذن أنت ابن يوسف.

– نعم يا عمي؟

– كان جدك يتمنى أن يكون يوسف خلف قبل أن يموت، آه آسف يا ولدي فنحن لا نعرف عنه شيئاً. كيف التقيتما؟ يا الله ما أكرمك.. تعال يا بني إلى صدري. قال جدي:

– إبراهيم أطلب الدكتور أسامة أنا متعب وأشعر بنعاس شديد.

قالت الدكتورة:

– فعلا هذا ما لاحظته. أتسمح لي بمعاينتك أم ننتظر حضور أبي.

عمتي جالسة بمنتصف الغرفة، تراقب كل شيء، مثل شرطي المرور. حين وقع نظرها علي رشقني بنظرة سامة وهي تقول:

– من أين أتيت أيها الولد الصغير؟

– كان يجب أن آتي. هذا جدي.

– أنت كاذب ودجال. تريد أمواله وحسب.

لم أرد عليها بل فتحت درجاً في مكتب جدي وأخرجت مظروفاً به مبلغ من المال كان جدي قد تركه لي يوم وصولي، لم أفتحه ولا عرفت كم بداخله. ألقيته أمامها بقوة، انتثرت الأوراق المالية أمامها.

جاءت سوسن تستوضح فأخبرتها بأن نوم جدي غير طبيعي.

– النوم لمثل حالته أفضل، يساعده على التغلب على الأزمة.

– النوم بهذا الشكل يؤثر في الدماغ. أظن هناك محاولة قتل.

– محاولة قتل! يا لخيالك الجامح. صحيح أنك كاتب وممثل وفنان شامل لكن أن تلقي بالاتهامات جزافاً فلا.

– قد أضمك لقائمة المتهمين.

– وكيف أنفي عن نفسي هذا التهمة سيدي.

– سننتظر قدوم الدكتور أسامة إن كان الأمر طبيعياً كما تقولين

سأعتذر وأنسحب. أما إذا كان الأمر كما أظن فلي تصرف آخر.

- موافقة. أنا سبب هذه الحالة.

بدأت عمتي تهذي وتصرح بأنني نكرة لا أحد، ويحيى القادر والدها هي، وحفيدته الوحيدة هي ابنتها. إنني لا أعني شيئا لهذا البيت ولا لصاحبه. وبقية الموال التي تتحفني به كل حين وحين.

بقيت على حالها وتشنجها حتى حضور الدكتور ومن معه. طلب منا الدكتور أسامة الخروج ليتسنى لهم القيام بعملهم. قال:

- اطمئنوا سيكون كل شيء على ما يرام.

جلسنا ننتظر متلهفين لكن المشاعر بيننا متضاربة، فالظروف تحتم الترفع عن كل شيء ريثما نطمئن على حياة المريض. لكن عمتي ازدادت شراسة وتهجماً عليّ وعلى أمي وأبي ودنيا التي لم تحسن تربيتي. وأنني تربية الخدم، لذا لا ينتظر مني أي تصرف يليق بالناس المحترمة. من أين لي أن أعرف الأصول، وكيف لي وأنا من هذه البيئة الدونية، أن أقيم وزنا للإتيكيت التي تحترمه بل وتجله.

- هل أنت خائفة من شيء ما عمتي؟

اندفعت نحوي. سوسن تصدت صائحة- بأننا في موقف حرج ويجب أن نتعاضد لتمر هذه الأزمة بسلام. لعنتها ولعنت الساعة التي ولدتها ولعنت أباها وكل العائلة. حقيقي تستحق بالرثاء. زفرت زفرة طويلة بحرقة الخوف فقلت بصوتٍ عالٍ يا رب.

تقدمت عمتي وصفعتني على وجهي قائلة:

- أنت تدعو علينا.

فتح الدكتور أسامة الباب في تلك اللحظة ورأى الصفعة تهوي على وجهي فجفل. أشار لي بأن أدخل الغرفة معه. قال:

- ليس الأمر بهذه الخطورة التي كنت تظنها. سنقرر بعد ظهور نتيجة التحاليل يوم غد. الآن أريدك أن تحكي لي ما رأيت.

شرحت له ما رأيته تماماً مؤكداَ- أنني لم أرَ أحداً في الغرفة. ما

يقلقني نومه الثقيل. شيء غير عادي. قال:

– ليس تماماً. لكن لم انتظرت تلك المدة؟

– ظننت نفسي أحلم.

– الدكتورة هناء أخبرتني بأنها وجدت نقصا كبيرا في الأكسجين في رئتَي العم يحيى. كذلك تعثرت قدمها بمخدة ريش مبتلة واقعة على الأرض بجانب سرير المريض.

قالت الدكتورة هناء:

– أعتقد بأن أحد ما حاول كتم أنفاسه مدة. لكن قاوم ببسالة. نوبة السعال سببها ريش المخدة فهو أسوأ الأشياء التي تزيد حساسية الربو في صدر المريض. لقد أنقذته يا يحيى.

أجابها والدها الطبيب:

– هذا الحديث سابق لأوانه يا ابنتي.

انصرف الأطباء بقيت معي الدكتورة هناء لتصحب جدها النائم على الكنبة المقابلة لسرير جدي. قلت لها:

– الصديقان في غيبوبة..

– لا بل أنهما نائمان.

بدأ النهار على وشك الأفول وظلال الليل تنتشر مع خيبة أمل كثيرين. لن يفكر كائن من كان تكرار المحاولة. شعرت برعدة فرح تسري في جسمي لقد قدمت شيئاً لجدي. أنقذته من عابثين. قلوبهم وأرواحهم مثل الصحاري البور، جافة قاحلة لا تنبت إلا أشواكاً.

ذهب الجميع إلى غرفهم للنوم والراحة وبقيت مع الممرض الذي استعد للسهر بفنجان قهوة سادة. عدت لأوراقي التي لملمتها ورتبتها حسب أرقامها. جدي روى فصلاً قبل فصل. وقرأت:

كان يوماً مشرقاً ذلك الصباح والدنيا تخلع عنها الحر الذي كبس على أنفاسنا شهوراً طويلة. هذا الطقس القاسي هو الضريبة التي

ندفعها مقابل جمع المال الذي أتينا من أجله. نعيش شهوراً ننتقل من برودة المراوح إلى حر شديد لا يطاق، ومن ثم نعود للمراوح. أعتقد بأن درجة الحرارة تتعدى أحياناً الخمسين درجة مئوية، تعمل فعلها في أجسادنا ونفوسنا وعقولنا حالة عصيبة تجبرنا على الاستكانة.

كان اليوم هو يوم العطلة الأسبوعية. غالبا كنت أقضيها في العمل لعدت سنوات خلت إلى أن صرت صاحب عمل، ولدي عدد من العمال والموظفين، والذين من حقهم الراحة مرة في الأسبوع. فصرت مثلهم، فبين الحين والحين آخذ يوما للراحة.

كنت مدعواً على الغداء عند أبي جون الذي أصبح شريكي في عدة أعمال، وبدورنا نحن الاثنين لنا كفيل. في هذه البلاد التي نقيم فيها لا بد أن يكون عندك من يكفلك. يكون لا يعرف شيئاً عن العمل الذي ستقوم به، لكنه من أهل البلد الذي تقيم فيها وهو يضمنك ويقاسمك أرباحك. ومنذ أن بدأت أعمالي تكبر صار وجود كفيل ضرورياً لأحصل على رخصة. تفتح محلاً أو مطعماً أو تقيم شركة ما. وهكذا كان كفيل أبو جون اليوناني هو كفيلي أنا العربي وشريكنا.

حين عدت بعد الظهر إلى منزلي لآخذ قسطاً من الراحة، تمنيت أن أنام قليلاً فالنوم جميل في الحر لكنني للأسف لم أكن على وفاق معه، صار آخر اهتماماتي. قبل أن أسترخي سمعت رنين جرس الباب الخارجي بما أنني لا أنتظر أحداً لم أعره اهتماما. لكن الذي يدق الباب كان مصراً. قمت مسرعاً مهدداً. فتحت الباب لأجد مفاجأة كبيرة لي. كان أبو جون واقفا مبتسما وهو يقول:

– يا أخي أين أنت منذ نصف ساعة تركتنا ولا يمكن أن تكون قد نمت في هذه المدة القصيرة.

– خير إن شاء الله. على رأيك تركتك من نصف ساعة فما حدث.

– معي ضيف، صديق قديم. سأل عنك أحضروه إليّ فأحضرته.

تنحى عن الباب وإذ بي وجهاً لوجه مع عطا الله، الصديق والزميل وشريكي في تلك الأيام السوداء التي عشناها سوياً. كان العناق حاراً

وطويلاً. تراجع كل منا للخلف ليتأمل صاحبه ونعود لأحضان بعضنا. ما أن تنبهنا كان أبوجون قد انصرف.

قضى عندي ثلاثة أيام حسب أصول الضيافة، سألته عن إبراهيم، أخبرني بأنه يعمل الآن لحسابه الخاص، يمتلك معرضاً كبيراً لجميع أنواع الثريات الكريستال. وإنهما يتقابلان بين حين وحين لأن كل منهما منهمك بعمله وأسرته. قال أنا ما زلت طباخاً، اكتسبت خبرة كبيرة. صرت رئيس الطباخين على درجة عالية من الإتقان. صمت ثم استطرد متنهداً قال بحسرة. هل ما زلت تتذكر عادتي السقيمة. عصبيتي يا أخي لم أستطع التخلص منها بل ازدادت. أصير إنساناً آخر. لم يعد أحد يتحملني، لذا لم أثبت في مكان واحد.

– أين تعمل الآن؟

– الآن يا صديقي خالي شغل. طردت من فندق الحياة بلازا منذ أسبوع للسبب نفسه. فقد أغضبني أحد مساعديّ فقلبت أحد قدور الطبخ رأساً على عقب في حوض الجلي. في ساعة ذروة وجبة الغداء وزحمة قاعة الطعام بالزبائن. فصار اللي صار.

– ماذا فعل حتى أغضبك كل هذا الغضب؟!

– رغم أنني أخجل من ذكر السبب لكنني لا أخفي عليك شيئاً. لقد رفع غطاء القدر وهو يقول يا الله رائحة شهية.

– إذن. مازلت لا تحمل مسؤولية ما تقوم به. ماذا تريد مني؟

– أريد عملاً ما. فانا كما تعرف رب أسرة وعندي أطفال في المدارس. أي عمل يا يحيى.

– عملك موجود. تذكرتك قبل بضعة أيام. سأفتح مطعماً يقدم أفخر المأكولات والحلويات. سنتشارك فيه مع الكفيل.

– وهل ستثق بي بعد الذي أخبرتك إياه قبل قليل؟

– لا خيار لي. فأنا سأمد يدي لأنتشلك مما أنت فيه. لكنها ستكون المرة الأولى والأخيرة. فإذا اعتدلت ونسيت تلك العاهة فأنت صديقي

وحبيبي وشريكي. لكن مرة واحدة تتصرف بمثل هذا الجنون أو حتى بأقل منه سيكون هذا آخر عهدنا معاً. ستغادر ليس المطعم فقط بل ستخرج من حياتي. فأنا لا أعرف ماذا سأفعل بك. عدني أمام الله.

– أعدك.. وأقسم بأنني سأظل بكامل وعيي طوال فترة العمل.

– الليلة ستنام عندي ولكن منذ الغد ابحث عن سكن يناسبك قبل أن نفتتح المطعم. سأعطيك مبلغاً من المال لتتدبر أمورك بمنزلة دين عليك ستسدده من عملك في المطعم كما سددنا لك ذات يوم.

بعد ستة أسابيع فقط، كان المطعم على أتم استعداد لاستقبال مئتي شخص على الأقل. كان أول مطعم في المنطقة على هذا المستوى الرفيع من الديكورات والألوان الجميلة والمقاعد المريحة المنجدة بأفخر أنواع الأقمشة الزاهية، سجاد وستائر مخملية نبيذية اللون محلاة بخيوط ذهبية. سميته أهلاً وسهلاً.

كان في المطعم أماكن خاصة لإقامة غداء أو عشاء عمل أو إقامة ندوات مجهزة بكل ما يلزم. طاف الجميع بكل أجزاء المطعم حتى المطابخ التي كانت مبهرة تماما بأحدث الأفران والطباخات والمقلاة الكهربائية.

أثلج صدري إجماع الآراء على أنه طفرة في الستينات. شيء واحد كان كالعادة ينغص فرحتي. انه لا يحق لي كتابة اسمي بجانب اسم المطعم مع أنها كلها أموالي وشقائي. الأمرّ. أنه ليس لنا أن نعتبر هذا إجحافاً بحقنا بل علينا ألا ننسى كيف أتينا من تحت خط الفقر.

كان لافتتاح هذا المطعم أثر كبير في تطوير نفسي وأشغالي. كان جزءا من أعمالي التي تفرعت وتعددت مجالاتها. عليّ متابعة والجري ليل ونهار وراء مصالحي. فجأة أصبح المطعم محطتي الأساسية في فترة الغداء والعشاء لألتقي برواده الذين كانوا من كبار الأساتذة من مدرسين وموظفين وإعلاميين ومثقفين. كانوا يترددون علينا ظهراً لتناول الغداء ولكن في أيام العطل كانوا يأتون للعشاء جماعات، من الزملاء والأصدقاء. لم يكن في ذلك الوقت مكاناً للسيدات في الأماكن العامة.

كانت أحاديث الرجال تتشعب بين أحداث الأسبوع كل منهم في مجالٍ عمله. أو صولاتهم وجولاتهم مع النساء اللواتي لم يزل مكانهن خاوياً في عقلي وجسمي وقلبي، إلا أن الحديث بدا لي ممتعاً أحيانا. نوع آخر من الأحاديث بهرني. تلك الأحاديث التي تثير الجدل والعصبية. لم أكن أفهمها لأنها لم تكن تعنيني يوما من الأيام. ترتقي بالمهتمين بها الى ذروة جبالها أو تخسف بهم سابع أرض. يغوصون في وديانها أو يغيبون وراء الشمس. وجدتها صعبة الهضم على المستجد أو من لا يبالي بأحوال الدنيا مثلي أنا. فاختلاف وجهات النظر حول مواضيعها تكاد تصل أحياناً إلى حد التشابك بالأيدي. إنها السياسة. هي وحدها التي كنت أرى في حواراتهم صخب الحياة ودقائق أمورها. سمعت أحدهم يقول اتركونا من هذه الأحاديث، أنسيتم أن للحيطان آذان. أيدته. رد آخر:

– ما أكثر الممنوعات في بلادنا. ممنوع الحديث بالدين وفهنا، ولكن السياسة لماذا؟ هي من صميم أمور حياتنا، منذ أن نفتح أعيننا في الصباح حتى نعود للنوم في آخره.

– أسكت يا أخي مهما عشنا في بلاد الغربة سنبقى أغراباً فيها، لنحترم أنفسنا قبل أن نطالب أحداً باحترامنا.

– لا تبالوا. يكفي أن تتذكروا وجه السياسة الآخر. ألم يُقَل عنها إنها لعبة قذرة. كفانا الله شرورها.

بدأت أتساءل. لماذا يطغى عليّ النكد حين أسمع مثل هذه الأمور. يقولون إنها في صلب احتياجاتنا وأعمالنا وأحلامنا. لعل نقمتي وحقدي على من احتل أراضينا وأخذ بيوتنا وقتل أهلنا وطردنا من دنيانا إلى هذه الدنيا الغريبة عنا في كل شيء هو السبب.

في خلال سنة من عمر المطعم تطور نوع الزبائن كثيراً. صارت تأتينا من طبقات مثقفة ولها اهتمامات غير الأكل وإهدار الوقت. كانت الأحاديث السياسية تدور حول شخصية مبهرة، شخصية كأنها خرجت من كتب تاريخنا مثل أولئك الصالحين الذين كان الهم العام ليطغى على همهم

الخاص. امتدت هذه التطورات في ستينات القرن الماضي على كافة أصعدة الحياة فأحالتها إلى طعم جميل لم نذق مثله مذ سقطت بلادنا.

شخصية جمال عبدالناصر كانت طاغية على كل الشخصيات السياسية في ذلك الوقت. يؤكد البعض بأنه طفرة حقيقية في حياة شعوبنا العربية. بعض آخر لديهم مواقف معادية أو رافضة لسياسته.

وجدت نفسي دون قصد ودراية في صفه ومن مناصريه ومؤيديه. كان من الممكن أن أطرد من المطعم إن تفوه بكلمة تخدش سمعته وأخلاقياته. فهمت أن جل اهتمام الرجل وسبب النقمة عليه هو افتتانه بالتجمع العربي. بوحدة شعوبها، ونبذ كل خلاف لتعدل كفتي الميزان ونتخلص من الاستعمار من كل بلادنا المعلن والمستور.

كان يجبٍ أن أكون مع المؤيدين له. في كل يوم وفي كل مناسبة كان يضع مرهماً خاصاً به على جروحي القديمة والجديدة. امتلأت به. إمكانياته لا يمكن أن يملكها فرد واحد في عصر صار فيه كل منا لا يهمه سوى منفعته وزيادة ثرائه ومركزه. كنت واحداً من هؤلاء.

صار موعد إلقائه خطاباً من خطاباته مقدساً بالنسبة للجميع. يغص المكان بجمع غفير من الرجال بمن فيهم المعارض قبل المؤيد. كلامه سحر يجبر الجميع على الإصغاء. نشاركه بشكل حقيقي بمشاعرنا، وعقولنا. فالكلام الذي يقوله كبير. أول زعيم عربي بعد سنوات عجاف يرفع قيمتنا كأمة مخذولة إلى أعلى درجات العزة والكرامة. نشوة تسري بأوصالنا بعد سقوطنا المرير مرات ومرات.

لقبوه بالناصر صلاح الدين. كانوا يعلقون بعد انتهاء الخطاب بأنه مبعوث من السماء لنصرتنا. لن نبقى مغلوبين على أمرنا سواء كان سبب غلبنا احتياجات ملحة وضرورية. أو كانوا مستعمرين من إحدى دول العالم وحرموا من ممارسة حقوقهم.

بالنسبة لي كنت أتفهم هذا الكلام كثيراً لأنني عانيت من الأمرين الأمرّين. عانيت من الفقر المدقع وعانيت من استلاب البلاد والأراضي

والأرواح دون جريرة. وتسلطهم لامتلاك ما ليس لهم بالقوة.

لقد تفهمت ثورة عبدالناصر ضد حكام بلاده بشكل آخر. الملك ومن يحيطون به والإنكليز وما يفرضونه على الحكام. في وقت مبكر من عمري، حيث كنت في السابعة عشرة، تملكني حب الوصول إلى هدف رسمته في خيالي. هذا الهدف كبر بعد تقابلنا مع شقيقة عطا التي تعيش في السويس في بحبوحة من العيش، أكبر من أحلامنا وأمانينا بالخروج من خط الفقر. صار هدفي أكبر من الوصف.

في ذلك الحين كنت قد غادرت الأراضي المصرية منذ ما يقارب ثلاث سنوات. لكنني ما زلت أتذكر، حين عشت هناك يافعاً، كيف كانت سطوة الملك ومن حوله، يعيشون وكأنهم لا عمل لهم إلا انتظار كل فرد من الشعب ليقدم لهم جزءاً من لحمه ودمه وشقائه. أرى الملك في الصور أو بالاحتفالات، وأرى شعبه يستنفر حين يتجول بسيارته الحمراء المكشوفة يحييهم بكبرياء وصلف.

بعد الثورة.. لا أدّعي أنني فهمت في ذلك الحين معنى أن يتخلص شعب من مصاصي دمائهم لكنني فهمتها على أن فرداً من أفراد الشعب. شاب فقير من قرية مصرية وابن موظف صغير، أراد واستطاع أن ينتشل الفقراء من إدمانهم الفقر والعذاب. هذه الصفات التي تبدو عادية بالنسبة إليّ الآن. كانت أكبر من أن أستطيع تقييمها آنذاك. أزاح الملك، المسنود من قوى، متسلطة، ومتجبرة، ومتحكمة. وخلّصهم من مستعمريهم. إذاً. أستطيع أنا الفرد الفقير القادر على دفع ثمن ما أصبو إليه من شبابي وصحتي وعمري لأحقق ما أريد.

كم اختلفت الأمور في رأسي بعد تأميم القناة وحرب الـ56. بدا لي ذلك تحصيل حاصل لإصرار الرجل العظيم على تحدي كل ما يعترض طريقه، للوصول إلى نهضة الأمة العربية. يصيح بهم أن يقوموا من سباتهم ويعرفوا معنى العزة والكرامة التي داسها أولئك الأجانب الذين استعمرونا سنين.

نعم ما زلت أذكر، وإن بشيء من المرارة كيف استخدمونا أيام

الاحتلال. كنا في تلك الأيام نفرح بكل المنح التي تأتي منهم مهما كانت ضئيلة. تذكرتها بكل هوانها وعبدالناصر يصيح ارفع راسك يا أخي فقد ولى عهد الإذلال. أندم على ما فات، ثم أعود وأتذكر القهر والفقر والعوز فأصوب إلى رشدي.

كانت تضاف شعلة جديدة في قلبي لهذا الإنسان. جاءت حرب الـ67 وجدت نفسي جاهزاً لأدافع عما يدافع عنه جمال القدوة للعالم، سواء كان عربيا أو أوروبيا أو أمريكيا. كنت حينها في الـ31 من عمري أمتلك مالا وفيراً لذا جهزت كتيبة من موظفي وعمالي بكل ما يلزم من سلاح وعتاد ولباس عسكري. انطلقنا إلى الأردن لنحلق بجيش عبدالناصر الذي يقاتل بشجاعة. صار قاب قوسين أو أدني من تحرير فلسطين. لكن ما أن وصلنا إلى العاصمة عمان حتى كانت الحرب تضع أوزارها. وسميت حرب الأيام الستة. لماذا ستة أيام يا عبدالناصر؟ لماذا ليست ستة أسابيع أو ستة شهور أو ست سنوات؟ نحن معك بقلوبنا وبأرواحنا. كل هذه المشاعر وكل هذا الكلام تبخر في الهواء، تماما كما تبخرت البيانات الصادرة عن بعض القيادات من محطة صوت العرب.

لا شيء يفيد، انتهت الحرب، وبانت الحقائق التي كانت مغلفة بالأكاذيب. نقف على أرض غير صلبة. أهذا سبب كاف لتدميرنا. عدنا لأعمالنا ولحياتنا اليومية، لكنني كنت شخصاً آخر. مهزوما مكسورا. صرت أنظر لأحلامي التي كانت بحجم الدنيا، سدت عليّ منافذ الحياة، رأيتها تافهة، صغيرة، صغيرة لا تعني شيئا.

ونحن لم نزل نطحن الفاجعة لنبتلعها أطل علينا ذلك الجبل الأشم على شاشة تلفزيون المطعم، كنا مجتمعين حزانى، ثمّة شيء تفتت فينا. أعلن ودموعه المحبوسة تشي بعظيم شعوره بهول المصاب، يتنازل عن مكانه ليعود إلى صفوف الجماهير. شعرت وكأنني مصارع، سقط فجأة منذ الجولة الأولى بالضربة القاضية. قبل أن يستعد لمواجهة خصمه. قبل أن يلبس قفازيه قبل أن يضع في فمه تلك العضاضة التي تحمي فكه وأسنانه. كنت أنا المصاب. أنا الضحية. أنا من أخذ على حين غرة.

أما عبدالناصر فقد بقي جمال. جمال الخلق والروح. جمال إنسان في أحلك أيامه.

الآن وأنا أدون هذه الذكريات البعيدة جداً. وبعد أن علمتني الحياة. أقول لو قدر لعالمنا آنذاك. أن يدرك قيمة ما نادى به وما سعى له وما مات من أجله. لو تفهموا ولو جزءاً من حماسته واستدركوها. لما كان هذا حالنا بعد رحيله. منتهى الضعف والهوان. منتهى التفكك.

يبدو أنني نمت على مثل هذه الصورة الجميلة من الحماسة لأصحو مع الفجر، خرجت من أحلامي المؤلمة إلى واقع أكثر إيلاماً. جدي ما زال في نومه العميق والممرض جهز نفسه للذهاب لبيته لينام ويعود في المساء.

جاء الدكتور أسامة وفريق العمل للكشف عن صحة الشيخ بعد الغروب بقليل. سأل إن كان قد صحا أم ما زال على حاله. أخذ يده ليقيس النبض ثم الضغط ثم الصدر والقلب. فتح عينيه ثم أغلقهما هززت رأسي كأنني أقول للطبيب هذه حاله كل الليل.

فتح عينيه مرة أخرى ونظر حوله في هذا الجمع. طلب ماء وقهوة كان لسانه ثقيلاً. سأله الطبيب:

– لماذا لا تفتح عينيك جيداً يا عمي؟

– أحس جفوني ثقيلة وليس لي إرادة عليها.

مد يده يلامسه وسأله:

– هل تحس بشيء؟

– نعم يدك تلامس يدي.

– هل كنت تسمعنا حين نتكلم؟

– نعم. ناولني يحيى ماء، فشربت، وعدت إلى النوم، رأسي ثقيلة.

– هل عرفت من أنا؟

– أنت ابن أعز الناس إبراهيم؟

– ما جرى لك أمس.

– كان شخص يحاول كتم أنفاسي لكنني كنت أقاوم رغم أن جسدي خارج سيطرتي خاصة أجفاني. حين وضع المخدة فوق فمي وأنفي جاءتني نوبة سعال شديد فتركني.

– يحيى يقول إن هناك شخصاً قد حاول كتم أنفاسك. فمن هو؟

– لا يهم من. الأهم أن يحيى أنقذني. الشخص الذي حاول خنقي كان على شمالي. كانت الغرفة آنذاك معتمة لم أميز أحداً.

– لا بأس كل شيء سيكون على ما يرام.

جاءت عمتي وأمينة ومعهما سيدة أنيقة جميلة تخطت منتصف العمر، لم أرَها من قبل. اقتربت مني، غمرتني بكل حنان الدنيا، وضمتني إلى صدرها لامست شعري وهي تتمتم آه. يا يحيى، كنت أتمنى أن يكون يوسف قد ترك لنا حفيداً. أنا جدتك أم يوسف والدك.

أنعشني وجودها رفع ثقلاً عن كتفي. ستقوم بمهمات، كنت أناضل فوق جهدي فوق عمري لأحتمالها. عمتي سألت الدكتور أسامة:

– كيف حال أبي اليوم؟

– هو بخير. أثرت عليه كثيراً تلك الهزة التي تعرض لها. أقصد تأثيرها النفسي. كلنا يعرف صلابته وقدرته على التحدي والصمود.

نظرت نحوي بلؤم وقالت:

– يعني شكوك هذا الصبي ليست بمحلها؟

– الأزمة التي تصيبه هي نوع من أنواع التحسس، والدواء الذي يتناوله يحتوي على نسبة من المخدر لتهدئة السعال، يجب خضه قبل الاستعمال. يبدو أن الشيخ كان يتناوله دون خضه. وهذا يحتمل أنه حصل بسبب الجهل أو السهو أو العمد. من فعلها يعرف أن ترسب المخدر في قاع الزجاجة يشكل خطراً. ويعرف أيضاً بأنه لن يدان، لصعوبة اكتشاف شيء مثل هذا.

– لم أفهم ما تعنيه يا دكتور؟ أهي محاولة قتل أم افتراء؟

رفع كتفيه وحاجبيه وهو يقول:

– قد تكون محاولة قتل وبالنسبة ذاتها قد لا تكون. إذا كنا سندين شخصاً لا بد أن يكون طبيباً، يعرف نوعية المخدر، وأن كميات قليلة على فترات طويلة تقوم بالمهمة.

قالت عمتي:

– لماذا لا يكون هذا الشاب الصغير الدخيل؟

شعرت برغبة في الصراخ بل العويل لهذا البرود وهي تقذف بالتهمة في وجهي. فقلت محاولاً ضبط مشاعري:

– ما مصلحتي في ذلك. ثم إنني لم آتِ برضاي بل حملت حملاً. ومن جهة أخرى، أنا وريثه الوحيد.

– خسئت.. لن أسمح بهذا.

تكلم جدي ببطء وحسم:

– يا من تجلبين المتاعب اخرسي، لا أطيق سماعك. ما حصل لا يعني شيئاً. فقط نبهني بأن في بيتي عدواً متربصاً بي أو بحفيدي يجب اقتلاعه من جذوره. سأعرفه. وسأرد له الصفعة مضاعفة عندما تنتهي أزمتي الصحية. وستنتهي.

سمع صوتاً رقيقاً يقول:

– يحيى هو يحيى. جبار وقهار.

أخذ نفساً عميقاً وزفره بتؤدة ليسترد قوته. سأل من هنا؟ أشارت جدتي ألا نخبره. أخيراً قال بصوت غير صوته:

– أشم رائحة زوجتي. وأسمع صوت تنفسها.

– أنا هنا، ما بك، يا يحيى، أعرفك قوياً جباراً تزلزل الجبال.

– كنت أعرف أنك ستأتين، لكن بعد موتي. لتودعيني بالكلمات ذاتها، بأنني انتحرت بالعمل الشاق غير عابئ بك أو بالأسرة.

– لا تقل هذا، أنت تعرف بل أنت متأكد، بأنني قلته من أجلك، من أجل أن تكف عن العمل المتواصل. صار بيتنا ثكنة عسكرية.

– يا الله كم لك جلد على الإعادة والزيادة لا تكلين ولا تملين. دعينا من كل ذلك وخذي هذا الخبر الذي سيجعلك تطيرين من الفرح. هذا الشاب، النبيل، الجميل، الذكي، هو ابن ابننا الغائب يا وجدان.

فتحت ذراعيها على أوسع مدى وهي تقول:

– لقد أخبرتني رجاء بكل شيء. الحمد لله أنه جاء إلينا أخيراً. أخبرتني أنك فرح به. أخذته معك إلى المصنع. لكن لماذا لم تخبرني؟!

– كان ذلك منذ يومين فقط. الآن علينا أن نوضح ليحيى لماذا لست في بيتك وزوجك مريض؟ الحقيقة، يا يحيى، أن جدتك، بعد سنوات طويلة، أعلنت أنها تعبت مني، لن تحتمل الحياة معي.

– أراك تظلمني كعادتك يا يحيى. لم أقل بأنني لن أحتمل الحياة معك، بل قلت بأنني لم أعد أحتمل نظام حياة صارم. أخبره بما تريد، لكن لا تبدأ من النهاية. أغرقتنا بالعذاب، لأنك كنت تطارد هدفاً أمامك، حددت زمن إنجازه. كنا حصانك السحري.

قلت وأنا حيران من أمر هذين الزوجين:

– أعتقد بأننا جميعاً بحاجة للراحة. غداً يوم آخر.

رد جدّي بلطف فاجأني:

– أظنك، يا صغيرنا، لست بحاجة للراحة. فاجلس هناك إلى المكتب، واقرأ ما كتبته عن هذه الأميرة التي فتنتني. والسيدة وجدان تذهب لترتاح في إحدى غرفها. وأنصحها ألا تستمع لحكايات ابنتها الشاكية الباكية دائماً.

قامت جدتي وهي تقول:

– سآخذ حماماً ساخناً، ومن ثم أرتاح لنلتقي على العشاء.

ابتسم لها جدي مودعاً.

مشيت إلى جانبها حتى أوصلتها إلى الباب وأنا أهمس لها:

– السيدة رجاء تريد إبعادي من هنا. رأت بعينيها أن وجودي ساعده على تجاوز أزمته. أخبريها أن تتناسى وجودي وأنا أعد.

– لا تكمل يا يحيى.. لا تتحامل عليها، فهي، بكل معنى الكلمة، مسكينة، ضحية. ابق مع جدك. وأحسن الظن بكل من حولك.

– إنها تحاول حماية أحد ما.

– هنا في البيت كل منا يريد منك شيئاً مختلفاً. تحمّل. أنت رجلنا.

جلست في ركن بعيد حتى لا يزعجه ضوء مصباح. قرأت:

وجدان

لا تزال المرأة بعيدة كل البعد عن حياتي، كذلك عن الخيال، لا في نوم ولا في يقظة، صار عمري أربعاً وعشرين سنة. التوسع والاستقرار شغلي الشاغل. أحضرت أخي من البلد مع أسرته. سامحته وهل لي من خيار غير مسامحته، وهو الوحيد من بقي من أسرتي الكبيرة؟ منحته ثقتي الكاملة، وجعلته يدي اليمنى كما يقولون، كذلك أعطيته حصصاً ربحية لأحثه على الاجتهاد.

بدأت أفكر بتوسيع أعمالي. لأدخل، مثلاً، عالم التجارة إلى جانب الصناعة التي بدأت بها. أصبحت الأموال تتدفق بين يدي. كانت سفرتي الأولى لجلب الخيوط اللازمة لمعمل لنسيج الحرير الدمشقي، ولفتح سوق للتصدير. سافرت إلى لبنان وسوريا ومصر. عواصم ثلاث كانت عواصم حقيقية، تلك الأيام، كانت تزهو بتألق حضاري، جعلها سوقاً لكثير من دول الجوار. الآن بهذه المناسبة أقول: هذه العواصم تهمشت. جاء عصر النفط فانقلب الحال صارت الدول الصغيرة المهمشة عواصم بديلة.

في واحدة من هذه البلاد رأيتها أول مرة. كانت تمشي وسط صحبة من الصبايا، كانت بينهن غزالاً مرحاً تتقافز. تحكي وتضحك وتناكف الجميع. كانت صبية جميلة رشيقة ذات عينين سوداوين تبرقان بالحياة وبشقاوة الشباب البريء. متأبطة محفظتها المدرسية بين ذراعيها المتشابكتين حولها فوق صدرها وكأنها تحميه من نظرات

جريئة تخترق مستور شبابها الفائر. ترتدي زياً مدرسياً أسود محلّى بياقة ناصعة البياض كطهارتها. شعرها أسود مشدود إلى الخلف ومعقوص بشريط أبيض يلفه كوردة الزنبق، وتنتعل حذاء مدرسياً بلا كعب مع جوارب بيضاء قصيرة. زميلاتها كن يلبسن اللباس المدرسي ذاته، لكنها كانت أكثرهن بهاءً وجمالاً. رافعة رأسها نحو عنان السماء كمن تدرك قيمة نفسها. تختلف عن الجمع الذي تسير وسطه بجد. لذا لم تنتبه، أو حتى تلتفت، كرفيقاتها، إلى زمرة شباب بجانبهن يتفحصنها دونهن. حين همست لها إحداهن أدارت رأسها بعجب. ألقت نظرة غير مبالية. أميرة تمنح رعاياها نظرة عاجلة لا تعني شيئاً.

كانت أول امرأة أحس تجاهها بالانجذاب. انجذاب رجل بالذات لامرأة بعينها. فقلت في نفسي: مثل هذه الفتاة جديرة بمشاركتي أحلامي سأقدمها مهراً وعهداً ورباطاً أبدياً.

قاربت سفرتي على الانتهاء، ولم يتح لي القدر أن أراها مرة أخرى. ما زالت الصبية الصغيرة بكل كبريائها وشموخها ماثلة في فكري في ليلي ونهاري. صرت أبحث عنها في المكان الذي رأيتها فيه أول مرة. لم يخن حدسي فهي تلميذة في مدرسة بذلك الحي.

فجأة، ونحن نرابط في ذات المكان، مرت مع رفيقاتها. لم تلتفت لكن شخصاً من بيننا ناداها وجدان، فالتفتت، تقدم نحوها وسلّم عليها وسألها عن أفراد العائلة. ثم استأنفت طريقها.

تركتني مبهوراً واقفاً مع الرجال الثلاثة الذين أبرمت للتو معهم أول صفقة تجارية في حياتي، دعوتهم بعدها لنحتفل بتناول طعام الغداء سوياً. قبل مرورها كنت أحاول أن أقترح عليهم مطعماً معيناً فنسيت ما كنت أريد قوله. سألوني: ماذا قررت؟ أجبت دون تفكير: قررت أن أتزوج. قال أحدهم: اترك المزاح وأخبرنا إلى أين سنذهب للغداء؟

اقترح عليٌّ مطعماً قريباً من مكان وقوفنا. عليّ هو الشخص الذي سلّم على فتاتي. ونحن نتناول الطعام سألني أحدهم:

– أصحيح أنك لم تتزوج بعد؟ لماذا لم تتزوج يا يحيى حتى الآن؟

– كنت أظن أنني صغيرعلى الزواج ومسؤولياته.

– ليس لتأخير الزواج حجة إلا المال، وأنت والحمد لله. ما الأمر؟

– والله إذا ساعدني عليّ سأتزوج.

التفت عليّ متعجباً:

– ما دخلي بزواجك؟ أنت من بلد وأنا من بلد آخر.

– هذه الفتاة التي سلّمت عليها، أتعرفها.

– إنها قريبتي من بعيد. أمي وأبوها أقرباء بشكل ما.

– أريد أن أراها مرة أخرى.

– لكنها صغيرة، ولا تزال طالبة في المدرسة، وهي مجتهدة جداً ولا أظن أن والدها يوافق على زواجها في الوقت الحاضر.

– ما عليك يا أخي.. عرفني إليه فقط، وسأبحث الأمر معه.

بعد إلحاح طويل وافق على اصطحابي إلى مكان عمل والدها، كان موظفاً في مصلحة الضرائب. بعد ربع ساعة من جلوسنا تحدثنا في كل شيء إلا الموضوع الأساسي، قال الرجل:

– لا أظنك يا عليّ قد جئت هنا بالصدفة، ماذا لك بهذا المكان الذي يتهرب معظم الناس من الدخول إليه ما لم ننذرهم مرة واثنتين وثلاث؟ هل لي أن أعرف السبب؟

وجم عليّ بينما انبريت للإجابة:

– اسمي يحيى القادر، فلسطيني الجنسية، أعمل في عدة دول في الخليج. أعمالي موفقة والحمد لله، لم يسبق لي الزواج ولم أفكر فيه إلا من بضعة أيام حيث مرت ابنتك الصغيرة من أمامنا، وكلمها عليّ وأعجبت بها. إن سمحت لي أتشرف بزيارتكم.

– والله، يا بني، لقد أعجبت بدوري بك لهذه السلاسة وهذه البساطة والصدق في نبرات صوتك، وحماسك وأنت تتكلم عن الزواج والخطبة. وإنني ليشرفني، لا أن تزورنا فقط، بل وأن تناسبني أيضاً. لكن الأمر ليس بيدي، يجب أن نسألها فإذا وافقت فأهلاً وسهلاً بك.

ضرب لنا موعداً بعد بضعة أيام، كنا أسرع من الوقت، ذهبنا قبل الموعد بنصف ساعة. جالسنا أبوها وأمها وخالها، كان الباب مغلقاً علينا، لكن عيني لم تتركاه، كنت أنتظر أن تطل علينا بين دقيقة وأخرى. لا أريد أن أفتح الموضوع قبل أن أراها. أحسّ الرجل بحيرتي فإذا به يقول لزوجته:

– اطلبي لنا القهوة من وجدان.

يا الله، ما كان أجملها وهي تدخل علينا حاملة بين يديها صينية القهوة. يا لهذا القد الممشوق الجميل، والعينين السوداوين الواسعتين رموشهما ترفرف في وجه. وجهها غارق في حمرة الخجل، واليد المرتجفة وهي تقدم لي القهوة. فستانها الوردي يحاكي لون وجهها، تعقص شعرها كما رأيتها أول مرة بشريط وردي بلون الفستان.

قلت لنفسي: لا أريد مهلة أكثر. هذه فتاتي. بدت أمامي رغم هذه الطفولة البادية بأنوثة طاغية، زادت طغيانها بهذه النظرات المتكبرة الهادئة حين سمعتني أقول بهمس ما شاء الله. سبحانه خلق وأبدع.

رمقتني بنظرة تأنيب وانصرفت. تلك المشاعر التي اجتاحتني كانت غريبة عني. هل هذا أنا الذي كان من قبل لا يجد جواباً حين يسأل ألا تعني المرأة لك شيئاً أرد دون تروٍ. أبداً؟ لا في يقظتي ولا في منامي ولا في الخيال ولا في دنيا الواقع.

كان الحديث ما زال جارياً بين صاحب البيت وبين عليّ، وأحياناً أشارك فيه من باب الأدب. في الحقيقة أصبحت في عالم آخر لم يكن ليخطر لي على بال. دار الحديث حول مواضيع عديدة كأنها تقطع الوقت، فانبريت، بعد أن استجمعت شتات نفسي ولملمت شجاعتي، لأقول دون تلعثم:

– يسعدني ويشرفني يا عم أن أخطب يد ابنتك لنفسي، وأنا على استعداد لألبي كل طلباتكم وطلباتها. ليس لدي أي شرط سوى أن يتمّ الأمر بسرعة لأنني تركت أعمالي لمدة ثلاثة أيام وها أنا قد أتممت الشهر الثالث بانتظار هذه الزيارة.

– عليك بالانتظار، يا بني، هذا زواج وليس كل يوم يتزوج المرء. لو الأمر بيدي لقلت لك: على بركة الله، ولكن يجب أن أسألها وآخذ موافقتها، أنا لم أكلمها بالموضوع. أمهلني بضعة أيام وسأرد عليك.

ونحن نخرج من البيت، رأيتها مرة أخرى، فتملكتني سعادة لا مزيد عليها، جعلتني أخرج عن طوري، وأسلم على أبيها، وأعانقه وأقبّله مثل طفل حظي بمكافأة لا يستحقها.

طالت المدة.. كلما ذهبت إلى والدها في العمل يقول لي: ما زالت تفكر. أذهب إلى البيت بعد يومين والدها يقول: ما زالت متردّدة. وأدخل وأخرج ولا أراها فيمتلئ قلبي بالخوف. وتدور الأسئلة في رأسي ماذا لو رفضت؟ ماذا سأعمل؟ سأعمل الكثير. لن يقف أي شيء حائلاً بيني وبينها. هذه الفتاة امرأتي.

وأخيراً نطق الأب، قال بعد ديباجة طويلة:

– آسف يا بني. ابنتي لا تريد الزواج الآن. كنت أعرف أنها سترفض، لأنها رفضت غيرك من قبل، لكنني أملت أن تلين أمها رأسها. لم يكن رفضها لك، بل تريد إكمال تعليمها وصغر سنها على الزواج. صدقّني لقد أحببتك. فمارأيك أن تنتظرها؟

– إذا كان من الممكن أن أجلس معها وأحاول بدوري..

– وجدان رافضة فكرة الزواج المبكر.

تركت كل أعمالي هناك ورابطت حول الأماكن التي تتردّد عليها، المدرسة، السينما، زيارة صديقاتها. في كل مكان، تراني وأراها. لم تشجعني نظراتها اللامبالية على أن أتقدم منها وأكلمها. لكن، بدا لي أنها مهتمّة بما تحمله نظراتي نحوها من الإعجاب والقبول والتمني. مع ذلك هي لا تبدي أي تغيير في موقفها. أصررّت وأصرّت، أسبوع بعد أسبوع، ثم فجأة لانت. جاءني عليّ فرحاً وهو يقول، أعطني البشارة، لقد وافقت الفتاة على خطبتك. وهكذا بين عشية وضحاها صارت زوجتي قبل أن نتعارف جيداً.

توقفت عن القراءة قليلاً، ريثما أفكر كيف لرجل مثله أن يتزوج فتاة بمجرد أن أعجبه شكلها، قبل أن يتعرف إليها وإلى أخلاقها وأهوائها. هززت رأسي قائلاً لنفسي- لا بد أن عصره غير العصر الذي نعيشه. يجب أن أسأله إن كان آمن بالحب من أول نظرة وهو الذي لم تعنِ له المرأة شيئاً حتى ذلك اليوم الذي رآها فيه.

قلت بصوت خافت:

- جدي.. جدي.. أنائم أنت؟

- ما بك يا يحيى؟

- أريد أن أسألك سؤالاً قبل أن أتمم ما بدأت قراءته.

- أعرف ماذا تريد أن تسأل. فما زلت بعد كل هذه السنوات، أسأل نفسي السؤال ذاته. كيف أتزوج من فتاة لا أعرفها ولا تعرفني. رغم أن هذا شيء عادي في ذلك الزمان، لكن معي، هذا غير عادي.

- هل تؤمن بالحب الآن، وبعد أن مررت بكل تلك التجارب.

- هل تصدق لو قلت لك حتى هذه اللحظة لا أعرف كيف أعرّف الحب؟ وهل هو الحب الذي شدني إلى تلك الفتاة أم الإعجاب أم الغريزة، التي في لحظات معينة تتمكن منا، وتخبرنا ما الذي نريده حقاً دون مواربة ودون كذب. قد استغربت من نفسي غضبها الشديد حين كان سؤالي لها: لماذا قبلت بي دون الذين سبقوا وطلبوك للزواج؟ فقالت:

- لا أعرف أي أحد منكم، فوقع اختياري على الأكثر غنى.

كم آلمني جوابها. رغم أنني أعرف من نفسي ابتعادها عن الرومانسية والمشاعر، وكل هذه الأشياء غير المرئية. وأؤمن بكل ما هو محسوس وملموس، ومع ذلك اعتبرتها غلطة عمرها.

انغمست بالعمل أكثر من ذي قبل. فتاتي تريد المال ويجب أن يكون بكثرة بين يديها. صارت تتمرد على الوضع بحجة أنها تعيش وحدها في بلاد الغربة، ولا تجدني بجانبها إلا في أواخر الليل، وهي التي تركت أهلها من أجلي. كنت أردّ عليها بقسوتي المعهودة التي علمتني إياها

الحياة القاسية التي عشتها، علمتني أن أدافع عن نفسي سواء هوجمت أو مدحت أو مازحني أحد ما.

سألتها بغلظة:

– ماذا تريدين غير المال؟ ها هو بين يديك بكثرة.

– أريدك أنت.. كأنني في سجن مؤبد دون جريمة.

– آسف لا أملك لك إلا المال الذي اخترتني من أجله، مع أنني حينها لم أكن غنياً، كان عندي فلوس ولكن ليس غنى بالمعنى المتعارف عليه. حين قلت لي إنك اخترتني من أجل الغنى عرفت بأن أمامي مشواراً طويلاً لأحقق لك ما رأيته بعيني عندما قابلت شقيقة صديقي ذات يوم في السويس. تريدين السيارة والمجوهرات والملابس الفخمة والسكن المريح فعلي أن أعمل ليلاً ونهاراً لأؤمّن لك ما تزوّجتني من أجله. النساء كلهن على هذه الشاكلة.

كانت تحزن وخاصة بعد أن كبرنا وعشنا سنوات طوالاً معاً. صارت تقول أتحاسبني على إجابة قلتها وأنا في السادسة عشرة من عمري؟ لو قلت لك في حينها بأنني أحببتك أكنت صدّقتني؟ لا أعتقد، أنا لم أكن لأصدق نفسي. وقتها لم أعرفك، بعد لكنني الآن عرفتك وكبرت وأحبك كثيراً.

كبرنا معاً. بعد مرورعشر سنوات على زواجنا وعينا على أمر بالغ الخطورة. فقد تبلورت شخصية كل منا، وبانت الهوة بيننا بحجم الدنيا. رغم أن هذا لم ينقص الشيء الذي ربطنا ونما بيننا، ولكننا صرنا نختلف في كل أمر وكل قضية وكل حديث ولو كان هامشياً.

يا له من عذاب جميل. عذاب التفاوت الذي بيننا. لا أوافق على رأي تقوله وهي كذلك. نحت بحياتها منحى آخر، عادت للدراسة التي قطعتها بعد زواجنا. بينما تابعت طريقي الأول، العمل ولا شيء غير العمل. شيء واحد تغير صرت مدمناً على العمل، لم يعد يعنيني جمع الفلوس، فقد أيقنت أنه لا شيء أسهل من جمعها واكتسابها. صار شعاري من يسألني النصيحة: فقط، اعمل كثيراً، وأخلص لعملك، واتعب، واسهر،

يأتيك المال طواعية.

– كيف كان شعور كل منكما تجاه الآخر؟

– لا بد أن شيئاً ما جمعنا. أحببتها بجنون، بفرح، كأنها توأم الروح. أكملت بوجودها حياتي. عرفت ما عزوفي عن التفكير بالمرأة إلا لأنني كنت بانتظارها لتفجر هذا البركان، هذا الإعصار ليجرفني ويوصلني إلى الكمال الذي كنت أصبو إليه منذ صغري.

لم أكن أعلم بأنني سوف أكون معها على هذه الشاكلة. عجز تام عن البوح بمكنونات صدري تجاهها. أبخل عليها بأي كلمة مديح أو غزل أو حب. حين تغضب تصيح بي: يجب أن ننفصل، فالحياة هكذا لا تطاق. فأدهش من اتهامها، فبداخلي معجب، محب، عارف جيداً قيمة وجودها في حياتي.

كانت مفعمة بالعواطف حيال كل حالة من حالات الحياة. حين نقف أمام أي موقف صعب بشيء من الحيرة والتحفظ وشحذ الفكر والهمة، تبسطّها بشكل مذهل. تقول: كل شيء يحلّ بالحب. كانت تقول حتى قضايا الشرق الأوسط وقد أعجزت المفكرين تحلّ بالحب. وتضيف بثقة. كل القضايا، حتى المعقدة منها، لا تحتاج إلى مفكّرين بل إلى مخلصين ذوي أحاسيس خاصة جداً. يضعون، على خط النار، بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة شيئاً من حب.

أقول الحق، ولا أبالي الآن، وقد بلغت هذه السن الحرجة إنها كانت في حياتي أغلى من كل إنجازاتي، أحلى من كل أحلامي. لم تكن في أي يوم من أيام حياتي معها كأي زوجة. كانت حبيبة ملهمة، نور القلب وزهرة بيتي المتفتحة دوماً. أقسم بأنها ما تغيرت قط بنظري. ما زلت أراها أمنية حياتي وبهجتها.

– ما أجمل هذه المشاعر، يا جدي، وأرقها.

– للأسف! لم أتمكن من أن أوصلها لها. أحاول فتفشل محاولتي بكبرياء أمقته. تشعر بعجزي، وهي المنتظرة أياماً وشهوراً وسنوات أن تنصف. يجن جنونها تلوح بيدها لتسكتني وتندب:

– أقصيتني عن حياتك خارج البيت كأنني شيء من المتاع. كنت أتمنى أن أكون أقرب الناس إليك، محبين وزوجين وصديقين. حاولت مراراً هدم الجدار الذي بيني بينك بعد هذا التلاحم والالتصاق. انتظرت أن تعيش معي على طبيعتك. تسرّ لي ببعض متاعبك، أو مشاكلك، أو حتى ما يؤلمك حين تمرض. انتظرت كثيراً لكنني بقيت غريبة. تمثّل طوال الوقت دور الرجل الخارق الذي لا تهزّه ريح، يعرف كل شيء. يستغني، يكتفي بنفسه. لا يتعب ولا يقلق ولا يخطئ ولا يخاف. لم تحتج لكائن ما في حياتك. لقد امتلأت بنفسك.

– ألا ترين أن هذه طبيعتي؟ أبعد كل السنين..

– تلك هي الفاجعة الحقيقية. لا أراك على طبيعتك. مسترسلاً مسترخياً فاتحا قلبك ببساطة وبشاشة. تبوح بأسرارك لأفراد أسرتك أو أصدقائك. حينها تكون شخصاً آخر لا أعرفه، لا يشبه من أعيش معه. تتكلم بطريقة مختلفة، تأكل بطريقة مختلفة. أراك منطلقاً منشرحاً لا تشعر بحرج حين أسألك لم تخبرني بشيء لا تشركني بأمورك.

– ألم تشاركها حياتك كما هو مفروض؟

– مفروض؟ من فرض ذلك.. كنت أريدها امرأة جميلة أنيقة أشتمّ منها رائحة الراحة والدلال الغارقة فيه بالبيت. كنت أقيس مقدار نجاحي بقدر ما أوفر لها كل ما تحتاجه، بل وأكثر.

لكنها. آه. لم تعد سعيدة. ليس هذا فحسب، بل صارت شكاءة بكاءة والمصيبة أنني لم أجد لها عذراً فكل ما تريده تملكه، وما تأمر به يتمّ فوراً، فأزداد حنقاً.

– ثم ماذا؟ هل هجرتك؟

– وهل كانت تقوى على فراقي أو أقدر أنا على بعدها عني؟ أبداً. كانت صعبة الرضا. كنت أداعبها قائلاً أنت جبهة رفض كاملة. بينما تطلق عليّ لقب الرجل الحديدي.

فجأة همدت، لم تعد تعترض على شيء، ظننتها يئست من أن نكون

كما تريدنا أحباباً أصحاباً في خندق واحد ضد الحياة وكل ما يعترضنا فيها. بدوري يئست من استطاعتي شرح مشاعري تجاهها. أو على أقل تقدير، أوصل لها بأنها أغلى عليّ من نفسي. فحين أبعدها عن أي معاناة أعيشها لا يكون ذلك بسبب أمور سرّية كما تظن. بل كنت أحميها من معاركي اليومية مع الحياة مع الناس ومع مشاكل العمل التي لا تنتهي. ألومها لأنها لا تقرأ ما بين سطوري، ما وراء نظراتي. ماذا يعني تقديم جهدي لراحتها وقضاء احتياجاتها بطريقة لم أفعلها لأحد من قبل؟

صارت تنطوي على نفسها. ولما سألتها لماذا؟ قالت باعتزاز:

– خشيت أن تسحقني بجبروتك وتفرض عليّ الذوبان فيك. أخاف أن تلغي شخصيتي حين كانت في طور التكوين.

كان هذا هو السؤال الثاني الذي أصابني في مقتل، بالسهم ذاته الذي أصابتني به في سؤالي الأول. قلت:

– لماذا كل هذه الخشية على نفسك مني؟

أجابت دون تردّد أيضاً:

– لأنني لا أحب أن أكون مثلك.

رأت الاندهاش على وجهي حاولت إصلاح الخرق إذ بها توسّعه:

– شخصيتك صعبة. ربّيت نفسك على التربّص. دائماً في حالة تأهب للدفاع عن نفسك، عن كبريائك، عن كرامتك، بقسوة فجة. توجهها لمن يفكر بطريقة مختلفة عنك، ولمن يعترض على رأي لك أو فكرة أو عمل يكون مصيره ضربة قاضية، وما أكثر وسائلك لذلك.

هل فهمت ما قالته؟ قالت إنني إنسان موتور. غير واثق بنفسي. أهاجم حتى لا أترك مجالاً لنقاش أو حوار. آلمتني. آه كم آلمتني.

قد تتساءل: هل نقص حبي لها وحرصي على وجودها في حياتي؟ أبداً. كلما مرت السنون ازدادت تألقاً. فمنذ رأيتها أول مرة والحب هو بذاته، قائم لا يتغير، أكبر من إرادتي. مالك عليّ كل قلبي وعقلي ووجداني، صارت وجداني. لذا صرت أقاوم سطوتها العجيبة

بالاستغناء هو وحده يلغي الاحتياج.

– لا أعتقد أنها كانت تعني ما فهمته أنت يا جدي. أعتقد أنها كانت تدافع عن نفسها عن كيانها. والحق معها. لكن، كيف كانت تعي هذه الأمور وهي في هذا العمر الصغير؟

– كانت امرأة واعية، قارئة مطّلعة سريعة البديهة ذكية بشكل خارق. ألا تحبّ امرأة بمثل هذه الصفات؟!

– ماذا لو لم تستدرك أمرها وصارت صورة عنك؟ هل كنت..

– مستحيل.. لست مفتوناً بنفسي لأعيش مع ظلي وقت راحتي.

– لكنك مفتون بنفسك. أرجو المعذرة على جرأتي يا جدّي.

– لا لست مفتونا بنفسي. قد أكون مفتوناً بإنجازاتي المعجزة. دون وسيلة أو أداة لأبدأ حياتي. لا ثروة، ولا شهادة، ولا صنعة، ولا عائلة، ولا خبرة. ماذا أعدد أيضاً.

– لكن، ليس إلى حيث ترضي امرأة مثل جدتي.

– بارك الله فيك. هنا مربط الفرس. لم أعرف، بل أعتقد أنني لم أرد أن أعرف. وبعد مئة سنة لن أعرف ما الذي يرضيها.

قم الآن يا يحيى أريد أن أرتاح، أريدك أن تبلّغ عمتك أنني لا أريد أن أراها، وكذلك ابنتها، تلك العاصية.

– أراك سريع الغضب، أيها الشيخ، حين يتعلق الأمر بأحد أفراد أسرتك، هذا لا يتفق مع من عانى معاناتك من فقدان الأهل والوطن. حسبتك تجد المبرّرات لمن يخطئ، فالناس ليسوا بالقدرات ذاتها.

– نبهت سوسن مرات. أخبرتها أنه سافل وقنّاص. أراهنك بعمري القليل الباقي، سيورّطها اليوم بشيء ليساومني عليه غداً. تذكر هذا جيداً. ولن أكون يحيى القادر إن لم يحصل هذا، عاجلاً أو آجلاً. اذهب وبلغ الأمر لأصحاب الشأن، وعد مساء مع جدتك.

– لن أتركك.. أخشى عليك من...

– أتمنى أن يحصل هذا. أريد أن أعرف من يود إراحتي من الحياة

الآن؟ فكرت وتوصلت بأن هناك من تضرر من ظهورك المفاجئ.

– أخبرني، هل تشكّ بأحد معين؟

– إذا لم يكن أخي فهو ابنه. أخي غير قادر على المواجهة. منذ الصغر وهو يسطو على إنجازاتي. يسرقني إذا سمح لي أبي بالاحتفاظ ببعض المال الذي جنيته. كبرنا عملنا معاً. وجدته يتصرف كعهدي به. سرق مراراً أوراقاً خاصة بالعمل، ولعب بها مع منافسيّ من وراء ظهري.

– لماذا يفعل ذلك وأنت المحسن إليه؟

– يحيى انس الأمر. لكن لا تنسَ أن تتقي شر من أحسنت إليه.

– ألم تثر عمتي شكوككاً نحوي؟

– لا قليلاً ولا كثيراً. هي متضررة من ظهورك، لكنها لا تقوى على التفكير بإيذائي. أنت تستحق الثقة، وجدير بكل خير.

من مكاني المرتفع، بعد خروجي من غرفة جدي، رأيت جدتي جالسة في المكان الذي أخبرتني عمتي أنه مكانها المفضّل في الصالة التي تتوسّط القصر، تشرب قهوتها. سأبلغها قرار جدي بشأن عمتي وابنتها، علّها تعفيني من المهمة.

قبل أن أتكلم ظهرت عمتي، لأول مرة، منذ حضوري، أراها في غير ثوب الحداد. كانت ترتدي فستاناً من التافتا الزهري، اللون ذاته الذي ترتديه جدتي. جلست بيننا وأخذت في تدليل أمها وبثها أشواقها ومحبتها، ثم خاطبتني بودّ:

– هل رأيت سوسن؟ لم أرَها منذ الصباح.

– أبداً. وعدت أن تبقى في البيت إلى أن يستعيد جدنا صحته.

نادت أمينة وسألتها عن سوسن فأجابت بتلكؤ:

– لا أعرف، لم تخبرني بشيء أقسم بالله على ذلك.

تدخلت بالحديث قائلاً لأمينة:

– هذا القسم بعصبية يؤكد أنك تخفين شيئاً. قد تكون بحاجتنا.

– لم تخبرني بشيء يا سيدي. رأيتها في الصباح قبل شروق الشمس تحمل حقائبها لتغادر. أعطتني رسالة أسلمها لك إذا لم ترجع.

سوسن

انشغلت بفض الرسالة، وجدتها طويلة وكأن صاحبتها لم تنم ليلة أمس. كتبتها وغادرت البيت فوراً. ابتعدت عن الجميع لأقرأها.

حين تصلك هذه الرسالة أكون في مكان ما بعيد جداً عنكم، ولا أنوي الرجوع مرة أخرى. أردت، يا يحيى، أن أخبرك بغيابي، حتى لا تتساءل كيف لم أقتنع بضرورة بقائي بقرب جدي بعدما سببت له من هزة صحية؟ تتساءل كيف أترك البيت في هذا الظرف العصيب؟ إنه الحب يا يحيى. حبي الذي سقط وجرّني إلى الهاوية.

هاتفني حسن منتصف الليل، كان في منتهى الهياج والغضب. لم يعطني فرصة لكي أهدّئ من روعه وأشرح ظروفي. ما قاله كان مثل رصاصة اخترقت قلبي فأدمته– أنت لست في باريس، أنت في بلاد لا يعترفون بعلاقة رجل وفتاة دون زواج. يحتقرونها ينعتونها بعلاقة مخزية بين قوي وضعيف. لا يدينون القوي ولا يرحمون الضعيف. فهمت مما قاله أنه يقصدني بالأضعف، بالأقل تجربة. متورطة بمشكلة دونه. قلت: لكنني أعتقد أن هذه أمور خاصة شخصية ليس لأحد الحق بالتدخل بها. أنا على استعداد لمواجهة الجميع وأقول حقيقة علاقتنا دون اعتبارها ورطة. هاج وغضب وتوعدني، فرضخت دون اقتناع. آمل أن تكون قد فهمت.

هويت في قاع سحيق. وجدت نفسي فيه، سيئة، تائهة. أقلقني شعوري هذا. قتل إيماني بنفسي، بحريتي، بقراري. صرخ من جديد:

– اسمعي يا بنت. أنا موجود في المكان الذي اتفقنا عليه. كان لا بد من السفر وإلا سأفضح نفسي أمام زوجتي. كان يجب أن تحضري وإن كنت على فراش الموت. سأنتظر حتى ظهر غد، فإن لم تأتِ فانسيني. لست مسؤولاً أمامك بعد اليوم. لكل منا طريقه.

سألحق به، يجب أن يتم هذا الزواج، وإن كان آخر شيء أقوم به

في حياتي. ذاهبة، ليس في قلبي المكسور ذرة من فرح مما كان يملأ قلبي. بنفس تخيرت المدينة الجميلة النائمة على شاطئ خلاب. زرتها وأنا صغيرة مع أبي. بمرح وضحك وصف له بيوتها المرصوصة حول الشاطئ، تلوح وراءها أشجار وسهول وجبال صخرية تحتضن المدينة بشكل خلّاب. أسأله: هل رأيت مثل هذا الجمال من قبل؟ يجيب نعم، أنت. فأفرح. شعوري الحالي مرعب. كأنني ذاهبة إلى منفى، ذاهبة وكل شيء فيّ يموت.

قد لا يخطر ببالك كم كان وقع حديثك على نفسي. رأيت حياتي تافهة فارغة. فهمت، أنني لست حرة ولا أمتلك القرار. أنقاد كالنعجة إلى ثور يأمرني. أدّعي بأنني غير ملتزمة أمام أحد بتصرفاتي وسلوكي إلا أمام نفسي. ها هي نفسي خاوية، تتخلى عني. تغرقني في خوف، فأهرب إلى البعيد.

فتحت، يا يحيى، الأبواب التي أغلقتها منذ أن وعيت وشببت. نعم، أنا مهجّنة، نصّفي أوروبي ونصّفي شرقي. فلا أنا غربية ولا أنا شرقية. المعتقدات التي رفضتها بصغري ونعتها بالشكلية، بلا وزن وبلا قيمة. هي ذاتها الآن تشل فكري وتلغي منطقي. رأيتها على حقيقتها، رأيتها كم هي متجذرة في أعماقي. محفورة بضميري.

أعترف بأنني ما زلت أحب ذاك الإنسان. حاولت الابتعاد عنه كما أمرني جدي. لكن، ماذا حدث لي؟ صرت نصف إنسان، نصف امرأة، نصف عقل نصف قلب.

تركت نفسي على سجيّتها، تداوي جروحها على هواها، صرت أقع في الحب مع كل من يخصني بنظرة، بكلمة، بموقف. نعم، كنت أشجعهم، شيء كهذا يرضي غروري ويداوي كبريائي. رجل إثر رجل، وحينما يقع أتركه لأجري وراء الآخر المبتعد.

أنام وأصحو، وتمرّ الأيام والشهور، صرت جاهزة لأكون حبيبة لكل من يريد أن يجرّب حظه. وجاء اليوم، الذي كان لا بدأن يأتي. ثق. ليست بهذا السوء لأصبح أي واحدة. صحوت من نومي وأنا أرتعد، تتملّكني

حمّى شديدة. غصت في جحيمها، لا أعرف أين أنا. يهدئ روعي. أمي وجدي يتناوبان الاعتناء بي.

تحت تأثير الحمّى كنت أهذي وأصرخ وأوصم نفسي بالقذارة، وبأنني فتاة مريضة بالحب، ومن الحب. أي مرض هذا؟ كانت أمي تصرخ وهي تحتضني لتمنع عن جسدي هياجه وسعير الرجفة التي تهز سريري. تلامس وجهي وتقول لي بتدليل:

– ماذا بك يا حبيبتي؟ سأعمل كل شيء لمساعدتك ردّي عليّ.

– حسن هو الداء وهو الدواء. يجب أن يعود إليّ، لا يهمني إن كان متزوجاً أو لا. لا يهمني إلا أن أكون معه، بأي صفة يريدها.

– اخفضي صوتك كي لا يسمع جدك هذا الهراء.

– ليس هراء، إنه في دمي، في عقلي. عشت عمرك تهدرين شبابك دون حب. لن أكون مثلك. أدمنته تحدياً لحياتك أنت. حفر أخاديد ووديان ونصب جسوراً وشراكاً وأنا فرحة متيمة. إنها النار. أحترق.

أمي خشيت أن يصل مثل هذا الكلام إلى جدي فأخذتني إلى المستشفى، وعولجت هناك مدة طويلة. كان جدي يزورني ولا يعلم سوى أنني أعاني من الحمى. حين شفيت كان حسن بجانبي يمسح دموعي وجبيني ويربّت على يدي وشعري فألوذ بصدره.

وهكذا عادت علاقتنا برجاء من أمي أن يعود إلى ابنتها المريضة به. عاد، ليمسكني من اليد التي تؤلمني. أي شيء يطلبه مني فمجرد أن أفكر برهة يقول ببساطة: لا تتعبي نفسك سأذهب. فأرضخ.

أرجوك، يحيى، امنحني وقتاً، لأقول لك ما وعدتك سابقاً بكتابته، لصعوبة إخبارك به بشكل مباشر. يجب أن تعرف ما حصل، لتتفهم ما يحصل الآن؟

من سوء حظي دق باب قلبي إنسان، متمرّس، على نهش قلوب البشر إلى حدّ الشره، إلى حدّ العمى، لا يفرق بين قلب وقلب، بين دم ودم. لا يعرف سوى أمثولة خالدة، أنه الرجل، الصياد، وأي امرأة، مهما كانت،

هي مجرد امرأة. قد تقلب شفتيك بقرف وتقول: ما ذنبي أنا ليقع عليّ وزر ليس لي به يدّ؟ لكنك من طلب مني أن أكتب الحقيقة وإن كانت جارحة، وإن كانت تدينني.

من أحببته الحب كله كان الأول في حياتي. كان لا يؤمن بشيء. لا بحب ولا بإخلاص ولا بالوفاء، ولا يحترم كلمة ولا وعداً ولا عهداً، لا يخاف الله لأنه أصلاً لا يؤمن به. قد تضحك ساخراً، هامساً، أي سخف؟ طالما أملك ضده كل هذه الإدانة، فلم أبقِ عليه؟ نعم الحق معك، والحق معي أيضاً، فللقلب أحكامه.

آخ يا يحيى! كم أحببته، وما زلت أحبه، أكثر مما تتصور. أول همسة همسها لي كنت طفلة في الخامسة عشرة من عمري. صار يغذّي وجوده حولي وبداخلي بين أوراقي وكتبي. أفتح كتاب الرياضيات، المادة التي يدرسها لنا، أقرأ شعراً متناثر في الصفحات يتغزل بي، بجمالي، بعيني، وبشعري. حين يشرحه لي، يقول ويسهب ويمثل الكلام بيديه وعينيه وشفتيه أغيب عن الوعي. أحاول أن أفهم، اعتقدت أن عدم اتقاني للغتنا هو السبب. صغر سني كان عائقاً آخر. ما يحس به وما يقوله معتاد عليه ويعيشه. تربيتي الغربية جعلتني في غاية الغرابة. لماذا كل هذا؟ الحب أيسر من ذلك بكثير.

حين كتب مثلاً- أهديك حباً لا يشبهه حب. إذا لم تقبليه ستبكين عليه العمر كله. فأسأل: لماذا أبكي؟ ولماذا لا أقبله؟ إنه شيء جميل ولطيف. حين يراني أمازح صديقاً في الفصل، يعاقبه بإخراجه من الفصل، ويأمرني أن أقضي الحصة، وأنا واقفة بجانب السبورة، كلما تحرك يلامسني ويهمس: أنت لي. فأطرب. أشعر بأنني أكبر من كل بنات الفصل، أجملهن وأذكاهن، ولم لا، فقد أحبني الأستاذ الكبير الأنيق والوسيم دونهن.

صرت أفتقده إن غاب وإن حضر، وهذه الكلمة " أفتقده " ليست أحرفاً فقط، إنها زمن، أيام ساعات، لحظات، ثوان، شهور.. سنوات. زمن طويل قاتل يقاس عادة عند المحبين بأصغر وحداته. على الرغم من أنها مثل

السلاسل التي يجرّها سجين بقدميه، مقيد النظرات والأفكار.

أشتاق إليه، نعم. اشتياقي للحظة هناء حرّرها وجوده، ذات يوم، لمصلحة وجودي. همساته تسعدني وتعذبني، تسعدني حين تتطاير منه إليّ. وتعذبني لأنني زرعتها بقلبي، في مفرق شعري، صارت هاجسي. آسفة لقد خانني التعبير. لست أنا، لكنه الآفاق زرعها بمهارة في كامل وجودي. نبتت وروداً جوري ملأت رائحتها كياني. سببت شحوبي وعبوسي وأرقي وقلقي. أدركت الآن، أنه حب خادع.

أذكره.. صحيح. يسكنني خلال ساعات نهاري وليلي. أذكره. حين أمسك بالقلم لأكتب، حين أمسك بكتاب لأقرأ، أثناء جلوسي أمام شاشة التلفزيون، مع كل برنامج ثقافي أو علمي أو حوار سياسي أو أدبي، مع كل لحن وأغنية، حين أنام وحين أصحو، حين أخرج من البيت وحين أعود إليه، حين أكون وحدي أو مع كل الناس، حين أسير دون اتجاه، وحين أكون قاصدة مكاناً معيناً. أبكي ولا أنسى، أتناسى ولا أنسى. أدمنته.

كم أنا حزينة يا يحيى! حزينة إلى حدّ الموت.. إلى حدّ تمني القبر. وسأظل حزينة إلى ما بعد القبر. هو الحب وهو الهم، كيف؟ لا تسألني فأنا حتى هذه اللحظة الغارقة فيها بالظلمة لا أعرف الجواب. حزني يشقّ فضاءات قلبي وعقلي وجسدي. ينزفني، ينزفه، يقتلني يقتله، يلغيني يلغيه، يهدم أجمل أيامنا، مع ذلك أحبه وأريده.

أنا بحاجة ماسّة إلى معجزة من الله لينتشلني. شيء من نور من عند الله يهدي نفسي المتعبة. رغم كل الخطايا رغم كل الذنوب، رغم كل عصيان، سأرجو الله أن يساعدني ويريحني. يارب. صرخة استجارة، صرخة استغاثة.

من هنا، من الهوة التي سقطت فيها. أسأل: هل الحب حرام؟ هل هو تهمة؟ كيف؟ هل هو لعبة مسلية؟ ماذا عن العذاب ماذا عن الحزن والوجع؟ الله بذاته محبة، كل درب يؤدي اليه إلى الله مفروش بورود الحب. كيف لمثلي أن تفهم غير هذا؟

يحيى

كنت أتمنى أن أنفذ ما اتفقنا عليه، لكن الأمر أخطر بكثير. ليس أمامي خيار سوى اللحاق به. مأساتي أوصلتني للنهاية. قد قتلت القلق. وقتلت اللهفة. قتلت الحب والشوق. قتلت ذاك الومض، الذي شعّ ذات يوم وأضاء حياتي. أعترف الآن، بأنه كان شعاعاً خادعاً.

لم يكن حسن المسؤول الوحيد عن التردي المهين الذي وصلت إليه. أنا مسؤولة أكثر منه. روح الشر اتكأت على ظروف حياتي التعسة، وعلى ظروف أمي فانخدعت. كنت أحسها أنها مجرد وساوس. لا تستند إلى دليل ولا يقبلها عقل إلا إذا كان مخدراً بفعل الحب. حسن هو شيطاني حين سقطت تبرأ مني. تركني لقدري.

هكذا بدأت الحكاية، ثم دخلت متاهات. لم أعد أعرف نفسي إن كنت مقبلة على الدنيا أم تاركة لها. كل ذنبي أنني أحببت، وببراءة أعلنت أنني أحببت. جحظت العيون من حولي، الآذان تنصتت، وألسنة طويلة شبتالنار منها. ذعرت، تساءلت– ماذا هل أتيت منكراً.. هل ارتكبت إثما؟ ألم تعد الناس تعترف بالحب؟ ألم تؤمن به كشيء نظيف عفيف جميل نحتمي بهمن تعنّت الحياة؟ هل صاروسيلة فقط من أجل غاية؟ أتمنى أن أعرف.

فهمت الآن ثورة جدّي. هو لم يثر أنني أحببت لكنه ثورته على من أحببت. عرف بأنه أفّاق. أيستحق أفاق أن يمنح قلباً وروحاً وعقلاً وجسداً. أنا إنسانة أشبه جدتي، مفطورة على الحب. لا أفصل بين أصغر معنى للحب وأعظمه، مهما رأيت وسمعت وعانيت. انكسار معنى واحد من معانيه في نفسي يعني تداعي كل المعاني الأخرى. لا أتصور أن يتجرأ أحد على التلاعب بمشاعر نبيلة. لا ولا أن يحّدد مشاعره ضمن خطوط طول وعرض. لم يخطر لي أن الشرّ له الغلبة. لا يؤمن بنواياانا الحسنة. يتمدّد حتى الأعماق فيقتل الخير. يحوّل نسماته الرقيقة واللطيفة إلى جحيم. سوسن.

التفت ناحية الصالة لا أحد هناك. تذكرت كان عليّ إخبار عمتي ألا

تذهب مع أمها إلى أبيها. انشغلت بتلك المصيبة التي تلوح بها سوسن. اندفعت إلى الطابق الأول، حيث يقيم جدي قفزاً. كان بابه مفتوحاً، جدتي وحدها معه، تنفست الصعداء. رأيت عمتي في الشرفة المطلة على الطريق، لا بد، تنتظر ابنتها. ملتفة بالسواد كعادتها. هل تحس أن ابنتها في خطر؟ هل صحيح أن قلوب الأمهات يحسسّن بالخطرعلى أولادهن قبل حصوله؟

ذهبت إليها ركضت نحوي. قالت بلهفة:

– ماذا كتبت لك سوسن في الرسالة التي قرأتها بمعزل عنا؟

– كانت تقول لي بأنها ستتأخر، قد تعود بعد يومين أو ثلاثة.

– إن من يذهب حيث ذهبت لا يعود يا يحيى. ذهب خالها قبلها ولم يعد، وبعد ذلك ذهبت أمها وعادت وكأنها لم تعد. ها هي سارت أيضاً في الطريق ذاته. إنه قدرنا يا يحيى. إنه قدرنا.

– لا تقابلي جدي وهو في قمة سخطه عليك وعلى سوسن.

– لن أذهب قد يسألني عنها ولا أعرف الجواب الصحيح. لا أريد أن أتكهّن أو أكذب. كأن هروبها إلى المجهول كان ينقصني.

– لقد كانت تناضل لتنسى وتبتعد، لكنك لم تحتملي عذابها فأحضرته لها. على رأي جدي أحضرت الذئب إلى الكرم.

– كأنك لا تعرف قلوب الأمهات.

– لا للأسف لا أعرف. تصوري حتى الآن لم يخبرني جدّي شيئاً عن أبي وأمي. ماذا حصل لهما؟ أهم أحياء؟ أهم أموات؟

– وأنا أيضاً لا أعرف. لكنك لو كنت موجوداً، وهي تترجى أن تراه، لما ترددت لحظة في فعل ما قمت به.

– هل تعرفين أين كانا سيلتقيان؟ في أي بلدة؟ في أي جهة؟

– لا أعرف.. ولكن اذهب إلى غرفتها وابحث عن خيط يوصلك إليها قبل فوات الأوان إذا كنت جاداً في البحث.

– أكيد ودون أي تردد.

– إذاً هيا.

– سأفعل. وسأجدها إن شاء الله.

مضى يومان على غيابها والصمت من كل الجهات. لم أعثر على أي أثر يدلني على خط البداية. في مساء اليوم التالي، كنت مع جدتي في غرفة جدي، رن هاتفه النقال فطلب مني أن أجيب عليه سمعت صوتاً نسائياً يقول بأدب جم:

– هل أستطيع أن أكلم السيد يحيى؟

– عفواً أيتها السيدة.. هو مريض.

قال جدّي وهو يمدّ يده لتناول الهاتف:

– من قال يا يحيى إنني مريض. أتريد أن تهرب زبائني. ألو.. من؟

لم نسمع ما قالته السيدة لكننا سمعنا الشيخ يقول:

– هذا الموضوع لا يعنينا يا سيدتي لا من قريب ولا من بعيد. لقد سلمته لك منذ زمن وانتهى بالنسبة لنا مع السلامة. بالمناسبة إذا أردت البحث عن زوجك، فابحثي في المكان الصحيح. سيضيع، نهائياً، إذا بقيت تتصلين بمن ليسوا على صلة بالموضوع.

أغلق السماعة. كنت منتظراً بقلق! متى سينفعل؟ ماذا سيقول؟ ماذا سيفعل بعمتي؟ تفاجأت. بقي على هدوئه وصمته. سألته جدّتي:

– عمن كنت تتكلم، يا يحيى؟ ومع من؟

– لا تشغلي بالك.. موضوع سخيف وقد انتهى.

رنّ التلفون مرة أخرى فأشار عليّ ألا أردّ. كنت أتحرّق شوقاً لأكلم المرأة التي قدّرت بأنها زوجة حسن. قلت بهمس:

– سوسن في خطر. اسمح لي أن أكلّم المرأة وأعرف مكانها.

– لا. يعني لا يا يحيى. هي قررت أن تتحدّاني فليكن. قبلت التحدي وانتهى الموضوع. قل لأمها أن تلحق بها، لا أريدها هنا.

قالت جدتي:

– هذا الكلام عن ابنتنا يا يحيى؟

– نعم عنها.. لم تجلب لنا سوى المصائب. فكرّي في تاريخها معنا، كانت دائماً شؤماً علينا. أعتقد أنها من حرضك على ترك البيت. هذه الجشعة، تريد كل شيء. لكنني غداً سأحرمهما من كل شيء.

– هل ترى ما فعل جبروتك؟ إن ما حصل لابنتنا يحصل مرة أخرى لابنتها. الصبيّة الآن في خطر. في السابق لم أستطع أن أحمي ابنتي وأعيدها إلى بيتها الذي خرجت منه مكّرهة على الزواج. فتركت البيت لك ولأخيك. وقد أثبتت أنه بلا أخلاق لا يستحق ثقتك.

– وابنتك هل هي على درجة عالية من الأخلاق؟ إنها، أستغفر الله العظيم، أغلقي الموضوع إنه يسبب لي أذى كثيراً.

– آن الأوان لتعترف بأنها، أولاً وآخراً، كانت ضحية. صدّقت الرجل الفاسد الفاشل الجاني وكذّبت ابنتك. للأسف سوسن ابنته.

التفتت إلي وقالت:

– اسمع يا يحيى، لا تكن مثل جدك، يحكي رؤوس أقلام لأن وقته ثمين لا يجوز أن يضيعه بكلام فارغ لا يأتي بمردود مادي. الآن، اشرح لي ما حصل لسوسن. أين هي؟ كيف تجلس هكذا في البيت وابنة عمتك في خطر حسب ما فهمت؟

– إذا سمح لي جدّي فلن أتأخر.

– وإذا لم يسمح؟ أتتركها لقدرها كما ترك جدك وأبوك أمها في السابق؟ رضاه ليس بأهمية سوسن. توكّل على الله وابحث عن الفتاة.

لم يتكلم جدي. نظرت نحوي وغمزت لي بعينها تشجعني: قم، يا يحيى، وافعل ما تقدر عليه، والباقي على الله.

تحركت متجهاً إلى الباب حين سمعت صوت جدي يقول:

– يحيى، هل تذكر ماذا قلت لك كيف سينهي القصة ذاك الأفّاق؟

– سوف يبتزّك.. هل فعلتها زوجته؟

– ليس بالضبط.. قالت إنه إذا لم تنه هذه المهزلة فوراً ستكتب وتعلن بالجرائد أن ابنتنا "ستكتب اسمها واسمي بالخط العريض" خطفت زوجها. ستثبت ذلك بصور يعني فضيحة موثقة.

– لم تطلب شيئاً دعني أذهب إليها وأعرف أين سوسن.

– طبعاً لم تطلب، هي أذكى من أن تطلب. إنها تهدّدني لأشتري سكوتها. عليّ أنا أن أطلب. ثم تتردّد، ثم تحدد المبلغ. ومن ثم تنهي الموقف. خذ التليفون وكلمها أراهنك أنها لن ترد.

أخذت التليفون على عجل وبكل لهفة اتصلت بها لم ترد.. انتظرت ربع ساعة واتصلت ولم ترد. صرت أعيد الاتصال مرات لا تردّ.

كتبت لها رسالة على المحمول أرجوها أن تردّ فالأمر مهم، لكنها لم تردّ. كتبت لها رسالة ثانية أخبرتها بأننا على استعداد للتفاهم فلم تردّ. ثم رسالة ثالثة، طلبت منها أن ترسل لي عنوان زوجها، فلم تجب. الوقت يجري، الخطر يقترب، إذا لم يقع أصلاً.

قال جدّي:

– أنت لا تزال صغيراً لتعرف مدى دناءة وخسّة الخطط التي يلجأ إليها مثل هؤلاء الناس مع أصحاب النفوذ والمال.

مر يوم وآخر، لم نتلقّ أي خبر عن سوسن. عمتي ساكنة في غرفتها تخشى أن تتحرك، فيفلت الزمام وتنفجر المصائب. جدتي أعلنت، بكل عنف أنها لن تبقى هنا. جدّي قرر الخروج. سألني:

– هل تذهب معي؟

– آسف يا جدي علي الذهاب إلى المسرح سأقابل الدكتور مؤنس. تواعدنا أكثر من مرة على اللقاء، ولم تتح الفرصة. انشغلت بموت دنيا، ثم انشغلت معك. يجب أن أراه اليوم.

صاحت جدتي بعصبية:

– والبنت تروح في داهية، وأمها تأكل نفسها من الخوف!

رد جدّي بعصبية أشدّ صائحاً:

– أتريدين إقناعي بأنك قلقة عليهما؟ لا يا سيدتي. أمها تعلمت منك الهروب. هيا اهربي لكتبك وأوراقك وألوانك وأشعارك ودعي الأمور تسير على أعنّتها. كل خطأ يجب أن يدفع ثمنه.

– وأنت ستدفع، أم أنك ما زلت معصوماً عن الخطأ؟

– سيدتي، لم يدفع أحد قدر ما دفعت ثمن أخطائي وأخطاء غيري. أنا حمّال الأسى والوجع والصبر. هيا يحيى خذني للدكتور مؤنس.

ناحت جدتي:

– أيام زمان كنت تقيم الدنيا ولا تقعدها على يوسف. تعتبر المسرح والفنون جريمة. ها أنت ترافق ابنه إلى المسرح، بعد ضياع ابني.

صفقت الباب وراءها، فجفلنا معاً. هكذا انفضّ المجلس. ذهبت إلى غرفتي ألملم أشيائي. لا بد من البحث عن مستقبلي قبل أن أصبح واحداً من هذا السيرك الذي يقوده رجل جلدته الأيام عن كل أخطاء الدنيا فبات أقسى سوط على نفسه.

كنت وأنا بانتظار جدي أفكر، غير مصدّق بهذا الكمّ من الأحداث التي حصلت معي خلال أيام. قصص وأحداث خلال سنوات طويلة من حياة أهل القصر. رغم انشغالي بكل مشكلة حصلت أو طرأت، فأنا ما زلت غريباً وبعيداً. الأغرب أنني لم أسمع شيئاً عن أبي وأمي؟

الدكتور مؤنس

دخلت المسرح، جدي بجانبي، شامخاً برأسه الأشيب نحو السماء، محاولاً التغلب على ضعفه إثر النكسة الأخيرة. أجلسته على مقعد مريح بعد أن عرّفت الأصدقاء قائلاً بفرحة: هذا الرجل العظيم جدي. هدأ ضجيجهم ومرحهم فوجئوا بعودتي بعد الظروف التي عشتها. حلت مكانها حيرة. فالجميع يعلم أنني بلا أهل. لم يستوضحني أحد. سمعت صوت الدكتور مؤنس:

– أين أنت يا رجل؟ منذ عدت وأنا أبحث عنك. آسف من أجل دنيا لقد

كانت أماً حقيقية لك. كيف الأحوال بعدها؟

– الحمد لله، أحزنني غيابها. لكن عوضني الله بهذا الرجل العظيم جدي. جدّي أعرفك على الدكتور مؤنس.

قفز جدّي بهمّة شاب ومدّ يده مصافحاً الدكتور. وقال:

– من دواعي سروري التعرف عليك. حدثني يحيى عنك. وحدثني عن جهدك مع الشباب. علمتهم قيماً كادت تنقرض هذه الأيام.

جلسا وهما يتبادلان الحديث وجدت قلبي شغوفاً بهما. سأله جدي:

– الذي فهمته من يحيى أنك كثيراً ما تختفي ثم تعود.. أقلقتهم.

– سأخبرك! لكن وحدنا، لا أحب لهذه البراعم الناشئة، أن تخاف على نفسها في وطنها. كنت أعرف دنيا كثيراً ما دعتنا على ولائمها. كانت أماً رائعة ليحيى. وها هي قد لمّت الشمل. وأعادته لك.

– حقاً، إن ظهور يحيى في حياتي كان أكثر مما أستحق. بسببي خسر أباه، وخسرت ابني. وجوده، بقدر ما عوضني عن غياب ابني، بقدر ما عظّم شعوري بالذنب. لا أخفي عليك، انني لا أعرف، حتى الآن، إن كانت قسوتي على ابني من شدّة حبي وخوفي، أم من خيبتي كأب. كنت دون شعور أريد يوسف أن يعوض حرماناً عشته بضياع الوطن، والأب، والأم، والأهل.

– هل كان فاشلاً في الدراسة؟

– أبداً. كان يتمتع بذكاء شهد له كثير من أساتذته. أشكر الله أن سخر للطفل الصغير دنيا لتعوضه غياب أمه، وأنت رويت تعطشه لأبيه. حين يتكلّم يحيى عنك بفخر وحب وكأنك أبوه، أتخيلك على صورة يوسف ابني.

وجدت جدي قد انسجم وتحمّس لنقاش طويل. تركتهم يتجاذبان الحديث. وتساءلت بيني وبين نفسي وقد عرفت جدي لا يهادن: ترى من سيغلب، الأكثر علماً أم الأكثر تجربة؟

حكى الدكتور مؤنس عن فترة دراسته في جامعة لندن. قاطعه جدّي:

ابني يوسف كان يدرس في الجامعة ذاتها. قال الدكتور بأنه تخرج قبل انتهاء القرن الماضي بعشر سنين. دمعت عينا جدي وهمس: يوسف كان سيتخرج بتلك الفترة لولا الموسيقى وحب قتله.

بدأ مزاجي يتعكّر فابتعدت. لكن، جدي نادى عليّ بصوته الجهوري، يحيى. تذكّرت لقاءنا الأول. التفت فزعاً، ضحك قائلاً:

– أهناك أجمل أن أنادي باسمي، فيأتيني هذا الشاب الجميل!

– أتمازحني، يا جدي، في موقف جادّ كهذا؟ نحن تحت المراقبة.

– لا أمازحك، بل أردت أن تبقى هنا، وتدعو الأصدقاء إلى جلسة ودّية. مع الدكتور مؤنس. ثم التفت ناحيته وسأل:

– فهمت من الصبية افتقادهم لك أكثر الأحيان.

سأله الدكتور مؤنس:

– هل لك اهتمامات سياسية؟

– صدقاً لا. لم أفهمها ولم أحبها. اهتممت بها بوجود جمال عبدالناصر، لكن بعد النكسة، وبعد موته، تكسّرت مجاديفي.

– رحمه الله. كان رجلاً مخلصاً لقضاياه. فرض احترامه على دول كاملة. لكنهم تخلصوا منه. وطمست مبادئه، وسجن من آمن بها.

– أعتقد بأنه قتل؟

– لا تعتقد، بل اجزم.

انتشر الحزن على وجه جدي على بطله. سعل وصاح:

– أيها الشباب تعالوا. سنكون تلامذة للدكتور مؤنس هذه الأمسية. ليحمل كل منكم كرسياً لنفسه.

– جدّي، لعل الدكتور على عجل فلا نعطّله عن عمله. آسف دكتور، إصّدار الأوامر طبيعة عند جدي.

– أوامره على العين والرأس.

شكره جدي بحماس، ثم قال:

– سأوفّر عليك التفكير بموضوع الجلسة. ما قصة صرعة العولمة والعالم الجديد. أراه عصراً منفلتاً. استباح وأباح كل شيء قبل أن يبدأ. ماذا عنا؟ أراه لا يناسبنا فالتخلي عن مقوماتنا مثل والوطن والدين والأخلاق واللغة شيء مخيف.

ضحك الدكتور من أعماق قلبه. مما شجع الجميع على الاقتراب. اصطففنا حوله على شكل دائري. التفت نحو جدي وقال:

– أنت من الجيل الذي تعلّم الوطنية على يد قائد مختلف مثل ناصر. جيلنا أعني شباب فترة وجوده، لم يقتنع به وبأقواله. فتنّا بأسماء وآراء مفكّرين كبار. وكلمات كبيرة ورنانة. رأسمالي شيوعي متدين ملحد. صدقنا بما وعدوا. لا ظلم ولا فقر ولا جهل ولا مرض. لن يعيق مسيرة شعوب الأرض شيئاً نحو الأفضل. لامست وعودهم أحلامنا. تخدّرنا بكلامهم الفضفاض. صفقنا حتى احمرت أكفّنا. اقتنعنا أن العالم القديم صار حذاء بالياً لنرمه وراء ظهورنا. ونسلّم بما تفتق عنه ذهن السادة مفكري العالم.

– مفكرون مثل من؟ أهم منا؟

– صدق أو لا تصدق، إن الشرارات التي انطلقت لتغيير العالم كانوا من اليهود. لم ندرك ذلك إلا بعد فوات الأوان. كلام كبير بهرنا، اعتنقناه بتبجح، لنثبت للعالم أننا خرجنا من عباءة كالحة بسخافاتها وصرنا مثقفين. تهنا عن ماضينا ولم نتأقلم بالجديد. خسرنا انتماءاتنا. قيمنا. مثلنا العليا. أوف!

ثم صمت كابتاً قهره. ثم قال:

– تؤلمني الذكرى. سقطنا في فساد ودمار. تنبهنا بعد الخراب. عرفنا أن ما تمردنا عليه لم تكن قيوداً بقدر ما كان انضباطاً وأخلاقيات الحياة السوية. هل هو قصور في تربيتنا؟ هل هو قصور في مناهج تعليمنا؟ هل هو تعاقب الاستعمار علينا؟ هل هو انبهارنا بحضارتهم المزيفة الحبلى بالدس والتخريب لأنها تحللنا من كل قيود.

مثل هذا الكلام موجع. للناس وموجع أيضاً لي. لكنه حقيقة. أعترف

بأننا لم نتحرر بعد، ولن نتحرر. نحن أسرى لكل فكرة، أو بدعة، أو سلوك. يصدّر إلينا من الغرب، القابع في الجهة البعيدة منا. ما زال كما عهدناه، يلوح بعصا وجزرة. نجد بالسير لنلحق بهاجسنا فيبتعد.

– لماذا هذا الحكم القاسي علينا يا دكتور؟

– هو هكذا يا شيخ يحيى. هؤلاء الطلبة، لنسألهم لماذا يتعلمون؟ يقولون بلا رؤية كي نقرأ ونكتب. فهذا وسيلتنا للحصول على درجات عالية تؤهلنا للنجاح. نتخرج، نتشغل بشهاداتنا، نتزوج، ثم ننجب.

– هذه أفكار قديمة. من العيب أن يؤمنوا بها وعندهم أساتذة مثلك.

– فعلاً أفكار قديمة لكنهم يؤمنون بها. يتربون عليها. أما هناك. في الشمال. في الدول المتحضرة. حيث يذهب المحظوظون للدراسة فيصدمون بطرق تعليم مختلفة. تعليم التفكير والتحليل والتمحيص. البحث وراء كل فكرة، وراء كل عبارة، نقاش، حوار، إنصات، احترام آراء الآخرين. تتوسع المدارك. تتغير النظرة تصير أشمل وأوسع.

كنت واحداً من أولئك المحظوظين. ذهبت إلى لندن لمتابعة دراستي الجامعية. كنت في الثامنة عشرة. لقّنت قبل المغادرة الهدف الأسمى وراء ذهابي– شهادة عالية تؤهلني لمركز كبير ومقام عال. العودة للبلاد ليفرح أبي بالشهادة. وأمي بوجودي بقربها. ثم زواجيٍ، وأولادي، ثم أدور في ساقية لا ينتهي لها أنين.

قاطعه جدّي:

– لا بدّ أنكم قضيتم على تلك القناعات بعد عودتكم.

– عدنا بشهادات عالية وبنظريات جديدة. أهمها لا للمستحيل، فمن أراد استطاع. حوربنا. ثارت حفيظة الجيل القديم.

– كيف وأنتم المستقبل؟

– كانت الضربة من المتبنيين فكرة نبذ العالم القديم. صنفونا بأننا شباب خائب. لا مكان لنا في هذا الزمان. أصررنا وتحدينا كنا نريد، ونتمنى، ونستطيع. دعونا نحاول. ازداد الحصار. فتحت سجون،

كسرت أقلام، ومزقت تقارير. قوى خفية خارجية وداخلية. تدفع بنا نحو الحظيرة القديمة.

– لا تقل لي إنكم استسلمتم. وتركتم الحال على ما هو عليه؟

– لم نتمكن من انتزاع فرصة من الأنياب المفترسة. أنا شخصياً أول مرة أوقفت عن العمل لأنني اعترضت على وجود رئيس لي بشهادة ابتدائية، ورئيس رئيسي أميركي بالكاد يفهم لغتنا. ألححت أن يسمعني شخص غير مديري. وافق على مقابلتي. قال المدير الأمريكي بلغته العربية البائسة:

– نفّذ ثم اعترض.

قلت:

– نريد توضيحاً لعدم تسلمنا وظائف بتخصصاتنا.

– السبب بسيط. تنقصكم خبرة.

قلت:

– صحيح ما تقول، دعونا نمارس العمل لنكتسب خبرة.

عبس وسأل:

– لماذا وأهل الخبرة جاهزون.

جحظت عيون جدي فقال بلهفة:

– ثم ماذا حصل؟

– ها أنتم قد عرفتم الآن سبب غيابي عنكم. أحالوني إلى لجنة تأديب. أعضاؤها صنائع الاستعمار القديم. بالمناسبة صديق لي تسلم وظيفة في السلك الدبلوماسي. تجاسر وقدم اقتراحاً لرئيسه بحل جامعة الدول العربية. ثم إنشاء جمعية يرأسها أشخاص على درجة عالية من العلم والثقافة يتم انتخابه من قبل دولته. تتمتع بصلاحيات بلا حدود. تستطيع خلع أي رئيس دولة من الدول الأعضاء بإجماع الأعضاء إذا ثبت عليه ما يدينه فعلاً. بعد يومين ألقي القبض عليه ولم نرَه حتى الآن. صدقوا. نحن لم نتحرر بعد. نحن كرات لعب. أرقام قمار. أوراق

يانصيب. بلادنا ملعبهم في السلم والحرب. في كلا الحالتين نحن من يدفع من الأموال المودعة في بنوكهم. هي ليست مودعة بل محجوزة في بنوكهم، منها تدفع كلفة حروبهم.

– ماذا تقول لقد رحل كل استعمار وانتهى عهدهم.

– أبداً لم يرحلوا، ولن يرحلوا. في بلادنا ثروات يحتاجونها. تركوا قبضتهم ممسكة بأعناق حكامنا. وحكامنا كانوا أشد وطأة منهم علينا. توقفت حياتنا. لا نموت ولا نحيا. نحن المتعلمين القادمين من الغرب أعداء الوطن الحقيقيون. لم نحفل بأي حصار. كل من تسلم منصباً أعطاه كل وقته وجهده وإخلاصه لنثر بذور الغد، وبإتقان. حين أثمر وأينع، نسبوه لأنفسهم أو بدّدوه.

– لماذا يا أستاذ؟

– هذه الماذا التي أكرهها صار همنا. كيف نستمر بالمقاومة، من أين نبدأ؟ هربنا من قدرنا وعدنا للبلاد التي منحتها شهادات عالية تكفي لأن نحتل المكان الذي نستحق. دون تدبير وجدنا أنفسنا أعضاءً في اتحاد الطلبة العرب في المهجر. برز شاب غير عادي. فلسطيني الأصل، إنكليزي الجنسية. طالب في كلية علوم التكنولوجيا. اقترح إنشاء اتحاد للطلبة العرب في المهجر. لكنه لم يكن اقتراحاً بل كان معداً ومدروساً التزمنا وتقيدنا بمواعيد اللقاء ووقعنا بالموافقة على ببنودها. بتحصيل حاصل صار ترأس الشاب اتحادنا. لحظنا سعة أفقه، ومعرفته الواسعة الشاملة. بثقة كان يفتح مغاليق عقولنا على الدنيا وما يجري فيها. لم يكن ما يقوله بالشيء الجديد علينا لكنه لملم أفكارنا ومعرفتنا التي كانت حلماً ننتظر شيئاً لا أعرف لنحقق شيئاً من أحلامنا لكنه أخرجنا من الزاوية الحادة التي أغلقناها على أنفسنا. أول ما قاله لن نقترب من السياسة ورجالها، بل سيكون الوطن الصغير نواة لوطن كبير الهدف الأساسي. لا نريد أن نرى أوطاننا على الخرائط بل ستكون تجري مع الدم في العروق. سيكون الأم والأسرة والملاذ. شهادتنا ليست الغاية بل وسيلة تنوير عقولنا للمد الجارف في عجلة الحياة.

– سأل جدي بلهفة:

– ثم ماذا

– صحونا، وخرجنا من الكهف، لن نبقى كبش الفدى. تغيرت أشياء وأشياء. لا أتذكر كم التزمنا باتحادنا ولا كيف صرنا منه وصار منا. رئيسنا وقع في الحب. تأجلت المواعيد مراراً. وإذا حضر، فهو شارد الذهن قلق متعب نافد الصبر. أحضر ذات مرة حبيبته لتتعرف علينا فتاة جميلة بعينيها ذكاء غير عادي لكن امتعاضنا لم يخف فقالت بلغة مزيج من الانكليزية والفرنسية واليونانية. اسمحوا أن أوضح ما أغفله جو. أنا زوجته. سأهتم بما يهمه ويشغلني ما يشغله. صمتنا بحزن. كان أهون علينا أن نصدق الأفكار التي صارت تراودنا بشأنه بأنه جاسوس يوجه مسيرتنا نحو هدف لا نعرفه. بدل أن نصدّق أنه باع قضايانا، التي كان يصفها، بأنها ذاتها كرامتنا وإيماننا بحقوبنا وبقدراتنا. مهما أخلصنا لشعورنا النبيل المتمرد لقضايانا نصل أسرع لمستقبل جميل بحرية وعدالة. أنه باع كل ذلك من أجل حب عابر.

سأل جدي:

– هل تعتقد بأن ظهورها في حياته محضّ صدّفة، أم كما قلت سابقاً، يستقطبون من يتوسمون فيه النباهة والذكاء؟

– يبدو ذلك. كان من أبرز طلاب الجامعة. اجتهاده في دراسته لم ينسه فنه. سألته لماذا العلوم وأنت موسيقي موهوب. وشاعر فذ.

أجابني ضاحكاً:

– أهوى العلوم والفنون. لا يغنيني أحدهما عن الآخر.

بدوري سألت الدكتور:

– أليس هذا توجه سياسي بشكل أو بآخر؟

– ربما، لكنه يتعامل مع السياسة من وجهة إنسانية بحتة. يشن عليها هجوماً حين تجور على إنسان مطلق إنسان ويؤيدها إذا أنصفت. كان يكره تعاملها مع الناس بتفاوت وقح.

– شوقتني. أين كان؟ لماذا استمر وتاه هناك؟

– لقد كنا بتشوق مثل تشوقكم وحيرة تشبه كثيراً حيرتكم. كان يتكلم وهو واقف على أهبة الخروج. فهم شوقنا للمعرفة وحيرتنا وخوفنا من أن نفقد. جلس مكانه واستعد لشرح وجهة نظرة في السياسة من سراديبها ودهاليزها. رأى رؤى عين، أناساً يتوهون في دهاليزها ولو كانوا أصحاب حق. السياسة كذب وخداع ورياء وانحطاط. ظلم وجور وتعسف لا تستقر. السياسيون لاعبو سيرك. البشر أقزام من فوق الحبال التي يتراقصون فوقها. مصالح، مصالح، مصالح. في تلك الزاوية تتبدل السمات لواحد من ثلاثة. إنسان وشيطان وثالث بينهما.

في ذلك اليوم تشتتنا.. كابوس ثقيل رزح على صدرونا. أغلق الأبواب في وجوهنا. فطاشت الأسئلة من كل حدب وصوب. كلها تعني الاستغراب. إذا كان سادة العالم يتلاعبون به فكيف سيستقر؟

– هم كذلك. معاناتنا السابقة لا تقاس أمام المدّ الشيطاني الجديد. لهم كامل الحرية بالتنكيل بالبشر. تحت شعار من لم يكن معنا فهو ضدنا. يأمرون بأحكام جائرة نافذة. ربما نفذتها أيد غير أيديهم، لكنها ملفوفة بأناقة بقفازهم. يزيدون البلاء بلاء.

حين يرانا غير مصدّقين. يقسم ويؤكد، أنه رأى بعينه وسمع بأذنه. اجتماعات سرية ويومية للخاصة. تنتهي بأحكام، وتفجّر مفاجآت. عدو الأمس صار صديقاً. وصديق الأمس كشر عن أنيابه. سألناه:

– متى وأين كان هذا؟

– هناك حيث تقيم عائلة استر. لم أعرف أين ولا كيف وصلنا لعالمهم؟ ما زلت لا أعرف كيف دخلت ولا كيف خرجت. انتابني شعور غريب. أتساءل باستغراب لماذا أنا هنا؟ تنحيت راجعاً. أصابع غليظة ضغطت على عنقي وأركعتني ورفعت وجهي للسقف فارتعبت.

– ما الذي أرعبك؟

– كانوا يعقدون اجتماعاً دورياَ أو ربما يومياً. ملف منتفخ بأوراق.

أو لنسمها تقارير عما يجري بالعالم. بالساعة ربما بالدقيقة. اقتصادية سياسية اجتماعية صحية. لا يهملون حركة ولا قولاً ولا حدثاً إلا ويضعونه على مشرحة البحث والتدقيق.

بلمحة عين يا شباب تصنف. تصير رغبات، قرارات، أوامر تنفذ. متخطية العقبات مهما كانت التضحيات. أموال تغدق بلا حساب. يحصد الموت جماعات أبرياء فلا ترف عين. إنسانهم يتمتع برغد الحياة. لا يتقاعس أو يفكر مرتين بأمر صدر. شر، فتنة، غلبة، احتلال، استغلال. الأهم أن تجير أملاك الغير بجرة قلم لهم.

سألنا بتشكك:

– هل صرت منهم؟

– هل تظنون أن كل من هب ودب يصير منهم. لا يقترب من حماهم إلا من وضع تحت المجهر لسنوات. من يمتلك امتيازات خاصة. علم، ذكاء، قدرات خارقة. تقدم تقارير منذ ولدته أمه حتى أصبح هدفاً يضم إلى مؤسساتهم. حينها باحتفال كبير. يمنحه الرئيس اسماً جديداً. يعدد مواهبه، الكثيرة، غير العادية. يتقدم أحد الكبار طالباً تبنيه رسمياً فيمنح الثقة. صار الآن يستحق لقب إنسان حقيقي. أعني متطوراً. متفوقاً، مبدعا مثقفاً. يتعهد بدوره بقسمهم الخاص بأن يكون عين المؤسسة الساهرة على مصالحها. لا يتوانى لتسخير مخلوقات الأرض، الأقل جودة، لمصلحة المؤسسة متى شاء وكيف شاء. قبل توقيعه على الالتزام كفرد منهم. يخبرونه أن العقوبة قرار لا رجعة فيه أقلها الموت في حالة خيانة أو إفشاء سر. تطلق يده فيعرف أي معلومة يريدها من مصدرها. مقترحاته وآراؤه لا ترد.

سأله أحد الطلبة:

– دكتور. وصفت جو أنه إنسان غير عادي. هل هو منهم؟

– حتى ذلك اليوم الذي تكلمت لكم عنه لم يكن منهم. ربما في ما بعد. مؤهلاته الكثيرة جعلته هدفاً لهم. باحث، عالم، متفوق بعلوم التكنولوجيا. المختبرات غالباً محجوزة لطلبته. فنان عبقري، يكتب

الشعر، يلحنه، يعزفه ويغنيه مع فرقته كانت استر أهم أفرادها. موسيقاه شرقية ساحرة تمتزج بالغربية بآلاتها الحديثة بشكل لم يتوصل لمثلها أحد قبله. دائماً قبل البدء يقول لجمهوره. أيها الأصدقاء أخاطب فيكم وجدان الحب للسلام والأمان.

– كيف يسمحون بمثل هذا القول وهو ضد أفكارهم؟

– هذا بالذات المغزى المطلوب. ظاهر حركتهم، أنهم صناع خير وبر وتقوى. عالم متحضر، يعني فن وعلم ومحبة. مقاومة الظلم، وتحدٍّ لقوى تعبث بالعالم دون وجه حق.

– نشاطات كهذه ألا تحتاج للمال؟ من أين؟

– المال وفير بالترغيب مرة بالترهيب مرات. أموالهم انكشارية.

ضحك بل قهقه.. ذهب ولم يعد.

صمت برهة ثم قال متعجباً:

– لا أعلم لماذا ورد ذكره على فكري؟ الحقيقة قصته قديمة وطويلة. ربما لأن غيابه سبب خسارة فادحة لجمعيتنا الناشئة. عذراً للشيخ.

قال جدي:

– لكنها قصة ممتعة وفيها الكثير مما يجب أن يعرفه هذا الجيل.

– معك حق. سنكمل حديثنا كلما التقينا. هل سنراك مرة أخرى؟

– بالتأكيد سنلتقي. أتمنى رؤية صور تجمعك بالشاب جو.

– أيها الشيخ، سيكون لقائي بك فخراً لي.

– إذاً، اقبل دعوتي لغداء يوم الخميس القادم وادع من شئت معك؟

عدت في المساء دخلت البيت متسللاً. البيت غارق في صمت وفي ظلام، موحش ومخيف. يشي بمأساة لا تزال في عنفوانها تلهو بها الأشباح. ناديت أمينة بصوت خفيض، خشية انهيار الصمت فوق رأسي. جاءت أمينة تحمل ذبالة ضوء شمعة. قالت:

– لا أحد غير الشيخ. جدتك وعمتك غادرتا بعد مغادرتكما بقليل بصحبة الدكتور أحمد. سيدي الشيخ غضب جداً حين أخبرته.

وجدته جالساً أمام مكتبه، وقد أضاء نور المصباح الذي بجانبه، كان الممرض يجلس بجانبه يقرأ في كتاب. ألقيت التحية. جلست على المقعد المقابل منتظراً أن يبدأ بالكلام.

– كيف انتهت الأمور في المسرح؟

– على خير. شخصيتك ساحرة كما قال الدكتور مؤنس.

– ولو بعد كل هذا العمر يا يحيى؟

– ألا تريد الاطمئنان على سوسن؟

– تلك المرأة البائسة أرسلت رسالة تقول: إنها على استعداد لإعادة الفتاة وإغلاق القصة نهائياً، إذا دفعنا لها مبلغاً من المال.

– هل ستدفع؟ ماذا ستفعل؟ لن تضحي بسوسن، لماذا أنت ساكت؟

– دعني ألعب بأعصابك. لقد طلبت فعلاً، ولكنني قررت أن أعيد الفتاة دون أن أدفع مليماً واحداً. هاك عنوانها.

– سأذهب إليها فوراً وأعرف التفاصيل.

– لا ليس فوراً، دعها تتقلب على نار المبلغ الذي طلبته وترتب مشاريع مستقبلها. انتظر. ستكلمنا. جدتك تركتنا اليوم.

– عرفت ذلك. لا تغير الحديث. أتريدنا أن نتأخر أكثر على سوسن. هي في خطر. لم تكن تملك خيارات أخرى.

– كيف عرفت هذه التفاصيل؟

– من رسالة تركتها لي مع أمينة.

– لماذا لم تخبرني بهذا من قبل. اذهب وآتني بها فوراً.

– إنها في جيبي.

ناولته الرسالة فقرأها على مهل، خيّل إلي، أنه يدخل ضمن حروفها، ليستنطق الخطر الذي يتهدد حفيدته. مزّقها وهو يقول:

– إذا لم تقتل نفسها سأقتلها بيدي. أرسلت من يتتبع أخبار حسن.

أثناء الحديث رنّ محمول جدي، نظر إلى الرقم وقال بسرعة:

– نعم أنا يحيى القادر.

ما أن سمع بضع كلمات حتى هبّ واقفاً وهو يقول:

– سأخرب بيتكم، سترين بعد قليل ما أنا فاعل! زوجك قذر وأنت أكثر قذارة منه. أي امرأة حقيرة أنت؟

– جدي ما جرى؟ ماذا قالت؟

– الحقيرة. تعتذر عما قالت لي. زوجها عاد وأخبرها بأنه لم يرَ سوسن منذ أيام. تريد أن تلاعبني فليكن. سوسن فعلاً في خطر.

قبل خروجنا رن جرس تليفون المنزل وصوتاً قال دون مقدمات:

– هنا مستشفى الشفاء. ابنتكم سوسن عندنا. طلبت إبلاغكم.

انطلقنا بسرعة إلى المستشفى. كانت راقدة في السرير، معصماها مضمدّتان، إحدى رجليها في الجص. حالما وقع نظر جدها على حالتها المحزنة والأليمة خرج من غرفتها دون أن يرد على تحيتها.

أخذت في البكاء والعويل. بأنها لا تستحق القلق عليها. حين خرج جدي تملّكها ذعر، تكوّمت في الفراش وغطّت رأسها ونحبت.

سألتها بغضب:

– أين كنت؟ ماذا جرى لك؟

– ليس الآن يا يحيى، أنا متعبة لكنني أطمئنك بأن كل شيء على ما يرام. انتهت مشاكلي مع الجميع ومع نفسي. أخبر جدي بأنني تعرضت لحادث سيارة منذ غادرت المنزل، والآن فقط استطعت أن أخبركم. هيا يا يحيى، أرجوك اذهب إليه وأخبره، وحالما أتحسّن سأعود إلى البيت. أخبر أمي بالقصة ذاتها.

– أهذه هي الحقيقة يا سوسن؟

هزّت رأسها. توسّلت بنظراتها أن أساعدها. أصررت أن أعرف.

– لقد ذهبت لمقابلته. ما أن رآني حتى انفجر صارخاً أنني سبب مشاكله كلها. لم أرد. كنت أستجمع قواي لأخبره بقراري بالابتعاد ونهائياً. قرأ ملامحي فاستشاط غضباً. ثم هدأ سحبني من يدي إلى مطعم الفندق لتناول العشاء. لم أكن على ما يرام حاولت الكلام أسكتني وهمس سنتحدث لاحقاً قلت بل الآن ووقفت وغادرت المكان.

ركبنا السيارة لنذهب إلى مكان يمكننا التحدث بحرية. قلت:

– الأمر لا يحتمل التأجيل. لنتكلم هنا. انتهى كل شيء بيننا ليذهب كلٌ في طريقه. فجأة، كنت طائرة في الهواء ومرتطمة بالأرض صارخة بأعلى صوتي. لم يلتفت انطلق مسرعاً. المكان مظلم وموحش وأنا خائفة فزعة ومتألمة.

لا أعرف كم من الوقت مر والدم ينزف من جروح لا أعرف أين. متألمة من كسور أحسها بكل مكان. فجأة توقف بجانبي رجل على دراجة نارية فحملني إلى أقرب مستشفى. طبعاً لم يخلِ سبيله، إلا بعد أن أكدت لهم أنه منقذي.

خرجت لأطمئن جدي لكنني وجدته في وادٍ آخر. بعد حديثه مع الطبيب انطلق خارجاً مثل عاصفة. صرخت– خذْني معك. لم يلتفت.

عرفت أنه يريد أن يخلو بنفسه.

راودتني فكرة اللحاق بجدتي وعمتي لأطمئنهما على سوسن. شردت أفكاري تتساءل ما نوع العلاقة بين جدي وجدتي. حب، أم عشرة وأولاد. أم كل منهما يحاسب الآخر على طريقته. ويلحقا بنفسيهما مزيداً من الأسى دون قصد؟

هذه المرأة القوية. لماذا استمرت في حياة أقل ما يقال فيها إنها معركة شرسة بين ندّين؟ لا على السيادة ولا على النفوذ فحسب، بل لإثبات الذات وتأكيد الوجود. كل منهما يصرخ دون صوت أنه هنا، ولا بد أن يحسب حسابه. كان بإمكانهما فضّ علاقة جائرة زادت من متاعب الحياة ووجعها. أم قول شاعر " ما امرك في قلبي واحلاك " .

قررت بفضول الفنان التقصي عن جواب لأسئلتي التي تؤرّقني. عائلة تقتات على الهموم والمشاكل، ظهرت لي فجأة، قرّبتني حتى الالتصاق بجلد كل فرد فيها.

وجدان

كانت جدتي تجلس على أريكة واسعة في شرفة منزلها الصيفي المطل على حدائق واسعة مكتظة الأشجار تلف السور مثل تلك التي بالبيت الآخر. صفان من الورد الجوري الملون الذي تعشقه جدتي على جانبي الممر الموصل للمكان التي تجلس فيه. قطفت أجملها لأقدمها للمرأة الجميلة التي تتقدم نحوي مرحبة وفرحة.

أجلستني بقربها وعينيها تغوصان بعيني وقالت:

– عيناك الجميلتان كعيني أبيك، وكذلك شعرك مثل شعره. لم تأخذ من أمّك الكثير لكن لك بعض ملامحها، فيك شيء مني. عمتّك أخبرتني بأنك أخذت من جدك الكثير من طباعه.

تراجعت للخلف أتأملها وأمازحها:

– وهل في ذلك ما يدعوك للنفور مني أيتها الملكة الجميلة؟

– أبداً يا حبيبي.. لقد أخذت عنه أفضل ما فيه.

– مثل ماذا؟ أريد معرفتكما أكثر. أعني ما الذي يعجبك فيه؟

– أخذت منه قوة احتماله وإصراره ودأبه. وإلا كيف استطعت العيش بعيداً مجهولاً ومعدماً، وحين عدت كنت من خيرة الرجال. بضع ساعات وصرت الأهمّ في الأسرة. تبدو أكبر من عمرك. قلبك كبيرٍ كأبيك. لا حقد ولا كراهية. كأنك عشت معنا منذ زمن. تبدو رباناً ماهراً سيجمع أواصرها المفككة بالودّ والتراحم.

– هل أنا فعلت كل ذلك ببضعة أيام؟ إنك تجاملينني وحسب.

– أبداً هذه ليست مجاملة بل حقيقة. رأيتك كيف تنظر إلى جدّك بعين الحب والإعجاب. قلما يحظى بهما مستبد مثله. خافه كل من تعامل معه.

نظراتك لعمّتك برأفة رغم أنها لم تبدِ لك ودّاً. كذلك سوسن وكذلك أمينة. منذ رأيتك بعثت في قلبي الراحة. لا تقلق سيعود أبوك، كلنا بشوق له، وكلنا بانتظاره.

غلبها البكاء. احتضنتها وأنا أربت عليها:

– متى ستحكي لي عنه وعن أمي. أين هما؟ وكيف تركاني ولماذا؟ ولم لم يخبرك بأمري؟

– ليتني أعرف شيئاً لأخبرك به. سيأتي الوقت. كيف جئت لهنا؟

– أتيت مع السائق. أردت إخباركما أن سوسن في المستشفى فقد صدمتها سيارة بعد خروجها من البيت. اليوم استردّت وعيها، وطلبت من الممرضة الاتصال بنا. ذهبت مع جدي لزيارتها، هي بخير.

أحطتها بذراعي وأنا أقول لها برجاء: الآن جاء دورك لتحكي وتجيبي على حيرتي. لماذا تهربين من جدّي؟ لماذا تحملت قسوته تجاهك وتجاه أولاده؟ من ظلم نفسه يظلم غيره.

– لماذا، يا يحيى، تقلب عليّ مواجعي؟

– كلكم تتألمون بشكل موجع كأن الألم صار من نسيج الروح؟

تنهّدت وقالت:

– أنا وجدان. أم يوسف أبوك. وأم رجاء وشيماء. أنا جدتك، ومع ذلك لا أعرفك إلا منذ ساعات. سنوات عمري نفدت وأنا أعطي ولا آخذ. تدمرت حين تفهمت معنى اسمي وقيمته. فمن تعاملت معهم كانوا بلا وجدان. من أجل ذلك تغلبهم أحزانهم وآلامهم.

في البيت الجديد الذي انتقلت إليه عروساً، اعتقدت أنه بيتي، زرعت الحب والورد بكل ركن فيه. صار ملهاتي. بالوقت ذاته صارت أعمال زوجي تزدهر يوماً بعد يوم. بعد عدة مواقف، عرفت انه بيتي بشرط. رضاه. يعني طاعة تامة. يعني مكبلة. زوجة، ربة منزل أم مسؤوليات جسام. وهو بقرارته التي يتخذها دون روية زاد المسؤولية عنتاً وأنا صغيرة، قليلة خبرة، ووحيدة في غربة.

الأيام تمر، بحلوها ومرها وشقائها. بخوف وتعب وضجر. ومع ذلك عاركتها بوجدان كما تربيت. حريصة على البيت وعلى صاحبه وعلى الأولاد. لا أعرف بداية لحياتي الزوجية. كأنني منذ ولادتي أعيش هنا، وإلى أن أموت. كان يجب عليّ سؤاله عن كل أمر. هو صاحب كل قرار. كنت أتأفف وأعارض وأشرح. بعض القرارات تنفعه بعمله لكنها تضر بالبيت والأولاد. ضجر ذات يوم وصرخ:

– إلى متى تنوحين كالأطفال، هلا نضجت!

– ساعدني. حدد مكانتي أو وظيفتي، إذا كنت تعتبرني موظفة. فصعب أن أعيش في مكان ليس لي. مع إنسان أكاد لا أراه أو لا أعرفه، لا يشبه أحداً. أشعر بالخيبة.

– لم أفهم ما تطلبينه مني. كل الناس تعيش بهذه الطريقة.

– فكّر بمشاعري، بوحدتي، لعلّك تفهمني. قد أكون مختلفة عمن تعنيهم. أيامي متشابهة بطيئة روتينية مريرة، وهذا خلاف طبيعتي.

– هذه ليست مسؤوليتي ابحثي عن حلّ لمشاكلك. مشغول بهموم أكبر بكثير من مللك.

حزنت. ويئست. والدائرة تدور والأولاد تأتي تباعاً. أستنجد بكل طاقاتي، لأكون على قدر ما هو موكل إلي فعله، فلا تسعفني. أبقى غارقة في عذاب لا ينتهي. محاولاتي للتعوّد على الحياة الجديدة مع هذا الغريب تفشل. تتصارع في أعماق نفسي، الأسرار والموروثات الراسخة فيّ دون أن أعيها. كنت وحيدة وبعيدة أنتظر وضوح الأمور أكثر. أفهمني صراحة أن معاناتي بسبب قلة حيلتي، وقلة حيلتي بسبب قلة خبرتي. وهذه مشكلتي أنا.

إذاً عليّ أن أفكر أكثر وأتعب أكثر وإلا سيتدمر بيتي وتفشل تربيتي لأولادي. حلولي تأتي ببراءة طفلة تزيد ارتباكي. انطويت على نفسي أتفانى بواجباتي متنازلة عن حقوقي. أغوص بخيالاتي لأرفه عن نفسي. أخال نفسي على شاطئ بحر واسع موجة تأخذني وأخرى تعيدني. أحياناً تجرفني للعمق، تسحبني إلى القاع. وموجة وأخرى

أشد ملوحة وصخباً، وغضباً تخنقني. فأضحك على مثل هذا الزواج.

كثيراً ما كنت أثورعلى نفسي. ما هذا الضعف ما هذه الحيرة؟ لم أجد في عقلي مخزون خبرة لتساعدني على السير ضد التيار، أو فوق بركان غضبه السريع على أبسط كلمة أو خطأ.

كان يعرف تماماً ما أعانيه مع ذلك تركني أتخبط. علّق قائلاً:

– ستبقين طفلة، صحيح الحلو لا يكمل. وضعتك في مكان يحتاج حنكة وخبرة. اثبتي العكس. رأيتك فارسة غشيمة غريرة. مشوقة للفوز. لم تأخذي حذرك وأنت على صهوة جواد جامح. سأعلمك كيف تتعاملين معه متى يرسل العنان للفرس ومتى يشكم. واجهت الحياة مثلك. لكنني فزت لا بل وتميزت.

– لماذا عليّ إيجاد طريقة للعيش تريحني دونك؟

– ولماذا دوني؟

– لأنك تعيش حياتك بشكل وظيفي. هل تتخيّل مصير أولادنا إذا صرت مثلك؟ لن أكون بل سأبقى كما تربيت. أزن الأمور بحرص وبأمانة تماما في تقييمي للأشياء. رغم ما حولي زيف وخداع.

مرت سنوات لعينة جافة، قمت بمهمّاتي بقدرتي بصبري واحتمالي وإتقاني لإنجازاتي. العبور بأولادي إلى برّ أمان، في زمن لا أمان له.

كان شريكي بداية يحاول جاهداً الإبحار معي ثم كفّ عن المحاولة. أخذته أعماله ونجاحاته وملايينه مني. لم أفهم، لماذا، أنا وهو لسنا في القارب ذاته، ولا بالاتجاه ذاته، كما ينص عقد الزواج؟ ثم اتّضح بعد ذلك، أن معظم البيوت تسير على هذا المنوال. كأن الرجل يتزوج امرأة واحدة يعتبرها كتيبة، تنفيذ أوامره الكثيرة والمعجزة. وكأن المرأة تزوجت من رجل اختارها، ليموّل بيتها وأسرتها ليستمر النماء. قبول شراكة ضمني مفروغ منه.

كنت أدوّن هذه الخواطر على الكمبيوتر جاءني صوته:

– ها أنت على عادتك تتلهّين وزوجك يشقى؟

كان واقفاً ورائي يحاول قراءة ما أكتب. عدت من عالمي البعيد أفكر كيف ستكون حياتي بلا مثاليات أنتهجها. قلت:

– أكتب لنفسي.

صمتنا برهة، ثم قلت:

– ماذا يفعل من لا يجد أذناً صاغية وصدراً رحباً وقلباً محباً؟

ضحك بسخرية وهو يقول:

– الفاضي يعمل قاضياً.

ضحكت بدوري بالسخرية ذاتها وأنا أتساءل:

– آه.. كيف عرفت؟ أنا فعلاً، أقاضي، وأصدر أحكامي.

– عادتك أم ستشتريها؟

سكت منهية الحوار، هكذا هي الحياة بيننا، حرب باردة شرسة صعبة، مع ذلك ندّعي بأننا متحابان. تركت ما بيدي ووقفت إجلالاً فقد جاء الملك. سألت وأنا أحني رأسي:

– نعم.. أية خدمة أقدمها لك سيدي؟

تبسم بتكبر وقال:

– لا شيء، فقط اجلسي بقربي. لا أطيق رؤيتك مشغولة عني.

جلست ساهمة. جالت عيناه في ما حوله، لعله يتصيد خطأ، إهمالاً. ارتدت عيناه خائبة. بدأ حديثه العادي المكرر الذي مللت سماعة. ها هو البطل الأول والأخير. الظافر القاهر الذي لا يغّلب، يفترش ساعات وجوده في البيت، بالأعمال الخارقة التي أنجزها في يومه. لا ينسى أبداً أن يعلّق على ما أفعل أو أقول، بأنه ناقص الخبرة وفجّ الفكرة. مستعد لتعليمي فن الحياة. أتضاحك بوجع وأقول:

– لم لا تترك حبة الفاكهة الفجة التي غرستها عنوة بجانب شجرة وجودك المثمرة تنمو وتنضج على مهل.

– أريدها أن تنمو على طريقتي لتصير جزءاً مني.

قمت بعنف من أمامه صارخة:

– هذا محال.. نحن اثنان.. لسنا واحداً ولن نكون. إذا لم تقو على الانتظار لأعرف الحياة من خلال تجاربي الشخصية والعمرية فأنت حرّ. لن أكره نفسي لتعيش حياة تشبه حياتك التي شكلتها أثناء ترحالك من بلد إلى آخر، ومخالطتك لعادات وأعراف وأخلاق مختلفة. أريد أن أكون أنا. لا خيار سوى الانتظار.

ربما كنت في تلك اللحظة فجّة لكن، بمفهومي، كنت أدافع عن حقي باكتشاف نفسي بنفسي، لأصل إلى حقيقتي التي لم تتحدد بعد. أعرف جيداً أن نساء ورجالاً يخفون في أعماقهم مشاعر وآراء مختلفة عما يقولون. يبدون سعادة ورضًا بينما هم يتميزون غضباً ليشتروا الهدوء. لكن الشرارة تنتظر نفاد الصبر وهذا دمار أخلاقي معيب.

مرت الأيام. كبرت ونضجت وتعلّمت. ازداد إصراري على الصدق والصراحة مهما كلفني الأمر. الاختلاف لا الخلاف بيننا يزداد حدّه، والهوة اتساعاً. خطان مستقيمان لن يلتقيا. ربما كنا نتقاطع، وذلك لم يكن بالشيء السهل، نبرق ونمطر ويسود بيتنا ضباب كثيف، لا يلاحظه أحد لكن يسكن فينا، كما يسكننا الاتفاق الصامت العجيب. يحدث هذا التصادم جروحاً تصير ندوباً، مع مرور السنين صارت الجروح قروحاً، ثم صارت إدماناً.

سكتت وهي تتلفت حولها ثم ضحكت وقالت:

– دعني أجب على سؤال يبرق في عينيك القويتين. منذ متى ونحن نعيش هذه الحالة؟ منذ البدايات الأولى. أو ربما بعد مضي بضع سنين. ثم أصبح لكل منا أسلوبه الخاص في التعامل، بعضنا مع بعض. مع الحياة وهمومها ومشاكلها التي لا تكاد تنتهي.

قلت أواسيها:

– أعتقد بأنك لا تقلّين عنه حكمة ولا ذكاء ولا تضحية. الفرق بينكما أنك كنت تقومين بكل ذلك بفطرتك السليمة، بينما كان يعرف تمام المعرفة، لماذا يقول هذا أو ذاك، بحكم خبرته وتجاربه ومعاناته.

– الحق معك يا يحيى. آنـذاك، لم أكن أعـرف أن حياتنا حلقات متسلسلة، طفولة وشباب، كهولة، شيخوخة تؤثر في شخصياتنا. مثلاً تجربته كانت مريرة كالعلقم. كان يرويها بسخرية ثم صارت حزناً وألماً وعليّ تخفيف وطأتها عنه. يتذكر كيف قام من كبوته. وتجاوز الشقاء والحرمان، ثم علا فوق الجميع. لا تظن أنني أعني أنه لم يكن لديه مقومات النجاح فهو ذكّي بشكل مفرط، نبيه وشجاع إلى حدّ الاندفاع، لا يهاب شيئاً. يملك إرادة من حديد لا تلين أمام أيّ تحدّ. صفات توصله إلى مكانة الأفذاذ الذين لا تضيق بهم أرض، ولا تتذمر منهم سماء لأنهم يفيدون بقدر ما يستفيدون.

هكذا هي المسافة قريبة بعيدة مثل التضاد الذي نعيشه. بعض كلمات تكون مع أضدادها سالب وموجب تأتي بنور أو نار. حب وكراهية. سعادة وتعاسة، فرح وحزن، حقد وود. وتتسع المسافة بين ما أتمناه وما أحصل عليه، بين ما يريده مني ولا أقوى على تحقيقه.

حين يسود سلام ووئام، أعرف أنني من تجاوز وتنازل عن حقي بأن أعيش مع شخص حقيقي. يرى أشيائي الجميلة والخيّرة، كذلك أراه. أصارحك كثيراً ما كنت أكره نفسي حين تموت ليرضى الجميع.

كنت تسليته، لعبته. متنفسّه من ضغوط الحياة. أوامر السيد، الرقيب. عصا المايسترو في يده لا تكل عن الحركة. يقول: لماذا ترتدي هذا الأسود، هذا الأبيض، هذا الأحمر؟ وهذا وذاك وتلك، لا يناسب مزاجي اليوم. غيّريه حالاً. لماذا تسرحين شعرك وتضمينه إلى الخلف؟ أطلقيه. اجلسي هناك. اجلسي هنا.. بقربي. ماذا كنت تفعلين طوال النهار؟ الطبخ غير مسبّك، طبختِه بقدر البخار لتنتهي بسرعة وتتفرغين لنفسك. ماذا تكتبين؟ ماذا تقرئين. أين كنت؟ حين أكون هنا يجب أن تكوني أمامي.

غيابه طويل، أين يكون، متى سيحضر. لكن، بالمقابل، عليّ أن أتنبه دون كلل، أن يكون كل شيء جاهزاً لقدوم العاصفة. يأتي، وقد نسى أنه في البيت وليس في عمله يأمر، ويستخف، ويسخر، وينتقد.

سألتها متعجباً:

– هذه حياة لا تطاق. إنني بانتظار نفاد صبرك.

– حين اكتشفت مواهب أخرى. سقطت بضربة قاضية. قبل أن أقصها عليك، أريدك أن تتفهم دوافعي التي جعلت الرد من جهتي أعنف مما تخيله. هو الذي عرفني مهادنة أغلب الأوقات.

ذات ليلة على عشاء في بيتنا. عبث بكل ما لدي من صبر وقوة احتمال. رأيت وسمعت ما صعقني، بشر يتلونون بكل الألوان. يتنكرون للأخلاق. كنت أدور مثل نحلة تعبة. أتفقد كل الأطباق، كل الأصناف التي سأقدّمها على مائدة العشاء لضيوفنا. نسيت كل التعب والإرهاق حين قدومهم. بدوت في قمة جمالي وأناقتي، كذلك بيتي ومائدتي المعدّة.

توافد الضيوف والأصحاب. بعد قليل، كانوا جميعاً على مائدة الطعام يتناولون الأطباق الشهية والأصناف المتقنة. قام سيّد البيت ليخص ضيوفه بخدمتهم. مع أنه يوكل لي مهمة خدمة الضيوف وإكرامهم. ليس بقدر ما يستحقون، بل بقدر ما نستحق، نحن أهل البيت. من بين الضيوف، أو لعلهم المحتفى بهما، رجل وامرأة أجانب، لا أعرفهما. قدمهما لي كزوج وزوجة. قدمني إليهما قائلاً:

– زوجتي الجميلة وجدان. لا تجيد شيئاً قدر اهتمامها بنفسها وهواياتها، هي دائماً بين الكومبيوتر والكتب المرصوصة في المكتبة. أرجو أن يعجبكم طبخها، فهي، بين حين وحين، تتحفنا بأشياء لا بأس بها، اليوم ساعدتها حتى تتمتعوا بعشاء شهي.

ارتعشت رموش السيدات الجالسات من أصحابنا المقربين، كن قد بدأن بتناول المقبلات، فتوقفن مندهشات. استقرت أعينهن عليّ. ثم دارت لتنصب على صاحب البيت الواقف إلى جانب السيدة الضيفة وهو يقدّم لها الطعام. كلما وضع لها صنفاً جديداً التصق بها أكثر، ورجاها أن تذوّق ما أمر بإعداده خصّيصاً لها.

تسأل بدلال فج:

– آه مستر يحيى أنا فعلاً أحب هذه الأصناف. من أخبرك بذلك؟

– العصفورة. هل أعجبك هذا أو ذاك أو.

شيء مثل هذا كان صدمة كبيرة لي ولمن يعرفه تماماً، إذ ليس من عادته الانشراح وتقديم الخدمات للضيوف. أتساءل دهشة: ماذا يفعل؟ رجل صعب المراس، متعالٍ متكبر يقيس تصرفاته دون كلامه، عادة، بمقياس دقيق.

انتهى العشاء دون تعليق. كالعادة، بدوت متفهمة، وأكبر من أي موقف. أتنقل بين غرفة الضيوف والمطبخ لنقدم ملحقات العشاء، من حلويات وشاي وقهوة.

في طريقي إلى المطبخ لجلب القهوة سمعت همساً وشيئاً مثل العراك واللهاث في حمام الضيوف، توقفت. فتحت الباب بسرعة دون استئذان، ظننت أن أحداً بحاجة لمساعدة. يا لهول ما رأيت. كان زوجي يحتضن السيدة الغريبة، يكاد يعتصرها. كانت تتأوه بين ذراعيه وتقول كلمة واحدة: عدني. وهو يرد بلهاث حيوان طاش صوابه أعدك... أعدك غداً سترين.

انسحبت متراجعة إلى الخلف فاصطدمت بالخادمة الواقفة خلفي بصينية القهوة. انقلبت بين يديها رأساً على عقب، فأحدث وقوع الصينية ضجّة عالية. تحطّمت الفناجين. تطايرت الأجزاء، تراشقت القهوة بكل مكان. على الأرض، على ثيابي ووجهي، ثياب الخادمة وثياب الضيفة ومرافقها.

اندفع عدد من الحضور خاصة أولئك الأصحاب الذين يستطيعون التحرك في بيتنا. وقف الرجل الذي ظننته زوجها لحظة، ثم عاد إلى غرفة الضيوف كأن الأمر لا يعنيه.

يا للهول. أهذا يحيى؟ الذي لا يكلّف نفسه تناول كأس الماء وإن كان أمامه ما لم ينادِ على من يخدمه. ها هو راكع على الأرض، بيده فوطة مبلولة ينظف لَها صدرها المكشوف ويرشّه بمضاد للحرق، ثم يمسح شعرها ووجهها ثم حذاءها ومكان خطواتها فوق مأساتي؟

قفزت فوق الدرجات المؤدية إلى غرفة نومي متوجّهة إلى حمامي،

أنظف ثيابي ووجهي وشعري. أهدئ نفسي الثائرة كالعادة على نفسي. لحق بي. ظننته سيوضّح لي الأمور، لكنه دخل الحمام متجاهلاً وجودي تماماً. غسل وجهه وغيّر ملابسه بسرعة ليعود إلى الضيوف. سألته وهم يهم بمغادرة الغرفة:

– أريد توضيحاً لما رأيت؟

– بعدين..

صرخت:

– بل الآن..

– والناس تحت..

صرخت بصوت أعلى:

– لا يهمني بل الآن وقبل أن تخرج من الغرفة وإلا..

– ها. ها. ستطلقينني مثلاً. أم ستحرمينني من الميراث. أنا حرّ.

– وأنا حرة.

أغلقت باب غرفتي حتى الصباح الذي لا أعرف كيف أتى، وقلبي محزون وعقلي مخدوع. وشعور بالمهانة والمذّلة تكاد تستل روحي. تتداعى الأسئلة والأجوبة كأنني أكثر من شخص. هل أحبّه فعلاً؟ هل أمتلكه؟ هل وجعي بسبب وجود شهود عيان على مهانتي وعزة نفسي وكرامتي؟ ألأنه خرق حرمة البيت؟ الأعجب لم تخطر على بالي فكرة الغيرة عليه بقدر الغيرة من أجله.

مع بزوغ الفجر وقفت من جديد وقد غمرني شعور لا جدال فيه. ليس ما بي غيرة، الموقف كان مقرفاً. أكبر من الاحتمال. ما شعرت به، كان مجرد فوضى بأفكاري تحتاج لإعادة التقييم والتفسير بهدوء. لا أحد يستحق رؤيتي منهارة فأنا لست كذلك. كنت على الغداء في قمة هدوئي ولياقتي. ركز عينيه حولي. ابتسمت بداخلي. ماذا كان يتوقع؟ بريق الماس خلاب. لكن لا أحد يشعر بصرخته وهو يتخلّص من شوائبه، وتظهر لمعان زواياه بوجه الشمس.

ونحن نحتسِ القهوة استعد ليشرح ما غمض عليّ. قلت:

– الأمر جاد.. سأغير حياتي.. أولادي هم مكسبي من هذا الزواج. فهل أخذلهم؟ هل أتركهم يتوهون ويتشتتون بين شخصيات والدهم المتعدّدة والمتنافرة؟ ماذا عن يوسف المراهق التائه؟ والبنت الصبية رجاء التي قضى عليها بضربة قاضية، وأهداها لمن لا يستحقها، فعاشت بعذاب. والصغيرة الجميلة شيماء. فجأة، انطوت على نفسها، وصارت خارج دنيانا في ملكوت خاص. صفعتها لأنها كانت تمزح وتتضاحك مع ابن خالتها الذي يقاربها في العمر. ها هي هناك. تقول لمن يسأل أنها تتلقى علاجاً. لا بل هي مبعدة بشكل قسري، سجينة لأجل غير معروف، خوفاً من كلام الناس. ها هي قد اعتادت على غربتها، وردت لك ولنا الصفعة آلاف الصفعات. نسيتنا لم تعد ترد على مكالماتنا وترفض مقابلتنا. ثم ضاعت في الدنيا لا نعرف مكانها. وأنت نسيت منذ زمن أنك السبب أوديتها لهذا المصير.

أليس رجلاً ثرياً؟ ألا تعتقد مثل كثيرين من الأغنياء، أن دورهم في حياة أولادهم، تأمين ثروة كبيرة لهم. بغض النظرعن كيفية جمعها، وعن حرمانهم من تواجد الأب في مراحل نموهم. كم مرة احتاجك الأولاد لتسمعهم، لتوجههم، ولتطمئنهم. وتهديهم إلى الطريق.

على العكس. فغضبك كان هادراً في البيت. سواء لسبب كبير أو هفوة. أوامر جائرة وسيلتك للتواصل معهم. الأم مبعدة لا تمارس دورها كأم إلا بتصريح. دائماً ضد أي نقاش لتقريب وجهات النظر. استسلموا لتقليص وجودي مثل كل الأمهات. تركتني على تخوم بيتي حتى أموت. لقد مت عدة مرات لكنك لم تلحظ.

بكت كثيراً وبحرقة تمنيت لو لم أفتح عليها كل هذا الألم قلت:

– ألم تهن الأمور عليك بعد ما فعله بابنه الوحيد؟

– على العكس يا حبيبي. هذه القشة التي قصمت ظهري وابتعدت. الأيام علمتني أن من يأخذ يظل لآخر يوم في حياته يأخذ ومن يعطِ يندمِ ليس على العطاء لكن يندم على جوره على نفسه وتركها تذوي جوعاً

عطشاً غربةً.

ليت الآباء يعرفون أن مستقبل أولادهم ليس مرهوناً بالمال، بل، بصورة صحيحة وصادقة عن الحياة. عن القدوة. أولادنا يتلقون أعذاراً عن انشغاله عنهم. فصار بنظرهم قمة التضحية، يقدرون غيابه الطويل. يكدّ ويتعب بعمله، من الصباح الباكر حتى يعود في المساء، بلا كللّ أو مللّ، من أجلهم. فرحت بأنني لم أكسر مرآتهم التي يرون غدهم فيها.

ترى هل فكر، فعلاً، بهم بجدية. بعيداً عن عشقه لذاته ولإنجازاته وتنمية أمواله؟ هل زرع بذور الخير في نفوسهم الصغيرة؟هل علمهم معنى الجمال والحق ومعنى وجود الله ومعنى الحياة كما فعلت؟

لم نعد نتهادن. صرت جبهة رفض كما يدّعي. وصار هو الرجل الحديدي الصدئ كما أراه. محتجاً متبرّماً يتهمني بنكران ما فعله من أجلي. مجرد غلطة صغيرة أدير ظهري لحياة كاملة ولا أعطه فرصة لسماعه. أهز رأسي لن أسمح له بمزيد من الكذب والخداع. هوّة جديدة فتحت، فاتسع فراغ نفسي. فراغ قلبي. سقطت كلمات كثيرة قالها معلناً قيمة وجودي في حياته للجميع. بدت لي هزيلة مهلهلة متفتتة تحت قدمي. يستعملها كما يستعمل عامل أدوات مهنته. في ذروتها، أراها فجّة، لا تنسجم مع رقّة نفسي ووثوب عقلي نحو النور.

– اريد أن أعرف ردة فعلك على ما أصاب أبي وهجره لك؟

– لأول مرة في حياتي أثور بشكل مرعب جمعت بعض أغراضي وألقيتها في الحقيبة المعدة لسفري في صباح اليوم التالي. أمسك يديّ ورجاني أن أسمعه ولو لمرة أخيرة. صرخت:

– لا تظنها مثل كل المرات أحاسبك على كلمة أو غلطة أو معاملة. الأمر أكثر بكثير. لم أعد قادرة على الاستمرار. حياتنا معاً انتهت. لن أقبل ما كنت أقبل، لا، ولن أتناسى أي أذية. قلت أنت حرّ، فحررتني وخسرتني.

لم يرد. استأنفت:

– أعرف كم ستتألم! كم ستتلهف على وجودي. كم ستندم أنك

استخففت بذكائي. صدقت أن وجودي تحصيل حاصل. ليس هكذا كنت حريصة على شعرة معاوية بيننا. من الخاسر؟ إذا كان الحساب على طريقتك كتاجر محترف، فأنت الخاسر وأنا ربحت. أما إذا كان الحساب على طريقتي فكلانا خسر. ماذا لو اعترفت بحقي؟ ماذا لو رددت على سؤالي اليتيم؟ لقد أدركت بذكائك المعهود أنه بداية لأسئلة أخرى. استرداد حق اغتصبته زمناً. حق الحوار، حق أن أرفض أو أقبل. لو لمرة واحدة سألتني ماذا أريد؟ لكان جوابي أريد التحرر. أريد أن أفرح، أن أضحك. أن أعيش بمكان لي. كنت في بيت أبي الصغير واحدة من العائلة. كل شيء فيه لنا كلنا. آخذ وأعطي وأفرح وأزعل. أضحك فيتردد صدى ضحكتي بفضائنا الرحب.

سكتت جدتي، أحنت رأسها فوق صدرها، احتضنتها:

– يا الله، كم أنت عظيمة. نسيت نفسك في سبيل الكل. أرهقتك بتذكر أوجاعك. عذري أنني أريد أن أعرفكم، أنت وجدي وأبي. همست كأنها تهذي:

– الجور، والظلم، والقهر، أشياء نتناساها، نغلق صدورنا عليها. وخزة صغيرة وتعود حيّة تنبض. طعمها يملأ فمي وجوفي.

– آسف جدتي فأنا.

– لا تأسف ربما كنت بانتظار شخص يهمني من أسرتي الصغيرة يسمعني. ربما أنت أو أبيك. انظر حولك ها هي أيام عمري مبعثرة على الأرض حية لم تمت. صدقني ما زلت آمل وأتمنى وأرجو. جوهر نفسي، ولكل منا جوهر. ما زالت فتية، رغم دفنها لم يتغير بريقها ولا قيمتها ولا براءتها. ها هي تتناثر حولي، تتهادى تتراقص مثل فراشات ملّونة بلون الأمل. تلامس الأرض بقدميها الملفوفتين بحذاء طري زاهي اللون، تقفز تطير. أوجاع مزمنة صارت كلمات حبّ، عتاب، غياب، حنين، جفاء، رقّة وقسوة. تذكّرني بركب صغير جاء إلى هنا قبل سنين، واستقرّ في سجن. عصفت بحياتي. بقلبي، بروحي. بقيت مشاعري عصفوراً مجنوناً يشتهي الانطلاق.

قال ليلة سفري:

– العوض عليك، طاش عقلك.

– لماذا لا تعتبرها فرحة تحرّر سجين؟

– حتماً أنا السجن والسجّان.

– ربما لكن بإرادتي. تمسّكت بالأسرة وغدها القادم. لم تهمني نفسي بقدر ما همني إسعادكم جميعاً.

– ابدئي من جديد.

– أتمنّى. أعتقد أن الطفلة نضجت. لا أعني أنني موافقة على أخلاق السوق. بل السير على نهجي التخلق بالحق والخير والجمال.

– إذاً هيا انطلقي بسرعة. وتذكّري أن الذي ذهب لن يعود.

– سأنطلق، بعيداً، وسأورق. وردة عطشى ذابلة ستجد الغيث.

في الصباح أيقظني ليقول لي قبل مغادرته لعمله:

– أنت بحاجة إلى طبيب نفسي. طوال الليل كنت تهذين..

– يا إلهي. تأخذ الأمور باستهزاء، ألم تتعب ألم تملّ؟

– أنا مرتاح. يسعدني أن تجدي حلاً ويريحك.

سألت جدتي:

– كم كان عمر أبي آنذاك؟

– كان شاباً، وكانت البنتان صبيتين جميلتين. كبروا ولم يعترف بحقهم أن يسمعهم ويناقشهم. حين سألته رجاء متى سيسمعها رشقها بنظرة محشوة بسمّ الغضب القادم، هربت من أمامه كما كانت تفعل وهي طفلة. الشاب لم يسأله بل انطلق بعيداً إلى فضاءات تلائمه. يفقد جدك صوابه. وصفه بأنه فاشل وطائر غرّ أعمى يظن الفضاء له وحده. ثم يتحسّر على ثروة يتركها لمن لا يقدّرها. فأتمسك بوجودي ليبق مرفأ لهم حين يتعلون من تعنّت الحياة.

– متى قررت هجران البيت؟

– لم أفكر إطلاقاً. تم الأمر دون تدبر أو تفكير. قبل سفره إلى لندن طلب مني مرافقته. وجودنا سيدعم يوسف ويحصل على الشهادة الجامعية. رفضت لأن ابننا أصبح شاباً ومستقبله مسألة شخصية بحتة. هو أدرى برغباته وقدراته. الضغط عليه سيؤدي إلى قتل موهبته وتدمير أحلامه. دورنا الآن أن نتمنى له التوفيق، وحياة سعيدة، ونجاحا حقيقيا. بصرف النظر، إن حقق أحلامه بشهادة أم دونها. ردّ بعصبية: الشهادة الجامعية، مع هذه الثروة، تفتح له آفاقاً جديدة، وحياة أفضل ومستقبلا ممتازا.

ذهب وعاد في اليوم ذاته مكدراً حزيناً صامتاً. رجوته طوال الليل أن يقول أي كلمة عن يوسف. رد بهيجان فهمت أنه حطم رأس ابنه، وتبرّأ منه، ونسيّه.

في اليوم التالي سافرت إلى لندن، قضيت هناك، فترة علاج طويلة ليوسف ولي. كلانا كان مرهقا صحياً ومحطماً نفسياً وعاطفياً.

– كيف كان أبي آنذاك؟

– سافرت، ومعي دنيا، إلى هناك.

– أهي المرأة التي ربّتني؟

– نعم يا يحيى. كانت تساعدني في تربية الأولاد. لكنها كانت عين جدك الساهرة، وأذنه التي تلتقط كل شيء، لتنقله إليه بحرفية تامة. فينقضّ على الصغار دون رحمة. ذات مرة صرخت:

– لماذا تفعلين ذلك مع أولاد يحبونك ويحترمونك؟

قالت بكل ثقة:

– ما أفعله ليس شراً، بل هو خير، لأنني أحبهم وأخاف عليهم.

طردها من البيت؟

في لندن تفاجأنا برجل غريب مع الصبية التي عرفني عليها باسم نجمة. سألني مرة إن كان بإمكان نجمة أن تعيش معه. رفضت. سمعتها تقول:

– أهلاً وسهلاً. هذا إيزي صديقنا ومدير أعمالنا الفنية.

دخلت دنيا إلى الغرفة التي أقيم فيها عادة. نظفتها وأخرجت منها كل ما يخص هذين الضيفين. قالت تفضلي سيدتي.

لم يعجب الفتاة قالت بضجر:

– هذه غرفتنا أنا ويوسف.

– أين يوسف؟

سألتها أنا ودنيا معاً. قالت:

– يوسف في المستشفى. ألم تسمعي ما فعله معه أبوه؟ لقد حطّم رأسه، وكسر إصبعي حين سحب الغيتار من يدي.

صرخت بعصبية: كفى أريد أن أنام.

في الصباح الباكر كنت واقفة فوق رأسه عند سريره. تمنيت لو متّ قبل أن أجده على تلك الحالة المؤلمة. لفّني دوار، تلقّاني الطبيب وأجلسني بجانب السرير وأنا انتحب وأرتجف. رفعوني على سرير وبدأوا يلصقون على صدري بأجهزة تقيد حركتي. قال الطبيب بلطف:

– ابنك بخير، سيدتي لا تقلقي. مجرد وقت وسيعود كما كان. ما ترينه على وجهه ازرقّاق وخيوط من أثر العملية. هذا أخف بكثير من معاناته النفسية. أقسم لو كان الأمر بيدي لبلّغت عن أبيه ومنعته من السفر. يجب أن يسجن ويعاقب على هذه القسوة. نحن في نظركم آباء فشلة لأننا نترك أولادنا أحراراً بعد سّن معيّنة. أبداً لا يفعل أب، مثل ما فعله زوجك بابنه، إلا إذا كان الأب غير سويّ، سكيراً أو مقامراً تأخذ الدولة أولاده منه لتحميهم من أذاه.

استبقوني في المستشفى بسبب ارتفاع الضغط الذي أعاني منه. ذهبت دنيا إلى البيت وعادت في الصباح لتروي ما رأت فتزيد حرق أعصابي وتوتري. وقالت نجمة تركت البيت.

أرسلت لي إدارة المستشفى فاتورة علاج الأسبوع القادم وفاتورة الأسبوع الفائت. علمت أن نجمة لم تسدد حساب يوسف في المستشفى.

ذهبت إلى البنك لإحضار المبلغ المطلوب. فوجئت بأن الحساب فارغ إلا من بضع جنيهات، المبالغ كلها سحبت قبل أسبوعين، أي قبل حضوري. قالوا السيدة نجمة، خطيبة السيد يوسف، سحبت المبلغ كله، بالتوكيل العام الذي تملكه من يوسف.

كان لا بد من الاتصال بيحيى ليرسل المال اللازم لعلاج يوسف. أرسل المبلغ دون استفسار. قابلت إيزي في المستشفى فسألته عنها.

– نجمة ذهبت لزيارة ذويها في القدس.

– متى ستعود؟

– لا أعرف بالضبط. لكنها ملتزمة هنا بعمل في نهاية الشهر. هي المسؤولة أمام المتعهد. إما تنفيذ العقد أو بدفع غرامة مالية.

– أريد اسمها وعنوانها هناك.

ضحك بسذاجة وقال:

– والدها معروف من أشهر تجار الألماس في إسرائيل.

– أهي؟

بصفاقة أجاب:

– إنها يهودية من مواليد القدس.

– أليس من الممكن أن تكون قد هربت بأموال يوسف التي سرقتها من حسابه وتركته؟ عمل مشين. لكن ليس غريباً على يهودية.

– أرجوك سيدتي.. اختاري كلماتك فأنا يهودي أيضاً. نحن أقرب الناس ليوسف. ليلة الحادث الهمجي، كانت ليلة إعلان زواجهما.

– بأي صفة تتكلم معي بهذه الصفاقة؟

– صديقهما.

– تتزوج من يوسف وتبقي على صداقتها بك؟ شيء مقرف.

خرج غاضباً؟ انبرت دنيا تدافع عن يوسف. وتتهمني بأنني من علمه الخوف والطاعة العمياء فصار سهل القيادة. المهم ألا تسرقنا.

– لقد سرقت كل المال من البنك وهربت. يحيى وصفها بامرأة حقيرة لن يقبلها أماً لأحفاده.

سكتّت جدتي عن الكلام. سكتّت طويلاً. تتنهّد بحرقة من بكى عشرات السنين. أحطت كتفيها وضممتها إلى صدري يا عجبي! لاذت بي كطفلة صغيرة واحتضنتني بدورها، نظرت في عيني وقالت:

– بعد الهزة النفسية التي تعرّضت لها بغياب يوسف كدّت أجنّ. سافر ولم يخبرني، هو يعرف كم أتفهمه وأقدّر رغباته، بل وأحترمها. بقيت وحدي، والكل بعيد. ألتاع، وأبكي، وأحزن. الموت أمنيتي. مدني الله بقوة غير عادية فتحولت رغبة الموت لنبض حياة. وأي حياة!

فجأة لانت قسمات وجهها وتلوّنت وجنتاها بلون الورد الجوري الذي تعشقه. تذكّرت وصف جدي لها. بثيابها المدرسية السوداء وياقة بيضاء كنقائها. تتأبّط حقيبتها بين ذراعيها وتضمّها إلى صدرها. بكت من جديد فبكيت معها. عمتي ظهرت دون استئذان قالت:

– كم أتمنى أن أشارككما الدموع. دموعي جفّت من طول البكاء. وقلبي محترق على ابنتي الغائبة التائهة.

قلت وأنا أغادر المكان:

– سوسن بخير يا عمتي.. بضعة أيام وستكون بقربك.

قالت بصوت واحد ومتناغم:

– يا رب.

انسحبت جدتي كذلك عمتي من الغرفة. قررت ألا أنتظر أكثر من ذلك. عادت جدّتي. أقبلت من الحمام ناحيتي ووجهها ويديها غارقتين بالصابون تضاحكت قائلة:

– لا تقل إن الفضول دفعك للبقاء.

– وأي فضول، إنه يشبه كثيراً آخر كلمة قلتها قبل قليل. استبدلت الموت بالحياة.. وأي حياة. اجلسي وأتمّي حكايتك.

– آه يا يحيى.. كم مررت بأوقات عصيبة بعد أن غادر أبوك لندن

وتركني في حيرتي، قلقة أتساءل: أين ذهب؟ كيف سيعيش؟

جلست على أريكتها واسترسلت في حديثها:

سافرت عائدة إلى يحيى. لعله يستطيع فعل أي شيء لنعرف أخبار يوسف. تجاهل وجودي لا يجالسني ولا يكلمني. كان في أسوأ حالات غضبه. اعتدت على الطرق التي يلجأ إليها، ليقنعنا أنه بغمضة عين يحذفنا ويلغينا. كان لا بد من بحث الأمر معه. استعملت الطريقة التي تجبره على التوقف ليرى ويسمع. عليّ أن أبدأه بالتحية، وأطلب منه، برجاء، أن يسمعني. جلس أمامي وغطرسته تفترش وجهه العبوس وقال:

– بسرعة، قولي، ماذا تريدين؟

– أريدك أن تبحث عن يوسف.

– يوسف؟ من يوسف؟

– ابننا يا يحيى.

انتفض واقفاً وهو يصيح:

– يوسف الذي أعرفه مات.

صرخت ووقعت أرضاً:

– مات.. كيف ومتى؟

تركني مطروحة أرضاً أنوح لم يطرف له جفن. جاءتني أمينة ورفعتني وهي تقول يوسف بخير. أخبرتني دنيا بأنهم سافروا لمكان لا تعرفه بعد أن تزوج من الدكتورة ليلى.

سجد كل ما بي لله أنه بخير وتزوج ممن تستحقه. بعد مكابدة ليلة بأكملها بلا نوم وقد قررت الانفصال بطلاق أو بغيره. كان نائماً في الصالة. صرخت بغضب سنين:

– يحيى، أنا مسافرة ولن أرجع.

جلس مكانه مطأطئ الرأس ينتظر باهتمام:

– أتمنى أن تطلقّني، لكن حسب ما أخبرتني ذات مرة أنك لا ترمي مقتنياتك ولا تتخلى عما تملكه اتركني في مخازنك اتركني أعيش.

نظر نحوي، في عينيه دمعة محبوسة. خطا نحو الباب وقال:

– افعلي ما يحلو لك.

بضع ساعات، أرسل مظروفاً، به تذكرة باتجاه واحد لأي مكان أختاره. دون أن ينسى أن يحشوه بالمال وأن يذكّرني للمرة الألف. هذا المال تزوجتني من أجله. سيبقى تحت أمرك أبداً.

عدت إلى بيتي المرهون في لندن. كنت وحيدة إلى أقصى حدّ. موجوعة بشكل مخيف. الزوج لم يكن زوجاً، بل فرداً، وسيبقى. لن يسمح لمشاركته معبده. ابني غاب في المجهول. ابنتي استقرت في باريس. ابنتي الأخرى غابت في هذه الدنيا. آخر مرة سمعت صوتها بعد أن رجوت الرئيسة أن تخبرها أنني بحاجة للكلام معها لأن الموضوع حياة أو موت. ردت بجفاء على طلبي أن تأتي لنعيش سوياً في لندن– آسفة سيدتي. أنا سعيدة حيث أنا. ليس من اللائق أن تستعطفي الناس ليجبروني أن أكلمك. سيدة وجدان أنا في أحسن حال أساعد شباباً وصبايا، أفسد حياتهم أب أو أم. مثلي زمان.

تخيل أي فوّهة بركان قذفت به. جحيم أتلظّى به. وحيدة مجروحة مكسورة زاهدة. أتمنّى الموت وأنتظره. فلا أموت، ولا أحيا.

فكرت بالهروب من كل ما أعانيه. نعم الهروب، هو الحلّ الأجدى لوضعي. لأنني، ربما، كما قال السيد المغرور، لا أجيد شيئاً سواه. ونسي بأنه من حكم عليّ بأن أكون آلة يتسلى بها. يعزف ألحان رقيقة تارة، وشقية حزينة تارة أخرى.

حزمت أمري وحقائبي لأذهب إلى منتجع خارج مدينة لندن كنت أتردد عليه للاستجمام. موقعه جميل. مريح. وبعيد. هناك أروح عن نفسي هجمات اكتئاب تسلمني لخوف مريع. أغرق بمكان سحيق بلا قرار. يضيق صدري بروحي. لا أجد سوى فراغ، سوى ظلمة ليل طويل، انتظر فجره، وأنافي فراشي ملتحفة بغطائي، كأنه كفن.

بذلك المكان الساحر عشت أشهراً طويلة حتى استعادت نفسي هدوءها. ساعدني الجو اللطيف بين من هم على شاكلتي لا يرجون سوى راحة البال والنفس. كنت في أوجّ عمري. العمر الذي قضيت أكثر من نصفه محبوسة بقفص ذهبي ولا شيء آخر. فهمتني.

– لا.. لكني يمكن أن أقدّر.

اقتربت مني ومسحت دمعتي بيدها وقالت:

– ألا يكفيك ما سمعته يا فتى؟ ألم أرض فضولك بعد؟

– الآن أريده بإلحاح. ليس فضولاً كما تظنين، بل هو فصل آخر عنك أريد أن أعرفه حتى قبل أن أعرف أي شيء عن أبي وأمي. هيا، وجدان العالم احكِ.

– مرت سنة ولم يتصل بي أحد ولم أتصل بأحد. اعتدت الوحدة. تحسنت صحتي الجسدية والنفسية وفارقني الصداع النصفي الذي لازمني منذ رأيت يوسف في المستشفى.

أقضي أوقاتي بممارسة رياضة بدنية ورياضة اليوغا والاسترخاء والأكل الصحي. هل نسيت أم تناسيت. قبلت بحذر بمشاركة النزلاء بالترفيه بسهرات يقيمها المنتجع. معارض رسم لفنانين مشهورين، حفلات موسيقية لفرق مشهورة. أوركسترا كاملة، يتخلّلها فواصل، لعزف منفرد من آلات النفخ كصوت الربابة الشرقية التي أعشقها.

فترات العصر يلتقي النزلاء في الأماكن المخصصة لشاي العصر. أو لمشاهدة فيلم أو للعب الشطرنج أو الورق. غالباً أهرب من صخبهم وهرجهم. ألوذ بغرفتي أمارس هواية القراءة وكتابة يومياتي. قد أتندرعلى موقف رجل أو سيدة، بيني وبين نفسي على الورق.

هذه أهم ميزات البلاد المتحضرة. لا أحد ينشغل بأحد. يهتم بصحته وراحته. لذا شعرت بالأمان. لم يقتحم أحد عليّ وحدتي ويتسلى بمأساتي. مضت الأيام.. لم أعد أشعر بوطأتها رغم الوحدة. شعرت بتلك الغرفة المطلة على أجمل منظر طبيعي خلاب هي بيتي. توحدت

مع الطبيعة وتغيرات فصولها. الربيع يجعلها تبدو كامرأة جميلة تتباهى بألوانها المختلفة وخضّرتها فتزيد جمالاً. جميلة أيضاً وهي تكتسي ببياض صاف نقي في شتائها. أما أحب الفصول إليّ فهو فصل الخريف. أراقب تساقط أوراق الأشجار الميتة صفراء وبنيّة وحمراء، تئن منسحقة تحت خطواتنا. مستسلمة لعمال النظافة وهم ينقلونها إلى مثواها الأخير، يسحرني الشجر بأغصانه المتفرعة الفزعة الخجلة من عريها تحت ضربات الرياح. إلا أنها لا تخفي انتشاءها برائحة خصوبة التراب وهي تستعد لموسم جديد. نكهة الصيف عجيبة أحب الاستلقاء على الحشائش النديّة النظيفة فأنام طويلاً.

بلمسة سحرية سهلة وبسيطة خرجت إلى الضوء من زوايا النسيان، نسياني نفسي ومطالبها واحتياجاتها لأبسط أسباب العيش. ذلك اليوم كنت أتناول الفطور وحدي كعادتي، صامتة كعادتي، ومعرضة عن الجميع كعادتي. فجأة تقدّم مني رجل أنيق جميل طلق المحيّا. أتى إلى المنتجع منذ من فترة. يبدو بأنه كان رجلاً معروفاً أو مشهوراً. أثار ضجّة كبيرة بين النزلاء. كان مثلي. عازفاً عن كل شيء مكروباً حزيناً بشكل واضح. قال بلهجة عربية سليمة:

– صباح الخير أيتها السيدة الصامتة.

– عفواً ماذا قلت؟

رفعت وجهاً غاضباً نحوه. وجدته محدقاً بي. كان يقارب الخمسين في عينيه معاناة تشبه معاناتي. زهد وهروب ووحشة. قلت بجفاء:

– نعم، أي خدمة..

– آسف لا شيء. الجميع محتارون ويتساءلون: كيف لم تألفي أحداً بعد كل هذا الوقت؟ قرّرت أن أجرب حظي.

– ظننت نفسك ذاك الجريء الذي يقتحم الصعاب.

– أوه. من الخير لك ولنا أن تبقي صامتة.

– ماذا عنك؟ هل تآلفت مع أحد؟

– ها أنت تراقبينني إذا. أنا هنا طلباً للوحدة، لسبب جوهري.

– وهل هذا مباح لك، محرم على غيرك؟

– آسف..

انسحب بسرعة البرق، خرج من المطعم، واختفى بين أشجار الحديقة. لكن لم يتوقف الأمر هنا، كأن تلك التحية التي لم أرحّب بها جواز مرور لكلينا، لنلتقي بالتحية كلما تلاقينا في مكان ما– في قاعة الرياضة، أو قاعة الطعام، أو قاعة التدخين أو مكان المشروبات الساخنة بعد الرياضة.

كنت غالباً في فترة الاستراحة وقبل الغداء، أجلس تحت شجرة وارفة الظلال كملاذ جميل في الحديقة. أسجّل يومياتي تحت أشعة الشمس النادرة في تلك البلاد سمعته يقول:

– سأفترض أن اسمك غادة. ولدت من هذه الشجرة الخضراء الملتصقة بها يومياً. وسأسمي نفسي ماذا؟ ماذا؟ أعتقد بأن من الأفضل أن تسمّيني أنت كما فعلت أنا.

– أسميك النبيل.. على وجهك سمات حزن نبيل. صفة قلّما نلمحها في وجه من وجوه هذه الأيام. وهذه الأرض، بتربتها الحمراء الخصبة هي أمك. يبدو بأنك ابنها الوحيد فغالبية الرجال وحوش ضارية.

– يا لطيف الطف. إلى هذا الحد أوذيت؟

– أنت تستدرجني لتفاصيل لا أعرفها، فأنا للتو ولدتني هذه الشجرة.

– وأنا للتو ولدتني هذه الأرض الطيبة، فمن أين لي بهذه الحشرية المخجلة؟آسف يا غادة.

– لا عليك يا نبيل. تذكر اسمك لن تعود للحشرية.

تنهّدت عميقاً والتفتت نحوي وهي تقول بأسى:

– تعرف، يا يحيى، كل مخلوق على وجه الأرض بحاجة إلى أشياء هي صميم إنسانيته، إن تذكّرها تؤرقه وإن تناساها يتوه.

– ربما أعرف. إذا كنت تعنين بهذه الاحتياجات، المشاعر ذاتها التي يفتقدها الإنسان الذي يعيش وحيداً، يفتقد لمن يهمهم أمره. سواء أكان رجلاً أم امرأة، صغيراً أم كبيراً. عشت هذا الشعور. ربما أكون قد قمعته أو خنقته فلم يعد يطفو فوق الوعي.

– هو ذاته.. نستطيع تسميته احتياجاً روحياً نفسياً عاطفياً. هذا الشعور المغيّب المخنوق، انتعش وصحا. ربطت بيننا علاقة نادرة، عاطفة خاصة، غاصت في عمق القلب. شهور تعاقبت وإذ بي مخلوقة أخرى. أشعر بالامتلاء. غدير رقراق صاف، روى روحي العطشى، فامتلأت أخاديدها، واخضرت أطرافها وحواشيها. اصطبغت بشرتي بلون الذهب، نشاطي الرياضي تبدل. ثمة شيء تخلق في داخلي فأنار ظلمة سنين. إذ بتلك الصبية التي كنتها تعود.

حرصت على زيارة معارض الرسم أسبوعياً من أجله. في كل مكان أكون فيه ينبت إلى جانبي كما انتظر. كأنه جزء مني. يشرح بطلاقة فنّ رسم تلك اللوحات المعلقة على الجدران– هذه اللوحة لغوستاف اسمها "القبلة" أول مرة رأيتها في فيينا. يجمع المرأة بالرجل بمعظم رسوماته كأنه يؤكّد أن لا بدّ أن يكونان معاً معنى الحياة. هذه لوحات جميلة منمنمات ساحرة لمونيه. فيها عشقه لألوان الطبيعة ومروجها. هذه اللوحات غير المفهومة لبيكاسو. بورتريه وجوه سيدات أنا شخصياً اعتبرتها مشوّهة. ربما عبّر عن قناعاته بالمرأة.

صمت فترة كأنه يستجمع شجاعته وهمس:

– لو رآك لغيّر قناعاته وفنه.

ضج شيء في دمي، امتلأت به شراييني، انفرجت أساريري، وابتسامتي المفقودة طفحت على كل جزء مني. الأرض لم تعد صلبة تحت قدميّ، وكفايّ تعرقا. أصابعي انكمشت كقبضة قوية. لكمة لمن حال بيني وبي الحياة. إنها الحياة تسري بهدوء في كياني فاتكأت على ذراعه التي كانت بانتظار لحظة اعترافي بكل حقوقي.

حمدت الله أنه كان لاهياً عما يجري بقلبي قرب قلبه. لا أعرف كيف

لم يشعر؟ لعله شعر وتغاضى ليتركني أتلذذ برحيق الحياة.

تبدل حالي. صرت امرأة أخرى. لا تفارق الابتسامة شفتيها. ترمي التحية لمن حولها دون تكلف. التف حولي معجبون كما لم أحظَ بمثله أبداً. يطلبون ودي وصحبتي أرد بابتسامتي أنا أحيّا.

في الحفلات الموسيقية يشرح لي هامساً المقطوعة الكلاسيكية– اسم مؤلفها وتاريخها وكم حركة فيها. صرت أتمتع بسماع الموسيقى ذاتها أكثر عن ذي قبل. أنا من عشاق الموسيقى الحيّة، لكن معه صارت أجمل وأشمل. حكى عن موزار وطفولته وحياته، وبتهوفن وصممه، وباخ وتراتيله، وشوبان وشغفه. شرح عن حركات الموسيقى المتعددة. معنى صدوحها وانخفاضها. معه، صرت لا أسمع الموسيقى فقط بل أراها. شاهدنا أفلاماً سينمائية كلاسيكية من أشهر أفلام العالم. قرأنا معاً كتباً، وتبادلنا بعضها في ما بيننا. قرأنا أشعاراً لشعراء أحببناهم، قرأ لي شعره قائلاً: إنها محاولات. قرأت له يومياتي. توافق عجيب بين نفسين تلاقتا بعد مشوار طويل. صارت الحياة غنية ثرية، يكبر كل شيء سوى عمرنا، بدونا شباباً نتمتّع بكل يوم بكل ساعة. قال مرة:

– أين كنت كل هذا العمر؟

– أتقول العمر؟ أي عمر؟ نحن ولدنا هذا العام.

– أحسنت! هذا ما أردت قوله.

– ماذا تتوقّعين نهاية لقصتنا؟

– بلا نهاية. ألا يكفي هذه الصخب في دواخلنا؟

– لا لا يكفي. عني أريدك كلك حتى الموت.

– الذي تتكلم عنه قد ينهي القصة، ينسفها. يقتل الشعور الجميل.

– هل ما زال أحد يؤمن بالحب العذري؟

– نعم، جداً.

فجأة انقطع عن موافاتي حسب العادة في مرافق المنتجع. يتناول فطوره باكراً، ينهي رياضته قبل أن نبدأها. لا يحضر في موعد الغداء

والعشاء. أحاديثنا الكثيرة والطويلة والمتنوعة تتقطع وتفقد توهجّها. إذا التقينا صدفة نصمت. أعيننا تجوب بكل ما حولنا وتتجنّب التلاقي. لم أحزن كما كنت أتوقّع. المشاعر تموت أيضاً. احترمت ذلك، وحاولت الابتعاد، فتزداد الهوة يوماً بعد يوم.

ذات مساء كنا في جلسة نستمع إلى محاضر يحكي عن تاريخ المنتجع الذي كان ذات يوم قصراً. اقترح الذهاب غداً صباحاً لزيارة قصر آخر هو توأم القصر الذي نقيم فيه. سنصله مشياً على الأقدام مسافة ثلاثة كيلومترات نتناول فطورنا هناك ثم نعود المسافة ذاتها.

كان نبيل أول من رفع يده موافقاً ثم تبعه آخرون فقررت الذهاب معهم. في الصباح قبل المغادرة افتقدته، سألت الدليل الذي سيصحبنا فقال لقد اعتذر في الصباح بسبب وعكة صحية ولن يغادر السرير.

انطلقنا. عشر دقائق لا غير وتبدل الطقس، معظمنا بلباس رياضي خفيف، توقف القائد متسائلاً: هل يرغب أحدكم بالعودة لإحضار ما يدفئه رفعنا أيدينا كلنا نساء. ارجعن وسنمشي بتمهّل ريثما تعدن.

رجعنا عدواً كل منا إلى غرفتها لتحضر سترة ثم نلتقي خلال دقائق في المدخل الرئيسي. يبدو بأن غرفتي هي الأقرب، فقد عدت بعد أقل من خمس دقائق ووقفت بالانتظار في زاوية بعيدة عن مجرى الهواء وإذ نبيل يخرج مع المرأة التي أتت للمنتجع منذ بضعة أيام وهما يتضاحكان يلفّ يده حول خصرها. فتح باب سيارة أجرة وأجلسها، دار إلى الجهة الأخرى وانحنى فلمحني، تردّد ثم دخل، وانطلقا.

ضحكت وهمست لنفسي: ليس نبيلاً ولا ما يحزنون. كالآخرين يهتز ولو لعابرة سبيل. نوع غريب من البشر لا يضيع وقته.

انطلقنا نعدو لنلحق بالركب. أتممنا رحلتنا ذهاباً وإياباً، عدنا مساء. اندفع الجميع نحو غرفهم ليستحموا ثم يعودوا لتناول العشاء، لكن، غالبيتهم تخلّوا عن العشاء للراحة التي كنا بأمس الحاجة إليها.

لم أرَه مدة يومين، ثم التقينا ونحن في غرفة اليوغا. أخذ يحاول أن يشرح لي ما رأيت بأنه كان مريضاً وطلب سيارة أجرة تقلّه إلى

العاصمة للعلاج، وصادف تلك النزيلة بالمدخل تحاول طلب تاكسي لأنها مريضة أيضاً فصحبها معه.

لم أردّ، صمت قليلاً، يبدو بأنه تذكر بأنه كان يحتضنها، فقال: لم تكن قادرة على المشي، حال وصولنا إلى المستشفى طلبت لها كرسياً متحركاً. أنقذتني المدربة حين قالت الرجاء الصمت والانتباه.

عدنا نتلاقى في عدة أماكن لكن لم يقترب أحدنا من الآخر سوى إيماءة بسيطة للسلام. مرّ أسبوعان ونحن متباعدان غاضبانِ دون محاولة للتفاهم. خرجت إلى حديقة المنتجع كعادتي وجدته واقفاً تحت الشجرة التي أسماها أمي. كنت قد هجرتها منذ ساعات الأمور بيننا. تقدم مني، ووقف جامداً، ثم مدّ يده وانتزع الكتاب من يدي. التفتّ نحوه متسائلة. كان شاحب الوجه ومرارة قاسية في عينيه. قال بجديّة:

– أنا مغرم بابنة هذه الشجرة، آتيها كل يوم لتخبرني كيف السبيل لأقدم اعتذاري إلى حبيبتي.

– وهل أخبرتك بشيء؟

– ليس بعد.. لعلها كابنتها، تكره الحديث عن الحب.

– قصدتني وأنا أيضاً لا أعرف ولا أريد أن أعرف. كانت أمي تقول: ما من بداية إلا ولها نهاية. وعلمتني أنه لا حب في هذا العالم منزّه عن غاية. أعترف وبكل صدق أن مشاعري كانت صادقة لكنها مختلفة، أعتقد أنه كان حباً حقيقياً. برعم صغير نبت فجأة برمال صحراء نفسي. كاد أن يصبح حدائق غناء. من يريد هذا؟

– إذاً فأنت غاضبة.

– لست غاضبة بل نادمة.

– نادمة؟

– ما الذي تريده ممن أسميتها حبيبتك؟

– كلها.. . قلباً وروحاً وجسداً..

– للأسف، اخترت المرأة الخطأ. " على نفسها جنت براقش " .

– براقش!! أهذا كل ما عندك يا غادة، رداً على شعور جميل؟

– عند هذا الحد، لم أعد غادة. أنا الأخرى التي اتفقت معك ألا يقتحم أحدنا حياة الآخر.

– لا يمكن أن أتخيل أنك لا تبادليني المشاعر ذاتها.

– من قال هذا؟ مشاعري نحوك كإنسان نبيل راقية. هل كنت تنتظر أنه بإمكاني أن أكون تلك المريضة في يوم ما. هزلت..

ابتعدنا وعاد كل منا إلى حياته السابقة، مع الوجع الجديد. لم يعد هناك شيء جميل ننتظره. ولا حديث شائقاً نتبادله، ولا وجه حبيب نغمره بأشواق الدنيا، وبوجع سنين، ابتعد جداً وكثيراً.

– ماذا عنك عن مشاعرك تجاهه؟

– عانيت الشوق لكل شيء. راقت لي فكرة الابتعاد. صدمت. أنه يراني من الزاوية الضيقة التي يرى رجل أي رجل امرأة أي امرأة. هذا تجاوز فلم تعذيب نفسينا.

– أرى دمعة كبيرة تطفو في العيون الجميلة. ماذا حدث؟

– مات. كان مريضاً وقد أتى إلى المنتجع للراحة. بكيته كثيراً وطويلاً وما زلت.. الحق يقال كان إنسان حياتي. هو من كنت أحلم به منذ صباي. قبل أن يخطفني جشع ويضعني بأجمل مزهرية. أو اعتبرني تابلو جميلاً معلقاً على حائط القصر. أو تحفة مفضلة.

جميل أن تهفو روحك للحب. جميل أن يحبك إنسان ما، لكن الأجمل أن تحبه أنت أيضاً. نبيل أحبني كامرأة. ويحيى أحبني كشيء يمتلكه. لم أشعر بأنني أخون. فالمشاعر التي وهبتها لمن يستحقها لم تكن تعني ليحيى قدر ما يعنيه الشيء المادي الملموس نفسه ونجاحاته. وأنا ما خلقت إلا لأحب وأحب.

– كم استمرت علاقتكما الفريدة تلك؟

– لا أعرف. كان حبي الأول ورجلي الأول. أحببته وسأظل أحبه حتى أموت.

– هل رأيته قبل أن يموت؟

– نعم، رأيته، لقد قضى آخر أيامه في غرفته.

– هل أخبرك بأنه يموت؟

– نعم، كنت أظنه يستدر عطفي ولهفتي. قال والحزن يغمر وجهه:

– كنت غير آبه بالموت. بل كنت بانتظاره. تركت عائلتي لأموت بسلام. وإذ بي أصارع بركاناً شب في داخلي، منذ رأيتك أول مرة، صامتة مبتعدة، وعينيك ساهمتين في فضاء، وحزناً وغضباً يفترشان ملامحك. أحسست بمشاعر صادقة تتدفق فهزمت الموت.

– لماذا لم تخبرني بالأمر؟

– إذا قلت لك إنني نسيته صدقيني. نسيت هذا الشيء المخيف ساكناً برئتيّ ويهددني. شعلة حبّ نشبت بقلبي. نسيت وعشقت وعشت أجمل أيام العمر. مرضي أرّق من حولي. صرت أقرأ في أعينيهم متى؟ وقوع البلاء خير من انتظاره. عندهم حق، الانتظار قاتل. أقوى من الألم وأقوى من الأمل. قررت الابتعاد. هداني قلبي إليك. حركت نبضات قلبي من جديد.

لم أعش موقفا أصعب على قلبي من لقاء عينيّ بعينيه الباكيتين. لامست يده وجهي وهمس.

– لا تكوني بخيلة. لا تحبسي مشاعرك. أو كما قال جبران لحبيبته لا تحبسي الخير. دعيها تنطلق نحو توأم روحها أطلقي العنان فها هي تضج بلمعة عينيك، بنور خديك، بلون شفتيك. قولي أحببتك أو أحبك. لأنام أو أموت.

– يا حبيبي الأثير والوحيد. أحببتك، وأحبك، وسأبقى أحبك. بقربي أو بعيداً عني سيظل نور الحب الذي ظللتني به أنا دروب عتمتي. تلك الومضة أشفتني من وجعي من حزني من سأم روحي.

صعب نسيان فقدان توأم الروح. صعب قبول ذبول شجرة حياتي. صعب من أحببته بكل حرمان سنواتي. سامحت ظلم الدنيا. تصالحت

معها وقدمت لها كل امتناني وأحببت الحرمان الذي انتهى بظهورك. أنت أنا. أتنفس وجودك. انتظر الصباح لتشرق بعيني مثل شمسه. إقبالي على الدنيا بعد عزوف ما كان إلا لأنني أفتقدك. حدثني قلبي عنك. أخبرني أنها مسألة وقت وستأتي. وستحمل لي حب، وبهجة، وفرحة، كقلوب كل البشر. آمنت أن الله لا يظلم قلباً سكن فيه.

ابتسم ابتسامة كبيرة. واستنشق الكثير من الهواء ملأ به صدره لم يخرجه. ذهب وعينيه ضاحكتين، ولونهما الجميل مغروسا فيّ قلبي.

ألقت برأسها على كتفي وهي تقول:

– يحيى أصدقك القول لم يكن باقتداري السيطرة على مشاعري المخنوقة منذ سنوات. وقلبي المحروم. كان قدري الكبير، نصيبي من دنياي. بسمة صغيرة. زرعت ونبتت في ضميري فأينعت وستبقى.

قبلتها كثيراً من وجنتيها ويديها. احتضنتني بشوق الدنيا لحبيبها لابنها ولحياة كانت تتمناها سوية. استرحت ونمت بقربها.

عدت للبيت وشيئاً جميلاً يلعب بقلبي. قصة محزنة لكنها أفرحتني. ما خلق الإنسان إلا ليحب ويحب كما قالت جدتي.

عزمت على سرقة الأوراق من غرفة جدي. من يدري. لعلي أحظى بقصة حب جميلة أخرى. أخذت أوراق أبي الملفوفة بعناية ومعها الأوراق التي تخصني وانسحبت بهدوء. عقلي يدور بسرعة نبض قلبي. همس جدي:

– أريد وعداً منك أن تقضي بقربي ليلة هانئة، مثل ليلة أمس التي قضيتها مع جدتك. اقرأ ما كتبه أبوك وأمك. أتمنى ألا تدمي قلبك كما فعلت بي. لا تقسو عليّ. وأحبب جدّتك بكل طاقتك. فهي وردة حياتنا كلنا لكنها عطشى.

بدأت قراءة أوراق أبي بنهم عجب. تقفز عيناي بين السطور وبين الصفحات باحثة عنه. كنت مندفعاً مثل رمح انطلق من قوس مشدود

على آخره. أحاول التروّي فلا أقوى. هذه الأوراق تخصّني وحدي.

انتهيت من القراءة وباللحظة ذاتها انتهت قدرتي على التحمل. نحيت الأوراق جانباً. وسرحت للبعيد أبحث عنه. أين هو؟ أين أجده؟ يا الله. أكلّ هذا الظلم والأسى عاشه أبي؟ أي زمن هذا؟ جور، وحزن، واضطهاد. دموع كثيرة وابتسامات شحيحة. عدت للقراءة من جديد، وتساءلت: عليّ مواجهة الحقائق كلها. عليّ التمسك بالحكمة حتى لا أظلم أحداً. نور وظلام، فرح وحزن، وأمان وخوف.

كان أبي يسعى للوصول إلى الحق، والخير، والجمال. فخسرت أنا كل شيء. لا حزن يشبه أحزاني وأبي يتلوى على صفحات الأوراق التي بين يدي. رأيته نعم رأيته حقيقة وليست مجازاً متعباً شاخصاً ببصره إلى البعيد، يبحث عن نفسه. وحين يذكر أمي، أراها في مكان ناء. وحيدة، تنزف أملها بحياة بسيطة تحتضن بها زوجها وابنها.

طغى عليّ إحساس بالقهر لقدرنا العجيب. انتزعت الحياة منا وافترقا. أبعداني حرصاً عليّ ألا أغيب في المجهول. مثلما انتزعت أرض أجدادي وأرواحهم كما روى جدي. مرة أخرى، سفاحون قتلة يعيشون على الدماء، هم دراكولا المخيف الذي قرأت أنه كان مصاصاً للدماء. قتلوا شردوا ليعيش الشعب المختار! أستغرب فوق هذا وذاك يصفوننا ونحن من سرقت بيوتنا وأراضينا واستقرارنا، بالإرهابيين والمخربين. سيذهلني حقاً إن وجدت من يلوموننا وإن كنا كذلك.

حزن. لا بل غضب. نقتات عليه ويأكل الإنسانية بداخلنا وكل جميل. حماسة وروح وطنية عجيبة أدمت قلبي. دنيا امرأة بسيطة. زرعت فيّ كل هذا. كان إذاً ذلك كلاماً وها هو الآن عقيدة ودين. نعم يا عزيزتي ما قلته صحيحاً. الأرض وإنسانها كيان واحد لا يفصلهما حد سكين. لكن الشيطان الرجيم أو واحد ممن حالفه، قانونه فوق قوانين الرب والبشر بترني عن عائلتي. وحكم أن أكون وحيدا مثل نبات بري سهل الاقتلاع.

أتوقف عن القراءة لأقول على الملأ كم كرهت الظلم والإلغاء. كم كرهت الأسئلة، التي تلح وتكبر في رأسي، بل ورأس جيلي كله. ما

أسباب النكبة؟ والنكسة؟ والتخلف، والمهانة. وهواننا على الناس؟ وما العلاج؟ من هو هذا السافل الذي اخترع عبارة "أرضنا مقابل سلام زائف" كيف وافق عليها أي منا؟ نفسي تعسة فزعة من غد آت فتتكرر المأساة. يستأسد العييّ مسروراً. وبحد سيفه القول الفصل. ينفذ ما يؤمر به كرقيق مأجور.

سأعود لسيرة أبي وخياله الذي يلوح على الصفحات. باسماً بألم باكياً بأمل يلوح في العينين الصادقتين. ربما سأقرأها مرات.

يوسف

وعيت، أو ربما قبل الوعي، أن ثمة إنساناً عاشقاً لنفسه حتى التأله. كبلني بسلاسل من ممنوعات. كان مؤمناً أنه الأكبر والأعظم والأقوى. لا يحق لكائن من كان، أن تسوّل له نفسه الخروج عن قوانينه. حكم عليّ وأنا ابنه الوحيد ألّا أكون كما أنا. أرادني نسخة طبق الأصل منه. امتداداً له. تمردت.

أحاط حياتي بالممنوعات. ممنوع من الحلم والتمني ممنوع من التفكير ممنوع من الرفض، من الاعتراض، من إبداء رأي. لذا صارت الحياة بيننا سجالاً مريراً لا يهدأ.

حشرني ذات يوم في زاوية وحطم جمجمتي. فقد قررت أن أكون أنا، وأعيش كما أنا، لا شأن لي بغيري. منذ البداية كان نرجسياً لا يرى غير صورة وجهه أينما نظر. مبهوراً بإنجازاته. لا أذكر أنني عشت طفولتي وشبابي وكهولتي بتسلسلها الطبيعي مثل بقية البشر. بل أحيا لإرضائه. أنام وأصحو، وآكل وألبس، وأذهب إلى المدرسة، ثم إلى الجامعة، كأنني هو، أبي.

توقفت برهة عند هذه النقطة لا بد أن جدّي قد قرأ في هذه الأوراق هذه الكلمات فأثرت به. فقد قالت سوسن، بأنه تعرّض بعدها لهزّة صحية، لأول مرة في حياته الطويلة والمليئة بالشقاء والألم. فمثل هذا الكلام من ابن عن أبيه، موجع. عدت لأوراق أبي:

صحوت من نوم طويل فوجدت نفسي، على سرير مستشفى. حول

رأسي ضماد كبير، تحته جروح مشدودة بخيوط. لا مسته مستهجناً فشرحت الممرضة. أصلح الطبيب الجرّاح ما حطمه أبي، رأسي ووجهي. أمي بجانبي مساجاة تحيطها أجهزة كثيرة. تذكرت ما حدث. لكن أمي لم تشهد محاولة قتلي فمتى جاءت ولماذا؟

فتحت عينيها، نظرت نحوي بشوق. هبّت من سريرها، اندفعت نحوي، دقّت جرس الطبيب، وبيدها الأخرى تلامس وجهي وكتفي، وتقول: سيفرح الطبيب كثيراً حين يراك يا حبيبي واقفاً على قدميك.

جاء الطبيب، هتف بفرح:

– الحمد لله على سلامتك يا يوسف. طمئن أمك.

– منذ متى وأنا هنا؟ عليّ المغادرة. عندي عمل مهمّ بانتظاري.

– لا أعتقد ذلك. أنت بحاجة لفترة علاج طويلة بعض الشيء. ستتولى أمر علاجك طبيبة متخصصة في حالتك.

تركني وأفسح الطريق أمام طبيبة قدمت نفسها. أنا ليلى طبيبة نفسية. ثم جلست على حافة سريري وسألتني عن اسمي وعمري ودراستي. كانت في غاية اللطف والجمال. أجبتها فدونت ما قلته في أوراقها. سألتني فجأة: ما الذي أغضب أبي بشكل مرعب. أجبت:

– ربما بسبب الموسيقى، أو حبي لفتاة رآها غير مناسبة له.

قالت بمرح:

– له؟ هل هو من سيتزوج بها. لا بأس. كل ذلك سيحل بالطرق التي تريحك. تذكر، ولا تنس للحظة، أنك الأهم. سنبدأ غداً بعلاج يبدأ منك وينتهي إليك. فقط احكِ، عبّر عن نفسك. اصرخ ألعن، وجه السباب والضرب أيضاً لمن ألحقَ بك أذى.

نظرت إليها طويلاً لأستوعب، ثم صرخت:

– ماذا يعني هذا؟ هل أنا مجنون؟

ابتسمت بود كبير وهمست:

– لا يسأل مثل هذا السؤال إلا الجهلة، وأنت، ما شاء الله، ذكاء وعلم

وفن. أنت مجهد نفسياً من ضغوط كثيرة أنستك نفسك. سنعمل معاً لتجدها. تتصالح معها، ومع من حولك. احكِ. فقط احكِ. لا يهم من أين تبدأ ولا عن أية فترة من عمرك. مثلاً، احكِ عمن أسعدك. عمن أشقاك. عمن أحبك أم لم يحبك. شخصاً ساهم بتدمير حياتك.

ارتسم بخيالي رجل متجهّم. نسج خيوطه حولي. أجبت ساخراً:

– فعلاً هناك رجل واحد، أخذ مني حياتي. منذ كنت طفلاً. أدركت ما يريده مني، فرفضت. لن أكونه. نحن شخصان مختلفان. حلمه كان مستحيلاً. وحلمي كان أصعب. ففشل وفشلت.

– من هو هذا الرجل يا يوسف؟

– إنه أبي. فرضت أمي علينا قانونها الصارم. قبوله كما هو، لن يتغير أبداً، فرضخت. وددت لو تركتني مرة واحدة أن أصرخ بوجهه إنه إنسان شرير، مهووس بنفسه. أكرهه وأخافه.

– تحلّ بالصبر. سأساعدك لتعود لك نفسك وشخصيتك وحريتك. لتكون الرجل، العالم والعاشق لفنه وحبيبته. عدني.

– أعدك..

فعلاً جنحت نفسي إلى الهدوء، أمي حرصت إلا تثير أعصابي بكلام أو عتاب. تحاشت ضمي لصدره الآن ذلك يثير أعصابي. كان يكره أن يراها تحتضنني منذ الصغر. يعتقد أن حنانها يفسد ما يقومه فيّ بقسوته. لامست وجهي وضمادات رأسي. رفعت يدي قبلت أصابعي. رائحتها تذكرني برائحته. قلت بعصبية أدهشتها:

– أمي ارجعي لبيتك. لست بحاجة لأحد. لا أريد أمسي، ولا يومي، ولا غدي. ليساعدني كائن من كان غيركما فابتعدا عن حياتي.

أفلتت يديها من حولي، ابتعدت وهي تلملم نفسها وتكومت أمامي على المقعد المجاور وأغمضت عينيها وأطلقت لدموعها العنان.

ماذا أفعل لها. ماذا تنتظر من إنسان مدمّر؟

قبل يوم واحد من موعد جلستي مع طبيبتي، كان رأسي صافياً

مستعداً لبدء العلاج. جاء صديقي ومدير أعمال إيزي يتأفف. سألته:

– خير ماذا عندك؟

– جو أنت في ورطة حقيقية مع متعهّد الحفل.

– ورطة؟ ألم تغيّروا موعد الحفل بسبب حالتي الصحية؟

– نعم غيرناه، لكن سفر نجمة المفاجئ..

– سافرت؟ لقد وعدت أن تنفّذ الحفل دوني إذا لم أستعد قواي.

– لا أعرف ما جرى يا جو. غيّرت خطتها.

رفعت أمي رأسها وقالت:

– سرقت أموالك كلها من البنك. ابني اسمه يوسف وليس جو.

– أصحيح هذا الكلام إيزي؟

– رهنت لهم البيت ليوافقوا على سفرها ولم تعد.

فقدت صوابي، صرت أدور حول نفسي غير مصدّق. بعدما فعلته لأجلها. تحديت أبي. تخليت عن مبادئ ربيت عليها. ذهبت معها لمكان مجهول ومشبوه لطلب يدها. رغم عجبي من تصرفها وهي الفتاة المتحررة المعتدة بنفسها والمتفوقة بدراستها. نفذت لها ما أرادت وانتميت لمذهبهم لا أعرف عنه شيئاً. تركتني وذهبت.

جاءت طبيبتي لتسيطر على هذا الهياج الذي انتابني. أصرخ بكل ما أوتيت من قدرة. يأتيني صوتها من بعيد قوي ثابت– يوسف، اهدأ يوسف اسمع أنت لم تغدر. من غدر شخص غيرك. وهذا لا يضيرك، ولا يقللّ من شأنك كما تظن. انتشلت بصوتها الواثق كبريائي الجريح. هدأت ونحبت ثم نمت.

خضعت للعلاج باقتناع وأمل أن أستعيد نفسي. صارت الجلسات تطول. صرت ألج أماكن في نفسي نائية مهجورة كأنها المقبرة. دفنت فيها سنيّ عمري، بأصغر وحدات الساعة. بكل لحظة عشتها مغلوباً على أمري. منفّذاً رغم أنفي. كاتماً صرخات الغضب والرفض. ثقتي بنفسي وبقدراتي. نظرت لها بامتنان ويدها تضغط على يدي مؤكدة

أن ما أعانيه سينتهي بوقت قصيرٍ لأنني فنان وعالم وواعٍ بقدر كبير. أحترم نفسي وأعرف قيمتها جيداً. همست برقة:

– يوسف كن أنت.

صرخت مستهزئاً:

– من أنا التي تريدين أن أكونه؟ الطفل المهلّهل والممزق! الشاب اليافع الأجوف بلا إرادة! التابع الذي ليس له حق بقول أو فعل.

صمت. تداعت لرأسي أشياء كثيرة مخجلة. كنت أتجاهلها أتناساها. أحياناً كنت أرد على سؤالها بسؤال. فتقف غاضبة وتقول:

– يبدو أنك غير جاهز بعد لخوض معركتك لاسترجاع ذاتك. سأتركك الآن استدعني حين تكون جاهزاً.

تحركت نحو الباب. فتحته، حدقت بي بحنان وحب. فقلت:

– لم أوافق على العلاج إلا لاقتناعي، أتألم مما يرد على ذاكرتي.

تحركت نحوي من جديد برشاقة وثقة بنفسها. ابتسمت همست بالإنكليزية ما معناه:

– أمامي رجل وهبه الله نعما كثيرة. عقلا وقلبا وعواطف. ترجمها شعرا ولحنا ومغنى ورقصا. عبقرية فذة بمجال اختصاص جد وصعب. وسيم ولطيف. يتجاهل كل هذا ويتذكر جرحا تسبب به إنسان يحبك أكثر من نفسه. يريدك أحسن منه. وجرح آخر أقل شأناً من فتاة لم تكن على مستوى مشاعرك الراقية. خانت غدرت ربما لكن لعل لها أسبابها. سنناقشها بالعقل. لعلها لم تحبك. لعلها تقربت منك لغاية ما. أليس احتمالات كهذه واردة. فكر جيداً.

غادرت الغرفة بصمت لا يشبه القنبلة التي فجّرتها منذ ثوانٍ مضت. مضت عدة جلسات لم تأتِ، ولم أكف عن السؤال عنها. نعم كنتُ أنتظر قدومها. حين عادت كانت مبتهجة سعيدة أنيقة وجميلة. جلست أمامي ثم طلبت مني أن أجلس على المقعد المقابل لها لأنني في هذا اليوم سنتحدث كأي صديقين.

كانت في مثل عمري أو أكبر ببضع سنين. نتشابه ونتشارك في الكثير من الآراء والأفكار. تحدّثني عن فني. تطلب مني في بعض الأحيان، عزفاً على الكمان، كانت قد قدمته لي كعربون صداقة بيننا. حين أنتهي من العزف تصفّق بفرح وتهنئني، وأحياناً تعانقني.

قالت دون مقدمات:

– ألا يخطر ببالك أن تسألني عن شيءعن حياتي؟ مثلاً. عن دراستي أو عن بلادي التي أتيت منها إلى لندن.

– أعتقد بأنك إنسانة خالية البال متفرغة لمهنتك. أجزم بأنك اخترتها بنفسك لأنها تتيح لك مساعدة الغير. تملكين قدرة عجيبة على تحويل الغصة إلى ابتسامة، والدمعة إلى فرح.

– يكفي هذا. أنا لست ملاكاً إنني إنسانة أبسط بكثير مما تظن. يبدو هذا يومي ودوري لأتحدث لصديقي الجديد عن أوجاعي.. استعد.

حدثتّني طويلاً. أنها فلسطينية ممن بقوا في بلادهم بعد النكبة. قاوم والدها التفريط بأرضه لليهود. سواء بوضع اليد أو بالشراء. ذات يوم بلا سابق إنذار. بدأوا بتنفيذ مخطط بناء مستوطنات للقادمين من أقاصي الأرض على أرضنا. لم يترك أبي البيت. قال اهدموا البيت على رؤوسنا لأنها الطريقة الوحيدة التي تستطيعون فيها تنفيذ مشروعكم. تحركت الجرافات ومعاول الهدم لتقوم بعملها الوحشي. دون أن تطرف لهم عين. هدمت الغرفة الأولى على أمي وأخي الصغير فتسمر أبي بمكانه غير مصدق ما يحصل. أمسكته من يده، سحبته مذهولاً للخارج وهو متسمر بمكانه. أبكي وأتوسل استجاب وخرجنا من بيتنا المتهدم للعراء. لم يقبل أي عرض لمأوى، ولا حتى من العرب أنفسهم.

حالته مخيفة حزين مشتت ضائع. لكني بقيت أصرخ وأبكي حتى بح صوتي. توقفت سيارة جيب ونزل منها رجل قال انه من وكالة الغوث يعرض على أبي الهجرة. إلى انكلترا أو أي دولة أجنبية يريدها. لم يرد. لم يستوعب ما حصل ولا ما سيحصل. أسرعت بالموافقة على الهجرة إلى إنكلترا.

هكذا وصلنا إلى لندن لاجئين. درست الطب وتفوقت، رغم الفقر والعيش على منح قليلة. اجتهدت حصلت على منحة للتخصص. سألتني أليس صحيحاً أن من سمع مصيبة غيره صغرت مصيبته؟

– قال شاعر– ظلم ذوي القربى أشدّ أولئك يهود وذاك أبي.

ضحكنا.. فعانقتني مهللة.

انسجمنا كثيراً سوياً. حضورها يعني كثيراً. أتجاوب مع التمارين التي تطالبني بالقيام بها عدة مرات في اليوم الواحد. كلام كثير أرويه لها بشكل متضارب عشوائي. فتتركني على سجيتي، وتجلس بهدوء تسجّل ما أقول وفي الجلسة الثانية تجالسني لتناقشني بما قلت. بدأت أفكاري تنتظم. وليلى صارت أقرب مني لنفسي. قلت لها ذات يوم:

– سيدتي بدل أن أجد نفسي وجدتك أعتقد أن هذا يكفيني.

عبست وأشاحت بوجهها فعلقت ضاحكاً:

– لا أمزح. تظنين أنني غير قادر على تفهم أو التحكم بمشاعري. إحساسي بك كبير. أنت عالمي. أ هو الحب؟

– شيء عادي بين الطبيب والمريض. أريد أن تكون نفسك ذاتها ملاذك. أطلق العنان لروحك عقلك قلبك بعد كبت طويل.

– أنا واثق بمشاعري نحوك. لكنني أخافها.

– قد يحصل هذا مع بداية الشفاء. أنت في الطريق الصحيح. هيا يوسف. استلقِ، مدد جسمك، ردد الجمل التي اتفقنا على ترديدها لعدة أسابيع، تذكر كم يوم مضى. ستجد نفسك وتتوافق معها.

– لماذا أربعة أسابيع أنا بخير صدقيني؟

– بعدها ستنفذ مع فرقتك، أو لوحدك، تعهدك بتقديم الحفل. لقد وافق على تأجيل الحفل قائلاً: يوسف فنان حقيقي يستحق الانتظار.

– أحقاً ما تقولين؟

– لنجرّب.. هذا الأمر كله بيدك وحدك صدقّني.

أغمضت عينيّ، وضعت كفيّ فوق صدري ورددت بحماسة.

إنني أشعر بالمزيد من الراحة والهدوء.. سوف أبدأ بالشعور بالقوة والقدرة البدنية كل يوم أكثر من الذي قبله. سأكتسب المزيد من الثقة، مما يجعلني قادراً على أداء كل الأشياء التي أنا بحاجة إليها. سأشعر بالثقة تزداد بداخلي، سأشعر بالمزيد من الراحة والاسترخاء، التركيز أصبح سهلاً، سأشعر بإحساس عميق من الأمان، أفكاري ستتوجّه لكل عمل يهمني، لن تعود متمركزة حول ذاتي ومشاكلي البسيطة. كل يوم سأشعر أكثر بالقوة في عقلي وبدني.

كالعادة وصلت بسهولة لاسترخاء شديد صوتها أرجوحة روحي.

تنقطع الأحداث هنا. قلبت الرسالة لأطويها وإذ بي أجد ملحوظة– عادت نجمة اليوم. وجدتها فجأة أمامي. ارتجف قلبي لكنني تذكرت ليلى تشجعت وأشحت بوجهي بعيدا. لامست كتفي. التفت بلا اكتراث هالني ما رأيت. كيف أحببت إنسانة بمثل هذه الدمامة. سحنتها صفراء. عيناها زائغتان، شفتاها مبرومتان بلؤم. همست يريدونك.

– اسمعي جيداً. لا أجد لك في قلبي أثراً. أكرهك وأكره أيامي معك.

وضعت كفها على فمي وقالت:

– أسمع أنت. ما كان بيننا شيء هم أمروني به. وحين أخذتك لهم كانت أوامرهم. الآن يريدونك فعليك أن تذهب بأمرهم.

– لا أريد أن أسألك من هم. الأمر برمته لا يعنيني. أنا أحب فتاة أخرى وسأتزوجها قريباً.

– هم يعتبرونك زوجي ولا يحق الزواج بغيري. فكر بالأمر وأعلمني متى تكون جاهزاً.

تنقطع الأحداث. يبدو أنهما تزوجا تركا لندن إلى مدينة أخرى.

وجدت رسالة من الدكتورة نبيلة صديقة أمي؟

هذه رسالة لك يا يحيى يا طفلنا الصغير. أملتني أمك هذه الرسالة أرفق معها بقية الأوراق التي جهزتها ليلى وسلمتها لدنيا.

ليلى

– ابني الحبيب. طفلي الصغير.

ستكبر وتصبح شاباً وتتساءل لماذا تركناك وحيداً. لم يكن لدينا خيار. قدر يوسف أن يغيب في المجهول وقدري أن أضحي بوجودك إلى جانبي، حرصاً على حياتك. أكتب لك هذه الرسالة وأنا أعاني لا أعرف إن كانت الحياة ستتغلب على الموت أو العكس. سأحاول قدر طاقتي أن أعرفك على أبيك وأمك.

ظن الجميع بأنني قد وجدت في يوسف، مريضي النفسي، فرصة عمري للهروب من العنوسة والزواج من شاب جميل ومتعلم وغنيٍ وسهل القياد. أنا المرأة التي تكبره بعدة سنوات، عاشت وحدها طويلاً. الحقيقة التي يجب أن تعرفها لم يكن هذا هو السبب.

أحببته. فوجئت بمشاعري نحوه، لم تكن شفقة ورغبة في مساعدته على الشفاء. كان إعجاباً ثم أصبح حباً كبيراً كتمته بسبب موقعي في حياته، فأنا طبيبته.

عرض عليّ الزواج، وهو في قمّة فرحته، رفضت. عشت معه فترة عذابه من رفضي. عادت وساوسه من غدر خطيبته، ومعاناة الخذلان. عدت لمساعدته على تجاوز المحنة، والتفكير بمنطق. فهي لا تستحقٍ أن يقتل نفسه من أجلها. استدركت، يجب عليّ أن أكون منطقية أيضاً لأقنعه. فقلت وكررت: إنه ليس من أحد في الدنيا يستحق سحق روحنا من أجله سوى أولادنا. نحب، نعم، نتفانى في إسعاده ربما، نلبّي احتياجاته بقدر ما نستطيع فهذا واجب. أما أن تفرغ الدنيا من حولنا لأنه تركنا، فهذا خطأ فادح نرتكبه بحقّ أنفسنا.

حين خرج من المستشفى قرّر أن يبدأ حياته العلمية والفنية في مكان آخر، بعيد، لا يعرف فيه أحداً. شجعته، واعتقدت بأن ما بيننا سينتهي بمجرد ابتعاده.

جاءٍ لزيارتي في بيتي كان متوترا قلقا طلبت من صديقتيٍ وهي أيضاً طبيبة نفسية وتقيم معي في البيت سماعه ومعالجته بدلاً مني. فمشاعري نحوه بدأت تتضح. لم أعد كفئاً لمساعدته.

بدأت الطبيبة معالجته بطريقتها. تجاهلت حديثه عن جراحه من أبيه، ومن حبيبة غادرة، ومن حبيبته الأخرى المتعالية. سألتني:

– ليلى هل منحتكم الجهات المسؤولة تصريحاً لرابطتكم؟

فهمت قصدها فقلت:

– الحياة ليست سهلة يا نبيلة، مليئة بالمتاعب. لذا علينا التحلي بالشجاعة ما دمنا قررنا المقاومة.

سأل يوسف بلهفة:

– هل لها طابع سياسي؟

– لا "رابطة طلبة فلسطين".

– ما أعرفه أن كل جالية لها رابطة. المضحك صيحة جديدة رابطة شعارها نبذ الوطن والقومية والدين. عش حراً دون قيود.

سألته الطبيبة بسرعة وكأنها تخشى أن تفلت الفرصة من يدها:

– أين أنت من كل ما جرى، ويجري؟

– أنا فنّان وحرّ.

– غير صحيح. الفن رسالة. والفنّان ملزم أكثر من الآخرين. أنت أيضاً باحث وعالم في مجال حيوي. وعرفت من ليلى أن حرمت أكثر من مرة من أداء الامتحان لأسباب واهية.

– كان بيني وبين أستاذ المادة خلاف. كلانا أحب البنت ذاتها. لكنه ساعدني حين أصررت على تخصصي، وساعد بالتحاقي بمعهد أكاديمية الطيران الخاصة بجماعات النسر الذهبي بتفرغ تام. أكاديمية أبحاث بهذا المستوى حلم كل شاب يعمل بمجال الأبحاث لكنها لا تتوافر بالسهولة التي حصلت معي.

– إذا قلت لك إنك مستهدف كعربي نابغ.

- لا أصدق هذا. نظرية المؤامرة حجة. لمن لا يملك وسائل دفاع حتى عن نفسه. عملت معهم كثيراً. لم ألحظ تفرقة بيني وبين جنسيات أخرى. المختبرات معابد مقدسة. ندخل لنخدم العلم.

تدخلت بسؤال ألح عليّ:

- طبعاً أنت لا تصدق سوء نواياهم تجاهنا. هم سبب مصائبنا. يريدوننا عالماً متخلفاً. أرأيت مدى الخلاف بيننا؟!

- لكننا كذلك يا ليلى. متأخرون حضارياً مئات السنين. ثم إن الخلاف لا يفسد للود قضية. الحب قبل الخبز أحياناً. فكري.

خرج غاضباً ولم أرَه فترة. التقينا في مكان عام. التقت عيناناً فحييته وتركت المكان، لحق بي شدني من ذراعي وقال:

- بدل الهروب اهتمي بمريضك القديم. أنا متعب جداً.

- ما أعرفه أنك تعافيت وصرت قادراً على حل مشاكلك ومشاعرك.

- لعلها انتكاسة. لا تتخلي عن مريض يحتاجك؟

- تبين أننا نقف على أرضية مختلفة. على كل ماذا تريد؟

- لا شيء.. لا أريد منك شيئاً بعد اليوم. سأتغلّب على مشاعري ومشاكلي فلا تقلقي. لن أزعجك بعد اليوم.

غاب فترة أخرى قلقت عليه فعلا. تحريت وسألت الجميع يفتقده مثلي وقلق عليه مثلي. يوم خروجنا في مسيرة جامعة ضد تهويد القدس. نندد بتواطؤ الجميع بما يرتكب بحقنا. كان بالمقابل مسيرة أخرى ربما يوسف بينهم تندد بنا. مشاغبون وإرهابيون مثيرو الفتن.

انفضت مسيرتنا بعد تدخل فرق مكافحة الشغب وتفرقنا. دخلت مقهى على الرصيف المقابل مع صديقاتي. وإذ بي وجهاً لوجه مع يوسف. لم أضيع الفرصة، طلبت منه الجلوس وقدمت فنجان قهوتي. أزاحه جانباً طالبا الانفراد بضع دقائق. أمسكت يده الممدودة نحوي وسرنا معاً حتى الهايدبارك. فرحة بعيوننا لا توصف. جلسنا على الحشائش نتضاحك من تصرفاتنا الصبيانية. همس:

– عادت نجمة. كانت هائجة تصرخ وتشد شعرها تدعي أنها تبحث عني من شهور. أخبرتها بهدوء تام. أنها انتهت من حياتي. مشاعري إذ ذاك لم تكن صادقة. أشعر وكأنني لا أعرفها. قالت بأنها زوجتي.

ضحكت ساخراً من قولها، ظننتها تهوش. قلت مرة أخرى أحببت سأتزوج قريباً. جنّ جنونها. ونعتتني الخيانة والغدر. صرخت بل إنك الخائنة.. سرقت أموالي وتركتني. أنسيت وقتها أنني زوجك؟

– أذهب متى أريد. وأعود كما أشاء. أنت زوجي وما تملكه ملكي.

– لكننا لم نتزوج قطّ!

نشبت أظافرها وغرستها في رقبتي وصاحت:

– زوج اليهودية لا يتزوج بأخرى. ظننتك تخلّصت من الهمجية التي تمارسونها في بلادكم وديانتكم. بالمناسبة، أنت لم تعد مسلماً منذ دخلت إلى عالمنا. هل نسيت المحفل؟ ألا تذكر أنك كرسّت كواحد منا. أنسيت ليلة وصول أبيك كنا نقيم حفل زواجنا في بيتنا مع الأصدقاء. بدل أن تبيت معي بت بالمستشفى.

– لا أعترف بزواج تمّ بخداع. نسيت امرك فانسي سأتزوج.

– أعرفها ليلى. اتركها.

– لن أتركها..

– قريباً سأرسلها إلى جهنم.

– أنت أغبى من أن تفهمي طبيعة علاقة نظيفة. سأحميها.

– مسكين! أتظن أن أحداً يمكنه أن يلهو بنا أو يتطاول علينا؟ هزلت، إذا كنت تحبها وتخاف عليها عدّ إلى بيتي.

– ألك بيت غير بيتي الذي ما زال مرهوناً؟

– لا توجّه لي الإهانة وإلا سأسحقك بحذائي.

تركتني غاضبة وهموم الدنيا تحط فوق رأسي. تذكرت صوت أبي يهدر. هذه الحثالة التي تلمها وتصرف أموالي عليها. ازدادت نبضات قلبي. ماذا لو ما تدّعيه أنني تنصلت من ديني وانتمائي صحيحاً؟ أمغيّب

كنت إلى هذا الحد؟ ما أثلج صدري أنها لم تعن لي ولا أكن أي شعور تجاهها. لا أعرف كيف دخلت حياتي ذات يوم. ليلى، أنت حبيبتي، أنت حبيبتي، لن أتحمل العيش دونك.

– إذاً، ما زلت بحاجة لمن يدافع عنك، ويحلّ لك مشاكلك؟

– غير صحيح. أنا بحاجة لك لأنك حبيبتي. ليس لتلك الأسباب الواهية التي ذكرتها، بل لأنك نصفي الآخر. لن أضيعك مرة أخرى.

أمسكت بيده ومشينا يد بيد، وأقدامنا تخطو معاً في الاتجاه ذاته. وصمت بيننا أبلغ من الكلام.

بدأ يتدرب على كمانه من جديد بحماس غير عادي، زرنا سوياً المتعهد. حددنا موعداً جديداً للحفل في لندن في المكان ذاته الذي كان سيقام به قبل. تألق يوسف ليلتها. عاد لطبيعته. خرج من التيه ووفق بين هواياته ودراسته. انتقل الحفل لعدة مدن واستقر بنا المطاف أخيرا في مانشستر. تخرج في الجامعة حيث كانت السنة الأخيرة.

تزوجنا في مانشستر وأهداني ليلة زفافنا مقطوعة موسيقية عملت ضجة كبيرة في الأوساط الفنية وأشاد بها كبار الفنانين. استمر نجاحه يوماً بعد يوم، تفاجأت بطاقته على الإبداع. بعمله وبموسيقاه. ننتقل بين المدن بحجة الحفلات التي كان يدعى للاشتراك بها والحقيقة كنا نهرب من نجمة. وأتيت يا يحيى لدنيانا وزدتها بهجة وفرحا. أطلق عليك اسم جدك رغم غضبه الشديد منه.

صرت، يا يحيى، تعني لأبيك الكثير. حين يسأل عن إنجازاته الموسيقية يقول: ماذا بعد هذه المعزوفة الرائعة. فجأة، خرج يوسف كالعادة من البيت لعمله لكنه لم يعد. بعد أسبوعين جاءني على بريد المستشفى تهديد بأن حياتي في خطر ما لم أقم بما سيتطلب مني.

لم أعرف ما هو المطلوب: أهو أنت يا يحيى. أم الابتعاد؟ رتّبت الأمور بسرعة. نقلت المال المودّع في البنك باسم دنيا. حددت المكان الذي ستأخذك إليه. أخبرتها بأن تنتظر مني إشارة للرحيل. سلمّتها كل الأوراق التي كانت في حوزتي– أوراق يوسف، وأوراقي، وأوراقك

الثبوتية يا يحيى. شددت على دنيا مراعاة رغبة يوسف. ألا تخبر أهله بوجودك إلا في حالة عجزها عن مراعاتك. تتساءل لماذا؟ وهذا حقك. أراد إبعادك عن جدك حتى لا تتعرّض للمصير نفسه.

بعد بضعة أسابيع جاءني صوت يوسف وأخبرني بأنه طلّقني وسيذهب إلى القدس للحصول على الدكتوراه. سيتخلّى عن موسيقاه وعني وعن المشروع الصغير الجديد. لم يذكر اسمك.

لم يطل الأمر. وجدت أحد مرضاي اسمه عمير ينتظرني في عيادتي. متعب يرتجف. سألته عن تخلفه عن مواعيد علاجه، فتحت الكمبيوتر على ملفه. صفق الباب. وقال أمرت باغتيالك. رفع مسدسه وقبل أن أتمكن من الاحتماء أطلق عيارين ناريين. ضغطت على الجرس، فتح الباب دخل الساعي. صرخ دكتورة ليلى أصيبت. جاء الزملاء بينهم الدكتورة نبيلة، همست لها وهي تضمّني:

– أسرعي بإبعاد يحيى أرجوك.

حين صحوت من المخدّر، كانت نبيلة بجانبي وقالت: انتهى التحقيق. كالعادة ادّعوا بأنه مريض نفسي. كان حجة للوصول إليك.

– أكيد يد نجمة واضحة. يبدو أنها لا تعلم بوجود الصغير أبعديه.

– لا تشغلي بالك. أرسلته مع مربيته إلى بيتي الريفي، وسنرى..

لا شيء بعد. يبدو أن أمي ماتت، وأبي لم يعد. وأنا ودنيا هجّرتنا صديقة أمي. فأنا الوحيد من عائلتي الصغيرة نجا من نجمة داوود.

فرغت من قراءة الأوراق. أردت إخبار جدتي ردت بحنان:

– لم أنت سهران حبيبي إلى ساعة متأخرة؟

– قرأت أوراق أبي وأوراق أمي. رأيت صورة تجمعنا نحن الثلاثة، لم أتذكر شيئاً. أردت إخبارك سبب ترك أبي لك، كان مجبراً، هارباً من نجمة. وأمي قبل موتها كلفت صديقتها بإبعادي.

– الحمد لله أن أمك أنقذتك من سمّ الحيّة.

– جدتي، قلت لي إنني ربان العائلة، أريدك بجانبي لأسير بها إلى بر

الأمان. وأريد أن تتعرفي إلى الدكتور مؤنس. جدّي دعاه إلى الغداء يوم الخميس بعد غد. عودي مع عمتي إلى البيت أرجوك.

مؤنس

استقبل جدي الدكتور مؤنس والأصدقاء بترحاب شديد. وفرحة غير خافية. علقت عمتي أمام الجميع، أبي يفرح بالضيوف أكثر من فرحته بنا. ردت جدتي. هذا هو يحيى، لن يتغير. لا يزورك إلا من يحبك ويحب صحبتك. هيا لنعد المائدة.

تحلق الضيوف بعضهم حول بعض. يترقبون بصمت بدء حوار جدي والدكتور مؤنس. سؤال يرفرف في العيون الشابة العجولة من سيبدأ؟ نطقا باللحظة ذاتها ثم صمتا. مؤنس أشار لجدي أن يبدأ.

– الشباب يتسألون عن أسباب غيابك. قلت لي. من الأفضل إخفاء الأمر عنهم. لا أوافق على هذا الرأي يجب أن يعرفوا كل شيء.

– عندك حق. لو أردنا لما استطعنا لأنه جيل محظوظ. يعيش عصر ديمقراطية المعرفة. رد مدير الجامعة كان كافيا عرفوا أن في الأمر شيء مريب.

منذ امتهنت التدريس وأنا أتعامل مع طلبتي كأصدقاء. نتحادث نتشاور بكثير من الأمور العامة. حدثتهم عن جيلنا حين كنا بمثل عمرهم. عن حلمنا العظيم بتغيير العالم. حكيت عن زبانية الشر الذين أجهضوا الأحلام وحطموا الآمال. وعن إصرارنا، رغم الترهيب والترغيب. على التمسك بموقفنا لأن الإنسان موقف وكلمة. أنزلوا علينا عقابهم بأيدي جواسيسهم من الطلبة يراقبون ما يقال وما يكتب.

كنا ندهشهم، بصمودنا وضحكنا وسخريتنا، رغم ما نتلقى منهم. لا نئن. ولا نشتكي ولا نصرخ. عقوبات تلو عقوبات. اعتقال، إقامة جبرية، سجن، توقيف عن العمل كأساتذة جامعيين، حظر أبحاثنا ومؤلفاتنا. فاتهم أن الظلمة قد قضوا على كل ما نخاف عليه.

سألته ضاحكاً:

– تقصينا فعلاً رد علينا رئيس الجامعة بعصبية. بدل تضييع وقتنا بأمور لا تخصنا ونسبب بلبلة وفوضى لنهتم بدراستنا. مؤنس أكاديمي كثيراً ما يكلف بمهام خارج البلاد.

– اضحك يا يحيى، فشر البلية ما يضحك. سأروي لكم قصة تركت بنفسي وجعاً كبيراً انتخبت مع بعض الزملاء لتشكيل لجنة تحضر جدول بمواضيع بحث ومناقشة لمؤتمر يتعلق بجامعة الدول. حددوا مهامنا تحضير كلمة الافتتاح. كلمة الختام. إعداد بيان نتائج ما تمخضت عنه المباحثات. تساءلت– نكتب بيان مؤتمر لم يعقد بعد.

أخبرني ذوو الخبرة أنها العادة المتبعة. هكذا هي بكل دول العالم. البيان تحصيل حاصل. رفضت. أعددت بياناً مطالباً بوقف تلك الطرق المتبعة. وأعددت مواضيع حقيقية للبحث بجديّة حقيقية. وبعد ختام المؤتمر نكتب تقاريرنا الحقيقية. قدمت جدولاً أعددته بنفسي.

سأل أحد المسؤولين باستهزاء:

– من العبقري صاحب هذه البنود المقترحة الخارقة على كل بلد من أعضاء الجامعة العربية؟ أولاً تبني ميثاق حقوق الإنسان العربي. ثانياً سن قوانينها بحس وطني بدل قوانيننا التي لا تمثلنا ولا تعبر عن إرادتنا ولا تلبي احتياجاتنا. ثالثاً دستور خاص بنا. يصاغ بإرادتنا يلبي متطلبات سياستنا واقتصادنا وظروفنا الاجتماعية.

طويت الأوراق. رفعت الرؤوس. وحملقت العيون مستنكرة بوجوهنا. والرئيس يصرخ: تفضل يا فصيح، يا صاحب هذه الاقتراحات واجلس مكاننا. ثوانٍ ووصلني أمر مكتوب، أن أغادر القاعة فوراً. أولاً. أنا مدسوس لبلبلة عقول المؤتمرين. ثانياً جهلي المخزي بكيفية تسيير الأمور. بتساؤل فج من أنت؟

ماذا أخبركم؟ لا يمكن أن تتخيلوا عدد المرات التي استدعيت فيها للتحقيق، وإعادة التحقيق، والاستهزاء بشهاداتي، التي زادتني جهلاً ووقاحة. أنني خطر على طلبتي في الجامعة. أحرضهم على التفكير

وإلغاء دور الحكومة بكل أركانها. وأنتزع من السادة المفكرين دورهم. فتعم الفوضى والعبثية والخروج عن قوانين الحياة.

زفر أحدهم متأففاً– والله احترنا مع الشباب. إذا حاولنا التغيير قلتم أذناب الاستعمار. وإذا رفضنا التغيير قلتم متخلفين.

رفعت رأسي باعتداد:

– عفواً يا دكتور اسمح لي أريد توضيح الأمر.

– ما شاء الله هل بقي عندك شيء يقال؟

– سأوضح معنى التطور بأنه ليس حدثاً خارقاً بل شيء طبيعي في حياة الشعوب. شعوبنا لا تمارس هذا الحق. أليس هم الأولى بصياغة قوانينهم ودساتيرهم. بدل تلك الجاهزة. صاغتها جهات غريبة عنا. فاقدة لمصداقيتها. تلعب دورا مزدوجاً بتصريحاتها. وعوداً بالحرية والمساواة في النهار. في الليل تدور مصانعهم تحت إشراف علماء متخصصين بتطوير أسلحة ليجروا تجربتها علينا. ثم لا تنس الجانب الأخلاقي بتدمير القيم بالدس والتخريب لشبابنا. ويتلاعبون بالسياسة العالمية والإقليمية، بالحضارات، وباللغات، وأخلاقيات وديانات. الآن ينادون عياناً جهاراً لتحرير عقولنا من مخلفات عالمنا والانتماء للعالم الجديد.

التفت أحد المسؤولين نحو الكتبة وقال ساخراً:

– اكتبوا قولي هذا بالخط العريض أهم أسباب تخلفنا الغوغائية.

رددت بتحدٍ:

– الغوغائية تعبير صحيح. لا يذكر التاريخ، أننا تولينا حكم أنفسنا بأنفسنا كأنه عمل حرام. ولاتنا منا نحن الشعوب المتخلفة. وهذا سبب وجيه لتمتد يدهم المتحضرة الحكيمة من فوق المحيطات تنتشلنا من جهلنا. لا يجرؤ أحدنا على القول بصراحة أن عالمهم لا يناسبنا لأنه مريض موبوء. أتى بويلات، بحروب طاحنة، وحروب باردة، وحروب اقتصادية ودينية. أبادوا شعوباً وعواصم وتاريخ والقادم أسوأ.

قطع الدكتور مؤنس حماسته، قفز نحو حائط معلق عيه بعض الصور. وضع أصبعه على وجد شاب بوسط الأهل وصاح:

– من هذا الشاب؟

– هذا يوسف ابني.

اقترب أكثر، وأكثر، وضع نظارته ودقّق، وقال:

– الشبه كبير بينه وبين جو. كم كان عمره في هذه الصورة؟

– دون العشرين. زارنا بعد سنة من دخوله للجامعة. بم يتشابهان؟

– العينان. النظرة القوية المتحدّية. النظرة العميقة التي ترى لسنوات مقبلة. كان يزوركم دائماً.

أجابه جدي بحزن:

– زارنا كثيراً بإلحاح مني بعد تراجعه في دراسته. أهو الشاب الذي كلمتنا عنه في لقائنا السابق؟

– صحيح هو الرجل نفسه الفذّ. كان طالباً في كلية العلوم بالجامعة ذاتها. فجأة ظهر. فجأة ترأس شلتنا، وبتروّ حثيث، عملنا تنظيماً لاتحاد الطلبة العرب بدستور وأهداف وخطة عمل. واجتماعات دورية. مرت سنة وأخرى وتنظيمنا يشتد عوده وعدده. فجأة غاب. رجع ثم غاب من جديد. رشحني لقيادة التنظيم. ألحّ على الاستمرار على النهج المرسوم. سألته:

– أين تختفي جو. أتخاف شيئاً؟ هل علينا خطر؟ عبس وقال:

– لكل شيء أوان يا صاحبي. سنتواصل حين تنتهي مهمتي هناك.

– هناك أين؟ وما نوع المهمة؟ ومن وكّلك بها؟

– أنا وكّلت نفسي. دخلت العرين. لن أخرج صفر اليدين.

– أي عرين يا رجل؟ زدتني فضولاً وشكوكاً أيضاً.

– أعرف. لا بد من دخول عالمهم. عرين عبدة الشيطان. لن تصدق يا

مؤنس، ما رأيت وسمعت وعشت.

– عبدة الشيطان الذين سمعنا عنهم؟ أهم حقيقة؟ أنت منهم؟

– تقريباً. أتتذكر البروتوكولات التي كانت تظهر وتختفي. تنفى أحياناً. ويؤكد وجودها أحياناً. هي ذاتها دستور العالم القادم.

– هل هناك عالم قادم؟

– بدأ منذ زمن في الخفاء. نحن نلهو كالعادة والناس تجد. سينتشر كانتشار النار في الهشيم.

– تحكي عنهم بثقة العارف.

– هم حقيقة يا مؤنس. شياطين أنس وجن. لا تسخر يا صديقي. تذكر كم مرة ورد ذكرهم بالقرآن الكريم. هناك في العرين رأيت، وسمعت ما لا يخطر على بال.

– أكاد لا أفهمك يا جو. كأنك تهذي أو تتكلم عن طلاسم.

– تصور أن أهمّ مواد صكوكهم إفساد شباب العالم. تدمير القيم والسخرية من الأديـان التي تقف ضد التحضر. تغيير خلق الله مسوخاً.

هذه حقائق. تذكر حوار الله مع إبليس. حين أمره بالسجود فعصى. شياطين الإنـس حكى عنهم القرآن الكريم. يدينون بدين الشيطان وقوانينه ودساتيره وتعاليمه.

– من هم هؤلاء الأتباع؟

– نفوس بشرية ضعيفة. تكره الالتزام بشريعة افعل ولا تفعل.

قال جدي متلهفاً:

– أول مرة في حياتي الطويلة أسمع شيئاً كهذا.

قالت جدتي:

– الموضوع ورد حقاً في كتاب الله العزيز. قصة إبليس اللعين حين أمره ربه بالسجود فأبى وعصى. وكذلك شعب الله المختار. أمرهم

بالتوحيد فقالوا سمعنا وعصينا. فحل عليهم ما حل بإبليس وأعوانه من غضب وتشرد. ويئس تام من غفران الله وجنته. لذا فشغلهم الشاغل، منذ ذلك الوقت وإلى قيام الساعة، إغواء كل من يلتزم بدين. لقد أقسم الشيطان ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

رد جل جلاله– ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ صدق الله العظيم.

قال الدكتور مؤنس:

– قرأ جو على وجهي استنكاري قال: يجب أن تصدقني يا مؤنس. وإلا سيصعب عليك ما سأكلفك به. إنهم حقيقة. صبرهم خارق. ترو عجيب بتمرير خططهم. فلا يشعر أحد بها. سننتهج نهجهم. لسنا على عجلة. سأسلمك صكوكهم حال استحواذي عليها وأنت تهتم بها.

تساءلت عيناي بخوف. هز رأسه وهمس:

– قريباً جداً سيسعون وراء مقرراتنا المدرسية. والغريب بل والمريب أنهم يعلمون طلبة مدارسهم ما يزيدهم عنفاً، وشراسة، وكراهية، جيلاً بعد جيل. إنه الدمار. عالم جديد. عالم واحد في قبضة يد واحدة. قد تكون نظيفة من السلاح. لكنها مدمرة لكل مبدأ وعرف.

– يتكلم مثل ابني.

– جدي، لقد وصلتني أحاسيسك لكنه ليس منا إنه انكليزي؟

– أنت يا يحيى إنكليزي. أيعني أنك لست عربياً؟ دعني يا بني أحلم هل أصبحت مثلهم تقتل الأحلام؟

– أي أحلام يا جدي هذا ليس أبي. لن أقبل به أصلاً. إنه تقريباً منهم. ما رأيك يا دكتور. الشخص الذي تتكلم عنه هو نفسه من كان شعلة حماس لبلاده ودينه.

– كيف لي التأكد وقد مر زمن طويل عشرات السنين. الصور التي معي قديمة أيضاً. لا تتطابق تماماً مع هذه صورة الحائط.

استأنف الدكتور:

– آخر حفل قدمه لا ينسى. كنت مع الرفاق حيث أقيم في قاعة شهيرة يقام بها حفلات كبار الفنانين العالميين. صفق الحضور بإلحاح فأعاد فقرة الختام أكثر من مرة. ألحان غريبة مبتكرة يمزجها بالشرقية، بلغة إنكليزية مشوبة بالعربية. فهي نعى للإنسانية. وفجر جديد لا نور فيه ولا شروق. بكى الحضور فقال نعم ابكوا، وانتحبوا، مات الإنسان، ماتت قيمه، مات كل جميل. والراقصون حوله يؤدون على نواحه رقصة عبدة الشيطان.

– هل رأيته بعد العرض؟

– أراك يا شيخ اهتممّت بالفنان، أكثر من اهتمامك بمن حذر منه.

– أحسست داخلي بشيء غريب، يا دكتور.

– جو كان فعلا إنساناً مختلفاً عن كل من عرفت. اختفى كالعادة. بعد عدة شهور التقيت فتاته التي عرفتنا على نفسها بأنها زوجته. التقت نظراتنا. صاحت:

– الجميع يسألني عن الفنان لا تسألني بدورك ذهب إلى الجحيم.

وقف الدكتور متعباً قال جدي بأسى:

– ألم تره بعدها؟ أعتقد بأنه يوسف. ليتني أراه بعد الفراق؟

قال الدكتور:

– لم لا. الدنيا صغيرة.

قالت جدتي:

– أين حط رحاله بعد كل هذه السنين؟

– ليته يكون يوسف. صدقني يا يحيى الصغير حتى وإن تغير يكفيه شرفاً ما فعله وقدمه.

تساءلت جدتي:

– ألا من وسيلة للتأكد؟

– احكوا عنه وسأحكي. أوراقه سلمتها لأستاذ كنت أتدرب عنده. حين طلبتها أخبرني بأنه تخلص منها. وصفها بأنها نبوءة كفيلة بإثارة ثورة في الوزارة. وقد تثير شعوب العالم ضدنا؟

انتفض قلبي وتدفقت دموع جدتي. قالت وسط نشيجها:

– حبيبي يوسف. الحمد لله أنك تركت لنا يحيى.

قال الدكتور مؤنس موضحاً:

– تذكّرت شيئاً من أتحدّث عنه، ليس عنده أولاد.

– هل أنت متأكد؟

– أخبرني مرة أنه عقيم.

قال جدي:

– ماذا كان اسم تلك الزوجة المزعومة؟

– في الجامعة كانوا ينادونها باستير؟

انحنت جدتي وهمست بأذن جدي:

– تلك الشيطانة كان اسمها نجمة.

– لعله اسمها الفني.

قلت موضحاً:

– استر يعني نجمة أو شيء يلمع بلغتهم. هل شكنا صار يقيناً؟

تركنا المائدة وانتقلنا إلى شرفة القصر لتناول القهوة والحلويات والفاكهة بإشراف جدتي وعمتي. سمعنا صوت سيارة إسعاف تقف أمام الباب الكبير. ركضت عمتي فتحته، دخلت سيارة إلى باحة الدار وفتح بابها، خرجت سوسن مع طبيبها. تلقتّها أمها بين ذراعيها وهي تبكي وتضحك وتضمّها. وقف الجميع بانتظار دورهم لاحتضانها.

هدأ الجو من جديد. كأن الدنيا صمتت معنا للتغير الكبير الذي طرأ على سوسن. ليس بها مما نعرفه، عينان حزينتان هادئتان ثابتتان ترنوان للفراغ البعيد. جلست بقرب أمها، لكنها كانت في حضن جدها

الـذي كان يتوعّد بقتلها، بكفه يمسح على شعرها وكتفيّها، وحين تنتفض، يعرف أنه لمس جرحاً أو كسراً مجبّراً. سألها:

– هل سمعت بمملكة الشياطين قبل الآن يا سوسن؟

– بل رأيتهم وعشت معهم يا جدّي. هل لهم مملكة؟

– هكذا عرفنا للتو. أهم بشر مثلنا يا سوسن؟

– نعم. غيّروا خلقهم وأخلاقهم، أشكالهم شيطانية متشابهة بادية. مخادعون وكاذبون وأعداء الإنسانية. متغطرسون متعالون. كل من تعامل معهم، أدرك قدرات سحرهم على اختراقه، فيمتثل لهم. أقول ما أقول عن تجربة. لا تظنوهم قلة، بل كما قلت يا جدي مملكة يمتد نفوذها للعالم بأكمله من تحت الأرض. الآن يملكون تقريباً معظم وسائل الإعلام. شبكات واسعة. مافيا إعلام، إذاعات، قنوات فضائية، وسائل اتصال، المؤلم أن شرقنا مركزهم الأهم. والأشد ألماً، العاملون بذلك المجال من دولنا. تمنحهم وظائف كبيرة ورواتب مبهرة وحياة ترف مغرية، مقابل القيام بتدمير الأخلاق والعقائد والانتماء ببرامج وأفلام سامة.

– جو أخبرنا عن سطوتهم. احكِ عن تجربة شخصية.

– من هو جو يا دكتور؟

– نحن نتكهن. شخص إنكليزي أثر عليّ في أيام شبابي. جدك وجدتك ويحيى الصغير يأملون أن يكون خالك يوسف.

قال جدي:

– الدكتور رأى صورة يوسف فقال إنه يشبهه. احكي تجربتك يا حلوتي.

– آسفة فما زلت مرهقة بل ومتألمة. ربما في المرة القادمة.

تداولت الأيدي الصور القديمة. تعالت الأصوات بين مؤكد وناف. حماس غير عادي في بيت يختلط حلوه بمرارته. إنه يوسف، إنه ابنيَ، إنه أبي، لا هذا ليس أخي.

أحضرت من غرفة جدي الصورة التي تجمعنا أنا وأبي وأمي. صورة

أبي تشبه الصورة التي في حوزة الدكتور مؤنس أكثر مما تشبه الصور التي في بيت جدّي. سحبت سوسن الملف من يد الدكتور مؤنس بفضول. وقع على الأرض وتناثرت الأوراق مبعثرة على الأرض قفزت سوسن لجمعها في الوقت الذي ركع الدكتور على الأرض ليجمعها بدوره. نظر كل منهما للآخر وتضاحكا. أمسكا بالورق نفسه قالت سوسن:

– هذه رسالة مكتوبة بالفرنسية.

سحبها الدكتور مؤنس. قال بتعجب:

– سنوات طويلة لم أرَ محتويات الملف. لا بد من وجود مخبأ سري.

دققت سوسن بالورقة التي تمسك بها بالفرنسية وقالت:

– انظروا رسومات ونقوش غريبة. حروفها عربية. لكنها ليست عربية.

عدوت مرة أخرى إلى غرفتي لأحضر أوراق أبي. التقطت سوسن الأوراق من يدي. وجدت ورقة مبرومة على بعضها فتحتها. خربشة رموز وأرقام عامودية حيناً وأفقية أكثر الأحيان. مذيلة بزهرة غاردينيا، بقلب الزهرة رسم نجمة مطفأة بالسواد.

تناولها الدكتور قال مستغرباً:

– هذه أول مرّة أرى هذا الختم.

– ماذا يعني هذا الختم؟

– زهرة الغاردينيا كانت شعار جمعيتنا.

– إنه يوسف ابني وهذا اسم اللعينة؟

استر

قالت سوسن سأقرأ الورقة المكتوبة بالفرنسية مترجمة بالعربية من أجل لهفة جدي لعله على صواب. أنا أعرفه، له حدس عجيب.

ظهرت استر من جديد. تجاهلتها ومشيت في طريقي. لحقت بي، تبعها حارس ضخم موشومة بعض أجزاء جسده. نظرت نحوي بنظرة قاسية وقحة. لم يراودني أية شعور تجاهها كأنني لم أعرفها قط. ندمت

على كل شيء فعلته لأجلها. لاحت صورة حبيبتي وصغيرها بحضنها تيقنت أن قرار زواجي كان صائباً.

سدت بوجهي باب إدارة الجـوازات. حيث كنت هناك أجدد جواز سفر ليلى وإخراج جواز سفر للصغير. أزحتها لأفسح طريقي، دفعتني بشراسة، تقدم منها العملاق، كمارد مصباح علاء الدين. رأسه كبيرة حليقة تتدلى جديلتان على جانبي وجهه. انقضّ عليّ، حملني وقذف بي على مقعد السيارة الخلفي، اندسّت استر بجانبي، وقالت:

– بسرعة إلى مكان أبي.

انطلق بالسيارة يسابق الريح ثم توقف، فتح الأبواب وترجلا، قبل أن يفتح بابي تخلصت من إيصال موعد مراجعة الجوازات علكته بسرعة. حين أشار إليّ بالنزول لفظته من فمي فجرفته مياه المطر الهاطلة.

دفعني لمحفل جديد غير الذي زرته أول مرة برفقتها أيام هيامي بها. عبرنا عدّة أروقة، سلمتني لشخص يشبه الأول. أوصله لأبي.

عرفت بأنني لست بخارج من هذا المكان.

صرخ جدي بحرقة:

– فهمت.. الدكتورة ليلى زوجته والطفل ابنه يحيى.

جدتي قالت:

– يا رب حقق حلمنا. أكملي يا سوسن.

تسمرت في وسط رواق على جانبيه مشاعل من النار تضيء المكان، أصنام ووحوش ضارية، متحفزة للانقضاض. ارتعشت عرفت أنني في معبد عبدة الشيطان. بنهاية الممر قاعة معتمة نوافذها عالية. ظهر شبح يلتفّ بعباءة سوداء فضفاضة وقناع أسود. بدا كخفافيش الليل. همست– باسم الله، من أنت؟

صاح– ماذا؟ ألم تنسَ أيها المخلوق الطيني؟ انظر حولك. أدرت نظري في القاعة الفسيحة. بعَض جدرانها صبغت باللون الأسود وبعضها الآخر باللون الأحمر. رسومات غريبة، وجمل متراصّة، حاولت أن

أقرأها لم أوفق. في الزوايا، نار تتراقص ألوانها.

قال بفحيح غريب:

– لعلك عرفت من أنا؟

هززت رأسي بالنفي. الغريب أنني ما زلت متماسكاً وموقناً أنه عقابي وأستحقه. سيريني أشياء معيّنة في مملكة الشياطين لأحكي عنها في ما بعد. أمسك بعصا طويلة أشار بها وقرأ النقوش. نحن أتباع حزب الشيطان الأكبر. نؤمن بكل ما يؤمن به. تمردنا على أوامر الرب كما تمرد، رفض السجود للمخلوق الطيني. ونحن، ربما بغواية منه، تمردنا على وصايا الرب. حرمت علينا جنة الله كما حرمت على إبليس. هذا صحيح. لكن مولانا الشيطان أباح لنا جنات الأرض نعيشها فساداً كما نشاء.

انتقل إلى حائط آخر. قرأ

سأله الرب: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ من طِينٍ﴾.

أجاب: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾

قال الرب: . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْـوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا.

أجابه الشيطان:﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ الله فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾، ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ. سينفذون ما أمرهم به

وسيغيرون أشكالهم وعقائدهم. وسيلتي ذاتها، التي أخرجت بها أبويهم من الجنة إلى الأرض. الغواية. سري وسحري. تضليل البشر أمر سهل. لقد فهمنا أنهم فطروا على حب الشهوات والنساء، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام. تعطشهم أزلي للانعتاق من قيود افعل ولا تفعل. أزيدهم عشقاً لعشقهم الأزلي للخلود وللسلطة. أيسّرها لهم فيستجيبوا. هل ذنبي أنهم تناسوا وعيد الرب؟

إذا أردت المزيد فاقرأ بنفسك. هل عرفت من نحن ومن أنت؟

قلبت شفتيّ بازدراء واستدرت، كانت استر ورائي مصعوقة، ترتجف رغم النيران المتأجّجة حولها. شفتاها وخداها في زرقة الموت، شعرها منكوش ومبعثر، ألوانه غريبة. أزحت يدها عن كتفي. سحبتني لخارج المحفل. نظر كل منا للآخر بكراهية حقيقية مرة. قلت لها:

– يا لحظي التعس. وقعت بمخالب أفعى سامة. وتدّعين أننا تزوّجنا. أبهذه الطقوس؟ وبمثل هذا الكلام؟ وبمثل هذا الجنون؟

– كانوا يريدونك بجنون، أمروني فنفذت وأحضرتك لهم. قانوننا لا يهتم بالوسيلة بقدر الغاية. لقّنت منذ صغري أن كل شيء جائز في سبيل مملكتنا؟ أنت ما عذرك؟ لا تضحكني وتقول إنك أحببتني.

– ظننت أنني أحببتك. لكنك خذلتني، وخنتني. وأنا الشاطر وقعت.

– تذكر زيارتك الأولى ومقابلتك لأبي الرئيس الأعظم؟ كنت مبهوراً كما أنت الآن ومأخوذاً. تنتظر بمحض رغباتك وبأحرّ من الجمر أن يعلنونا زوجا وزوجة. خيّرك الرئيس، أعطاك فرصة للتراجع. قلت من عالم عشقك المجنون، أريد الزواج بمن أحب. قال أبي: مهرها غال. ستقسم يمين الولاء. قلت سأقسم. سألك إذا وقعت في مصيبة، إلى من تتجّه طلباً للمعونة؟أجبته بلا تردّد– إلى الله. قال: انهض، لا يخشى المهالك من يعتمد على الله.

صعقت. كنت تظننا كفرة، لا، نحن عباد عصاة. هذا قدرنا، سنبقى ونعيش ونموت كما نحن جفت الصحف. ذلك اليوم كدت أنفجر من الضحك. وأنت واضع يدك فوق إنجيل الشيطان. تردد وعينيك في عيني

سأحرص على المبادئ، لا غرور مطامع. تماماً كما لقنتك.

وضع الرئيس يده على رأسك ودعا القدير- أيها الإله القاهر فوق عبادك، المتجلي الآن أنعم علينا بعنايتك، ووفق عبدك جوزيف للدخول في عشرتنا نحن الأحرار، واصرف حياته في الطاعة لنا.

- يومها، كنت مصعوقاً كما قلت. لا أعرف على ماذا أقسم.

- حتى وإن عرفت! لن يتغير شيء. كان همّك الفوز بي. الآن أنت رهينتهم وعبدهم وتحت أوامرهم. لم أخدعك، لم أقل أحبك قط بل أكرهك. كنت بين يدي تنساب بخنوع مثل الماء. لا طعم لا رائحة، ينسكب بسهولة أينما يفرغ.

قالت سوسن-

- شيء لا يصدّق.

همس جدي أكملي.

ابتدأنا حياة هي سيدتها. تجاهر باحتقاري وتجاهل. أجاهد لأخفي شعوري تجاهها خوفاً أن تلحق الأذى بمن أحبهم أكثر من حياتي. وتوالت مصائبي. حرمت من ممارسة فني. مختبر جامعة العلوم هو محل إقامتي. من الشروق حتى منتصف الليل. يشاركني فريق كامل من العلماء، تحت مراقبة شديدة، نقوم بتجارب لم يسبق لها مثيل. لاكتشاف ميكروبات وجراثيم أمراض لم تعرفها البشرية من قبل. أسمع أخبار العالم بانتشار أمراض، الجمرة الخبيثة، انفلونزا الخنازير. جنون البقر. الناس بين مصدق ومكذب. أضحك ببكاء وسخرية من نفسي.

قال جدي:

- كان قلبي يحدثني بأنه مندفع لطريق شائك لن يخرج منه. زرته فجأة قبل بدء امتحانات السنة النهائية. رأيت المساخر التي يعيش فيها فطاش صوابي وبلغ غضبي مداه. آذيته جسدياً ونفسياً فتركني.

- أتذكر أنه لم يتقدم لامتحانات السنة النهائية. التقينا بعد تخرجنا بسنة تقريبا. بحفل موسيقي له. كنت هناك مع أفراد جمعيتنا نهلل

ونصفق له بفرحة لا تخفى. كان بأبهى لياقته وأناقته. قال: ضيوفي الأعزاء. أهلاً كم في سهرة موسيقية بعد غياب طويل آمل أن تستمتعوا بهذا العمل الجميل.

بعد الحفل اختفى كالعادة.

صاحت سوسن:

– ماذا تعني؟ هل حبيبته كانت من عبدة الشيطان؟

هز الدكتور رأسه بحيرة فقال جدّي:

– أنت أيضاً، أحببت شيطاناً، حذرّتك منه، كما حذرّت يوسف من شيطانته، لم تسمعا لي. أستغفر الله. أليس هذا بكفر؟

– شياطين الجن والإنس تحدث عنهم القرآن الكريم. ألا يسمع كل منا وساوس تحرضنا على التهرب والانفلات من واجب، أو من عمل خير أو يغوينا بعمل سيئ. قد ننحرف ونقع في الغواية. ربنا يعرف ضعفنا، ويعرف قول الشيطان "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي".

صمتنا جميعاً. نظر الدكتور إلى وجوهنا المبهوتة، لوح بكفه أمام العيون الجاحظة الجامدة. حتى جدّي الذي حاول أن يلقي نكتة يرفّه بها عن القلوب المفطورة، بكى. وقال وهو يشرق بدموعه:

– أرجوكم لنعد للأوراق. هذا يوسف.

– ما أعرفه أنه بلا عائلة. قال المرأة التي أحببتها ماتت. لا أحد ينتظرني. لذلك نذرت نفسي لهذا العمل متقبلاً النتائج مهما كانت. سأحصل على ما جئت إلى هنا من أجله. وثقوا بي وفتحوا كل أبواب المعرفة أمامي. يرجونني قس يوحنا ساعدنا على قتل كل الأشرار. أسأل من هم؟ يقولون. كل ما هم من غير ديننا. يا لعذابي بتكريمهم.

أبدى جدي دهشة وخوفاً، فقال:

– من هؤلاء الناس؟ كيف يفكرون لماذا انتظروا كل هذه السنين؟

– هو مخطط مدروس ومتقن. تغير العالم بعالم جديد، يناهض

العالم القديم، مهمة صعبة، لن تتم بين ليلة وضحاها. تحتاج سنوات كثيرة وجهادا طويلا. تغير العقول والنفوس والقلوب. تغيير العقائد والأحلام والرؤى. تغير العادات والحضارة والتاريخ. غواية وكفرا وعصيانا، بصبر وبتؤدة. تمرر بسلام لا ينتبه لسمومها أحد. مزدانة بوعود. تحقيق كل الأحلام والرؤى. الانفلات من كل قيد وشرط. فقط كن أنت. قد نشعر بهذا الاجتياح نحتار فيه لكن لا نفهمه، خارج القوانين والمنطق.

سأل أحدنا:

– ماذا يعني هذا؟ ولماذا السرية؟

– يعني التغيير فناءنا. ويعني بالمقابل قيام مملكتهم، تحقيق حلم قديم. يعني أقدامهم ستطأ كل أرض. وأيديهم تستأصل الأحشاء. ما نقوله حقائق ليست بهذيان. تساءلوا وفكروا بصوت عال أمام مسؤولين، وطلبة، ورفاق. ابحثوا عن تفسير لما يجري. ارفضوا فكر عبدة الشيطان. تساءلوا! فالتساؤل مفتاح المعرفة. المعرفة أفضل من هدر الوقت بأمور بعيدة عن حقيقة عذابنا. فتن مذهبية، وعورات المرأة، وإطلاق اللحى، وتقصير الأثواب. جعجعة لن تأتكم بطحين.

قال جدي وهو يزفر:

– أنحن نعيش كل هذه المآسي ولا نعرف

كان جو يقول:

– المصيبة عالمنا لا يريد أن يعرف، وإن عرف لا يصدق، وإن صدّق لا يبالي. أصحاب الحل تسمع وترى لكن للمنصب أحكامه.

– لماذا علينا أن...

– لا تكمل يا يحيى، أكره هذه الـ"لماذا" تحبط، تؤرق، تتعب، تغضب، تقزز. أحدّ من سكين الذبح. لا أجد عنده جواب، وإن أجبنا فلن يتفق اثنان على إجابة واحدة.

رفع ناصر بيده ملفات وقال:

– هذه الحقائق! أنصدّقها. نصدق ما قرأنا ورأينا؟ أهي غابة؟

مد يده جدي وأزاح ملفات متخنة بمصائبها وقال:

– دون الرجوع لمثل هذه الملفات فالأمر واضح. منذ أول زماني وأنا أقول سبب مأساتنا اختلال الموازين.

هز الدكتور رأسه مؤمناً. استطرد ناصر:

– عندك حق. هنا أسماء دول باعت دولاً. ودول اشترت دولاً. أسماء أصحاب نفوذ، أرباب سلطة. ائتمنوا على الماضي والحاضر والغد. خانونا. باعونا. نراهم مبعثرين كمسوخ على ورق مطبوع. على أوراق النقد كأنهم آلهة. هم دنس. لكل منهم دور. مشارك، مخطّط، منفّذ، مموّل. ملايين الدولارات تنثر فوق رؤوسهم تشجيعاً لإجادتهم الرقص على جثث الضحايا والحضارة والثقافة. افضحوهم. بالوسيلة وبالأسلوب ذاته. سوسن انضمي إليهم.

قال جدي بصوت حزين:

– ماذا لو كان جو هو يوسف؟ وحدي المسؤول عما آل إليه.

– الحقيقة أنني نحيت فكرة البحث عنه منذ زمن. لا بد من طريقة.

– لنفكر به يا جدي. ربما صار فعلاً يوحنا. ربما مات أو قتل.

صاح الدكتور مؤنس:

– وجدتها! سأتصل بصديق يقدم برنامج "أدب فن مسرح" ليستضيفك يا يحيى على الهواء. حين يحدد الموعد سأخبركم به.

كم كانت فكرة اللقاء التلفزيوني موفقة. ذلك اليوم دعونا بعض أصدقائنا. العم إبراهيم مع أسرته وحضر بعض الأساتذة أصدقاء الدكتور مؤنس. الجميع ساهم في إعداد المكان مع فريق التلفزيون.

جدي ساهر مبتهج على غير عادته. جدتي تغني بصوت عذب حنون يا غائبين طالت الغيبة علينا. يصفق جدي طربا. عيناه ترمقانها بحب كبير. سوسن بقمة نشاطها تدور تساعد وتساند. ولا تكف عن السؤال

عن الدكتور مؤنس. بمعدل أربعة أو خمسة أسئلة بالوقت ذاته. تسأل عن أدق التفاصيل فأجيب ولا تكتفي. تتهمني بالأنانية المخزية لأنني لم أعرّفها عليه. أمازحها. إنه بعمر أبي أو أبيك ماذا في الأمر؟ تمط شفتيها وتقول ضاحكة مش مهم. أقول: لكن متى أطحت بعرش ذاتك تجيب السرّ في قلب الشاعر.

الدكتور مؤنس كان أكثرنا مرحاً وتفاؤلاً. يشاكس الجميع خاصة سوسن. كلما تخلى عن وقاره حدجه جدي بنظرة عدم الرضا فأحجم.

قال جدي يبدد الإحراج:

– أحببت المسرح من أجل يحيى.

– المسرح فقط يا جدي؟

– لا يا حبيبي. بل الدنيا والطبيعة ومرضي الذي أتى بك إليّ.

جدتي همست بحزن:

– كدت تقتل يوسف بسبب الفن.

أتمت سوسن الترتيبات الفنية. الإضاءة، والموسيقى شاشة لعرض بعض الصور. صار البيت استوديو تلفزيونيا كاملاً.

ابتدأ معد البرنامج ومقدمه يقرأ والكاميرات مسلطة عليه.

يسرني أن أقدم برنامجي هذا الأسبوع من بيت عريق بالفن فقد أهدى العالم شخصيتين فنيتين فذتين. الابن الوحيد للشيخ يحيى واسمه معروف في كثير من البلدان الأوروبية حيث كان عالماً فيزيائياً وفناناً. مسرحياً وكاتباً وشاعراً وموسيقيا رهيف الإحساس. والثاني هو يحيى يوسف. حفيد الشيخ يحيى القادر. كاتب وشاعر وملحن ومخرج كأبيه. شيخ يحيى:

– هل كانت لك ميول فنية ورثها ابنك ثم حفيدك؟

– أبداً. لكنني مستمع جيد. فأنا معتاد بعد عودتي من عملي الشاق الذي يستنفد طاقتي أن أستمع إلى أغاني السيدة العظيمة فيروز ولعشقي لصوتها أحتفظ بموسيقى الكثير من أغنياتها دون كلام.

– هل لك أن تقدم لنا نجم هذه الليلة للمشاهدين؟

– هذا الشاب الرائع حفيدي. ظهر فجأة في حياتي فعاد شبابي. عرفته من فترة وجيزة مع أنه كان أعز أمنياتي. هو أيضاً فنان مثل أبيه، تقبلته، كي لا أخسره كما خسرت أباه.

– يحيى هل لك أن تخبرنا متى بدأت تمارس هوايتك كمهنة؟

– منذ صغري. واهتمامات الكبار شاغلي. لم ألعب كأطفال الحي. كنت أبدو أكبر سناً من عمري. مرجعاً لكل من يصعب عليه شيء. لكل من عنده مشكلة أسرية وعاطفية أو مادية.

– هل ترى نفسك تشبه جدك في سلوكياتك أم أقرب لأبيك؟

– للأسف لا أعرف شيئاً عن أبي ولا عن حياته. عاش في بريطانيا عمره كله تقريباً. سأعيد عرض مسرحيته التي ربما بسببها غاب أو نفي أو قتل. جدي له شيء حلو بقلبي. قراءتي لسيرته صعبت عليّ سؤالك إن كنت أشبهه. أتمنى أن أنجز شيئاً مما أنجزه.

انتهى اللقاء التلفزيوني وقد أدى المهمة التي كان منتظراً. اتصالات كثيرة وردت. أرد ببساطة وصدق. كما طلب مني معد البرنامج. فوجئنا باتصال من سيدة. تتكلم بلهفة وحب وعجلة قلت أهدئ روعها. عفواً سيدتي. هل لي أن أعرف من يكلمني بكل هذا الحب واللهفة. أنا عمتك شيماء يا يحيى. ألم يكلمك أحد عني. صاح الجميع شيماء حبيبتي أين أنت؟ قلت نحن الآن على الهواء فهل يمكنك الاتصال بعد قليل. سأفعل. مع خالص شكري لكل من ساهم في هذا اللقاء لأتعرف عليك.

عرضنا الأغنية التي عرف عن أبي أنه كان يبدأ بها عرض مسرحياته. لم نتبين وجهه فقد كان يلبس قبعة إنكليزية وثياباً غريبة من ربع قرن مضى. سمعنا تصفيقا وبكاء الحاضرين.

أنهى المذيع اللقاء. بحركات سريعة عاد البيت كما كان. بقينا وحدنا من جديد. صمت وترقب. قطعته جدتي بتساؤل قلق:

– هل ستتصل؟ هل ستأتي؟

لم تتصل لكنها أتت في اليوم التالي صباحاً. يرافقها رجل شيخ قدمته الدكتور نعيم زوجي. بطلي الذي خلصني من عذاب سجن يسمونه مستشفى الأمراض النفسية.

طافت عيناها بإرجاء البيت التي غادرته صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها. حضنتها رجاء قائلة:

– الحمد لله أنك بخير وعدت أخيراً إلى بيتك.

ردت الضيفة:

– لا ليس بيتي، أنه بيت يحيى قادر. جئت من أجل يحيى الشاب. سحبتها جدتي إلى صدرها وضمتها تنوح وتبكي. ربتت شيماء عليها:

– لا تبك. فقد مضى زمان طويل على ما تبكين من أجله. لقد أرسل لي من انتشلني مما رماني أبي به. من حسن حظي، أن نعيم أتى زائراً من بوسطن للمستشفى. تقابلنا عدة مرات أكد لي بأنني لست مريضة بل حزينة، لأن أبي الذي أحببته بجنون خذلني.

تراجعت للخلف وأحاطت زوجها بذراعها. قالت:

– هذا الرجل العظيم، هدية الله لي. أحاطني بكل تفهم وحب. أحس بمشاعري نحوه تتحول وتكبر، أفهمني أن هذا غير مسموح بين الطبيب والمريض. قلت ألم تقل لي إنني لست مريضة. قال لكنني بعمر أبيك. قلت هذا ما أنا بحاجة إليه. ربما أحببتك لأنك تشبهه. تزوجنا كنت في العشرين من عمري وكان في الخمسين.

كان شرطي الوحيد أو ربما مهري أن نعيش في أمريكا. حين سألني أمريكا؟ لماذا. أخبرته عن أخي يوسف. حكيت له شيئا عنه. سررت حين علمت منه أنهما تعرفا على بعضهما في مناسبات كثيرة.

صحبني إلى بوسطن. أكملت تعليمي فحصلت على بكالوريوس الطب. بعد سنتين على تخرجي رزقنا بولد سميناه يحيى. الآن هو دكتور يحيى يعمل بعيادة أبيه. يبدو أن يوسف لم يكن يعلم عن ابنه فقد حدثني باكياً عن فقدانه عائلته.

صرخنا جميعاً بصوت واحد:

– هل كنت على اتصال به؟ هل رأيته؟ هل تعرفين شيئاً عنه؟

– التقيا مرة في مؤتمر للأبحاث الطبية. سأل عنه، وجده، قال له ممازحاً زوجتي تبحث عنك بجنون. سأل مستغرباً لماذا تبحث عني زوجتك؟ قال لأنها أختك شيماء. فاجأنا بزيارتنا عند ولادة ابننا أسماه يحيى. سألته أين يقيم. قال في اللا مكان. يحيى هل تذكره؟

– للأسف لا أعرفه.

– أطلق عليك اسم يحيى مرضاة لجدك. كان حديثنا في كل اتصال يدور حول أبي. كانت أمنيتنا المشتركة لو عرف كم أحببناه.

تدخلت جدتي:

– شيماء حبيبتي، الحمد لله أنك بخير. الحمد لله أنك تزوجت وأنجبت، وسميته يحيى. انس يا بنيتي زمن طويل فات. لعل يوسف يفاجئنا يوماً بعودته كما فعلت أنت. ليته رأى البرنامج ويعود.

– لم يكتفِ يحيى القادر بحرماننا منه بل حرمنا من أخينا الوحيد.

رد جدي بحزن بالغ:

– أظنك تتمنين موتي.

– الحق يقال، نسيت أمرك. على العكس من يوسف. يوسف لم ينسَ ولم يغفر لكنه يشهد لك ببعد نظرك. حذرته ممن أحبها. يقولها دائما. لنا أب عبقري، لكنه لم يتفهمنا.

سأل جدي:

– ألم يخبرك شيئاً عن حياته وماذا يعمل الآن؟

– أخبرني أنه تزوج من طبيبته واستقر. لكن عادت استر وأخذته مرة أخرى إلى أبيها. آخر مكالمة منه أخبرنا أنها دمرت عائلته. سألته: أين أنت؟ كلمتك لأزيح هماً عن قلبي. استر تشن عاصفة ضدي. فقد تمسكت بعدم موافقتي على زواج ادعته، لم يكن برضاي. ظلوا متمسكين بي. لأنني بنظرهم أبرع العلماء. حقيقة أنني تعبت من الجري خلف أخباره

ثم تناسيته.

قالت جدتي:

– يا لقسوة قلبك على أبيك وأخيك.

– قلبي.. أتقولين قلبي يا أمي؟ هل تعتقدين بعد ما عشته ما زال عندي قلب؟ مات قلبي منذ اليوم الذي صحوت فيه وأنا بالمستشفى بين مرضى حقيقين مخيفين. أنسيت؟!

– لم أنسَ لكنك أم والأمهات قلبهن كبير. تنادي اسم يحيى ابنك كل يوم مرات منذ كان طفلاً وإلى أن كبر وأصبح طبيباً. ربنا يحفظه لك ألا تغفرين كرمال هذا الاسم. ها هو يحيى بن يوسف هنا؟

– ربما أعتقد بأنه موجود وتكتم لئلا يفطنوا لوجوده.

أحاطت عمتي شيماء كتفيّ بذراعيها وسألت: أخبرني كيف كنت تعيش؟ كيف التقيت جدك؟ أعرف أن دنيا ما كانت لتبخل عليك بروحها إذا لزم الأمر. عرفت من المقابلة التلفزيونية بأنك تخرجت في الجامعة ودرست اللغة الإنكليزية وتعمل بالفن.

– عمتي دعينا ننعم بوجودك. الحمد لله أنك بخير.

– أنا لست بخير. لا تخدعك المظاهر يا يحيى. آه يا يحيى لولا هذا الإنسان العظيم الذي أعادني إلى الحياة لظللت أتخبط بذلك المصير. حبيبي نعيم لا تظنني أشكو بل أبوح كما عودتني.

تبسمت الدكتور نعيم وقال:

– لا عليك حبيبتي. عندي ما أضيفه عن يوسف. كان فنانً رائداً جريئاً لحد التهور. شاهدت آخر أعماله المسرحية عرضت في نيويورك. أوقفت بعد يومين مدعين أن صاحب العمل عاودته حالة انفصام عانى منها سابقاً. هو يخضع لعلاج مكثف.

شككت بالأمر فسألت عنه وتقصيت. ذهبت إليه. لم يكن مستشفى بقدر ما كان معتقلاً. سمحوا مقابلته بعد توسط رئيس المؤتمر.

كانت مقابلة سريعة ومراقبة. تكلمنا من وراء سلك شائك مضروب

على الشباك الوحيد في غرفة المريض. كان يوسف في غاية الصحة النفسية والعقلية. ضحك كثيرا وهو يخبرني عن جبنهم وفزعهم من مسرحية. كلام قد أدفع ثمنه حياتي لكن آسفي فقط على توقيفها.

– ماذا كان موضوعها؟

– كانت تحكي عن شياطين إنس خرجوا من تحت جناح الشيطان الأكبر وتفوقوا عليه. كان الفصل الأول. أهم اجتماع لهم ولشركائهم عقد بسبب الانتهاء من ترتيب خططهم لتخريب العالم القديم. أبطال المسرحية شباب بمراحل عمرية مختلفة. ظهروا بحالات متقدمة من الفساد والإدمان والجهل والجرائم. لقطة جريئة للبطل الأساسي. كان يوسف يتساءل عن ماهية هذا الرب الذي يدّعون أنهم ينفذون مشيئته في القتل الجماعي لتطهير العالم من الأديان.

قالت جدتي بحسرة:

– حبيب قلبي كان يائساً، رمى نفسه في أتون نار لينهي حياته.

– صدقّت. بعد ذلك اليوم لم أعد أسمع عنه شيئاً.

قالت جدتي:

– منذ صغره حين تصل به الأمور إلى تلك الدرجة من اليأس يكتب ويحتفظ بما كتب أو يمزقه. صديقه المقرب الدكتور مؤنس احتفظ بأوراق بخط يوسف سنوات طويلة مضت بالعربية وبالفرنسية.

ال الدكتور مؤنس:

– لعله كان يضللنا أو يضللهم. أحياناً يبدو مؤمناً بما يقومون به. أحياناً أخرى يصفها بأنها حضارة ملعونة ومدمرة. يحزن على حال شعوبنا. ثم ينعتهم بأهل الكهف الجدد. يحلمون بماض انتهى وولى. حين قلت إنني أستغرب وهو العالم الكبير تجاهله الأيدِي الخفية التي عرفها حق المعرفة كيف تتلاعب بمصيرنا. رد بسخرية: بل نحن جبناء خانعون مجرد مطايا لهم.

قال الدكتور نعيم وهو يستعد للخروج:

– أتذكر جيداً ما كتبه في المسرحية ذاتها عن فترة قادمة مريعة. نقاشات تدور حول مستقبل جديد. وجغرافية جديدة. وحضارات جديدة.

هببنا جميعا نرجوهما البقاء. لمحت عمتي دامعة قالت بحب:

– ما بالك يا ولد؟ هل وقعت في غرامه؟

– أتمنى مساعدتك للم شمل الأسرة.

سمعنا صوت جدي ينادي:

– يحيى، لا تدعهما يغادران قم بواجبك كرب أسرة.

صرخت ابنته رجاء:

– بعد الخراب صحا أبي. وها هو يأمر أصغرنا بلم الشمل الأسرة.

صرخ بشهقة كأنها شهقة الموت:

– ألم تدركي يا رجاء أن كل يوم تقتلينني أكثر من مرة.

ثم هوى على الأرض.

لا أعرف كيف مضت تلك الليلة. لم ينم جدّي ولا جدتي ولا أنا. في الصباح تلاقينا وجفون أعيننا منتفخة تشي بالأرق. شربنا قهوتنا بصمت. فطورنا لم يمس. نخاف الاتيان بحركة أو بصوت، يخدش صمتنا المتوتّر، فتنهال أسئلة تزلزل النفوس. والسؤال بـ" لماذا " اللعينة عن الذي جرى وما يجري. ولا جواب لها.

تلاقينا مرة أخرى على الغداء. كل منا أكل لقيمات صغيرة. وعاد لشروده. رنّ جرس الهاتف، التفتنا نحوه، لم يتحرك أحدنا ليردّ. جاءت أمينة من مطبخها لتعلن أن السيدة شيماء على الخط تريد أن تتكلم مع يحيى. قمت من فوري استوقفني جدي. أخبرها أنني أريدها هنا في البيت. همست جدتي وأنا أيضاً.

حاولت شيماء أن تبدو فرحة. صوتها وهي تلقي بالتحيات مشاعر الحي والشوق كان مجروحا حزيناً منقوصاً. صمتنا. قالت:

– يحيى، نعيم يريد أن يحكي أكثر عن مسرحية يوسف القاتلة؟ ربما

تكن مسرحيتك الحقيقية فلا خوف هنا لصعوبة فهمها لجماهيركم.

– بل يجب أن نلتقي في بيتنا لتصفية الأمور العالقة. أهمّ من أي شيء آخر. جدّي وجدتي وأنا، بأمس الحاجة لوجودك بيننا. تعالي.

– هل تتحمل مسؤولية ما سيحدث؟ لست واثقة بقدرتي على الكلام عن الماضي أو المستقبل. صحيح، هناك نبض في قلبي.

همست خشية أن تفضحني حشرجة البكاء في حلقي:

– أنا أتحمل كل أعباء الدنيا وظلمها وجورها من أجل عودة أسرتنا.

– دون أبيك يا يحيى؟

– نعم دونه. تعالي يا شيماء وستغفرين وتحبين كما غفرت وأحببت.

حين عدت وجدت جدي قد غادر غرفة الطعام، جلس في البهو بانتظار الجواب، كمحكوم بالإعدام.

قلت بمرح مفتعل:

– إلى من يهمه الأمر، ستحضر السيدة شيماء وزوجها على العشاء. فمن يعرف الأطباق المفضّلة لديها، فليذهب ويعدها لها.

جدتي أسرعت إلى المطبخ وجدي يصيح سأذهب معك. قلت وأنا أخرج هاتفي: سأدعو ضيوفاً على العشاء فوجودهم سيخفف التوتر.

تمام الساعة السابعة والنصف. كان السيد إبراهيم أول من وصل وعائلته، اعتذر عن ابنه الطبيب قال عنده حالة مرضية صعبة. ثم مؤنس يبدو أنه استجاب لعواطف سوسن وإصرارها على أنه رجلها.

قبل العشاء كان جدي غير مرتاح لوجود ضيوف. قال هامساً:

– إذا حصل ما لا تحمد عقباه وفشلت في إتمام الصلح أمام الأغراب، فأنت الملوم يا يحيى.

التفت ناحية ابنته وقال:

– حضورك مبكرة يعني أنك ما زلت تتذكرين موعد العشاء في هذا

البيت. وكذلك موعد نومي.

– الحقيقة أنني أتذكر كل قوانينك وعاداتك المقدسة. حرصنا جميعاً ألا نخرقها. لكن أعترف كنا نكرهها ونخافها.

– ليس مهماً بل الأهم ألا تكرهيني شخصياً.

– لا أريد أن نتعاتب. كل ما أرجوه أن يجد كل منا مكاناً له بجانب الآخر. ربما نتسامح مع الأيام. صدقني، ليست في ذاكرتي صورة حلوة للأب الذي كنت أسمع رفيقاتي يتحدثن عنه. كنت تعيش معنا في البيت ولا شيء آخر. تكلمنا لتوبيخنا وتحطمنا وكسرنا.

قال إبراهيم صديق جدي:

– أسألوني يا أولاد عن معاناة والدكم في غيابكم. أعترف بأنه مكابر من الدرجة الأولى. يظهر عدم مبالاة وقلبه ينفطر. شيء مثل هذا، لا يخفى على من يعرفه مثلي. سنوات غيابكم أعجزته وأمرضته. هان كل شيء. وعاش معذباً.

– لا تحاول إقناعي بأن بالقسوة شيء من حب. أحب إنجازاته ونجاحاته، أحب أوامره التي كانت صارمة على عمرنا الغض فنفر من أمامه مذعورين. أرادنا كتيبة جنود عليها التنفيذ دون تمرد. لم يشعرنا بحبه واهتمامه.

قال صديق مؤنس:

– كل يوم تشرق الشمس من جديد. ما رأيكم أن نتناول العشاء قبل أن يبرد. وإلا ستوجهون تهماً جديدة بأنهم لم يحسنوا طهيّ الطعام.

تدخلت قائلاً:

– جدي وجدتي تعاونا على تحضير هذه الأصناف من أجلكم.

لم يعلق أحد قام الجميع لتناول العشاء بينما جدي أكل بضع لقيمات وانتقل إلى الصالون الكبير وجلس على مقعده المنفرد والبعيد. سمعت صديق جدي يقول له:

– تحمل يا يحيى فطالما قسوت على أولادك وزوجتك.

– أقسم أن ذلك من شدّة حبّي لهم وخوفي عليهم.

بعد انتهاء العشاء، جلست جدتي عن يمينه وعمتي وسوسن عن شماله وأنا بقرب سوسن. شيماء وزوجها استقلا بمكان بعيد ومنفرد. صديق جدي إبراهيم وحفيدته جلسا على الأريكة المقابلة الطويلة، وبجانب الدكتورة هناء جلس الدكتور مؤنس. تبرمت سوسن وقالت:

– لا تقل يا يحيى أن الدنيا ليس بها حظ.

– جدنا قال هناك سوء اختيار وتجاهل إشارات السماء.

سمعنا صديق جدي يقول:

– فرحنا بعودتك يا شيماء وبزوجك المحترم. أحسنت الاختيار.

– كان أعظم حدث في حياتي. يوسف أُنجز غير فنه هذا الشاب الجميل. وكذلك نحن. اختار الله لي خير الرجال. ثم رزقنا ابننا يحيى. ظل نعيم يطلب مني كتابة تجربتي في المستشفى لأنها تجربة فريدة من نوعها من وجهة نظره كطبيب نفسي. حاولت وفشلت عدة مرات أصاب بدوار وصراخ وعويل وبكاء. أرويها لمرضاه تساعدهم بالتغلب على الألم.

أجاب الدكتور نعيم:

– شيماء تظن، أن المقهور هو من عانى حالة نفسية ما. ثم أدركت بعد عدة نقاشات مع يوسف، أن ذلك ليس بشيء إزاء معاناة شعوب مسحوقة ومقهورة. عالمنا الثالث مثلاً حقل تجارب للأسلحة الجديدة للأمراض الوبائية للتسويق. شيء يفسر لنا لماذا نحن عالم قديم. ما زلنا نتلقى الأوامر من الباب العالي الحالي. بعد استتباب عالمهم الجديد سنكون فيه رعايا.

– آسف دكتور نعيم للمقاطعة. ما دخل المرض النفسي عند إنسان بالعلاقات الدولية؟

– عندك حق بهذا السؤال يا يحيى. كثيرًا ما كنت أتساءل لماذا نحن في آخر الركب. عللتها سابقاً أن الحياة دول. من سره زمن ساءته أزمان.

انتهى دورنا، سيأتي مرة ومرات. لم يأتِ.

قرأت مقولة لمحلل سياسي أعجبتني. قال إن الغرب والشرق صنوان لن يستغني أحدهما عن الآخر. الغرب المادة والشرق الروح. إذا مشيا سوياً أستوى سيرهما وإلا سيعرج كل منهما دون الآخر.

الغرب بغطرسته بعد استعمارنا وإذلالنا سنوات. ظنوا أنهم ليسوا بحاجة لروحانية الشرق. فالزمن للقوة. هم بحاجة لثرواتنا الكثيرة وقد آلت لهم بقمعنا واستغلالنا. الروحانيات من وجهة نظرهم سبب خنوعنا سنوات من استعمار تلو آخر. الآن نحن في العالم الحلقة الأضعف. أثبتنا لهم صواب نظريتهم، بقلة حيلتنا أمام مشاكلنا فنلجأ لهم. الباب العالي. جدك نموذج حي لظلمهم، والدك نموذج ظلم أبيه أنت يا يحيى أعتقد أنك نجوت. المرأة التي علمتك الحياة قادتك بطريق سوي أظنها تعلمته من يوسف. علمتك أن تكون أقوى من كل شيء. والتصدي لكل شيء. وحصولك على حقك فأوصلتك إلى عائلتك.

– كيف عرفت هذا عني؟

– هذا عادي على طبيب نفسي وماهر كما يقولون. يبدو واضحا من سلوكك، وطريقة كلامك، ومعاملتك للعائلة. أنت عميدها رغم صغر سنك. صرت أنا وابني من هذه العائلة أعرف كل فرد. عرفت عن جدك القليل لكنني الآن تعرفت عليه عن قرب فأحببته!

قال جدي:

– أعرف من سود صحيفتي. أخيراً سمح القدر لنا بالتلاقي. قد نستطيع إصلاح ما أفسدته الأيام. لنعد ليوسف. المعلومات التي استودعها عند مؤنس نشرت على وسائل الاتصالات. أتتوقع أن تثير انتباه المسؤولين فيبحثون عن صاحبها الأصلي؟

– فات الأوان. لو حصل هذا في زمانها. لو أعارها أحد المسؤولين اهتمامه. لو تفهم سبب غموض ما يحصل. إنها مشكلة كل وزمان. وجود شخص جريء ومخلص لقضايا أمته. أو كما نقول لا يخشى في الحق لومة لائم. لا تنسَ أن الظلم من طبيعة النفوس. لن أجاملك. ما حصل

لأولادك يا شيخ يحيى للدوافع ذاتها حرام. حين عرفت أن يحيى الحفيد وجد لك عذراً احترمته.

قال جدي:

– للسبب ذاته، أعني ظهور يحيى، تعلمت السماحة والرضا. ومن أجله تعلمت قبول الرأي الآخر ومناقشته بهدوء. أعترف لشيماء بأنني سببت لها جرحاً عميقاً. اعذرها لو لم تنس.

– تغيّرت يا شيخ. قتلتني بسبب ضحكة وقتلت أخي من أجل الفن.

– ها أنت هنا، تجاهرين بكراهيتك. أليس هذا بعقاب كافٍ؟

– لم نمت صحيح. لكن قتلت أشياء كثيرة بداخلنا. قتلت مشاعرنا قتلت ثقتنا. حين تعرف يوسف على نجمة وهي البنت الجميلة الذكية الغنية لم يصدق أن وقع اختيارها عليه مع أن شباب الجامعة زحفوا لنيل رضاها. في ذلك الوقت كما أخبرني يوسف بنفسه كان لا أحد. عنده مقومات قلما تكون عند شخص واحد لكنك طمرتها بداخله لم يعرف أنها موجودة وأصبح الجميع بخدمته ليقدم شيئاً من فنه وعلمه. في تلك الفترة اكتشفت كم أنا مولعة بك مشتاقة لك دون أحد من العائلة. صرت ألاعبك لعبة سميتها " ماذا لو ". لو اعترفت بحسن نيتي وصغر سني. لو تركتني بينكم. لو أكملت تعليمي في مدرسة بدل سجني في مستشفى. لو تذكرتني وأعدتني بنفسك لحضنك وحضن أمي.

– يقولون "لو" تفتح باب الشيطان. لنقفل باب اللوم والعتاب الآن.

– للأسف.. حاولت.. قال يوسف: نحن في زمن أوصدت ابواب الخير وفتحت أبواب شياطين الشر ".

– ألن تنسي؟ ألن تسامحي؟

– أبداً.. ولو عشت مئة سنة.

هذه الكلمات الباترة، الخارجة من فم عمتي شيماء ومن عمتي رجاء في الوقت ذاته، جعلت وجه جدي يكمدّ، وصمت ثقيل يخيم من جديد.

تحركوا من أماكنهم. ذهب كل باتجاه وانفضت الجلسة.

مر أسبوع على هذه الحالة الغريبة في البيت كان عليّ أن أعود إلى الحارة لأشارك أهلها تأبين دنيا في أربعينها. أربعون يوم. يا الله كم تغيرت الأشياء. حياتي لم تعد سهلة خفيفة كما كانت معها. حمل ثقيل لم أشعر بمثله من قبل. عليّ تخليص قلوب الجميع من معاناتهم من قسوة أب هو نفسه إنسان مجروح؟

سألتني عمتي رجاء حين عودتي وعيني محمرتين من البكاء:

– أين كنت طوال النهار يا يحيى؟

– كنت أقيم عزاء دنيا مع أهل الحارة فاليوم هو أربعينها؟

– ماذا تقول؟ أهذه الدموع وهذا الأسى على وجهك من أجل ذكرى دنيا. انها مجرد.

– لا تكملي. إنها أمي. ربتني، وتعبت، وسهرت، وبكت لما أبكاني وفرحت لما أفرحني. علمتني الحياة. أمي ولدتني وذهبت. دنيا تولت أموري. وقبل موتها خرجت عن صمتها. جاءت لجدي وباحت بسرها. لتحمني من البقاء دون أهل. لن أوفيها حقها. إنه شيء من الوفاء. بعض الاعتراف بالجميل.

مطت شفتيها باستغراب. جدي قال هذا أنت يا يحيى. جدتي وجدان لامتني، لأنني لم أخذها معي لتقرأ سورة يس على روح امرأة ليس كالنساء حرمت نفسها كثيراً لأعيش وتعوضني عمن فقدت.

انكب زوج عمتي، بإشراف الدكتور مؤنس، على كتابة نص يشبه نص المسرحية القاتلة التي كتبها أبي مثلها وأخرجها. كلما كتب جزءا منها، تدخل مؤنس لتعديل موقف، أو كلمة، وهو يقول أعرف يوسف أكثر من نفسي.

انتهيا منها بأقل من أسبوع. وأخذ الدكتور مؤنس على عاتقه اختيار فريق التمثيل وأعد مسرحاً طبيعياً في حديقة الأندلس المعروفة

بصخورها الضخمة وأشجارها الكثيفة. علق الدكتور نعيم قائلاً:

– مسرح شكسبير في الهواء الطلق.

بزمن قياسي حددنا موعد العرض ووزعت الدعوات بمعرفة مؤنس.

أزيح ستار وهمي. ظهرت على المسرح غرفة اجتماع واسعة بوسطها طاولة بيضاوية يجلس حولها مبتدعو فكرة العالم الجديد. بسترات سوداء وقمصان بيضاء وربطة عنق حمراء. على كل ياقة السترة رقم. على رأس الطاولة جلس الرئيس والجهة المقابلة خالية.

رفع الامبراطور يده وقال:

باسم الرب نفتتح الجلسة الأولى لنعلن بداية عالم جديد، عالمنا. نحن أسياده. شعاره "من ليس معنا فهو ضدنا". أيها الأصدقاء نحن وفينا بوعودنا بمساعدة الرب. اختارنا لنخلص العالم من الأشرار. تخلصنا ممن نعتتنا ديانتهم بالكفار، أوصتهم بقتلنا حيثما وجدّنا. عالم واحد أسرة واحدة. هذا زمانكم لتمتلئ خزائنكم بالأموال. وأجسادكم بالصحة وروحكم بالفخار، وقلوب أشد قسوة من الحجارة. حافظوا على هذه المكاسب من أي تهديد.

سيتاح لكل منكم ثلاثة دقائق، يسمعنا وجهة نظره في السير إلى الأمام بمسيرتنا الجديدة عالمنا مترامي الأطراف. كل فكرة مطروحة من أي منكم لنا الخيار بأخذها أو تركها. اتبعوا التسلسل الرقمي. ليبدأ رقم واحد. أؤكد لا مجال للمقاطعة ولا مناقشة ولا اعتراض. سنري العالم عصر الحريات. عالم نظيف لا يعكر صفوه أية تعصب. لا دين ولا قومية ولا إثنية.. إلى الاحتفال.

على شاشة عرض بمنتصف المسرح. صدحت موسيقى عسكرية. جنود كالقدر العاصف تنقل أقدامها بخطوات ثابتة وتحية "لفرعون إله الأرض الجديد" بجانبه أحد الباباوات. يناوله صكوكاً يمنحها للعسكر الرافعين أيديهم بالتحية، قال باعتداد وصلف لا تأخذكم بالمارقين رأفة ولا شفقة.

تتالى وجوه جنود. رؤوس متعالية نحو سماء غائمة، تتلقى نقاط ماء بتصلب مرعب لم ترتفع يد لتزيح القطرات عن الوجوه. تلفّت الرئيس نحو الأساقفة، والمشايخ. تقدموا نحوه ثم توقفوا تحت أقدامه. قال جو كبير الكهنة:

– باسم الرئيس. المهمات الموكلة إليكم مقدسة انتظرها التاريخ طويلاً. ستنفذون مشيئة الرب الذي يباركِكم في سمائه. حرروا عقول ونفوس ملايين من البشر ما زالت تؤمن بمعتقدات جاهلية وباليه. رصاصاتكم مباركة. لا لن تذهب هباء بل اقتلوا واقتلوا. فأنتم تناصرون عالمكم الجديد. وتخرسوا ألسنة مناوئة للمدنيّة الحديثة.

تذكروا جيداً. قبل قرون دخول فرسانهم إلى بلادنا. من فوق صهوة جيادهم صاحوا أسلموا تسلموا ردوها عليهم "استسلموا تسلموا". سيصلي رجال الدين لراحة الأرواح.

اطفأت الشاشة وأشار الرئيس لصاحب الرقم واحد أن يتكلم فقال:

– بما أن وصايا الحكماء القديمة دستور عالمنا الجديد صار معمولاً به. أرجو أن نظهر حقيقتنا وما ندين به، وما سيجرى تطبيقه على الأمم كافة للعلن. انتهى عهد الكيل بمكيالين. لن نحاضر أمام العالم عن الحرية والديمقراطية في النهار، وفي الليل نعد لهم خطط الدمار والخراب وتجيش الجيوش. فنحن نمسك زمام الأمور ووسائل الاتصال والإعلام بيد من حديد. ما أعنيه هو المجاهرة بأفكارنا وبروتوكولاتنا. قد يرى العالم أن حكماؤنا يتبنون تمجيد الفوضى. ولم لا. طالما القوي يقضي على الضعيف. فالعشب الطفيلي لا يستحق الوجود.

قال رقم اثنان:

– لا بد أن نواصل، بل لا نكف، بل نزيد في سياستنا القديمة. إغراق العالم القديم بمصائب تتلوها مصائب. لنتركهم يتعذبون بلهونا بمصائبهم. وتعقيدات محكمة لأمور حياتهم. لا يعرفون كيف تأتي؟ ولماذا؟ ومن أين؟ يغرقون بحيرة كالعادة يستجيرون بنا فنقدم حلولاً تيسر مهام رجالنا.

اندفع شخص بجانب الرئيس وقال:

- لن أستطيع صبراً حتى يحين دوري. جلوسي هنا مع هذا الرقم الأخير المشؤوم ليس محض صدفة. عليّ وبأسرع وقت ممكن أن ألفت نظركم يا سادة. الرئيس تجاهلنا نحن الشركاء وألقى بتحية الافتتاح للأصدقاء. ماذا يعني هذا؟ يعرفنا أكثر من غيره. ونحن نعمل يداً بيد. بالتخريب والتدمير والحروب بكل أنواعها. لسنا فاكهة تؤكل ثم ترمى قشورها. نحن كتمنا أصواتاً، وقمعنا إرادات، لعبنا بمصائر دول بتأن دؤوب. أزلنا دولاً من خريطة العالم. شيء معيب أن نسمح بتطبيق مثل هذا علينا. أيها الرئيس نحن أسياد مثلكم.

اسكته آخر يجلس بجانبه:

- لا يجوز أن تأخذ دور غيرك. التسلسل ضروري يعني شيئاً لا نعرفه. إذا ألغونا وأقصونا، فلا بد من سبب. سيوضحه الرئيس في ما بعد. أعرف أن اجتماعنا هذا يخص مستقبلنا، لكنني قضيتي لا تحتمل الانتظار. هي من صميم موضوع اجتماعنا اليوم. مقابلة الرئيس ليست متاحة بسهولة. وهذه فرصتي هل أتكلم؟

- اسمح لي يا زميل أن أوضح لك ما فاتك. أنا لا أشكو. أنا أدافع عن حقنا. سؤال بسيط للرئيس. هل نحن شركاء بالمناصفة.

- آسف يا زميلي لم أنتبه لما قلته. عندك كل الحق. نحن شركاء قولاً وفعلاً وأنا أدعمك بقوة. ظُلم كثيرون منا عند توزيع المهام. تأجلت ترقيات ومنحت لشباب تخرجوا في فترة وجيزة. أتساءل بدور يا سيادة الرئيس. هل عاد للوجود الدم الأزرق وآخر رمادي؟

قال واحد من الشركاء المبعدين عن المناصب:

- انتبهوا يا سادة. لعلنا بعد غسل يدينا من قذارات المهمات التي نفذناها انتهت مهمتنا. اسأل الرئيس.. هل خرجنا من المعادلة. هل خزّنا بمستودعاتكم؟ لا أقول هذا اعتباطاً. فقد عرض علّي ترضية بشكل سري، طبعاً رفضتها، فأنا لست واحداً نحن كل. إذا تمكنوا من قبل من شرائنا فقد كان هذا مقابل وعود صدقناها.

قال أحد الوزراء:

– أنت يا من فتحت جراح قلبك. غادر القاعة فورا. أنتظر بالخارج لأخذ مستحقاتك. لقد فصلت من عملك.

قال رقم ستة:

– كم أخفتني أيها الوزير من فصل واحد منا. سأضحكك كثيراً حين تعلم أنني منذ أمسكت بطرف خيط الفساد في الإدارات إلى أين انتهى بي. متاهات اسمها مافيا المقايضة. إذا سميت المسؤول عنها سينهار الكيان الوزاري كله بتهم مخزية.

تكلم الإمبراطور بتأنٍ كاظماً غيظه:

– لكننا هنا لمعرفة الآراء حول إدارة العالم الجديد. فإذ بي أواجه بأمور سخيفة وفضائح لم تعد فضائح في عالم مترامي الأطراف.

احتد الخلاف والنقاش في ما بينهم. سمعنا شتائم لا تليق بمستواهم الوظيفي. تشابكوا بالأيدي.

صرخ الرئيس:

– أنت أيها المتكلم قبل أن يحين دورك، لأنك ملول، بماذا أغروك أولئك الكلاب لتقوم بهذه التمثيلية القذرة في وقت احتفالنا الكبير. فكلابنا تحت أيدينا.

– وأيدينا أيضاً. ألسنا شركاء؟

– أيديكم ليست شريكة بل قفاز لأيدينا. أنتم شياطيننا، وظيفتكم الوسوسة وإشعال فتن. حين ننزل بلاء إثر بلاء تمهدون لنا تمريره وننتهي. وعدناكم بالحماية وكنا على الوعد. لا حاجة للكلاب.

– أحذرك، الخلاف ليس في مصلحة أي منا. قد نقلب السحر على الساحر. قد نعيد بعث العالم القديم من الموت وفكّ اللجام. عندها سنجعل عالمكم المأمول، الفردوس الموعود، جحيماً.

– تذكر أنك تخاطب رئيسك.

– أنت واجهة ليس إلا. هناك أشياء تغيب عن الأذكياء أحياناً لكنها لا

تغيب عن الخبثاء أبداً.

الجميع وقوفاً، كل يمسك بتلابيب الآخر. صراخ يتداخل منافقون وكذّابون. نعرفكم جيداً. ماذا يعني التهديد، ما هذا التمرد. لا نهتم!

قال قس وقور:

– أنتم بهذه الطريقة تفسدون المكاسب التي حصلنا عليها. تحبطون مخططات ما زالت تحت التنفيذ. تسوية الأمور لمصلحة الجميع. ما زالت الشعوب التي نلعب بساحاتها على غفلتها. لننتهي قبل أن يستفيقوا ويسحبوا ثقتهم بنا. سياسة رئيسنا رائعة. ثقوا به. اجلسوا في أماكنكم واهدأوا.

ما زالت الأمور تزداد تعقيداً وقف الرئيس. أمسك بعصا وأشار نحو الحائط نبتت فجأة خريطة العالم. وقال:

– هذه خريطة للتسالي على الموبايلات الذكية. لكن حقيقتها مخطط لبلاد معنية بالحذف عن خارطة العالم.. سمعت شخصاً من المعسكر المعادي يقول لآخر يلعب بها. كانا في صالون الدرجة الأولى في مطار نيويورك:

– أتتسلى بمخططات أعداء يعدون مجزرة لشرقنا المسكين. ليست لعبة ولا وسيلة تسلية. انظر إلى يمين الكمبيوتر. هذه أسماء بلاد بالشرق ستدمر بالتتابع. وإذا كنت ممن يتابعون الأخبار، لا شك أنك عرفت كم دولة انتهت وكم دولة تنتظر.

هذا يعني. أن المثقفين هناك بدأوا يتفهمون. طبعاً هذا ما لا نسمح به. حكامهم تحت أيدينا بوثائق تبيح قتلهم. لذا ما زالوا بل وسيبقون ينفذون أوامرنا بإقصاء وإرهاب وإبعاد هؤلاء الناس المثقفين عن السياسة وعن مناصب حساسة.

أرجوكم الهدوء. لا تفسدوا الأمور. من حسن حظنا أن عرابنا الكبير. ما زال يعمل ما بوسعه. منذ كان بمركز حكومي كبير في بلادة حتى اليوم والغد من أجل تنفيذ وعوده لنا. نحن عالم نحن دولة ضمن دولة

ماذا تظنون. أرجوكم اصبروا. حكام المناطق أصدقاء العراب. أيدوا خططته بتقسيم دول المنطقة لدويلات طائفيه تحقق جزء كبير منه.

لم يستمع أحد لتلك الأمثولة التي رواها الرئيس. كل منهم مشغول بالنقاش الحاد والصراخ. وإسداء اللكمات بعضهم لبعض. أطفأت الأنوار. وخمدت الأصوات. نرى أشباحاً تتعارك.

تنار الأضواء على الجهة الأخرى للمسرح. فنرى طاولة مستديرة، حولها مقاعد بعدد الدول العربية المشتركة في جامعة الدول العربية. جلسة طارئة بمناسبة دمار عدة دول بيد أطراف معادية وصديقة. كان رئيس المؤتمر يرجو الهدوء معلناً أن الطاولة المستطيلة بدلت حسب رغبتكم بأخرى مستديرة. لنبدأ بالأمور الأهم.

بدت قاعة الاجتماع بكامل أناقتها ورونقها مع الورود ومياه معدنية.

اشرأبت أعناق وتوسعت أحداق معظم المشاركين. بزاوية المسرح حيث نصبت مائدة كبيرة زاخرة بما لذّ وطاب ونيران خفيفة تحتها. بانتظار نهاية الاجتماع. أعلن عن بدء طرح الموضوعات المدرجة للنقاش. لا أحد يستمع. يبدأ الرئيس الحالي للمؤتمر بقوله:

– مستجدات في السياسة الدولية تلزمنا ألا ندفن رؤوسنا بالرمال.

جاءت الردود دفعة واحدة:

– الحمد لله.. ولا يحمد على مكروه سواه. كالعادة نشجب ونستنكر.

– قلت لكم زمن جديد، اعتداء سافر. لا تظنوا فكرة الفوضى الخلاقة نكتة. إنها حقيقة. تنتقل من بلد لآخر. كأننا جزء من عالم استعمارهم. هجمات شرسة، افتعال أزمات. تظلمنا كالعادة. وتشكينا. تألمنا لمصاب جيراننا وبني جلدتنا. ثم نسينا البلد المتضرر. مدى وجع أصحاب البلد. ومدى احتياجهم.

الطرح الجديد الغريب هذه المرة، افتعال الأزمات بدولنا بلا استثناء

بأسلوب مكثف. كأنما يريدون التخلص من الشعوب والاستئثار بثرواتنا. لا يخفى عليكم. خارطة عالمنا العربي والإسلامي تتقلص. كم دولة انتهت من الوجود، ومن بقي فيها يعيشون حمام دماء يومياً لا يكل. وكم دولة تنتظر دورها. بالطريقة ذاتها. دفعوا لثورات واهنة. بالهتافات ذاتها. بالاعتداءات ذاتها. بتخاذل الأهل بالتسمية ذاتها.

– متى راجعنا وتناقشنا بما يقولون ويفرضون. هم أسياد العالم؟

– هل من المنطقي أن تنقلب دولنا رأساً على عقب. فتن مغرضة، شعوب تواجه بعضها بنزاعات قومية وطوائف دينية. بالحيثيات ذاتها؟

لم يجد على الوجوه أي ردة فعل. حاول شد الانتباه لما يقول:

– الحرب ضد الإرهاب، مصطلح، قيل في لحظة حقد، فانتشر كالوباء. لم نعد نفرق بين الإرهابي ومن يحاربه. تأتي الجيوش ذاتها، بالأسلحة ذاتها، بشعارات الديمقراطية ذاتها. فهل سمع أحد في تاريخ الأمم، أن ديمقراطية وعدالة اجتماعية، تفرض بالطائرات والدبابات والفرمانات الجاهزة في غير هذا الزمن الرديء.

تسرب الملل الى النفوس.. دب النعاس في البعض، سقطت رؤوسهم على صدورهم... سعل أكثر الحاضرين وكأنهم أصيبوا فجأة بالسل، يبصقون كيفما اتفق.

لكسر ملل النفوس دارت همسات جانبية نشطت القلوب الغافية. بدأ الهمس عن ملاحة النساء في بلد الاجتماع الحالي. البعض يشرح بإسهاب كيف أمضى ليلة وصوله مع فاتنة، أميرة خرجت له فجأة من كتب الأساطير. أنسته مشقة السفر الطويل. سهرا حتى الصباح. يستجيب آخر للمشاركة، يعدد عدد النساء المنتظرات دورهن ليحظين بليلة من الثلاث ليال التي هي مدة المؤتمر. يتأفف آخر– المدة قصيرة لا تكفي والنسوة جميلات مثيرات. لنطالب بمدّ أيام المؤتمر بضعة أيام أخرى. يصيح واحد من بعيد– فأل سيئ يا أخي، من له قدرة على اجترار كلام معد ومكرر.

انحنى رجل الفندق المكلّف بخدمة ضيوف المؤتمر وقال:

– قاعة اللعب بانتظاركم أيها السادة لتروّحوا عن أنفسكم بعد الجهد. لعب ممتع وشراب معتق، ونساء سترونهن رؤى العين.

ثلة قليلة تابعت ما يدور. الرئيس كلفهم بكتابة تقرير يعبر عن رأيه الخاص عن كيفية التصدي لهذا العدوان السافر. قفز رئيس دولة من مكانه مثل عجل علف بعناية قال:

– بعد العشاء سنكون أكثر جهوزية، هذه المشاكل التي تبدو متاهة لا مخرج ولا مدخل لها. على رأي القائل " اليوم خمر وغداً أمر " .

تبعه آخر بالاندفاع ذاته قائلاً:

– دعوها لمن هم أقدر منا. نكلّف حلف ما كالعادة ليجد الحل.

اندفع الباقون نحو الطعام والشراب مؤجلين الاجتماع إلى الغد.

فتح الباب واندفع صحافيون ومراقبون ومرافقون للوفود المشاركة. توقفوا واجمين. الأقلام المذهبة الغالية الثمن في غمدها، والأوراق صفحات بيضاء كما خلقت. حتى الخرابيش التي يتسلى بها الملولون عادة غير موجودة. ماذا كانوا يفعلون.

قال صحفي مخضرم:

– هذه عادتهم. أعتقد أنهم يأتون للتصوير التلفزيوني وللمسامرة وللطعام والشراب وبدل السفر و.. البقية عندكم. لم يظفر مؤتمر من مؤتمراتهم ببيانات مهمة إلا أيام عبدالناصر. وقتها الاجتماعات حقيقية. والبحث جادّ عن أوجاعنا.

اقترح سكرتير المؤتمر خروج المؤتمرين بمظاهرة احتجاج. ضد الدول المعادية أميركا وإسرائيل عيانا جهاراً.

قال أكبرهم سناً:

– هل بينهما فرق. واحدة تطبل والثانية تزمر. اسمعوا أنا صاحب ثأر قديم. ذقت منهم الأمرّين. أنا أحقكم بالقيادة والهتافات.

اطفأت الأنوار والجمع الهزيل يتلملم ويتململ ويسير ببطء.

فجأة تبدل الضحكات إلى صراخ وعويل. والتصفيق تلاطم بالأيدي للدفاع عن النفس. ما هذا. أضيئت أنوار المسرح. يا للرعب الذي رأيناه. تكبيرات وتسبيحات والدم يجري على الأرض، رؤوس تدحرجت بضربة سيف أو سكين. أطراف. أيد وأرجل. مطوحة في الممرات. مجزرة على أشدها. يندفع من كل صوب إلى صالة المسرح مجموعات ملثمة، غارقة في سواد، من الرأس حتى أخمص القدم، قميص وسروال فضفاض. بلون ليل الغدر، الذي يلوح في عيون تقدح بالشرر من خلف اللثام، تنفث كره وحقد، تتوعد. يرفعون شعارات دينية وآيات قرآنية. سكاكين جزارين تبرق بالعتم، والذبح على أشده. مهمة عاجلة. ذبح البشر كذبح الخراف. طلبنا النجدة. اندفع صحافيون، وكاميرات تلفزيونية، ومزيداً من الرجال المثلمين بالسواد. رجال شرطة فزعة خائفة مرتبكة. طالت بعضهم جراح في الأعناق. جمهور المتفرجين يدورون حول أنفسهم هاربين فلا يرون طريقهم يدوس بعضهم على بعض. يرجعون لمركز المعركة الدائرة.

أصوات الإرهابيين كأنه خوار حيوان تختلط الكلمات ببعضها. صوت يقول هيا اقتلوهم. لا تؤذوا النساء الجميلات لنا حاجة بهم. ارفعوا أغطية الرؤوس، أما الرؤوس المكشوفة اقطعوها بلا تردد.

أصوات الشرطة تهدر. تطالب الناس بالخروج من الأمكنة المشرعة أمامهم. تطلب من عناصرهم الاقتحام لصفوف الملثمين. ترجو رجال الإسعاف بنقل كل من يجدونه على قيد الحياة بسرعة إلى سياراتهم. وتحث افراد الجيش القبض على الإرهابيين وتقيدوهم بإحكام.

الملثمون هربوا حاملين جرحاهم بدقائق قليلة كأنهم مدربون محترفون. صمت حزين خيم على المكان. لولا بقع الدم وسيلانه بمجرى رفيع كنت ظننت أنني أحلم. الذي حصل شيء لا يصدق. كلما أتذكر لحظات دخول المتفرجين إلى الصالة بضحكات ووشوشة هزيلة وكيف انتهت حياة بعضهم بطرفة عين أكاد أفقد عقلي.

جلسنا على أرض المسرح وصخوره الناتئة نتقاسم الوجع. كلنا في

هم واحد. شعراء، فنانون، أدباء، ومثقفون، أستاذة جامعون، معدمون جهلة مغيبون. رجال دين مسلمون ومسيحيون، مع ملحدين.

جدي ممتقع مرتجف ويتساءل صارخاً: أهم اليهود أيضاً. من هؤلاء قولوا لي أنا أحترق. جدتي تلامس يده المرتجفة فينسى ما هو فيه ويضمها إلى صدره ليحميها.

نلتقط من أيدي الباعة المتجولين جرائد، مجلات. نسمع لمحللين يبحثون مثلنا عن الحقيقة. والحقيقة ضائعة. الحقيقة بقبضة القوي المسلح. بين فكي كلاب الحروب، وسماسرة الأسلحة. من عدونا؟ من صديقنا؟ ولماذا نقتل بشكل جماعي؟ لماذا يريدون لنا الفناء؟

فجأة توقف كل شيء. أتساءل راجياً هل نجى الممثلون هل قبض على بعض المجرمين. رجال الشرطة تحقق بالحادث والسؤال الآن لماذا كان هذا المكان مسرحاً مع أنه ليس كذلك. يسألون عني وعن مؤنس. جدي يقول أهذا دور المسرح يا يحيى. يجمع الضحايا ليفتك بهم مجرمون لا يراعون حقاً ويرعون الباطل.

نرى جموعاً تدخل وتخرج من الصحافيين والمذيعين والمحللين، بغية التقاط خبر قبل غيرهم. شيء موجع. كلٌ يدلوا بدلوه. الكل ينظّر. الكل عنده خلاصة الخلاصة. تسكت التكبيرات ويستمر الأنين.

قال جدي وهو يلقي برأسه التعب على كتف صديق عمره. منذ الصغر يا إبراهيم وأنت عالم بهذه الأمور قل لي الآن لماذا ما زلنا عالماً متخلفاً وكل هؤلاء العباقرة الأفذاذ عندنا؟

– اتفقنا منذ نكبتنا الأولى أن مصائبنا سببها ديننا وحضارتنا.

رأيت جدي فجأة يترك صديقه يتكلم ويقفز من مكانه وجدتي تلحق به باندفاع إلى المسرح حيث كنت أقف مع محقق يسأل من هو يحيى. قلت أنا يحيى. قال أنت مطلوب للتحقيق. عليك الذهاب معي. قال جدي غيروا سياستكم هذه لم تجدي زمان فكيف بهذه الأيام السوداء. تمسكون بالمتضرر وتتركون المعتدي طليقاً.

تحرك شخص وراء جدي ورفع سكينه فارتمت جدتي فوقي تحميني وجدي يحيطها جاءت الطعنة الغادرة القاسية على ظهر جدتي ونفذت من صدرها إلى ظهري. ذهل المحقق.

كيف أحس الشيخ بالخطر. سمعت جدي يقول كنت أرقبه. حين قفز إلى المسرح أدركت أنه ينوي الأذى يحيى. وأخذ يمسح دم جدتي المراق فوقي. بكى من حشاشة روحه صارخاً بهستيريا. أمي. يا عالم، قتلوا أمي مرة أخرى. نزع اللثام بعنف أرني وجهك أيها المجرم بدا وجه أجرد، الخوف يملأ عينيه الزرقاوين. لطمه وأوقعه أرضاً وهو يصيح. ليأتي أي شاب ويقتله. هيا اقتلوه فورا اقتلوه يا شباب.

هجم جمع من الشباب رافعين مديات تركها المثلمون فقلت:

– لنقتله بيد واحدة.

صرخ المحقق لا تفعلوا هذا واجبنا حال بيننا وبينه وقبض عليه. نقلنا إلى المستشفى. جدي محتضناً جدتي. ويده الأخرى تضمد جرحي. وأنا مع نشيجي وبكائي أحاول إقناعه. بأن جرحي سطحي، وجدتي فارقت الحياة. يصيح سنصل إلى المستشفى سريعاً وستنقذ.

قبل بزوغ فجر اليوم الثاني كنا جميعا وقوفا في بهو مستشفى الدكتور أسامة. جدي يترك غرفة الإنعاش ويخرج سائلاً عنها يطمئنه الدكتور أسامة ويعيده إلى السرير. يردد جرحها غائر. طعنها قاتل محترف. صحيح. لكن سيشفى أنا متأكد أنها ستشفى كم جراح أكبر منه حطمت قلوبنا ونجانا الله منها.

بقينا ننتظر بقلق. انزوى جدي بغرفته وهمد تماماً لحق به صديقة وابنه الدكتور أسامة. كان يلتقط أنفاسه بصعوبة. أجبره الدكتور أسامة على الرقود ووضع له كمامة الأكسجين.

كان جدي بجانب زوجته وغابا عن دنيانا.

عدنا إلى البيت. عمتي رجاء فزعة من فكرة فقدهما. شيماء تبكي بحرقة السنين، بوجع قديم جديد. وأنا الحائر الخائف أرتجف وشيء

بداخلي يتساءل: كيف سأنقذ عائلتي إذا فقدنا قطبيها.

استقبلنا الدكتور أسامة ووالده في مشفاه. والحزن يملأ وجهيهما. رد تحية الصباح وقادنا إلى عيادته طلب لنا قهوة. بهدوء يسترق النظر لوجوهنا القلقة التي لم تنم. فتح لنا الغرفة التي يرقد بها جدي. مستغرقا بنوم عميق. ووجهه مسترخ وكفاه متشابكتان قال الطبيب:

– العم يحيى صحا عدة مرات ينادي عليك يا يحيى ثم نام.

– سيعود لنا معافى.

– العلم عند الله يا يحيى. الفزع الذي أصابه وفقدانه لزوجته أمام عينيه والذكرى الموجعة التي مرت بخياله لن تمر بسلام. استيقظ مرة واحدة طلب رؤيتك وسأل عن السيدة وجدان حاولت طمأنته نام.

– ماذا تقصد. هل هي غيبوبة؟

– قمنا بما توجب علينا القيام به. أخبر الأسرة بنفسك بالوقت الذي تراه مناسبا. أقول لك هذا لأني أعرف قدراتك ومكانتك عندهم.

عدت للجميع كانت عمتي رجاء تطرد أحمد والد سوسن بعد أن أخبرها الدكتور مؤنس أن سبب تعلق سوسن به، هو حرمانها في طفولتها من أبيها. سوسن بغضب نفت تحليلها. تؤكد لمؤنس هكذا صارت تناديه– أنه هو الشخص المناسب لها. هي تحبه. وستنتظره حتى يقتنع بحبها. نظراته نحوها تؤكد أنه استجاب لغرام سوسن. فكان أول من أخبرته عن مفارقة جدتي للحياة وانتظار أخبار جدي التي تبدو أنها محزنة أيضاً.

ذهب جدي من حياتي لحق بحبيبته. لكنه لم يغب عن خيالي، أراه حولي. أسمع كلامه وجداله وأوامره. أتخيله على مقعده الفارغ في سهرات العائلة. ولمة العشاء المقدسة. وساعات نومه المنتظمة.

ما أدهشني هو عزوف الجميع عن الميراث. عمتي شيماء رفضت قائلة لم يمر بخيالي ثروة أبي ولا انتظرتها يوماً. ماذا سأفعل بميراثي بعد أبي. كنت وما زلت أريده هو ولا شيء آخر. هذا لك يا يحيى فأنت

من أسعده في أيامه الأخيرة. وأنت بقيت بجانبه معه منذ تعرفت عليه. كنت آمل أن أتمتع بحضنه وبيبته وعواطفه. كنت أهفو أن أناديه بابا بحنو ابنه لا بغضب المشردة.

عمتي رجاء قالت: لا أريد شيئاً بعده. سأعيش مع يحيى الصغير حيث يعيش. وسوسن قالت لا تريد لشيء أن يباع ويتحول إلى مال يوزع على أحد. سيبقى بيت جدي بيتنا جميعاً. نعود إليه كلما تعبنا من الحياة. العم عدنان قال إذا أردتم إعطائي شيئاً فبها ونعمت وإن رفضتم فسأقبل لأنه كان دائماً سنداً ومعيناً في كل أمر تعسر عليّ.

قال مؤنس أريد شيئاً واحداً منك يا يحيى. أن تحقق حلمه. تكتب سيرة العائلة. أو كما كان يقول اكتب يا يحيى ولا تنسَ شيئاً. لا تنس مقولته وما تنبأ به من هبوب عاصفة هوجاء تدمر كل شيء.

جل وقتي أقضيه في غرفة جدي وعلى مكتبه. أكتب رواية عن هذا البيت لا أعرف إن كان سيرة رجل أم تاريخ عائلة أو ربما كانت مذكرات. سأظل أتذكر وجهه الضاحك وهو يقول لي لا تنسَ مقولة يوسف: ستهب العاصفة، لن تبقي ولن تذر.

هي تواريخ ظننا أننا صنعناها. وإذ بها لعبت بنا بأيد أقدارنا وبمقدراتنا. سألت في بداية الكتابة عن أحداث المسرح. حيث خرجت منه بعد استجوابات طويلة ومتعبة. أسمع كلمات جدي. صاحب الحق هو الجاني. هل يصح البدء بكلمة مفاجأة لكل ما حصل. ألم نكن نعلم؟ ألم نعش الأسى كله؟

قال الشيخ إبراهيم– ديننا وجعهم. لأنه يبني الإنسان يبني العمران يعرف ما لا يعرف. هم دون غيرهم اكتشفوا كم يتطابق الدين مع العلم. عرفوا قيمته وفهموا معناه. أقول هذا بعد أن كبرت ووعيت طبائع الكبار والأشرار. حضارتنا وانتشارها جزء من وجعهم. إنسان بشري مثلنا اختاره الله فقيرا أميّا ليكون رسولا لله في الأرض. عانى ما عاناه. من لا يدهش من انتشار ملته في كل بقاع الأرض. بكلمة واحدة لا إله إلا الله.

قال مؤنس: أؤيد كلام العم إبراهيم لكنني أقوله بطريقة أخرى لعلها

امتداد للحروب الصليبية.

قالت شيماء: منذ انهيار البرجين في أيلول ترك هذا الحقد ضدنا.

قالت سوسن: هل ننسى الحربين العالميتين؟

قالت رجاء:

– ربما هي طبيعة الوجود. فالدنيا ابتلاء ونحن دائما في اختبار.

لعل قصتي شارفت على الانتهاء. قد أقول تمت. لكن الصاعقة التي هبت. دمرت وقتلت وذبحت. هدمت باسم الله بيوت الله. لم تنته قصتهم بعد. لا أعرف لها نهاية محددة، ولا نتيجة، ولا مدى استفحالها. ربما ليوم الدين. وحوش انطلقوا من معاقلهم. فعاثوا في الأرض فسادا. من يستطيع إيقافهم. لا أحد. ولا أولئك الذين أخرجوهم من عباءاتهم أطلقوهم وزودوهم بالمال والسلاح والتأييد.

لم يلتفت أحد لما كنت أقرأ ما كتبت. كانوا متراصين مثل قوالب اسمنت. عيونهم جاحظة أمام التلفزيون. يلتقطون نتفاً من قناة لأخرى. انكشفت الأقنعة وبانت الوجوه على حقيقتها. وسقطت أوراق التوت وبانت العورات. كل وسائل الإعلام بلا استثناء تقوم بدوام كامل مدفوع الأجر. أبواق تتقيأ كلاماً كالرصاص. تنقل بتفصيل ممل عن تحركات العصابات المأجورة وهي تسحق مقدساتنا أمام أعيننا. وتهدم تاريخنا الطويل المجيد.

لا أحد تفاجأ. الكل يعرف. الكل كان ينتظر العاصفة. شيء مثل هذا سمعته من دنيا، شيء مثل هذا قرأته في مذكرات جدي. شيء مثل هذا قرأته في رسالة أبي وأمي. سألت:

– هل عشنا في يوم من الأيام حياة أفضل مما هي عليه اليوم؟

لم يرد أحد على سؤالي أيضاً فأجبت نفسي بنفسي:

هذا حصاد ما زرع بنفوسنا بهوادة مذهلة. لم نرفض، لم نقاوم. لم نفكر. نتشرب كل ما يرد إلينا بإيمان لأنه فقط من هناك من العالم المعجزة. المذهولة به شعوبنا، وخاصة الشباب. نجحوا باجتياحنا

بإرادتنا. نتلهف على صحفهم، كتبهم، محاضراتهم. أفلامهم. آرائهم لباسهم شعورهم غلهم وحقدهم. تهنا في حضاراتهم المستجدة. في دنياهم الهجينة. نحن في أوطاننا مسوخ لهم. لم نعد نتكلم العربية كأنها عار. أغرقت أجيالنا بلغات أجنبية كأنها وسام استحقاق. ملاحق في بيته، ومربيته، ومدرّسته. دراسته، قراءاته، كتبه، قصصه، ورواياته. أفكاره خيالاته وحقائق يعيشها. نحن منتشون فرحون.

صوت قال بتهكم:

– إذاً لا جديد. فلم العتب واللوم؟

– الجديد يا سادة أن الأشياء صارت تسمى بأسمائها. وتمرر لنا عبر كل وسائل إعلامنا نحن. لا يجرؤ أحد على الإشارة لمصيبتنا. أبي كتب مدونات وأشعاراً وغناء قبل ربع قرن أشار لهذا الضياع. بعالم جديد، بدستوره الجديد. بوصايا حكماء شياطين يعملون بلا كلل من تحت الأرض ومن فوقها. قدامى وجدد. إنس وجن. يسيس العالم القادم بأهوائه ونهجه ببراعة وقسوة، وتلاعب.

صوت احتج:

– لا تظلم جيلنا يا يحيى قدمنا احتجاجات منطقية لمنظمات دولية.

– ماذا كان بها؟ نشجب ونستنكر، ثم تلوذون بأوكار بدت دافئة متعاطفة فإذا بها أفواه دراكولا مزقتكم أيما تمزق. ولاة أموركم يبصمون بجهالة وخبل. ويشاركون بوليمة تكسير عظامنا وأكل لحومنا نيئة.

الشمال القى بثقله على الجنوب الثمل بوعود زائفة كان يعرف أكثر من غيره أنها لا تعني شيئاً. يتنصلون كما سيفعل الشيطان في الموقف العظيم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾. تفرجوا على خساراتكم المتتابعة. تدميرُ مدن وتاريخ وحضارة ووجود.

صمت مخيف ودموع تسيل على الخدود لا أحد يخجل منها وقلمي توقف صريره.

كل الفضائيات والإذاعات تتابع طنينها المرعب، طحن ولا طحين منذ مئات السنين. مذيعون ومذيعات بكامل أناقتهم. بأوسع ابتسامات تشق فضاءنا المعذب. تشاركنا بدقة مشاهد شوارع غرقى بالدماء. فضائية بعد أخرى. مذيعة طبعة طبق الأصل تتلوى بدلال. لا جديد سيناريو واحد لكل عالمنا. لا نستحق حتى التفكير بوضع لكل منطقة سيناريو خاص. يصفوننا بالرعاع، فاقدي الأهلية، ولا مكان لنا في مجتمع عالمهم المتحضر. كالعادة لم نسمع أي احتجاج ولا حتى من جمعيات حقوق الإنسان.

الصيد على أشده والقنص جار بأيد متدربة. والخير كثير ووفير. ناس بسطاء ليسوا مع أو ضد. من الشوارع، من أعمالهم وغرف نومهم. ألقوهم كالنفايات في زنازين متحركة وانطلقت لتعود.

العم إبراهيم ما زال معنا فخسارته أكبر من خسارتنا كما يقول. كلما تذكر صديقه ينتفض ألماً وحزناً. كلما تذكر بداية مشوارهما وكم كان جدي صغيراً وبريئاً يبكي من جديد. زفر حزيناً:

– عندما كان صديقي يسألني ادّعي المعرفة لكن الحقيقة لم أرد أن أخذله. ثبت الآن أن ما كنت أقوله كان فيه الكثير من الحقيقة. هناك سبب وجيه. تقبلنا الصفعة الأولى دون رد. ترسّم حدودنا قراصنة الحروب. نتقبل. قطعوا أوصال عالمنا بعضه عن بعض. تقبلنا. نكرر ما نقول ونفعل. ليس تخاذلاً بقدر كونه التزاماً. فديننا دين الحب والتسامح والعطاء. نتذكر فقط أن إسلام تعني سلاماً. متناسين العين بالعين، والسن بالسن، والجروح قصاص. رأس حربتنا صدئ.. دائماً هو صدئ. محض صدف يا ربي أم هو بفعل فاعل؟ اسأل يا يحيى لا تخف. أيقظ أهل الكهف.

نتابع الفضائيات واحدة إثر أخرى. تمر واحدة بشكل عابر نجدها بواد سحيق بعيداً عنا وعما يجري. هرج، ومرج، ورقص، وغناء، تسليةٍ ومسابقات، وجوائز مالية خياليّة، تحثّ الناس، حتى وإن كانت رقابهم تحت مقّصلة، للهاث وراء رزق وفير يسير. اختيار الجواب من

أحد الخيارات السخيفة لسؤال أشد سخفاً من جوابه.

– أسقط بأيدينا. شل تفكيرنا. أحبطت امنياتنا. أتمنىٍ أن أعرف هل خطر ببال هؤلاء الملثمين المجاهدين إن كان جهادهم مستمراً حتى تحرير الأقصى. أليس أولى من الخوض في الأعراض وإقامة الحدّ. لن يجدي المزيد من الهروب.

فاصل ونواصل. إذ الفاصل نفسه سبي وقتل وتشريد. يرد الرئيس السوبر الأول والأخير زمانه. نعم وبكل فخر نبعث شبابنا لإنقاذ شعوب دول متخلفة، من حكام طغاة. يسرقون مقدرات شعوبهم دون حق. بمباركة الرب نقاتل لنعيد لهم الحرية والمساواة والعدالة، وحياة ديمقراطية. يموت منا ومنهم لكنه ثمن زهيد لتنعم بلادهم بالأمان.

نعم يا سيد العالم. نعم يا سيد الكون. أوافق. أجب أسئلتي.

كيف سيتم إنقاذنا بتدميرنا؟

كيف ستتحقق عدالة وحرية وأنتم وصنائعكم ديدبان لا ينام.

كيف نعيش ونفوسنا بائسة يائسة كالأمس والذي قبله وبعده؟

أكد أو انفِ مقولة لجدي. الذئب والحمل شعار دنياكم.

الفضيلة والقتل في شريعة البشر لا يلتقيان. فكيف تجمعون بينهما؟

مشوق للحقيقة. أريد حقي. أريد معرفة القتلة. من يفتح لهم بابنا المغلق بشدة؟

من يرشدهم إلى طريقنا السري المخبأ في حدقات العيون؟

أجب يا سيد العالم لا تترك أسئلتنا تكبر. لا تتركوها معلّقة على مشانقها دون جواب. تركت القلم وأغمضت عيني للراحة من التحديق في شاشات العالم. سمعتها تبث نشيد العالم الجديد.

أراهم وجوهم مفزعة، وعيونهم وقحة. وابتساماتهم صفراء. رجال دين، قساوسة ورهبان، وشيوخ مساجد، وأصحاب فتاوى رجال الأمن. علت أجراس الكنائس، أذّن مؤذن بخفوت. موسيقى قاتمة. الرئيس

محاط برجال شرطة وخيول تتراقص، سيارات عسكرية، ودرّجات نارية. ترجل الرجل الخارق حاكم عالم بأسره. حيا بغطرسة لوح بيد مرتعشة. هوى جالساً مغمض العينين، وابتسامة عتيقة على الوجه الكهل. تحقق حلم إمبراطورية الشمال.

تقدم من الرئيس شاب وفتاة. بملابس رثة وعيون دامعة. غرست البنت خنجرها بقلبه. والشاب غرس خنجره بعنقه.

مات الرئيس. فرحت أول مرة نبادر برد فعل عاجل على جرائمهم الكثيرة. خسارة كان حلما عربيا. هل نملك غيره؟

المؤلّفة–

فتحية محمد القلّا

من مواليد صفد– فلسطين المحتلة. أحمل جنسية المملكة الأردنية الهاشمية.

اسم الأب محمد

اسم الأم هدى

تزوجت بعد انتهاء دراستها الإعدادية.

زوجها يعقوب بلبل.

أكملت دراستها بعد إنجابها للأولاد.

حصلت على شهادة الثانوية العامة "نظام ثلاث سنوات منازل" من الدوحة قطر. سنة 1969.

حصلت على بكالوريوس آداب اللغة العربية من جامعة بيروت العربية سنة 1973.

هوايتها القراءة والكتابة والرياضة.

صدر لها–

رواية "كان يشبهني" عن دار الدراسات العربية– عمّان سنة 1997.

"الانتظار" مجموعة قصصية عن دار نشر الدوحة الحديثة- الدوحة.

"للحب وجد آخر" مجموعة قصصية دار نشر الحديثة - الدوحة.

"أشياء لا تشترى" رواية عن دار كنعان للنشر- دمشق 2003.

نبذة عن رواية وجدان:

يوسف طفل شهد نكبة فلسطين. شهد بعينيه موت أمه وأخوته وأبيه. وعانى من خسارة العائلة والبيت والأرض وكل ما يملك. اضطر وهو ابن العشرة أعوام الوحيد تحمل مسؤولياته، تخطى وجعه وصبره وتدميره النفسي. أصرّ على النهوض من مصيبته الكبرى ومن الجريمة التي ارتكبت بحق بلاده. أصبح رجلاً مرموقاً. لكن..

تعرف على يهودي عاشق لحلم أرض الميعاد. يعيش بانتظار بزوغه. والشاب البطل عربي، كاره لعالمه العربي ولكل ما عربي. تمنى فناءه ودفنه تحت رمال صحاريه المتحركة.

- من قائل هذا الكلام؟ أهو أنت؟

- ربما تكون معرفتك لقائل هذا الكلام مهمةً لكن الأهم أن تسمع ما يتم في الخفاء. هل أكمل؟

هزّ رأسه بالموافقة.